الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.mlazna.com
^RAYAHEEN^
س. ج. واتسون
SJ WATSON
قبل أن
أخلُد إلى النوم
BEFORE I GO TO SLEEP
ترجمت هذه الرواية إلى 37 لغة في مختلف أنحاء العالم

«تبدو غرفة النوم غريبة وموحشة. لا أدري أين أنا، أو كيف وصلت إلى هنا، ولا أدري كيف سأعود إلى البيت».

إنها قصة الكاتبة كريستين التي تبلغ السابعة والأربعين من عمرها، والتي فقدت إثر حادث مأساوي قدرتها على الحفاظ على ذكرياتها الحديثة لأكثر من يوم واحد، مما يضعها في حلقة مفرغة حيث يخيل إليها عند الصباح أنها عزباء والحياة أمامها لتختار طريقها، لتكتشف بعد وقت قصير أنها تعيش مع زوجها بن، حيث تم اتخاذ معظم قراراتها المستقبلية سلفاً.

تتقصى الرواية محاولات كريستين اكتشاف حقيقة عالمها، فتجد أنها تخضع لعلاج طبي لاستعادة ذاكرتها، وأنها – وبناء على تعليمات طبيبها – شرعت تسجّل ذكرياتها وخواطرها لجمع أجزاء من الصورة التي تكوّن ماضيها متمنية الشفاء. ولكنّ القصة التي تتكشّف عن ماضيها تضعها في جلجلة مروعة من اكتشاف الذات تصدمها وكل من يحبها، مما يدفعها للتساؤل إن كان أجدى بالحقيقة أن تبقى طي الكتمان.

ISBN 978-614-01-0372-6
9 786140 103726

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف

www.mlazna.com-RAYAHEEN

اليوم

أفتح عينيّ وأرى من حولي غرفة نوم عناصرها غريبة لا آلفها؛ فلا أعرف أين أنا ولا كيف وصلت إلى هذه الغرفة. ولا أجد وسيلة أستعين بها للعودة إلى بيتي الذي ألفته واعتدت عليه.

لا بد من أنني أمضيت ليلتي هنا. استيقظت منذ قليل على صوت امرأة ما؛ في بادئ الأمر، ظننتها مستلقية إلى جانبي في السرير، ولكنني أدركت عندها أن ذلك ليس إلا صوت المنبه. وعندما فتحت عيني، وجدت نفسي هنا في هذه الغرفة المبهمة التي لا أميزها ولا أتبيّن أثاثها أو جدرانها.

تبدأ عيناي تتأقلمان مع الظلام الذي يسود أرجاء المكان، فأتأمل الأشياء القريبة من حولي، وأرى رداءً معلقاً على باب الخزانة، ولكنه يبدو في نظري ملائماً لامرأة تكبرني سناً بسنوات عدة، وأرى كذلك سروالاً كحلياً مطوياً بأناقة على ظهر كرسي طاولة الزينة، ولكنني لا أستطيع أن أميز غير ذلك. تبدو ساعة المنبه معقدة، ولكنني أحاول العثور على الزر الذي من المرجح أن يسكتها، وأكبسه، فيحل الهدوء مجدداً.

عندئذ فقط أسمع صوت صفير أنفاس خلفي وأدرك أنني لست وحيدة. فألتفت وأرى أمامي امتداداً من الجلد البشري والشعر الأسود الممتزج بالشيب. إنه رجل. تبدو يده اليسرى بارزة من تحت ملاءة السرير، وهناك خاتم زواج يلمع في بنصر يده، فأكتم تنهيدة أسى وأحدّث نفسي: *إنه ليس رجلاً عجوزاً وأشيب وحسب وإنما متزوج أيضاً*. وهكذا، فأنا لست على علاقة برجل متزوج فقط، ولكنني أقابله في البيت الذي أظن أنه بيته الذي يتشاطره مع زوجته. أسند ظهري على السرير لأستجمع رباطة جأشي، وأسمع صوتاً من أعماقي يوبخني قائلاً: *ينبغي أن تشعري بالخزي لتصرفك هذا*.

أتساءل عن مكان وجود زوجة هذا الرجل: *ترى، أيجب عليّ أن أقلق من وصولها إلى البيت في أي لحظة؟* أتخيلها الآن واقفة في الجانب الآخر من الغرفة وهي

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تصيح في وجهي وتنعتني بالمرأة السافلة والمنحطة والمخادعة. وأتساءل عن الأعذار التي سأتفوه بها لأدافع عن نفسي إن ظهرت الزوجة فعلاً، أو إذا كنت حتى سأجد أي عذر يبرر فعلتي الشنيعة. ومع ذلك، فلا يبدو الرجل النائم إلى جواري مكترثاً بأيٍّ من هذه المخاوف لأنه لا يزال يتقلب في فراشه ويواصل شخيره.

ألتزم السكينة والهدوء لئلا أوقظ الرجل النائم. إنني أتذكر عادة كيف أقحم نفسي في مواقف على هذه الشاكلة، ولكن، هذا لا ينطبق على موقف الليلة الماضية. وهكذا، فلا بد من أنني ذهبت لحضور حفلة أو سهرة في نادٍ ليلي، فبلغ مني الإنهاك مبلغاً شديداً لدرجة أنني لا أتذكر الآن أي شيء على الإطلاق أو حتى أي فكرة حمقاء دفعتني لمرافقة هذا الرجل الأشيب المتزوج إلى بيته.

أزيح الغطاء برفق شديد وأجلس على طرف السرير. في البداية، أشعر برغبة في استخدام المرحاض، فأتجاهل الخف الموجود بجانب قدمي لأنني لا أستطيع - مهما وصل بي انعدام الضمير - أن أنتعل خف المرأة التي سلبتها زوجها، وأتسلل حافية القدمين إلى الممر؛ وأخشى فجأة أن أختار الباب الخطأ فأصادف أحد سكان البيت أو ابناً مراهقاً مثلاً، ولكنني أجد باب الحمام مفتوحاً. فأتنفس الصعداء ثم أدخل وأغلق الباب خلفي.

بعد أن أنتهي من استخدام المرحاض، أقترب من المغسلة لأغسل يدي، فأمد يدي لأتناول الصابونة، ولكن شعوراً غريباً يراودني بأن هناك خطأً ما. ولا يسعني للوهلة الأولى أن أكتشف سببه، ولكنني بعد ذلك ألاحظ الخطأ جيداً. فاليد التي تمسك بالصابونة لا تشبه يدي، إذ إن جلدها مجعد وأصابعها بدينة وأظفارها مقلمة بشكل قصير وغير مطلية. وكما هي حال يد الرجل النائم في السرير، فإنني أرى فيها خاتم زواج ذهبياً.

أحدق إليها قليلاً غير مصدقة ثم أحرك أصابعي، فتتحرك أصابع اليد التي تمسك بالصابونة أيضاً. أكاد أشهق من فرط الدهشة، فترتطم يدي بالمغسلة، ثمّ أرفع رأسي لأنظر إلى صورتي في المرآة.

ولكنّ الوجه الذي أراه يطل عليّ من المرآة ليس وجهي؛ فالشعر الذي أراه خفيفٌ ومقصوصٌ أقصر من قصة شعري المعتادة، كما يبدو جلد الخدين وتحت الذقن متهدلاً، وتبدو الشفتان رقيقتين والفم منحنياً إلى الأسفل. أفغر فمي لفرط

عجبي، ولكنني أكتم الصيحة التي تكاد أن تتسلل من بين شفتي. أتأمل العينين، فأراهما محاطتين بالتجاعيد، ولكنني بالرغم من كل هذا الاختلاف أدرك تمام الإدراك أنهما عيناي. إن المرأة التي تطالعني صورتها في المرآة هي أنا من دون شك، ولكنها تبدو أكبر من عمري الحقيقي بعشرين أو خمسة وعشرين عاماً وربما أكثر من ذلك.

إن هذا لا يعقل أبداً. أشعر برعشة تمزقني من الداخل، فأتشبث بحافة المغسلة لأحافظ على توازني، وتبدأ غصة أخرى تضيق خناقها على صدري وتتصاعد نحو حنجرتي إلى أن تنطلق من بين شفتي صيحة مكبوتة. أتراجع إلى الوراء مبتعدة عن المرآة. وفي هذه اللحظة، أرى شيئاً لم أره من قبل. إذ إن هناك صوراً معلقة على الجدار أمامي وملصقة على المرآة نفسها، وبجانبها قصاصات من الورق المصمغ الأصفر الرطب المثني مكتوب عليها ملاحظات.

أختار واحدة كيفما اتفق، وأقرأ ما كُتِب عليها: **كريستين**؛ وهناك سهم يشير إلى صورتي الجديدة، بعد أن أصبحت بهذه الهيئة المسنّة. فأظهر فيها جالسة على الشاطئ وبجانبي رجل. ونبدو مبتسمين ونحن ممسكان بيدي بعضنا، وقد بدا الرجل وسيماً وجذاباً. وعندما أنظر عن كثب، ألاحظ أنه الرجل نفسه الذي وجدت نفسي نائمة بجواره ثم تركته على السرير. أقرأ كلمة **بن** مكتوبة تحتها وبجانبها كلمة *زوجك*.

أفغر فمي من الصدمة العارمة، ثمّ أنـزع الصورة عن الجدار وأنا أردد بيني وبين نفسي: *كلا، هذا غير معقول*... ثمّ أتفحص بقية الصور، وأكتشف أنها كلها تظهرنا نحن الاثنين. ففي إحداها، أظهر مرتدية ثوباً قبيحاً وأنا أفتح هدية ما، بينما نظهر نحن الاثنان في صورة أخرى مرتدين معطفين مطريين متطابقين واقفين أمام شلال وهناك كلب صغير يشتمّ الأرض بجانب أقدامنا. بجانب هذه الصورة، أجد صورة أخرى لي جالسة بجانبه أرتشف كأساً من عصير البرتقال وأرتدي ثوباً منـزلياً كذلك الثوب الذي رأيته معلقاً بجانب باب الحمام.

أتراجع خطوة أخرى إلى الخلف حتى شعرت بظهري يلامس الجدار البارد. وعندئذ فقط ينتابني وميض يقارب الذكرى، ولكنه غامض ومبهم وغير ملموس. وأشعر أن عقلي يحاول أن يبني تفكيره عليه، ولكنه لا يلبث أن يتلاشى كالرماد في

مهب الريح، فأدرك أن حياتي متشكّلة من ذكريات ذلك الماضي الـــذي وقعـــت أحداثه قبل وقت طويل من دون أن أعرف شيئاً عمّا حدث بعده، وعــن الــزمن الحاضر، وأن لا شيء يقع بين ذلك الماضي وهذا الحاضر سوى خواء صامت مبهم طويل يقودني إلى هذه اللحظة وإلى ذاتي الجديدة وإلى ذلك الرجل وهذا المنــزل.

* * *

أعود أدراجي إلى غرفة النوم والصورة لا تزال في يدي، تلك الصـــورة الـــتي أظهر فيها مع الرجل الذي استيقظت ووجدت نفسي إلى جواره.

فأقول له صارخةً والدموع تسيل على خدي: "ما الذي يجري؟"، فـــيجلس الرجل معتدلاً على السرير وعيناه نصف مغمضتين. فأسأله: "مَن أنت؟".

يقول الرجل: "إنني زوجك". يبدو وجهه موحياً بالنعاس وليس في ملامحه ما يوحي بالانـــزعاج. ويضيف من دون حتى أن يكلف نفسه عناء النظر إليّ: "إننـــا متزوجان منذ سنوات".

أقول له: "ماذا تقصد؟". أشعر برغبة في الهرب، ولكن ليس هنـــاك مكـــان أذهب إليه؛ فأكرر ما قاله برعب: "متزوجان منذ سنوات؟ ماذا تقصـــد بقولـــك هذا؟".

يقف على قدميه ويقول: "خذي". ويناولني الرداء ثم ينتظرني إلى أن أرتديــه. ألاحظ أنه يرتدي سروال بيجامة يبدو فضفاضاً وقميصاً قطنياً أبـــيض، فيـــذكرني مظهره وملبسه بوالدي.

يقول: "لقد تزوجنا عام 1985، أي قبل اثنين وعشرين عاماً. وأنت...".

أقاطعه قائلة: "ماذا...؟ ولكن... كيف؟". وأشعر بوجهي يشحب، وتبـــدأ الغرفة بالدوران من حولي. إنني أسمع صوت تكتكة الساعة في مكان ما بالمنـــزل، ولكنني أشعر بصوتها يصم أذنيّ كصوت المطرقة، فيتقدّم الرجل خطوة نحـــوي، ويقول لي بلطف: "إنك في السابعة والأربعين من عمرك الآن يـــا كريســـتين".

فأنظر إلى هذا الرجل الغريب الذي يبتسم لي بحزن، ولكنني لا أصدق كلامه ولا أريد أن أسمع ما يقوله. ومع ذلك، فهو يواصل كلامه قـــائلاً: "لقـــد تعرضـــت لحادث سيارة خطير نجمت عنه إصابة في رأسك، فأصبحت تعانين مشكلة بتذكر الأشياء".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فأقول: "أي أشياء؟"، ولكن كلامي يعني ضمنياً أنه من غير المعقول أن أنسى خمساً وعشرين سنة مضت من عمري.

يتقدم نحوي ويقترب مني وكأنني حيوان خائف ويقول: "كل شـيء. إنـك أحياناً لا تتذكرين أشياء تعود إلى بداية العقد الثاني من عمرك أو حتى قبل ذلك".

أشعر برأسي يدور ويعج بكمٍّ هائل من التواريخ والذكريات المتضاربة. إنـي لا أرغب في طرح الأسئلة، ولكنني أدرك أنني مضطرة إلى ذلك، فأقول: "متى وقع الحادث؟".

ينظر إليَّ بعينين يملأهما مزيج من الشفقة والخوف ويقول: "عندما كنـت في التاسعة والعشرين من عمرك...".

أغمض عينيَّ باستسلام. وبالرغم من محاولاتي اليائسة لنبذ هـذه المعلومـات ورفضها، إلا أنني أدرك لاشعورياً أن ما يقوله صحيح، فأجهش بالبكـاء مجـدداً. وبينما أنا أفعل ذلك، يقترب هذا الرجل المدعو بن مني حيث أقف عند المـدخل، وأشعر بوجوده بجانبـي، لكنني لم أتحرك عندما أحاط خصري بذراعيه و لم أقاومه عندما جذبني إليه وضمني إلى صدره وهدهدني بحنان. وبينما نحن نفعـل ذلـك، أدركت أن هذه الحركة ليست غريبة عني وأنها تضفي إليَّ شعوراً بالأمان.

يخيم الصمت علينا لبضع دقائق ثم يبادر بن بالكلام، فيقـول: "أحبـك يـا كريستين". وبالرغم من أنني أدرك أنه عليَّ أن أقول له إنني أبادله الحب، فـإنني لا أفعل ذلك بل ألتزم الصمت. كيف يسعني أن أحبه؟ إنه مجرد رجل غريب. لا يبدو أي شيء منطقياً في نظري؛ فهناك أشياء كثيرة يجب أن أعرفها: أريد أن أعـرف كيف وصلت إلى هنا، وكيف أتدبر أمر معيشتي في هذا المكان، ولكنني لا أعـرف كيف أسأل أو من أين أبدأ.

أقول بعد بضع دقائق: "إنني خائفة".

فيجيبني قائلاً: "أعرف ذلك، ولكن، لا تقلقي يا كريس. فأنا سأعتني بـك دائماً وأبداً. ستكونين على ما يرام، ثقي بـي".

* * *

يعدني بن بأن يصطحبني لأتجوّل في أنحاء المنـزل، فيضفي عليَّ هذا مزيداً من الطمأنينة والهدوء. وبعد أن أرتدي سروالاً وقميصاً قطنياً يعطيني إياهما وأرتـدي

الرداء فوقهما، نتمشى معاً في الممر. يقول بن: "لقد سبق ورأيت الحمام". يفتح الباب المجاور ويقول: "هذه غرفة المكتب".

أنظر إلى محتويات الغرفة وأرى طاولة مكتب زجاجية وعليها جهاز أحسبه جهاز كمبيوتر بالرغم من أنه يبدو صغيراً جداً وأشبه بلعبة أطفال، وأرى بجانبه خزانة ملفات لونها رمادي معدني وعليها مخطط حائطي. كل شيء يبدو مرتباً ومنظماً. يقول وهو يغلق الباب بلطف: "إنني أعمل هنا بين الحين والآخر". نعبر الممر، ويفتح بن باباً آخر، فأرى في هذه الغرفة سريراً وطاولة زينة والمزيد من الخزائن. وتبدو الغرفة مطابقة تقريباً لتلك التي استيقظت فيها صباح اليوم. يقول: "إنك أحياناً تنامين هنا عندما تشعرين بالرغبة في البقاء وحدك، ولكنك عادة لا تحبين أن تستيقظي وتجدي نفسك وحيدة، إذ إنك تصابين بالذعر عندما تعجزين عن تذكر مكان وجودك". أومئ برأسي وأشعر أنني زبونة تتفحّص شقة جديدة لتستأجرها، وأن بن صاحب البيت وشريكي في السكن. يقول لي بن: "هيا بنا ننزل إلى الطابق السفلي".

أتبعه إلى الأسفل، فيريني غرفة المعيشة التي تحوي أريكةً بنيةً وكراسيَ مناسبة لها وشاشة مسطحة معلقة على الجدار - أخالها التلفزيون - ثم يريني غرفة الطعام والمطبخ. فلا أتعرف أيًّا من هذه الأماكن ولا أشعر بأي شيء يربطني بها على الإطلاق. يقول بن: "هناك حديقة في الجزء الخلفي من المنزل". فأنظر عبر الباب الزجاجي الذي يؤدي إلى خارج المطبخ، وأرى الفجر يبدأ بنشر نوره عبر سماء الليل ويكسبها لوناً أزرق كالحبر، وأستطيع أن أرى ظل شجرة كبيرة وكوخاً في آخر الحديقة الصغيرة، ولكن، لا أرى أي شيء آخر. إنني أدرك الآن أنني لا أعرف حتى في أي جزء من البلاد نحن.

يقف بن خلفي تماماً، فأرى صورتنا منعكسة على الزجاج. *أحقًا هذه أنا وهذا زوجي ونحن كهلان؟! ما زلت عاجزة عن تصديق ما أراه بعيني.*

أسأله: "أين نحن؟".

فيجيبني: "في شمالي لندن. في منطقة كراوتش إند".

أتراجع خطوة إلى الوراء، ويبدأ الذعر يتملكني. فأقول: "إنني لا أعرف حتى أين أعيش...".

يمسك بن بيدي ويقول: "لا تقلقي. ستكونين بخير". ألتفت إليه ليشـرح لي كيف سأكون بخير، ولكنه لا يضيف شيئاً بل يقول: "هـل تـرغبين في تنـاول القهوة؟".

يتنابني الاستياء من برودة، ولكنني أقول أخيراً: "نعم، من فضلك". وبينما يملأ الإبريق، أضيف قائلة: "أريدها سادة، من فضلك، من دون سكر".

فيقول وهو يبتسم لي: "أعرف هذا. أتريدين بعض الخبز المحمص؟".

أومئ برأسي. لا بد من أنه يعرفني أكثر مما أعرف نفسي. ومع ذلك، لا أزال أشعر أنني أمضي صباحي وأتناول فطوري مع رجل غريب في بيته وأنا أفكـر في الوقت الذي سيصبح من المقبول فيه أن أهرب عائدة إلى بيتي.

ولكن هذا هو الفرق؛ إذ يفترض أن هذا البيت هو بيتي.

أقول: "أعتقد أنني بحاجة إلى الجلوس".

ينظر إليّ ويقول: "اذهبـي واجلسي في غرفة الجلوس. سأحضر لك الفطور في غضون دقيقة".

فأومئ برأسي موافقة وأغادر المطبخ.

بعد بضع لحظات، يتبعني بن إلى غرفة الجلوس، ويعطيني دَفتراً ويقول: "هـذا دفتر قصاصات. قد يساعدك قليلاً". فآخذه منه وأجده معقوداً بشريط أحمر ومغلفاً بالبلاستيك المصمم على شكل جلد مهترئ بالرغم من أنه لا يبدو كذلك فعـلاً. يقول لي بن: "سأعود بعد دقيقة واحدة". ويغادر الغرفة.

أجلس على الأريكة، وأشعر بدفتر القصاصات ثقيلاً على حضني، ويشـعرني النظر إليه بأنني أتطفل على خصوصيات الآخرين. فأذكر نفسي بأن كل ما سأجده في هذا الدفتر، الذي أعطاني إياه زوجي، يتعلق بـي وبتاريخ حياتي.

أفك العقدة وأفتح الدفتر على صفحة عشوائية. فأرى صورة تجمعنا سـويّاً، ونبدو فيها أصغر سناً بكثير. فأغلق الدفتر بعنف وأمرر يدي على حاشيته وأعبث بالأوراق. وأفكر في أن هذا ربما ما يجب عليّ تكراره كل يوم.

يعجز تفكيري عن تخيل هذا، وأشعر لبرهة بأنني واثقة من وجود خطأ مريع، ومع ذلك، فاحتمال الخطأ غير وارد أبداً. إذ إن الدليل بين يدي في هذا الـدفتر،

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وفي المرآة في الطابق العلوي وفي تجاعيد اليد التي تداعب الدفتر أمامي. إنني لست المرأة التي حسبتها نفسي عندما استيقظت صباح هذا اليوم.

أتساءل في نفسي عن هويتها وعن ذلك الماضي الذي كنت فيه تلك الشابة التي استيقظت اليوم في سرير غريب فلم يخطر ببالها شيء سوى الهرب. أغمض عيني، وأشعر بأنني أطفو في الفضاء كريشة تائهة في مهب الريح.

يجب أن أثبّت نفسي على أرضٍ صلبة. فأغمض عيني، وأحاول أن أركز على شيء ثابت. فلا أعثر على أي شيء، وأدرك أن الكثير من سنوات حياتي مفقود من دون أن أعرف أين تلاشى.

آخذ نفساً عميقاً ولا أجد أمامي سوى هذا الدفتر ليخبرني من أنا، ولكنني لا أريد أن أفتحه الآن، بل أريد أن أجلس هنا لبعض الوقت بينما يبقى الماضي مجرد صفحة فارغة في غياهب النسيان معلقة بين الإمكانية والحقيقة. إنني أخشى أن أكتشف الماضي وأن أعرف ما أنجزته وما عجزت عن إنجازه.

يعود بن ويضع صينية طعام أمامي عليها بعض الخبز المحمص، وكوبان من القهوة، وإبريق من الحليب. يقول لي: "هل أنت على ما يرام؟"، فأومئ برأسي.

يجلس بجانبي، فألاحظ أنه حلق ذقنه وارتدى سروالاً وقميصاً ووضع ربطة عنق. لم يعد يشبه والدي الآن، فقد أصبح يشبه موظفاً في مصرف أو مكتب. فأفكر بيني وبين نفسي في أن مظهره ليس سيئاً، ثم أصرف تلك الفكرة عن ذهني.

أقول: "هل يحدث هذا كل يوم؟". يضع قطعة من الخبز المحمص على طبق ويدهنها بطبقة من الزبدة ويقول: "إلى حدٍّ كبير. أتريدين شيئاً من الخبز المحمص؟"، فأهز رأسي. يتناول قضمة ثم يقول: "إنك تتمتعين على ما يبدو بالقدرة على الاحتفاظ ببعض المعلومات في أثناء يقظتك، وعندما تنامين، يتلاشى معظمهما. هل تعجبك القهوة؟".

فأومئ برأسي. يأخذ بن الدفتر من بين يدي ويقول وهو يفتحه: "إن هذا أشبه بدفتر قصاصات. لقد تعرضنا لحريق قبل بضع سنوات. ففقدنا الكثير من الصور القديمة، ولكن، لا يزال بعضها موجوداً هنا"، يشير إلى الصفحة الأولى ويقول: "هذه شهادتك الجامعية. وتوجد هنا صورة لك يوم تخرجك". أنظر إلى الصورة التي يشير إليها وأرى نفسي مبتسمة وعيناي نصف مغمضتين من الشمس.

وأبدو في الصورة مرتدية رداء أسود اللون ومعتمرة قبعة من اللباد لها شرابة ذهبية، ويقف بجانبي رجل يرتدي بدلة رسمية ويضع ربطة عنق ويلفّ ذراعه حولي.

أسأله: "أهذا أنت؟".

فيبتسم ويقول: "نعم، ولكنني لم أتخرج في السنة نفسها. فقد كنت لا أزال طالباً في كلية الكيمياء آنذاك".

أنظر إليه. إن الصورة ضبابية بعض الشيء، ولكن لا يزال من السهل تماماً أن أرى كيف غيرته السنوات من الشخص الذي يبدو في الصورة إلى الرجل الذي أراه جالساً بجانبي الآن.

أقول: "متى تزوجنا؟".

ينظر نحوي ويأخذ بيدي بين يديه، فتصيبني الدهشة من خشونة يديه. فلا بد من أنني كنت معتادة على نعومتهما في شبابه. يقول بن: "في السنة التي نلت فيها شهادة الدكتوراه. لقد تواعدنا لعدة سنوات، ولكننا أردنا أن ننتظر حتّى تنتهي من دراستك لئلا تعيق طريقنا".

يبدو كلامه منطقياً تماماً مع أنني أعتبره تصرفاً عقلانياً بما لا يتناسب مع شخصيتي الجامحة. فأتساءل إن كنت آنذاك متحرّقة للزواج به.

يقول وكأنه يقرأ أفكاري: "لقد كنا مغرَمين بعمق ولا نزال كذلك".

لا يخطر ببالي أي كلام منطقي لأرد عليه به، فأبتسم. يتناول رشفة من قهوته قبل أن يعاود النظر إلى الدفتر المفتوح على حضنه، ويقلّب بعض الصفحات.

"لقد عملت في بضع وظائف حالما تخرجت. ولست واثقاً من أنك توصلت فعلاً إلى قرار حيال مهنتك التي ترغبين في مزاولتها. أما أنا، فقد تخرجت بدرجة البكالوريوس وخضعت للتدريب لمهنة التدريس. وشكل ذلك تحدياً لبضع سنوات، ولكنني رُقّيتُ في ما بعد. وبعد ذلك، انتهى بنا المطاف هنا".

أتأمل الغرفة من حولي وأجدها أنيقة ومريحة وموحية بذوق الطبقة الوسطى، وأرى صورة لمنظر طبيعي معلقة فوق الموقد، وتماثيل خزفية صغيرة بجانب الساعة. ورحت أتساءل إن كنت قد ساهمت في انتقاء أثاث المنزل.

يتابع بن كلامه قائلاً: "إنني أدرِّس في مدرسة ثانوية قريبة من هنا. وأصبحت الآن رئيس قسم فيها". ولكن نبرة صوته لا توحي بالشعور بالفخر.

أقول له بالرغم من أنني أعرف الإجابة المحتملة الوحيدة: "وماذا عني؟"، فيضغط بن على يدي بحنان.

"لقد توجب عليك أن تتخلي عن العمل بعد الحادث. إنك لا تعملين شيئاً الآن". ولا بد من أنه يشعر بخيبة الأمل التي تهيمن على ملامحي، فيقول: "لست مضطرة إلى العمل. فأنت لا تزالين تنالين مخصصات من الحكومة حتى الآن. إننا نتدبر أمرنا، ونحن على ما يرام".

أغمض عيني وأضع يدي على جبيني. إن هذا شديد الوطأة عليّ. أتمنى لبرهة لو أنه يقفل فمه. وأشعر بأن القَدر الذي ذكره حتى الآن من المعلومات هو القدر الوحيد الذي أستطيع استيعابه. وإن واصل الكلام وأضاف إليه المزيد، فسأنفجر في نهاية المطاف.

أود أن أسأله عما أفعله طوال النهار، ولكنني أخشى الإجابة، فألتزم الصمت.

ينهي بن تناول وجبته ويعيد الصينية إلى المطبخ. وعندما يعود إليّ، أراه مرتدياً معطفاً.

يقول: "عليّ أن أذهب إلى العمل". فيصيبني بعض التوتر.

يضيف قائلاً: "لا تقلقي، ستكونين على ما يرام. سأتصل بك. أعدك بذلك. لا تنسي أن هذا اليوم ليس مختلفاً عن أي يوم آخر. ستكونين على ما يرام".

أوشك على الاعتراض، فيقول لي: "يجب أن أذهب. سأريك بعض الأشياء التي قد تحتاجين إليها خلال النهار بعد مغادرتي".

يصطحبني إلى المطبخ ويرشدني إلى الأشياء الموجودة في الخزانة، ويشير إلى بعض بقايا الطعام المتروكة في الثلاجة ويقترح عليّ أن أتناولها على الغداء، ثمّ يريني لوحاً أبيض معلقاً على الجدار بجانبه قلم أسود معلق بخيط ويقول: "أحياناً أترك لك رسائل على هذا اللوح". فألاحظ أنه قد كتب عليه كلمة "الجمعة" بخط مرتب وبالأحرف الكبيرة وتحتها الكلمات التالية: "الغسيل؟"، "المشي؟" (حذي الهاتف!)، "التلفزيون؟"، وتحت كلمة "الغداء" أشار إلى أن هناك بقية من وجبة سمك السلمون في الثلاجة وأضاف إليها كلمة "السلطة؟". وأخيراً كتب أنه سيعود إلى البيت بحلول الساعة السادسة. يقول بن: "إنك تحتفظين أيضاً بمفكرة صغيرة في حقيبتك، إنها تحوي أرقام هواتف مهمة وعنوان البيت تحسباً لأن تتوهي. وهناك هاتف خلوي...".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فأسأله: "ما هذا؟".

يجيب قائلاً: "إنه هاتف خلوي. يمكنك أن تستعمليه خارج المنـزل وفي أي مكان آخر. ستجدينه في حقيبتك. احرصي على أن تأخذيه معك عندما تخرجين".

فأقول له: "حسناً".

يقول: "لا بأس". ويأخذ حقيبة جلدية مهلهلة من جانب الباب، ثم يقول: "إذاً، سأغادر".

فأقول: "حسناً". ولكنني لا أعرف ما أقوله غير ذلك. وأشعر أنني طفلة مريضة تركها والداها وحدها في البيت وذهبا إلى العمل. وأتخيله يقول لي: *لا تلمسي شيئاً. لا تنسي أن تأخذي دواءك.*

يقترب مني حيث أقف ويطبع قبلة على خدي. فلا أمنعه ولا أرد له القبلة بمثلها أيضاً. يلتفت نحو الباب ويوشك أن يفتحه ثم يعاود الالتفات نحوي.

ينظر إليّ ويقول: "لقد كدت أن أنسى!". وفجأة يبدو صوته حماسياً ومفتعلاً، فأدرك أنه يحاول جاهداً أن يجعل تصرفه يبدو طبيعياً، ولكن، من الواضح أنه كان يستعد لما هو على وشك أن يقوله الآن منذ بعض الوقت.

وفي نهاية المطاف، يتضح لي أن الأمر ليس سيئاً بقدر ما كنت أخشى، فيقول: "سنخرج مساء اليوم؛ سنمضي العطلة الأسبوعية خارج المنـزل بمناسبة ذكرى زواجنا، لذا، فكرت في أن أحجز مكاناً في أحد المطاعم. هل أنت موافقة؟".

فأومئ برأسي وأقول: "هذا يبدو لطيفاً".

يبتسم لي وأمارات الراحة بادية على وجهه ثم يقول: "إنها مناسبة يحب المرء التطلع إليها، أليس كذلك؟"، يلتفت إلى الباب ويفتحه ثمّ يقول: "سأتصل بك لاحقاً لأطمئن عنك".

فأقول له: "نعم، اتصل، من فضلك".

يقول لي: "أحبك كريستين. لا تنسي هذا أبداً".

يغلق الباب خلفه، فألتفت إلى الوراء وأدخل إلى المنـزل.

* * *

في وقت لاحق من فترة الصباح، أجلس على كرسي مريح بعد أن أنهيت غسل الأطباق وصففتها بأناقة على المصفاة ووضعت الغسيل في الغسالة. لقد شغلت نفسي بالعمل طوال الوقت.

ولكنني الآن أشعر بفراغ رهيب. إن ما قاله بن صحيح؛ فأنا لا أملك أيّ ذاكرة على الإطلاق. وليس هناك شيء واحد أتذكر أنني رأيته من قبل في هذا البيت. ولا أتذكر صورة واحدة من الصور التي رأيتها بجانب المرآة أو في دفتر القصاصات الذي يوثّق بين صفحاته ذكريات كل صورة من صوره. ولا أتذكر لحظة واحدة أمضيتها مع بن غير تلك اللحظة التي رأيته فيها صباح هذا اليوم. إنني أشعر بذهني مقفراً تماماً كالصحراء.

أغمض عينيّ محاولة التركيز على أي شيء أو تذكّر ما حدث البارحة أو في الميلاد الماضي أو أي ميلاد أو زفافي، ولكنني لا أجد شيئاً.

أنهض على قدَميّ وأتجول ببطء في أرجاء المنزل من غرفة إلى أخرى، فأنجرف بهدوء كطيف يهيم على وجهه وأترك يدي تتحسس جدران الغرف والطاولات وأسطح الأثاث، ولكنها لا تلمس في الواقع أياً منها. أفكر في الحالة التي وصلت إليها، ثم أنظر إلى السجاد المزخرف والتماثيل الخزفية فوق الموقد والأطباق المزخرفة المرتبة على رفوف العرض في غرفة الطعام... وأحاول أن أقنع نفسي بأن كل هذا لي أنا؛ إنه بيتي وزوجي وحياتي، ولكنني لا أشعر بأن تلك الأشياء تنتمي إليّ. إنها لا تشكل جزءاً مني. أذهب إلى غرفة النوم وأفتح الخزانة، فأرى صفاً من الملابس لا أميز شيئاً منها معلقاً بأناقة، وقد بدت الملابس لي وكأنها تخص امرأة أخرى لم أقابلها في حياتي. إنها تلك المرأة التي أتجول في أرجاء منزلها وأرتدي رداءها وأنتعل خفها، والتي استخدمت سائل استحمامها وصابونتها. إنها تبدو مخفية عن نظري كالشبح وبعيدة عن متناول يدي بعد النجوم. صباح هذا اليوم، اخترت ملابسي وأنا أشعر بالذنب، وبحثت بين السراويل المكومة مع الجوارب والمشدات وكأنني أخشى أن يضبطني أحد. حبست أنفاسي عندما رأيت الملابس الداخلية الحريرية المزركشة في آخر الدرج ثم أعدت ترتيب كل الأغراض كما وجدتها. اخترت ملابس داخلية أرجوانية اللون ثم ارتديت مشداً سميكاً ثم سروالاً وبلوزة.

بعد أن انتهيت من ارتداء ملابسي، جلست إلى طاولة الزينة لأتفحص وجهي في المرآة واقتربت من انعكاس صورتي بحذر؛ أخذت أتحسّس الخطوط على جبهتي وطيات الجلد تحت عيني. ابتسمت لأنظر إلى أسناني والتجاعيد التي حفرت نفسها حول فمي وبجانب عيني. ولاحظت البقع التي ترصع وجهي واختلافاً في لون جبهتي وكأنها كدمة تركت أثراً لم يُمحَ بعد. عثرت على بعض أدوات الزينة، فوضعت قليلاً من مساحيق التجميل على خدّيّ، وتخيلت صورة امرأة – هي أمي كما أدرك الآن – تفعل الشيء نفسه وتسميه طلاء الحرب. وبينما أنا أمسح أحمر الشفاه بمنديل ورقي وأعيد غطاء الماسكرا، شعرت بتلك الكلمة ملائمة تماماً. فقد شعرت بأنني أخوض غمار معركة ما أو أن ثمة حرباً بانتظاري.

حاولت أن أفكر في أمي وهي تفعل شيئاً آخر بخلاف إرسالي إلى المدرسة ووضع مساحيق التجميل على وجهها، ولكن، لم تعاودني أي ذكرى أخرى. لم أرَ سوى فراغ سحيق بين ذكريات صغيرة منعزلة عن بعضها بعضاً كالجزر. سنوات طويلة ضاعت مني في غياهب هذا الخواء المعتم. والآن، بينما أنا في المطبخ، أفتح الخزائن وعلب المعكرونة وأكياس الأرز وعلب الفاصولياء، ولكنني لا أميز هذا الطعام. وأتذكر أنني كنت أتناول الجبنة على الخبز المحمص والسمك المشوي وشطائر لحم البقر. أجد علبة كتب عليها حُمُّص وكيساً من الكشك. إنني لا أعرف ما هذه الأطعمة، ناهيك عن أنني لا أجيد طهيها. فإذاً، كيف سأتدبر أمري في هذه الحياة كزوجة؟

نظرت إلى اللوح النظيف الأبيض الذي دلني بن عليه قبل أن يغادر، فرأيتُ لونه يقارب لوناً رمادياً قذراً بعد أن خُطّت عليه الكلمات مراراً ثم مسحت أو تم تصحيحها، وكلها تركت أثراً باهتاً. أتساءل ما الذي سأعثر عليه لو أنّ العودة إلى الماضي واكتشاف أسراره والغوص في أعماقه من خلال هذا اللوح كلّها بيدي، ولكنني أدرك أن ذلك، حتى لو كان ممكناً، فهو ليس إلا جهداً عقيماً، إذ إنني واثقة من أن كل ما سأعثر عليه هو رسائل موجهة إليّ بلوائح للخضار التي يجب أن أشتريها والمهمات التي يتعين عليّ أن أؤديها.

أتساءل في نفسي إن كانت حياتي هكذا فعلاً. أهذا هو كل ما ينطوي عليه وجودي؟ آخذ القلم وأضيف ملاحظة أخرى إلى اللوح: *حزم الأمتعة من أجل السفر*. ليست ملاحظة مهمة، ولكنها خاصة بي على الأقل.

أسمع ضجة؛ إنها نغمة هاتف يرن، فأفتح حقيبتي وأفرغ محتوياتها على الأريكة، وأجد محفظة وبعض المناديل الورقية وأقلاماً وقلم أحمر شفاه وعلبة مسحوق تجميل مضغوطة وفاتورة فنجاني قهوة ومفكرة جيب لا يتعدى حجمها حجم مربع صغير ذات زهور وقلم رصاص معلقاً عليها.

أعثر على شيء يُخيَّل إليَّ أنه بلا شك الهاتف الذي وصفه لي بن. إنه مصنوع من البلاستيك وله لوحة مفاتيح ويبدو أشبه بدمية أطفال. يواصل الهاتف الـرنين وشاشته تومض.

أردّ قائلةً: "مرحباً؟"، فيرد عليّ صوت ليس صوت بن.

يقول: "مرحباً، هل أنت كريستين؟".

ولكنني لا أجيب، إذ إنني أشعر أن الأرض الصلبة التي استطعت أن أثبت قدميّ عليها تتلاشى مجدداً وتحل محلها رمال متحركة.

"كريستين؟ هل تسمعينني؟".

من يمكن أن يكون هذا؟ من هذا الشخص الذي يعرف مكاني واسمي؟ يدور في ذهني أنه ربما شخص غريب، فأشعر بالرعب يتملكني، وتحوم إصبعي حول الزر الذي ينهي المكالمة.

"كريستين؟ هذا أنا، الدكتور ناش. أجيبيني من فضلك".

لا يعني لي هذا الاسم شيئاً، ولكنني مع ذلك أقول: "من أنت؟".

فتتغير نبرة الصوت قليلاً إلى نبرة موحية بالراحة، فيقول الرجل: "أنا الدكتور ناش". ثم يضيف قائلاً: "أنا طبيبك".

طبيبـــي؟ تسري في داخلي رعشة ذعر أخرى، وأقول: "طبيبـــي؟"، وأود أن أقول له إنني لست مريضة، ولكنني لست واثقة من هذا فعلاً. وأشعر برأسي يبـــدأ بالدوران.

يقول: "نعم، ولكن لا تقلقي. إننا نعمل معاً منذ بعض الوقت علـــى عـــلاج ذاكرتك، ولكنك لا تعانين أي خطب آخر".

ألاحظ الزمن الذي يصوغ به أفعاله. إنه الزمن الحاضر، وهذا يعني أنه شخص آخر لا تسعفني ذاكرتي لتذكره.

أقول له: "أي نوع من العلاج؟".

فيقول الطبيب: "إنني أحاول أن أساعدك على إنعاش ذاكرتك، وأحـاول أن أكتشف بالتحديد ما الذي تسبب بالخلل الذي تعانينه في الذاكرة وإن كان هنـاك أي شيء في وسعنا فعله لعلاج ذلك الخلل".

يبدو كلامه منطقياً بالرغم من أن فكرة أخرى تخطر ببالي: *لماذا لم يذكر بـن شيئاً عن الطبيب قبل أن يغادر إلى عمله؟*

أقول: "كيف؟ أقصد ما الذي نفعله بالتحديد؟".

"لقد التقينا عدة مرات خلال الأشهر القليلة الماضية بمعدل بضـع مـرات في الأسبوع".

لا يبدو هذا كلاماً معقولاً في نظري. فها هو شخص آخر أراه بشكل منتظم من دون أن يترك لديّ أي انطباع بأي حال من الأحوال.

أود أن أقول له إنني لم أقابله في حياتي قط، وإنـني أخشـى أن يكـون أي شخص يحاول استغلالي، ولكنني لا أقول شيئاً، إذ إنني قلت الشيء نفسـه عـن الرجل الذي قابلته صباح هذا اليوم، فاتضح في نهاية المطاف أنه زوجي.

فأقول عوضاً عن ذلك: "لا أتذكر".

يقول بنبرة صوت أكثر نعومة: "لا تقلقي. إنني أتفهم وضعك". إن كان مـا يقوله صحيحاً، فلا بد من أن يتفهم وضعي كغيره. يشرح لي الطبيب أننـا علـى موعد للقاء هذا اليوم.

فأقول: "اليوم؟"، وأعود بذاكرتي إلى ما قاله لي بـن صـباحاً، وإلى لائحـة الأعمال المعلقة في المطبخ. ثم أضيف قائلة: "ولكن زوجي لم يذكر أي شيء عـن موعدنا". وأدرك الآن أن هذه هي المرة الأولى التي أشير فيها إلى الرجـل الـذي استيقظت إلى جانبه باسم زوجي.

يخيم الصمت للحظة ثم يقول الدكتور ناش: "لست واثقاً من أن بن يعلم أنك ستقابلينني اليوم".

ألاحظ أنه يعرف اسم زوجي، ولكنني أقول: "هذا سخف! كيف لا يعـرف بأمر لقائنا؟ لو أنه يعرف بالفعل، لأخبرني به حتماً".

أسمع صوت الطبيب يتنهد ثم يقول: "يجب عليك أن تثقي بـي. سأشرح لك كل شيء عندما نلتقي. إننا نحقق تقدماً ملموساً".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عندما نلتقي؟ لا يبدو هذا ممكناً. إن فكرة الخروج من البيت من دون رفقة بن أو حتى معرفته بمكان ذهابي ومكاني ترعبني.

أقول للطبيب: "إنني آسفة، ولكنني لا أستطيع الذهاب".

فيقول: "إن هذا اللقاء مهم يا كريستين. إن نظرت في مفكّرتك فستعرفين أن ما أقوله صحيح. أليست المفكرة في حوزتك؟ لا بد من أنها في حقيبتك".

التقط المفكرة ذات رسومات الزهور من مكان وقوعها على الأريكة، ولكنني أفغر فمي من فرط الصدمة عندما ألاحظ التاريخ المطبوع على المقدمة بأحرف ذهبية. 2007. إنني أعيش بعد عشرين عاماً من الوقت الذي أعهده.

"نعم".

يقول: "انظري إلى تاريخ اليوم: 30 تشرين الثاني. سترين موعدنا مدوناً".

لا أستطيع أن أدرك كيف يمكن لليوم أن يكون الثلاثين من شهر تشرين الثاني وأن غداً أول يوم من شهر كانون الأول، ولكنني مع ذلك أقلب الصفحات الرقيقة إلى أن أصل إلى تاريخ اليوم. وهناك أعثر على ورقة مدسوسة بين الصفحات كتب عليها بخط يد لا أعهده كلمات: *الثلاثون من تشرين الثاني: موعد مع الدكتور ناش*. وهناك ملاحظة تحتها هي: *لا تخبري بن*.

تبدو الصفحات التي تدل على الأيام الأخرى فارغة. فلا توجد مناسبات ولا سهرات ولا حفلات. وأتساءل إن كانت هذه المفكرة فعلاً تصف حياتي.

أقول: "حسناً". فيقول الطبيب إنه سيأتي ويقلني لأنه يعرف مكان إقامتي. ويعدني بأن يأتي في غضون ساعة.

فأقول: "ولكن زوجي...".

"لا بأس بذلك. سنعود قبل عودته من العمل. أعدك بذلك. ثقي بي".

تدق الساعة من مكانها فوق الموقد، فألقي نظرة خاطفة عليها؛ إنها ساعة قديمة الطراز كبيرة الحجم ذات علبة خشبية محاطة بالترقيم الروماني. فأرى التاريخ عليها يشير إلى اليوم: الثلاثين من شهر تشرين الثاني. وأرى بجانب ذلك مفتاحاً فضياً لربط الساعة، وهذا ما أظن أنه عمل يجب على بن أن يتذكر القيام به مساء كل يوم. تبدو الساعة قديمة جداً وشبه أثرية. فأتساءل كيف حدث واقتنينا ساعة من هذا الطراز، إنها ربما بلا تاريخ أو أن تاريخها على الأقل ليس له علاقة بنا،

ولكنها ببساطة مجرد ساعة رأيناها مرة في أحد المحالّ أو في إحدى الأسواق فنالت إعجاب أحدنا، وهو على الأرجح بن لأنني أدرك الآن أنها لا تلائم ذوقي.

تحدثني نفسي بأن أقابل الطبيب هذه المرة فقط ثم أخبر بن عندما أعود إلى البيت هذه الليلة. إذ إنني لا أصدق أنني قادرة على إخفاء سر كهذا عنه. فأنا معتمدة عليه اعتماداً كلياً في كل ما يخص حياتي.

ومع ذلك، فهناك شيء غريب يوحي بالألفة في صوت الدكتور ناش، إذ إنه على عكس بن لا يبدو غريباً تماماً عني. وأشعر أن هناك ما يوحي بأنني قابلته من قبل أكثر مما أشعر حيال زوجي الذي أمضيت معه سنوات طويلة من عمري.

لقد قال لي إننا نحرز تقدماً ملموساً، لذا، يجب أن أعرف نوع التقدم الذي يعنيه بكلامه.

قلت له: "حسناً، إنني بانتظارك".

* * *

عندما يصل الدكتور ناش، يقترح عليّ أن نخرج لتناول فنجان من القهوة، ويقول: "هل أنت عطشى؟ لا أظن أن هناك جدوى من قيادة السيارة كل تلك المسافة إلى العيادة. فأنا أريد اليوم أن أتحدث إليك ليس إلا".

أومئ برأسي موافقة. كنت في غرفة نومي عندما وصل الطبيب، فشاهدته من النافذة يركن سيارته ويقفلها ثم رأيته يرتب شعره ويملس سترته ويأخذ حقيبته. وعندما رأيته يومئ إلى مجموعة من العمال يحمّلون أدوات من إحدى الشاحنات، ظننته شخصاً آخر، ولكنه توجه عندئذ في الطريق المؤدي إلى بيتنا. بدا لي شاباً وربما أصغر سناً من أن يكون طبيباً. وبالرغم من أنني لم أعرف ما نوع الملابس التي يجب أن أتوقع منه ارتداءها، فإنني لم أتوقع منه أن يرتدي كنزة رياضية وسروالاً رياضياً رمادي اللون.

يقول الطبيب: "هناك متنزه في آخر هذا الشارع فيه مقهى على ما أعتقد. أيمكننا أن نذهب إلى هناك؟".

نتمشى معاً وأنا أشعر بالبرد يتخلل جسدي، فأشد وشاحي حول عنقي. إنني مسرورة لأنني وضعت الهاتف الخلوي الذي أعطاني إياه بن في حقيبتي وكذلك لأن الدكتور ناش لم يقترح عليّ أن يصطحبني بسيارته إلى مكان ما. يشعرني حدسي

بأن أضع ثقتي بهذا الرجل، ولكنّ هناك حدساً آخر أعمق منه يشعرني بأنـه ربمـا يكون رجلاً غريباً نواياه غير صافية تجاهي.

إنني امرأة راشدة، ولكنني لست إلا حطام إنسان. وقد يكون من السـهل بالنسبة إلى هذا الرجل أن يستغل ضعفي ويقتادني إلى مكان مجهول بالرغم من أنني لست أدري أي دافع قد يجعله يفعل ذلك. فأنا مجرد امرأة ضعيفة لا حول لهـا ولا قوة.

نصل إلى الطريق الرئيس الذي يفصل نهاية الشارع عن المتنزّه وننتظر لنعبر إلى الطرف المقابل. يخيم علينا صمت أشعر بأنه مزعج وثقيل الوطأة. كنت أنـوي أن أنتظر حتّى نجلس قبل أن أبدأ بطرح الأسئلة، ولكنني أجد نفسي أبادر بالحديث قائلة: "ما اختصاصك الطبـي يا دكتور ناش؟ ما هي العلاجـات الـتي تجريهـا لمرضاك؟ وكيف عثرت عليّ؟".

يرنو إليّ بعينيه متأملاً ويقول: "إنني أخصائي نفسي عصبـي". فأتسـاءل إن كنت أطرح عليه السؤال نفسه في كل مرة نلتقي فيها. يتابع الطبيب قائلاً: "إنـني مختص بالمرضى الذين يعانون اضطرابات دماغية. ولديّ اهتمام خـاص بتقنيـات تصوير الدماغ الوظيفية الحديثة. وكنت مهتماً لوقت طويل بالبحث في وظـائف الذاكرة. فسمعت عنك من خلال المقالات التي نشرت عن الموضـوع، ثم بحثت عنك واستطعت العثور عليك بسهولة ويسر".

تنعطف سيارة في الطريق متوجهة نحونـا. فـأقول: "عـن أي مقـالات تتحدث؟".

"لقد نشرت بعض الدراسات حول حالتك. فتواصلت مع بعض المراكز التي تلقيت فيها العلاج".

تمر السيارة، فنعبر الشارع. تبدأ مشاعر القلق والخوف تتنامى في نفسي وأنـا أردد في سري الكلمات التي تفوه الطبيب بها: *اضطرابات الـدماغ... أبحـاث... بحثت عنك*. أحاول أن آخذ نفساً عميقاً وأرخي أعصابـي، ولكنني أكتشف أنني عاجزة عن ذلك. هناك امرأتان تسكنان جسدي، إحـداهما عجـوز في السـابعة والأربعين من عمرها تبدو هادئة ومؤدبة ومراعية للسلوك الملائـم، والأخـرى في العقد الثاني من عمرها تصرخ وتثور. لا أستطيع أن أقرر أياً منهما هي شخصـيتي

الحقيقية، ولكن الضجة الوحيدة التي أسمعها هي صوت السيارات من بعيد وصياح الأطفال وهم يلعبون في المتنــزه، ولهذا أتوصل إلى الاعتقاد أن شخصيــة المــرأة الكهلة هي الأقرب إلى الحقيقة.

عندما نصل إلى الطرف الآخر، أتوقف وأقول: "أصغ إليَّ، ما الذي يجــري؟ لقد استيقظت صباح اليوم في مكان لم أرَه في حياتي، ولكنني اكتشفت أنني أعيش فيه. ووجدت نفسي نائمة بجانب رجل لم ألتقِ به قط يقول إننا متزوجــان منــذ سنوات طويلة. إنني أدرك أنك تعرف عني أكثر مما أعرف أنا عن نفسي، ولهــذا، فإنني أريدك أن تخبرني كل شيء".

يومئ الطبيب برأسه ببطء ويقول: "إنك تعانين فقدان الذاكرة منذ سنوات". يضع يده على ذراعي بلطف ويضيف قائلاً: "وهذا يجعلك عاجزة عن الاحتفــاظ بالذكريات الحديثة، ولهذا، فقد نسيت كل مجريــات حياتــك وأنــت راشــدة، وأصبحت تستيقظين كل يوم وتظنين نفسك شابة. وفي بعض الأيام، تخالين نفسك طفلة صغيرة".

يبدو وقع الحقيقة أكثر قسوة عليّ الآن ربما لأنه صادر عن طبيب. فأقول له: "إذاً، أهذا صحيح؟".

"يؤسفني القول إنه صحيح. نعم، إن الرجل الذي في بيتك هو زوجك بــن الذي اعتنى بك منذ بدأت تعانين فقدان الذاكرة عام 1990، أو على الأقل حالمــا تحسنت حالتك بما يكفي لأن تعودي للعيش معه في البيت". أومئ برأسي، فيتــابع الطبيب: "هلا ندخل؟".

أجيب بالموافقة، فندخل معاً إلى المتنــزه. هناك ملعب أطفال بــالجوار وإلى جانبه كوخ أرى الناس يخرجون منه حاملين مشروبات ســاخنة يتصــاعد منــها البخار. نتوجه إلى هناك، فأجلس على كرسي إلى إحــدى الطــاولات المكســوّة بالفورميكا بينما يطلب الدكتور ناش لنا القهوة.

يعود الطبيب حاملاً كوبين بلاستيكيين مليئين بالقهوة السادة لي وبالحليب له ثم يضيف السكر من العلبة الموضوعة على الطاولة، ولكنه لا يعرض عليّ الســكر. فيقنعني تصرفه هذا أكثر من كل شيء آخر بأننا التقينا من قبل. ينظر إليّ ويسألني عن سبب الإصابة الظاهرة في جبهتي.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أقول له في البداية: "ماذا؟"، ولكنني عندئذ أتذكر الكدمة التي رأيتها صباح اليوم وأكتشف أن مساحيق التجميل التي وضعتها لم تُخفها على ما يبدو. فأقول: "أتقصد هذه؟ لست واثقة من سببها فعلاً. لا يهم. فهي لا تؤلمني".

يومئ برأسه، ولكنه لا يجيب بل يحرك قهوته بصمت.

أقول: "هل قلتَ إن بن اعتنى بي حالما أصبحت بحالةٍ أفضل؟".

ينظر إليّ ويقول: "نعم، إذ إن حالتك في السنة الأولى كانت خطيرة جداً لدرجة حاجتك إلى العناية على مدار الساعة. وعندما بدأت حالتك تتحسن قليلاً، استطاع بن أن يعتني بك وحده بالرغم من أن هذه العناية استهلكت وقته بالكامل".

إذاً، فالشعور الذي أشعر به الآن هو شكل من أشكال التحسن. يسرني سماع هذا كثيراً لأنني لا أتذكر الوقت الذي كانت فيه حالتي خطيرة.

أقول موجهة الكلام إلى نفسي أكثر مما أوجهه إلى الطبيب: "لا بد من أنه يحبني من كل قلبه".

يومئ الطبيب برأسه بصمت. فنرتشف كلانا القهوة، ثم يقول: "نعم، لا بد من أنه كذلك".

أبتسم له وأطرق برأسي وأنظر إلى يدي اللتين تمسكان الكوب الساخن وإلى الخاتم الذهبي والأظفار القصيرة وساقيّ المتصالبتين بأدب. إنني لا أميز شكل جسدي.

أسأله: "لماذا لا يعرف زوجي بأمر لقاءاتنا؟".

يتنهد الطبيب ويغمض عينيه ويطبق يديه ويقترب مني قائلاً: "سأتوخى الصراحة معك وأعترف أنني طلبت منك في البداية ألا تخبري بن بأمر هذه اللقاءات".

أشعر برعشة من الخوف تسري في داخلي. ومع ذلك، فلا يبدو لي الطبيب غير أهل للثقة. إنني أود من كل قلبي أن أصدق أنه قادر على انتشالي مما أنا فيه، ولهذا أقول: "تابع الحديث".

"لقد حاول أناس عدة، منهم أطباء نفسيون وعلماء نفس وأطباء صحة وغيرهم، أن يفاتحوك ويفاتحوا بن بالموضوع رغبة منهم في التعاون معكما لعلاجك، ولكنه أبدى

معارضة شديدة لمقابلتك هؤلاء الأخصائيين. وبرر موقفه هذا بأنك سبق وخضعت لمعالجة مكثفة من قبل وأن هذه المعالجة في رأيه لم تسبب لك سوى الإزعاج والألم. ومن الطبيعي أن يود أن يجنّبك ويجنّب نفسه هذه المعاناة التي لا طائل منها".

إنه بلا شك لا يريد لي أن أتعلق بآمال كاذبة. فأقول للطبيب: "إذاً، فقد أقنعتني بأن أقابلك من دون علمه، أليس ذلك؟".

"نعم، فقد فاتحت بن بالموضوع فعلاً وطلبت منه أن يقابلني لكي أشرح له ما لديّ من علاجات، ولكنه رفض ذلك، لذا، اتصلت بك واقترحت عليك أن نلتقي مرة واحدة من دون علمه. وعرضت عليك أن أشرح لك سبب رغبتي في مقابلتك والخدمات التي أظن أنني قادر على تقديمها. وقلتُ إن الخيار يصبح عائداً إليك بعد الزيارة الأولى بأن تخبري بن أو لا. واتفقنا أنني، في حال قررت ألا تخبريه بالأمر، سأتصل بك كل يوم لأحرص على أن تتذكري الموعد وهكذا...".

"وهكذا اخترت ألا أخبره، أليس كذلك؟".

"نعم، هذا صحيح. فقد قلت إنك تودين الانتظار حتّى نحقق تقدماً ملموساً قبل أن تطلعيه على أي شيء، إذ إنك شعرت أن ذلك أفضل".

"وهل حققنا ذلك فعلاً؟".

"ماذا؟".

"أقصد هل حققنا تقدماً؟".

يرتشف القهوة ثم يضع الكوب على الطاولة ويقول: "نعم، أعتقد ذلك. إن التقدم شيء يصعب أحياناً أن نقيسه بكمية محددة، ولكن الكثير من الذكريات بدأت تعود إليك على مدى الأسابيع القليلة الماضية، بعضها للمرة الأولى على حدّ علمنا. وهناك حقائق معينة أصبحت تتذكرينها أكثر من ذي قبل. على سبيل المثال، إنك في بعض المناسبات تستيقظين وأنت تعين أنك متزوجة و...".

فأحثه على الكلام قائلة: "وماذا؟".

"حسناً، أعتقد أنك بدأت تكتسبين بعض الاستقلالية".

"الاستقلالية؟".

"نعم، لم تعودي تعتمدين على بن أو حتى عليّ أنا بقدر ما كنت تفعلين في السابق".

هذا هو التقدم الذي يتحدث عنه: إنه الاستقلالية. فأنا الآن أستطيع الوصول إلى المتاجر أو المكتبات من دون مرافق. ومع ذلك، فما زلت لم أحقق ما يكفي من التقدم لألوح به بفخر في وجه زوجي.

"ولكن أهذا هو كل ما أنجزته؟".

يقول الطبيب: "لقد أحرزت تقدماً هاماً. فلا تستخفي به يا كريستين".

ألتزم الصمت وأتناول رشفة من قهوتي وأتأمل المقهى من حولي؛ إنه شبه فارغ. تصل إلى سمعي أصوات من مطبخ صغير في الخلفية وصوت القعقعة المعتادة المصاحبة لغليان الماء في إبريق الشاي، كما أسمع صوت ضجة الأطفال الذين يلعبون من بعيد. من الصعب أن أصدق وجود هذا المكان قريباً جداً من بيتي من دون أن أتذكر أي شيء عن قدومي إليه من قبل.

أقول للدكتور ناش: "إنك تقول إننا نلتقي منذ بضعة أسابيع. فماذا فعلنا خلال هذه المدة؟".

"هل تتذكرين شيئاً عن الجلسات السابقة؟ أي شيء على الإطلاق؟".

أقول: "كلا، لا أتذكر شيئاً. فعلى حدّ علمي، إنني أقابلك اليوم للمرة الأولى في حياتي".

فيقول: "سامحيني على هذا السؤال. إذ تراودك في بعض الأحيان ذكريات خاطفة أشبه بالومضات. ويبدو عليك أحياناً أنك تعرفين معلومات في بعض الأيام أكثر من غيرها".

أقول: "إنني لا أفهم ما تعنيه. فأنا لا أتذكر أنني قابلتك من قبل قط أو ما حدث البارحة أو قبل البارحة أو في العام الماضي. ومع ذلك، فأنا أستطيع أن أتذكر أشياء حدثت قبل سنوات عديدة، مثل طفولتي وأمي وفترة التحاقي بالجامعة واسم صديقتي المفضلة. إنني لا أستوعب السبب الذي يجعل هذه الذكريات القديمة تظل ماثلة في ذاكرتي في حين أن كل شيء آخر قد مسح منها بالكامل".

يومئ الطبيب برأسه في أثناء كلامي. فلا يخامرني شك في أنه قد سمعني أتفوه بهذا الكلام نفسه من قبل، إذ إنني على الأرجح أطرح عليه السؤال نفسه كل أسبوع. وربما نكون حتى قد تبادلنا الحديث نفسه بحذافيره في لقاء سابق.

يقول الدكتور ناش: "إن الذاكرة مسألة شديدة التعقيد، إذ إن البشر يتمتعون بذاكرة قصيرة الأمد تخزن الحقائق والمعلومات لدقيقة أو نحو ذلك، ولكنهم أيضاً يتمتعون بذاكرة طويلة الأمد، وهنا يخزن البشر كميات كبيرة من المعلومات ويحتفظون بها لأجل غير مسمى. إننا الآن على يقين من أن هاتين الوظيفتين يتم التحكم بهما من قبل مركزين مختلفين في الدماغ ومن خلال توصيلات عصبية تمتد عبر أجزائه. وبالإضافة إلى ذلك، يوجد جزء من الدماغ يُعتقد أنه مسؤول عن تولي أمر الذكريات العابرة وقصيرة الأمد وتحويلها إلى ذاكرة طويلة الأمد من أجل استعادتها لاحقاً".

يتحدث الطبيب بسهولة، وسلاسة كبيرة، وسرعة توحي برسوخ ثقته بنفسه، فأتخيل نفسي في الماضي أتمتع بمثل هذه الثقة الراسخة.

"هناك نوعان رئيسان من فقدان الذاكرة. في أغلب الحالات، يعجز المصاب عن تذكر الأحداث الماضية ولا سيما الأحداث القريبة أكثر من غيرها. فعلى سبيل المثال، عندما يتعرض المصاب لحادث دراجة نارية، فقد لا يتذكر الحادث نفسه أو الأيام التي سبقته، ولكنه يستطيع أن يتذكر كل شيء، ربما قبل ستة أشهر من الحادث، بكل وضوح".

أومئ برأسي وأقول: "وماذا عن النوع الآخر؟".

فيجيبني قائلاً: "إن النوع الثاني أكثر ندرة من الأول. إذ ينشأ هناك في بعض الأحيان عجز عن تحويل الذكريات قصيرة الأمد إلى ذكريات مخزنة طويلة الأمد. فالناس الذين يعانون هذه الحالة تقتصر حياتهم على اللحظة الراهنة ويستطيعون فقط أن يتذكروا الماضي القريب لفترة قصيرة جداً من الزمن".

يمسك الطبيب عن الكلام وكأنه ينتظر مني أن أقول شيئاً. فأشعر أننا ممثلان لنا أدوار محددة علينا أن نرددها بعد أن تدربنا عليها مراراً.

أقول: "إنني أعاني كلتا الحالتين، أليس كذلك؟ أي أعاني نقصاً في الذكريات بالإضافة إلى عدم القدرة على تشكيل ذكريات جديدة. أهذا صحيح؟".

يتنحنح ويقول: "نعم، لسوء الحظ. إنها حالة نادرة، ولكنها ممكنة الحدوث. وعلى أيّ حال، فما يثير الدهشة في حالتك هو نمط فقدان الذاكرة الذي تعانينه. إذ إنك تفتقرين بشكل عام إلى أيّ ذاكرة مستمرة لأي شيء حدث معك منذ طفولتك المبكرة، ولكن يبدو عليك أنك تشكلين ذكريات جديدة بطريقة لم

أصادف لها مثيلاً من قبل. على سبيل المثال، إن غادرت أنا هذه الغرفة الآن وعدت بعد دقيقتين، فإن معظم الناس الذين يعانون هذه الحالة من فقدان الذاكرة لا يتذكرون مقابلتهم لي على الإطلاق. وعلى العكس من ذلك، يبدو عليك أنت أنك تخزنين مقداراً كبيراً من المعلومات يصل إلى أربع وعشرين ساعة ثم تفقدينها بعد ذلك. إن هذه حالة تثير الاستغراب. وحسب الأسلوب الذي من المعتقد أن الذاكرة تعمل وفقه، فأنا بصراحة أجدها حالة غير منطقية على الإطلاق، إذ إنها توحي بأنك قادرة على تحويل الأشياء من ذاكرة قصيرة الأمد إلى تخزين طويل الأمد بشكل جيد جداً، ولكنني لا أفهم سبب عجزك عن استعادتها في وقت لاحق".

إنني أعيش ربما حياة مبعثرة، ولكنها على الأقل مشتتة إلى قطع كبيرة تساعدني على الحفاظ على حياة تتمتع بقدر من الاستقلالية. وأعتقد أن هذا يعني أنني موفورة الحظ.

أقول: "لماذا؟ ما الذي تسبب بهذه الحالة؟".

فيمسك الطبيب عن الكلام ويخيم الصمت على المكان. أشعر بالهواء من حولي ساكناً وثقيلاً. عندما يبدأ بالكلام، أشعر بالكلمات تتردد أصداؤها على الجدران. فيقول: "إن العديد من الأشياء تسبب خللاً في الذاكرة سواء أكانت قصيرة الأمد أم طويلة الأمد. فهناك المرض والأذيَّات وتعاطي المخدرات. إن الطبيعة المحدَّدة للخلل يبدو عليها أنها تختلف بين مريض وآخر اعتماداً على الجزء المتضرر من الدماغ".

أقول له: "نعم، ولكن ما هو سبب الحالة التي أعانيها أنا؟".

ينظر إليّ للحظة ثم يقول: "ما الذي أطلعك عليه بن؟".

أعود بذاكرتي إلى المحادثة التي أجريناها صباح اليوم. وأتذكر أنه قال لي إن حادثاً خطيراً هو السبب.

وأقول للطبيب: "لم يطلعني على أيّ معلومات محددة، ولكنه ذكر لي أن سبب مرضي هو حادث وقع لي من دون أن يشرح التفاصيل".

يمد يده إلى حقيبته الموضوعة تحت الطاولة ويقول: "نعم، فقد نجم فقدان ذاكرتك عن أذية جسدية. إن هذا الجزء على الأقل مما قاله لك بن صحيح". يفتح

الحقيبة ويخرج سجلاً. في بادئ الأمر، أتساءل إن كان سيستعين بملاحظاته، ولكنه بدلاً من ذلك يمد يده ويناولني إياه قائلاً: "تفضلي. إنني أريدك أن تأخذي سجل المذكّرات هذا. سيقدم لك تفسيراً لكل شيء بدءاً من أسباب حالتك بشكل خاص وانتهاء بمعلومات أخرى أيضاً".

آخذ السجلّ من يده، فأجده بني اللون ذا غلاف جلدي وصفحاته مجموعة معاً برباط مطاطي. أنـزع الرباط وأفتح السجلّ كيفما اتفق. يبدو الورق ثقيلاً ومليئاً بسطور باهتة وهامش أحمر. وأرى صفحاته ملأى بكتابة يد مكثفة.

أقول: "ما هذا؟".

يقول لي: "إنه سجل مذكّرات احتفظت به طوال الأسابيع الماضية".

يدهشني كلامه فأسأله قائلة: "سجل مذكّرات؟". وأتساءل عن سبب احتفاظه به.

"نعم إنه سجل تدوين فيه كل ما ننجزه خلال جلساتنا معاً. لقد طلبت منك أن تحتفظي به في بداية تعارفنا إلى بعضنا. إننا ننجز الكثير من الاختبارات محاولة منا لاكتشاف أسلوب عمل ذاكرتك. فخطر ببالي أن احتفاظك بسجل مذكّرات تدونين فيه كل أحداث لقاءاتنا ومجريات حياتك الأخرى سيعود عليك بالفائدة".

أنظر إلى السجلّ الذي أمامي وأقول: "هل كتبت أنا هذا؟".

"نعم، فقد طلبت منك أن تدوني عليه ما يحلو لك. إن الكثير من المصابين بفقدان الذاكرة يجربون أشياء كهذه، ولكنها لا تقدم لهم المساعدة المرجوة لأنهم يتمتعون بمجال ذاكرة ضيق جداً، ولكنّ الوضع مختلف بالنسبة إليك. إذ إنك تستطيعين تذكر أشياء عديدة خلال اليوم، ولهذا، لم أرَ سبباً يمنعك من تدوين بعض الملاحظات في السجل في نهاية كل يوم. وظننت أن هذا قد يساعدك على الحفاظ على حلقة وصل بين كل يوم واليوم الذي يليه. وبالإضافة إلى ذلك، فقد شعرت أن الذاكرة أشبه بالعضلات التي يمكن تقويتها من خلال التمارين".

"هل كنت تقرأها بينما نحن نواصل العلاج؟".

يقول: "كلا، فقد اعتدت أن تكتبي مذكراتك سراً".

فأبدأ القول: "ولكن كيف...؟". ثم أقول: "هل كان بن يذكرني بأن أكتب هذه المذكّرات؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يهز الطبيب رأسه ويقول: "لقد اقترحت عليك أن تحتفظي بها طي الكتمان، ولهذا، فقد اعتدت أن تخفيها في البيت. وكنت أنا أتصل بك لأخبرك عن مكـــان إخفائها".

"كل يوم؟".

"نعم، تقريباً".

"وبن؟".

يقول: "كلا، لم يقرأها بن".

أتساءل عن السبب الذي دفعني لإخفاء مذكراتي عن بن، وعن الأسرار الـــتي قد يحويها هذا السجلّ حيث إنني لا أود أن يراه زوجي. ثم أقول: "ولكنك قرأته".

يقول: "في المرة الماضية التي التقينا فيها تركته معي وقلت إنك تريدين أن أقرأه لأن الوقت حان لذلك".

أنظر إلى السجلّ بانفعال ورهبة. إنه سجل مذكراتي، وصِلَة الوصل التي تربط بيني وبين ماضي حياتي الذي تاه مني وطواه النسيان.

"هل قرأته كله؟".

يقول: "نعم، قرأت معظمه. حسناً، أعتقد أنني قرأت أهم ما فيـــه علـــى أيّ حال". يمسك عن الكلام ثم يشيح بوجهه وهو يحك عنقه. فأظن أنه محرج، وهـــذا يجعلني أتساءل عما يحويه الكتاب. يشرب ما تبقى من كوب القهوة ويقول: "إنني لم أجبرك على إعطائي إياه لأقرأه. يجب أن تتذكري هذا جيداً".

فأومئ برأسي وأنهي بقية قهوتي بصمت وأنا أقلب صفحات السجلّ. وأرى لائحة من التواريخ على الغلاف الداخلي. فأقول: "ما هذه؟".

يقول الطبيب: "إنها تواريخ مقابلاتنا السابقة بالإضافة إلى المقابلات التي رتبنا لإجرائها في أثناء لقاءاتنا. وكنت أنا أتصل لأذكرك بموعد المقابلة وأطلب منك أن تتأكّدي من اللائحة في السجّل".

أفكر في الورقة الصفراء التي وجدتها بين صفحات مفكّرة الجيب الصـــغيرة. فأقول: "وماذا عن اليوم؟".

يقول: "كان السجل معي عندما حددنا موعدنا. فكتبنا ملاحظة بـــدلاً مـــن ذلك".

أومئ برأسي وأنظر إلى بقية السجلّ، فأجد صفحاته ملأى بكتابة يد لدرجة أنني لا أميزها. لا بد من أنني استغرقت أياماً طويلة لأدونها.

أتساءل كيف تسنى لي الوقت لذلك، ولكنني أفكر في اللوح المعلق على جدار المطبخ وأجد الجواب واضحاً. إذ لم يكن لديّ شيء آخر أقوم به.

أضع سجلّ المذكّرات على الطاولة. وأرى شاباً يرتدي سروال جينز وكنزة قطنية يدخل ويلقي نظرة خاطفة على مكان جلوسنا قبل أن يطلب القهوة ويجلس إلى إحدى الطاولات ويشرع بمطالعة صحيفته. لا يلقي الشاب نظرة أخرى نحوي، فيملأني تجاهله بالسخط والاستياء ويشعرني بأنني مخلوقة غير مرئية، ولكنني أدرك أنني لا أزال أحسب نفسي في العشرين من عمري.

أقول للطبيب: "هلا نذهب الآن؟".

نسير عائدين من الطريق نفسه الذي أتينا منه. فألاحظ أن السماء ملبدة بالغيوم وأن ثمة ضباباً رقيقاً يكتنف الأجواء. وأشعر بالأرض من تحت قدميّ ندية وكأنني أمشي على رمال متحركة. وأرى في الملعب لعبة دوامة تدور ببطء بالرغم من أن أحداً لا يركب فيها.

سألته عندما وصلنا إلى الطريق: "إننا عادة لا نلتقي هنا، أليس كذلك؟ أعني في المقهى؟".

"كلا، إننا نلتقي عادة في عيادتي لنجري بعض التمارين والاختبارات وما شابه".

"إذاً، لماذا التقينا هنا اليوم؟".

"لقد أردت وحسب أن أعيد إليك سجلّ مذكراتك. فقد خشيت ألا تبلي بلاءً حسناً من دونه".

فأسأله: "هل أصبحت أعتمد عليه إلى هذا الحد؟".

"نعم، إلى حدٍّ ما".

نعبر الشارع ونعود إلى البيت الذي أعيش فيه مع بن. فألاحظ أن سيارته ما زالت مكانها حيث ركنها. أخذت أتأمل الحديقة الصغيرة خارج نافذتنا والممر القصير والزهور الجميلة، ولكنني لا أزال لا أصدق أن هذا المكان هو بيتي الذي أعيش فيه.

أقول للطبيب: "هل تريد أن تدخل وتتناول كوب قهوةٍ آخر؟".

فيهز رأسه ويقول: "كلا، شكراً لك. يجب أن أذهب. فقد أعددت وجولي خططاً للخروج معاً هذا المساء".

يرنو إليّ للحظات وهو واقف أمامي. فألاحظ شعره المقصوص قصيراً والمفروق بأناقة، وخط سرواله الحاد المتعارض مع خط كنزته الأفقي. وأدرك أنه أكبر ببضعة سنوات فقط من العمر الذي ظننته عمري عندما استيقظت صباحاً.

أقول: "هل جولي زوجتك؟".

يبتسم ويهز رأسه قائلاً: "إنها صديقتي، بل خطيبتي في الواقع. فقد أعلنا خطوبتنا مؤخراً، ولكنني كثير النسيان".

أبتسم له، وأعتقد أنه يجب عليّ أن أتذكر هذه التفاصيل والأشياء الصغيرة. إن هذه التفاصيل التافهة هي ربما كل ما أدونه في كتابي وكأنها خُطّافات صغيرة أحاول أن أعلق عليها حياتي بأكملها وكل ما فيها.

أهنّئه لسماع خبر خطوبته، فيشكرني.

أشعر بأنه عليّ أن أطرح المزيد من الأسئلة وأُظهر المزيد من الاهتمام، ولكن لا جدوى من ذلك، إذ إن كل شيء يخبرني به الآن سأنساه غداً عندما أستيقظ. إن هذا اليوم هو كل ما لديّ.

يقول الطبيب: "وداعاً يا كريستين". ويتلفت ليغادر، ولكنه يعاود النظر إليّ ويقول: "إن رقمي مدون على الغلاف الأمامي لسجلك. اتصلي بي إن أردت أن نلتقي مجدّداً لمتابعة العلاج. اتفقنا؟".

أقول: "إن أردت أن نلتقي مجدّداً؟". وأتذكر المواعيد التي رأيتها مدوّنة في السجّل بقلم الرصاص، وهي بين الآن ونهاية السنة. فأقول: "كنت أظن أن لدينا المزيد من المواعيد!".

فيقول: "ستفهمين كل شيء عندما تقرأين كتابك. بعد أن تقرأيه، سيتضح لك كل شيء. أعدك بذلك".

أقول: "حسناً". وأدرك أنني أصبحت أثق به. فيسرني هذا. إنني مسرورة لأن لديّ شخصاً آخر غير زوجي أعتمد عليه.

"إن الأمر عائد إليك يا كريستين. اتصلي بي متى شئت".

أقول: "سأتصل بك". فيلوح لي بيده ويركب سيارته. وبعد أن يتفقد الطريق خلفه من فوق كتفه، ينطلق مبتعداً.

أعدّ فنجاناً من القهوة وآخذه إلى غرفة الجلوس. وأسمع من الخارج صوت صفير يخترقه صوت حفر ثقيل وصوت ضحك متقطع، ولكن ذلك كله يتحول إلى مجرد همهمة لطيفة عندما أجلس على الكرسي. تلقي الشمس بأشعتها الخافتة من خلال الستائر الشبكية ويسقط دفئها الناعم على ذراعي وساقي، وأخرج السجلّ من حقيبتي.

يتملكني التوتر، إذ ليست لديّ فكرة عما قد يحويه هذا السجلّ من صدمات ومفاجآت وألغاز. أنظر إلى دفتر القصاصات الموضوع على طاولة القهوة. في ذلك الدفتر، نسخة من الماضي، ولكنها ذكريات من اختيار بن. ترى هل يحوي السجلّ الذي أحمله ذكريات من نوع آخر؟

أفتح السجلّ، فأجد الصفحة الأولى غير مسطرة، وأرى اسمي مكتوباً في وسطها بالحبر الأسود: كريستين لوكاس. فأتساءل لماذا لم أكتب كلمة "سريّ" أو "يرجى عدم الاقتراب".

هناك عبارة أخرى غير متوقعة مضافة تحت اسمي. ترعبني رؤية تلك العبارة المدونة بأحرف كبيرة بالحبر الأزرق أكثر من أي شيء آخر رأيته اليوم بالرغم من أن عدد كلماتها لا يتعدى الثلاث كلمات:

إياكِ والوثوق ببن

ولكن، ليس بيدي شيء آخر أفعله، فأقلب الصفحة.
وأباشر قراءة صفحات تاريخ حياتي.

القسم الثاني

سجل حياة كريستين لوكاس

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

يوم الجمعة 9 تشرين الثاني

أدعى كريستين لوكاس، امرأة في السابعة والأربعين من عمرها تعاني فقـــدان الذاكرة. أجلس على هذا السرير الذي لا تألفه عيناي وأرتدي قميص نوم حريريًّا اشتراه لي ذلك الرجل الذي يجلس في الطابق السفلي ويدّعي أنه زوجي واسمه بِـــن بمناسبة ذكرى ميلادي السادسة والأربعين. إنني أدوّن قصتي في هذا السجلّ. يخـيم الصمت على الغرفة التي أجلس فيها ولا ينيرها سوى ضوء المصباح الموضوع على الطاولة بجانب السرير. يشع منه ضوء برتقالي خافت. فأشعر بأنني أطفو في الهـــواء وكأنني أسبح في هالة من النور.

إن باب غرفة النوم مُغلَق؛ فقد أغلقته لأحظى بالخصوصـية وأنـا أكتـب مذكراتي. أسمع صوت زوجي في غرفة الجلوس وأميز جلوسه ووقوفه من صـوت صرير الأريكة ومن سعاله الخافت بين الحين والآخر، ولكنني سـأخفي السـجلّ عندما يعود مجدّداً إلى غرفة النوم. سأخبئ سجل مذكّراتي تحت السرير أو الوسادة. إذ إنني لا أريده أن يراني وأنا أكتب، ولا أن أضطر إلى إخباره عن مصدر حصولي عليه.

أنظر إلى الساعة الموضوعة على الطاولة بجانب السرير؛ إنها تشير إلى الحاديـة عشرة تقريباً. يجب أن أسرع في الكتابة. أتخيل أنه أوقف التلفزيون عن العمل، فأنا أسمع صرير ألواح الأرضية الخشبية بينما يعبر زوجي الغرفة، وتكّةَ مفتاح الضـوء. ترى هل سيتوجه إلى المطبخ أولاً ويعد شطيرة ويسكب لنفسه كأساً من المـاء؟ أم أنه سيتوجه مباشرة إلى الفراش؟ لست أدري. فأنا لا أعرف شيئاً عن عاداتـه ولا حتى عاداتي أنا.

إنني أعاني فقدان الذاكرة حسب قول بن والطبيب الذي قابلته عصـر هـذا اليوم. فعندما أنام هذه الليلة، سيشرع عقلي بكل هدوء بمحو كل شـيء عرفتـه وفعلته طوال هذا اليوم، وسأصحو غداً كما صحوت اليوم وأنا أحسب نفسـي لا

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أزال طفلة وأظن أن الحياة بكامل خياراتها وفرصها لا تزال متاحة لي لأعيشها وأتمتع بها.

وعندئذ سأكتشف من جديد أنني مخطئة في ظني. فقد سبق واتخذت كل قرارات حياتي وطويت نصف سنوات عمري في سجل الماضي.

إن طبيبي يدعى الدكتور ناش. اتصل بي صباح اليوم واصطحبني بسيارته إلى العيادة. سألني إن كنت أعرفه، فقلت له إنني لم أقابله في حياتي قط، فابتسم لي بلطف وفتح جهاز الكمبيوتر الموضوع على مكتبه.

شغل فيلماً قصيراً نظهر فيه مرتدين ملابس مختلفة ولكننا جالسان على الكرسيين نفسيهما في العيادة نفسها. يقوم الطبيب في الفيلم بإعطائي قلم رصاص ويطلب مني أن أرسم أشكالاً على ورقة، ولكن، من خلال النظر إلى المرآة حيث يبدو كل شيء معكوساً. لاحظت أنني كنت أجد صعوبة في ذلك، ولكنني عندما شاهدت الفيلم لم أعد أرى شيئاً سوى أصابعي المجعدة وبريق الخاتم الذهبي حول إصبعي. عندما أنتهي من الرسم، يبدو الطبيب مسروراً ويقول لي: "إنك تزدادين سرعة في إنجاز المهمة". ثم يضيف قائلاً إنّ هذا يدل على أنني في مستوى ما عميق في داخلي أتذكر تأثيرات الأسابيع التي أمضيتها في التدريب حتى لو لم أكن أتذكر التدريب نفسه. فأبتسم، ولكنني لا أبدو سعيدة فعلاً. وبعد ذلك، انتهى الفيلم.

أغلق الدكتور ناش الكمبيوتر، وقال لي إننا التقينا عدة مرات خلال الأسابيع الماضية، ثمّ شرح لي أنني أعاني خللاً شديداً في شيء يدعى الذاكرة العرضية، وهذا يعني إنني لا أستطيع أن أتذكر الأحداث أو التفاصيل المتعلقة بسيرتي الذاتية. وقال لي إن هذا عادة ما ينجم عن مشكلة عصبية أو بنيوية أو كيميائية أو خلل هرموني، وهي حالة نادرة جداً. وتدل حالتي هذه على أنني مصابة بتلف شديد جداً. وعندما سألته عن مدى سوء الحالة، قال لي إنني في بعض الأيام أعجز عن تذكر الكثير عن أي شيء يتجاوز حدود طفولتي. ففكرت في صباح اليوم عندما استيقظت واكتشفت أن كل ذكرياتي عن حياتي الراشدة مُحيت برمتها من ذاكرتي.

سألته: "بعض الأيام؟"، ولكنه لم يجبني. فأوحى إليّ صمته بأنه يعني معظم الأيام.

ذكر الطبيب أن ثمة علاجات لفقدان الذاكرة المستمر كالأدوية والتنويم المغناطيسي، ولكننا جربنا معظم تلك العلاجات من قبل. وقال: "لكنك تُبدين تصميماً كبيراً على مساعدة نفسك يا كريستين". وعندما سألته عن السبب الذي دفعه للقول إن السبب هو اختلاف حالتي عن معظم المصابين بفقدان الذاكرة قال: "إن طبيعة الأعراض لديك لا توحي بأن ذكرياتك ممحوة بشكل نهائي، إذ إنك تستطيعين تذكر الأشياء حتّى تنامي، أي لعدة ساعات. وبالمقابل، فإن معظم المصابين بفقدان الذاكرة يفقدون ذكرياتهم الجديدة كل بضع ثوانٍ...".

قلت: "وماذا بعد؟". دفع الطبيب سجلاً بنياً نحوي عبر طاولة المكتب وقال: "أعتقد أنه من المهم أن توثقي علاجك ومشاعرك وأيّ انطباعات أو ذكريات تراودك هنا في هذا السجلّ".

مددت يدي إلى الأمام وأخذت منه السجلّ، حيث وجدت صفحاته فارغة.

فتساءلت عن طبيعة هذا العلاج الغريب؛ كتابة اليوميات؟ إنني أريد أن أتذكر الأشياء لا أن أدونها فقط.

لا بد من أنه شعر بخيبة أملي، فقال: "إنني آمل أيضاً أن يؤدي قيامك بكتابة ذكرياتك إلى تحفيزك لإحياء ذكريات أخرى. وقد يُحدِث هذا تأثيراً تراكمياً لديك".

خيم الصمت للحظة. ترى ما هو الخيار المتاح أمامي فعلاً؟ تدوين مذكراتي في هذا السجل أو البقاء كما أنا إلى الأبد.

قلت له: "حسناً، سأفعل ذلك".

فقال: "هذا جيّد. لقد دونت رقم هاتفي الشخصي ورقم العيادة على غلاف سجل المذكرات الأمامي. فاتصلي بي إن خامرك شك حيال أي شيء".

أخذت السجّل منه ووعدته بأن أفعل ذلك. ساد الصمت لبعض الوقت، ثم قال الطبيب: "لقد قمنا بعمل جيد مؤخراً حول طفولتك المبكرة. وشاهدنا بعض الصور وقمنا بأشياء أخرى من هذا القبيل". أخرج الطبيب صورة من الملف الموضوع أمامه. وقال لي: "أريدك اليوم أن تلقي نظرة على هذه الصورة. هل تميزين هذا المكان؟".

كانت صورة منـــزل. في بادئ الأمر، بدا لي غريباً تماماً، ولكن عندما رأيت العتبة المهترئة المؤدية إلى الباب الأمامي، ميزته في الحال. إنه البيت الذي أمضيت فيه سنوات طفولتي والذي ظننت نفسي أستيقظ فيه صباح اليوم. بدا لي مختلفاً وربمـا أقل حقيقية مما كان عليه، ولكنني تيقّنت أنه هو بما لا يدع مجالاً للشك. ابتلعـت ريقي وقلت للطبيب: "إنه المكان الذي نشأت فيه وأنا طفلة".

أومأ الطبيب برأسه وقال لي إن معظم ذكرياتي المبكرة لم تتأثر بمرضي. وطلب مني أن أصف له المنـــزل من الداخل.

وصفت له كل ما استطعت أن أتذكره، فقلت إن الباب الأمامي كان يؤدي مباشرة إلى غرفة الجلوس، وأخبرته عن غرفة طعام صغيرة كانت موجودة في آخـر المنـــزل، وأننا اعتدنا أن نحث الزوار أن يسلكوا الزقاق الذي يفصل بـين بيـت الجيران وبيتنا للتوجه مباشرة إلى المطبخ في الخلف.

قال: "أخبريني المزيد. ماذا عن الطابق العلوي؟".

قلت: "إنه مؤلف من غرفتيّ نوم، إحداهما في المقدمة والأخرى في الخلف. أما الحمام فيقع في مبنى مستقل خلف المطبخ في آخر المنـــزل، ولكننا ضممناه في مـا بعد إلى بقية المنـــزل بجدارين وسقف من القرميد".

"أخبريني المزيد؟".

لم أفهم ما الذي أراد الوصول إليه. فقلت: "لست واثقـة..."، فسـألني إن كنت أتذكر أيّ تفاصيل صغيرة.

وعندئذ، أدركت مغزى كلامه، فقلت: "اعتادت أمي أن تحتفظ بمرطبـان في خزانة أدوات المائدة كتب عليه كلمة "سكر"، وأن تخفي المال داخلـه. وكانـت تضعه على الرف العلوي إلى جانب مرطبانات المربى. كانت أمي تُعِـدّ المربيـات بنفسها. واعتدنا أن نتوجه بسيارتنا إلى الغابة ونقطف التوت، ولكنني لا أتـذكر مكان تلك الغابة. إن جلّ ما أتذكره هو أننا كنا نحن الثلاثة نتوغل عميقاً في الغابة ونقطف ملء أكياس كبيرة من ثمار التوت الأسود ثم نعود إلى البيت لتغليـه أمـي بنفسها وتعد منه المربى".

قال الطبيب وهو يومئ برأسه: "هذا جيد، بل ممتاز!"، وراح يدوّن ملاحظاته في الملف المفتوح أمامه. ثم قال: "وماذا عن هذه؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وأراني بضع صور أخرى، إحداها لامرأة استطعت بعد بضع دقائق أن أميزها على ألها أمي، وصورة أخرى لي. فأخبرته بكل ما أسعفتني ذاكرتي بـه. وعنـدما انتهينا، وضع الصور جانباً وقال: "هذا جيد جداً. لقد استعدت مـن طفولتـك ذكريات أكثر من المعتاد. وأعتقد أن ذلك حدث بسبب الصور. في المرة القادمـة، أود أن أريك المزيد منها".

فوافقت وأنا أتساءل عن المصدر الذي حصل منه على هذه الصـور وعـن مقدار المعلومات التي يعرفها عن طفولتي ولا أعرفها أنا عن نفسي.

قلت له: "هل يمكنني الاحتفاظ بها؟ أعني صورة بيتي القديم؟".

فابتسم وقال: "بكل تأكيد". فدسستها بين صفحات سجلّي.

أوصلني بسيارته إلى البيت وشرح لي ونحن في الطريق أن بن لا يعرف أننـا نلتقي، ولهذا، ينبغي لي توخّي الحذر في ما إذا كنت أريد أن أخبره بشأن سـجل مذكراتي. قال: "قد تشعرين أنك مقيدة الحرية وغير راغبة في الكتابة عن أشـياء معينة، ولهذا، فأنا أعتقد أنه من المهم أن تشعري أنك مخولة للكتابة عن كل مـا تريدينه. وإضافة إلى ذلك، فقد لا يسر بن عندما يكتشف أنك قررت اسـتئناف علاجك مرة أخرى". وتوقف ثم قال: "قد يتوجب عليك أن تبقي الأمـر سـراً عنه".

قلت: "ولكن، كيف سأتذكر أن أكتب فيه". فلم يقل شيئاً. فجأة، خطرت لي فكرة وقلت له: "هلا تذكرني أنت؟".

فقال إنه سيفعل ذلك ثم قال: "ولكن يجب أن تخبريني عن مكانـه". ركـن الدكتور ناش سيارته بجانب البيت الذي أدركت بعد لحظة أنه بيتي أنا، ثمّ قـال: "سيتوجب عليك أن تتصلي بـي لتعلميني بمكانه. يجب عليك أن تكتبـي فيـه الليلة قبل أن تخلدي إلى النوم وإلا، فسوف تستيقظين غداً وتجدينه مجرد صـفحات بيضاء. وهكذا، فلن تعرفي ما الهدف منه".

فوعدته أن أفعل ذلك وترجلت من السيارة.

قال الطبيب: "اعتني بنفسك يا كريستين".

الآن أجلس على السرير بانتظار زوجي. وأتأمل صورة البيت الذي نشـأت فيه. فيبدو لي طبيعياً وعادياً ومألوفاً جداً.

أتساءل في نفسي كيف وصلت من هناك إلى هنا. ترى ماذا حدث؟ ما هـو تاريخ حياتي؟

تدق الساعة في غرفة الجلوس معلنة منتصف الليل، ثمّ أسمع صوت بن يصـعد الدرج. سأخبئ الكتاب في علبة حذاء داخل الخزانة حيث أخبرت الدكتور نـاش أنني أعتزم إخفاءه. وإن اتصل بـي غداً، فسأكتب المزيد.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

يوم السبت 10 تشرين الثاني

إنني أكتب هذا في وقت الظهيرة بينما يجلس بن في الطابق السفلي يطالع ظناً منه أنني أستريح في غرفتي، ولكنني لا أريد أن أستريح بالرغم من شدة إرهاقي. إذ ليس لديّ متسع من الوقت ويجب عليّ أن أكتب كل ما أعرفه قبل أن أنساه لأحافظ على سجل ذكرياتي من الضياع.

أنظر إلى ساعتي لأتأكد من الوقت المتاح لي، إذ إن بن اقترح عليّ أن نذهب للتنزّه عصر هذا اليوم. فأدرك أن المهلة التي لديّ لا تتجاوز الساعة الواحدة.

صباح هذا اليوم، استيقظت غافلة عن شخصيتي الحقيقية، وعندما فتحت عيني، توقعت أن أرى أطراف الطاولة المجاورة للسرير، ومصباحاً أصفر اللون، وخزانة شبيهة بالصندوق في زاوية الغرفة، وورق جدران ذا زخرفة باهتة من نبات السرخس. وتوقعت أن أسمع صوت أمي في الطابق السفلي وهي تطهو اللحم، وصوت والدي في الحديقة يصفر وهو يشذب الشجيرات. وتوقعت أن أجد نفسي في سرير مفرد ولا يحوي أكثر من لعبة على شكل أرنب ذي أذن ممزقة.

ولكنني أخطأت عندما ظننت أنني لا أزال في بيت والدي. عندما فتحت عيني، أدركت أنني لا أميز شيئاً من حولي. فقد بدت لي غرفة النوم غريبة تماماً. عاودت الاستلقاء على السرير وأنا أقنع نفسي بأنني ارتكبت بلا شك خطأً مريعاً جداً.

بحلول الوقت الذي نزلت فيه إلى الطابق السفلي، كنت قد رأيت الصور المعلقة حول المرآة. وعرفت أنني لست طفلة ولا حتى مراهقة، وأدركت أن الرجل الذي سمعت صوته يطهو الفطور ويصفر مع الراديو ليس والدي ولا شريكاً في السكن ولا صديقاً، بل زوجي.

تلكأت أمام باب المطبخ وبدأ الرعب يتملكني. فقد كنت على وشك أن أقابله للمرة الأولى على حدّ علمي. ترى كيف سيبدو؟ هل سيبدو كما بدا في الصور؟ أم إنها هي أيضاً لا تعبر عنه تعبيراً صادقاً؟ هل سيبدو أكبر سناً أم أصلع أم سميناً؟ كيف سيكون صوته؟ كيف سيتحرك؟ ترى كيف تزوجت به؟

راودتني من حيث لا أدري ذكرى عن امرأة ما. أهي أمي؟ إنها تأمرني أن أتوخى الحذر وتقول: *من تزوج بسرعة ندم على مهل.*

دفعت الباب لأفتحه، ورأيت بن واقفاً وظهره باتجاهي وهو يستخدم الملعقة لتقليب اللحم الذي يئز في المقلاة، ولكنه لم يسمعني وأنا أدخل.

قلت: "هل أنت بن؟"، فالتفت بسرعة.

"كريستين؟ هل أنت بخير؟".

فاحترت كيف أجيب عن سؤاله، ولكنني قلت له: "نعم، أظن ذلك".

فابتسم لي، وبدت الراحة واضحة عليه، ففعلت الشيء نفسه. وجدته أكبر سناً مما بدا عليه في الصور في الطابق العلوي. فقد تشكلت تجاعيد أعمق على وجهه وخفّ شعره قليلاً عند صدغيه واكتسب لوناً رمادياً، ولكن تأثير هذا التغير أضفى عليه مزيداً من الجاذبية. فقد اكتسب فكه حدة تليق برجل في مثل سنه، وتألقت عيناه بوميض الحيوية. وأدركت أنني وجدته شبيهاً بوالدي من بعض النواحي.

قال لي: "هل رأيت الصور؟"، فأومأت برأسي، ثمّ قال: "لا تقلقي. سأشرح لك كل شيء. لِمَ لا تدخلين وتجلسين؟"، وأشار باتجاه الباب قائلاً: "إن غرفة الطعام من هناك. خذي هذه معك، وسأوافيك بعد قليل".

أعطاني علبة فلفل، وذهبت بها إلى غرفة الطعام. وبعد بضع دقائق، تبعني حاملاً طبقين يحويان شرائح شاحبة من اللحم تطفو في الدهن وبيضة وبعض الخبز المقلي، ثمّ جلس إلى جانبي. فتناولت طعامي بينما أخذ يشرح لي تاريخ حياتي.

قال لي إن اليوم هو السبت وإنه يعمل معلماً خلال أيام الأسبوع. وشرح لي عن الهاتف الذي أضعه في حقيبتي واللوح المعلق على الجدار في المطبخ. وأراني مكان احتفاظنا بمدخرات الطوارئ الملفوفة بإحكام والمخبأة خلف الساعة على الموقد. وتحدث عن دفتر القصاصات الذي رأيت فيه لمحات عن حياتي. وأكد لي بن

أننا نتدبر أمرنا معاً جيداً. فلم أشعر أنني قادرة على تصديق جلّ كلامه، ولكنني أجبرت نفسي على ذلك.

فرغنا من تناول الطعام، وساعدته على ترتيب أشياء الفطور. قال: "ينبغي لنا أن نذهب للتنزّه في وقت لاحق إن رغبت في ذلك". فعبرت له عن موافقتي، وبدا مسروراً، ثم قال: "سأقرأ الصحيفة أولاً. هل هذا مناسب؟".

صعدت إلى الطابق العلوي، وعندما أصبحت وحيدة، بدأت الأفكار تتضارب في ذهني الخاوي والصاخب في آن معاً. شعرت أن عقلي أصبح عاجزاً عن استيعاب أي شيء. وبدأت أرى كل شيء من حولي مزيفاً. تأملت من حولي البيت الذي وجدت نفسي فيه وتيقّنت الآن أنه بيتي، بعينين لم تألفا النظر إليه من قبل في حياتي. وتملكتني رغبة في الهرب من هذا المكان لأهدئ أفكاري المسعورة الصاخبة.

جلست على طرف السرير الذي استيقظت عليه صباحاً، وخطر في بالي أن أرتبه لأبقي نفسي مشغولة. فأخذت المخدة لأنفض عنها الغبار. وبينما أنا أفعل ذلك شعرت بشيء يبدأ بالاهتزاز.

لم أكن واثقة من مصدر ذلك الاهتزاز البطيء المتواصل. لم أسمع أي صوت وإنما شعرت بارتجاج خفيف ليس إلا. نظرت إلى حقيبتي الموضوعة عند قدمي ثم حملتها. فأدركت أن الارتجاج صادر عنها. وتذكرت ما ذكره بن عن الهاتف الذي أضعه فيها.

وجدت شاشة الهاتف تومض وقد لاح عليها الاسم التالي: *الدكتور ناش*. حدقت إليه لبرهة من الزمن. وأحسست أن جزءاً عميقاً في داخلي وغوراً سحيقاً من أغوار ذاكرتي يدركان سبب المكالمة. فرددت على الهاتف.

أجابني صوت رجل قائلاً: "مرحباً؟ هل أنت كريستين؟ هل أنت معي يا كريستين؟".

فقلت له إنني أسمعه.

"أنا طبيبك، هل أنت على ما يرام؟ هل بن بجانبك؟".

فقلت له: "كلا، إنه... ما الذي يجري؟".

أطلعني الطبيب على اسمه وحدثني عن العمل الذي قمنا به معاً طوال بضعة أسابيع. وقال لي: "إننا نعمل على علاج ذاكرتك". وعندما لم أجبه قال لي: "أريد

منك أن تثقي بي. ابحثي في خزانة غرفة نومك". توقف قليلاً ثم تابع قائلاً: "توجد علبة حذاء داخل الخزانة. ألقي نظرة في داخلها وستجدين سجل مذكرات".

ألقيت نظرة خاطفة على الخزانة في زاوية الغرفة.

وقلت: "كيف تعرف كل هذا؟".

قال لي: "أنت أخبرتني بنفسك. فقد التقينا البارحة، وقررنا أن تحتفظي بسجل مذكراتك. وأخبرتني أنك ستخفينه في ذلك المكان".

أردت أن أقول إنني لا أصدقه، ولكن ذلك بدا قولاً فظاً وغير صحيح تماماً.

قال لي: "هلا تبحثين؟"، فقلت له إنني سأبحث عنه. فأضاف قائلاً: "افعلي هذا الآن. لا تذكري أي شيء لبن. هيا أحضريه بسرعة".

لم أنهِ المكالمة بل توجهت من فوري إلى الخزانة، واكتشفت أنه محق. فقد عثرت في علبة الحذاء داخل الخزانة على سجلّ ملفوف بورق. سألني الدكتور ناش: "هل عثرت عليه؟"، رفعته ونزعت الورق، فوجدت سجلّ مذكرات بني اللون يبدو باهظاً.

"كريستين؟".

"نعم، إنه معي".

"هذا جيد. هل كتبت شيئاً؟".

فتحت الصفحة الأولى وقرأت التالي: *أدعى كريستين لوكاس، امرأة في السابعة والأربعين من عمرها تعاني فقدان الذاكرة*. تملكني التوتر والانفعال وكأنني أتلصص على أسرار شخص ما، ولكنه ليس إلا أنا.

قلت له: "نعم، لقد كتبت".

قال الطبيب: "ممتاز!"، ووعدني أن يتصل بي غداً ثم أنهينا المكالمة.

لم أحرك ساكناً بل جلست القرفصاء بجانب الخزانة المفتوحة والسرير لا يزال غير مرتب وشرعت أقرأ في سجل مذكراتي.

في البداية، أصبت بخيبة الأمل، إذ إنني لم أتذكر شيئاً مما كتبته ولم أتذكر الدكتور ناش ولا العيادة التي ذكرت أنه اصطحبني إليها ولا الأحاجي التي كتبت

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أننا قمنا بحلها. وبالرغم من أنني سمعت صوته للتو، إلا أنني لم أستطع أن أتخيله أو أتخيل نفسي معه. بدا الكتاب أشبه بقصة خيالية، ولكنني عثرت بعد ذلك على صورة مدسوسة بين الصفحات في آخر السجّل: إنها صورة البيت الذي نشأت فيه وتوقعت أن أجد نفسي فيه عندما صحوت صباح اليوم. إذاً، إنه حقيقي. هذا هو الدليل الذي أبحث عنه؛ فقد قابلت الدكتور ناش فعلاً وأعطاني هذه الصورة التي تشكل جزءاً صغيراً من أجزاء ماضيّ المفقود.

أغمضت عينيّ البارحة وصفت بيتي القديم بغرفه وتفاصيله. ترى أما زالت تلك الذكريات تسكن أعماق ذاكرتي؟ أيمكنني أن أستحضر المزيد منها؟ فكرت في والدي ووالدتي، وحاولت أن أستحضر تفاصيل أخرى عن حياتي الماضية. فتشكلت صور صامتة أمام عينيّ، ورأيت سجادة برتقالية باهتة، وزهريّة زيتونية اللون، وسجادة خشنة، وملابس طفل صفراء رُسِمَ عليها بطة زهرية اللون مطرزة، وذات أزرار في المنتصف، وكرسيّ سيارة بلا ستيكيّاً أزرق، ونونية أطفال زهرية باهتة.

إنها مجرد ألوان وأشكال، ولكن لا شيء منها يصف حياتي بحدّ ذاتها. إنني أريد أن أرى والديّ، ولكنني أدركت عندئذ وربما للمرة الأولى أنني أعرف في قرارة نفسي أنهما متوفيان.

تنهدت وجلست على حافة السرير غير المرتب، ورأيت قلماً معلقاً بين صفحات السجل، فأخذت القلم من دون تفكير تقريباً بنيَّة كتابة المزيد. وأمسكت به وقربته من الصفحة وأغمضت عينيّ لأركز.

وعندئذ، حدث ما لم أتوقعه، إنني أظن أن إدراكي لموت والدي قد حفّز ذكريات أخرى في ذهني، ولكنني فجأة شعرتُ بأن عقلي بدأ يصحو من سبات طويل عميق. لم يحدث هذا بالتدريج بل فجأة وكأنه شرارة كهربائية أو ضربة عنيفة صعقتني. وفجأة، لم أعد جالسة في غرفة النوم وهناك صفحة فارغة أمامي، بل وجدت نفسي في مكان آخر؛ فقد عدت إلى الماضي الذي ظننت أنني أضعته، واستطعت أن ألمس وأشعر وأتذوق كل شيء فيه، وأدركت أنني بدأت أتذكر.

رأيت نفسي أعود إلى البيت الذي نشأت فيه. إنني الآن في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري، ومتلهفة لأكمل قصة بدأت مسبقاً بتأليفها، ولكنني أعثر

على ورقة على طاولة المطبخ كتب عليها الملاحظة التالية: "اضطررنا إلى الخروج من البيت. سيأتي العم تيد ليقلك عند الساعة السادسة". أتناول شراباً وشطيرة وأجلس ومعي دفتر ملاحظاتي. كانت السيدة رويس قد قالت لي إن قصصي قوية ومؤثرة وإنها تعتقد أنني سأصبح كاتبة محترفة، ولكنني أجد نفسي عاجزة عن التركيز على ما أريد كتابته أو إيجاد الفكرة التي أريد التعبير عنها. تبدأ أعصابي بالغليان بغضب صامت؛ إنها غلطتهما، ما الذي يفعلانه؟ أين هما؟ لماذا لست مدعوة؟ أمزق الورقة التي أمامي وألقيها بعيداً.

تلاشت الصورة من أمامي، ولكن صورة أخرى ظهرت على الفور بوضوح أشد وأقوى. فأرى والدي يقود السيارة ليوصلنا إلى البيت. وأرى نفسي جالسة على المقعد الخلفي أحدق إلى بقعة ثابتة على نافذة السيارة بجانب رأسي. إنها ذبابة ميتة أو حبة رمل ربما، لست أدري. أبدأ بالحديث وأنا غير واثقة مما أريد قوله.

"متى كنتما تنويان إخباري؟".

فلا يجيبني أحد.

"أمي؟".

تقول أمي: "لا تفعلي هذا يا كريستين".

"أبي؟ متى كنتما تنويان إخباري؟". يسود الصمت، فأقول وعيناي لا تزالان تتأملان البقعة على النافذة: "هل ستموتَ يا أبي؟ هل ستموتَ فعلاً؟".

يلقي أبي نظرة خاطفة عليّ من فوق كتفه ويبتسم قائلاً: "بالطبع لا يا حبيبتي. بالطبع لا، لن أموت قبل أن أصبح رجلاً عجوزاً ولي كثير من الأحفاد!"، فأدرك أنه يكذب عليّ، ولكنه يقول: "سنقاوم هذا المرض يا عزيزتي. أعدك بذلك".

فتحت عيني. فقد اختفت الذكرى بسرعة كما بدأت. جلست في غرفة نومي التي استيقظت فيها صباح اليوم، فبدت في نظري مختلفة ومسطحة تماماً وعديمة اللون وخالية من أيّ حيوية وكأنني أنظر إلى صورة ساكنة بهت لونها في الشمس. وشعرت أن حيوية ذكرى الماضي سلبت الحاضر كل شكل من أشكال الحياة.

أطرقت أرضاً ونظرت إلى السجلّ الذي أمسكه بيدي، ورأيت القلم ينـــزلق من بين أصابعي راسماً خطاً أزرق رفيعاً على الصفحة الفارغة. شعرت بـدقات قلبـي تتسارع في صدري؛ فقد تذكرت حدثاً مهمـاً مـن أحـداث الماضـي، وأدركت أنني لم أفقده تماماً. أمسكت القلم وبدأت أدون ما رأيته.

سأنتهي من كتابة الذكرى. عندما أغمض عينيّ وأحاول أن أجبر الصورة على العودة، سأجد نفسي قادرة على إحيائها مجدّداً. وهكذا، سأرى نفسي ووالدي وأتذكر ركوب السيارة متّجهين إلى البيت. لا تزال تلك الذكرى موجودة في مخيلتي، ولكنها أصبحت أقل حيوية وكأن لونها بهت مع الزمن، ولكنها لا تزال موجودة. وبالرغم من ذلك، تغمرني السعادة لأنني دونتها واحتفظت بها. فإنني أدرك أنها ستختفي في نهاية المطاف، ولكنها الآن على الأقل لن تضيع مني وتُمحَى بلا أثر.

لا بد من أن بن أنهى قراءة الصحيفة؛ فقد ناداني من الطابق السفلي وسـألني إن كنت جاهزة للذهاب، فقلت له إنني جاهزة. سـأخفي السـجلّ في الخزانـة وأرتدي سترتي وأنتعل حزمتي. سأكتب المزيد لاحقاً إن تذكرت ذلك.

* * *

لقد كتبت هذا قبل بضع ساعات؛ فقد أمضينا طوال فترة العصـر خـارج البيت، والآن عدنا. إن بن في المطبخ الآن يطهو وجبة سمك لعشائنا وهو يسـتمع إلى موسيقى الجاز. تصل الموسيقى إلى مسامعي وأنا جالسة لأكتب في سجلي. لم أعرض عليه أن أعدّ الوجبة بنفسي، فقد كنت متلهفة جداً للصـعود إلى الأعلـى وكتابة ما رأيته عصر اليوم، ولكن، لم يبدُ عليه أنه يمانع. فقد قال لي: "يجـب أن تستلقي وتنالي قسطاً من الراحة. فالعشاء سيستغرق خمساً وأربعين دقيقة قبـل أن يصبح جاهزاً". فأومأت برأسي، ثمّ قال: "سأناديك عندما يجهز الطعام".

أنظر إلى ساعتي لئلا يسرقني الزمن. وإن كتبت بسرعة، توفر لي متسع مـن الوقت.

غادرنا المنـزل قبل الساعة الواحدة تماماً، ولكننا لم نذهب بعيداً. فقد ركنـا السيارة بجانب مبنى وطيء يبدو مهجوراً. رأيت حمامة رمادية واحدة جاثمة علـى

كل نافذة من النوافذ. وبدا الباب مخفياً بألواح حديدية مموّجة. قال بن وهو يترجل من السيارة: "هذا هو الملهى. إنه مفتوح صيفاً على ما أعتقد. هلا نتمشّى؟".

تمشينا بصمت على طول ممر إسمنتي يحيط بالتل ونحن نصغي إلى نعيق أحد الغربان بين الحين والآخر وهو جاثم في ملعب كرة القدم الفارغ، أو نباح كلب، أو صياح بعض الأطفال، أو ضجيج المدينة. فكرت في أبي وفي موته وتخيلت الذكرى التي راودتني عنه وعن أمي. مرت امرأة تهرول في مضمار الجري، فراقبتها لبعض الوقت قبل أن يؤدي بنا الممر إلى خلف شجرة باسقة ثم صعدنا إلى قمة التل. هناك، استطعت أن أرى بعض مظاهر الحياة؛ فقد رأيت صبياً صغيراً يطيّر طائرة ورقية بينما يقف والده خلفه وفتاة تمشي ومعها كلب مربوط بحبل طويل.

قال بن: "هذا تل البرلمان. إننا غالباً ما نأتي إلى هذا المكان لنتنزه".

فلم أقل شيئاً بل تأملت بصمت المدينة الممتدة أمامنا تحت غيمة منخفضة، فوجدت مظهرها موحياً بالسلام والهدوء وكأنها ثابتة لا تتحرك. وشعرت بأنها أصغر مما توقعت. رأيت الطريق الممتد عبرها إلى التلال المنخفضة البعيدة وبرج التلغراف وقبة دار عبادة سانت بولس ومحطة الطاقة في باترسيا، فميزت تلك الأشكال كلها بالرغم من أنها بدت لي مبهمة من دون أن أعرف سبباً لذلك. كانت توجد معالم أخرى غير مألوفة مثل مبنى زجاجي أشبه بسيجار ثخين وعجلة عملاقة بعيدة. لقد بدا المنظر برمته مألوفاً كملامح وجهي، ولكنه بعث الحيرة في نفسي.

قلت: "هناك شعور يجعلني أظن أنني أميز هذا المكان".

قال بن: "نعم، إننا نأتي إلى هنا مرة بين الحين والآخر. وبالرغم من ذلك، فالمنظر دائم التغيّر".

واصلنا المشي لنعثر على مقعد نجلس عليه، ولكننا وجدنا معظم المقاعد مشغولة بأناس آخرين فرادةً أو أزواجاً. فتوجهنا إلى مقعد بعد قمة التل بقليل وجلسنا عليه. فشممت رائحة كتشاب وخل الشعير، إذ كانت هناك شطيرة همبرغر نصف مأكولة في علبة كرتونية مرمية تحت المقعد.

أمسك بن العلبة بحرص وألقى بها في سلة المهملات ثم عاد ليجلس بجانبي، وشرع يشرح لي بعض المعالم. فقال: "هذا رصيف ميناء كناري"، وأشار إلى مبنى

كبير يبدو حتى من تلك المسافة شاهق الارتفاع ثم واصل حديثه: "تم بناؤه في أوائل التسعينيات على ما أعتقد، وهو يحوي مكاتب وأشياء من هذا القبيل".

شعرت بالاستغراب لسماعه يذكر عقد التسعينيات. إنه عقد كامل من الزمن لا أتذكر أنني عشته قط. ومع ذلك، فقد اختصره بكلمتين لا أكثر، وجعلني هــذا أشعر بخسارة كبيرة. فقد فاتني الكثير من الموسيقى والأفلام والكتـب والأخبـار والمآسي والكوارث والحروب التي ربما أطاحت بدول كاملة ومزقتها بينما كنت أنا أهيم على وجهي من يوم إلى آخر غافلة عما يدور حولي.

لقد فاتني الكثير من حياتي أيضاً. فهناك الكثير من المنــاظر الــتي لا أميزهــا بالرغم من أنني كنت أراها كل يوم.

قلت: "حدثني قليلاً عنا يا بن".

فقال: "عنا؟ ماذا تقصدين؟".

التفت لأواجهه، فهبت رياح باردة على وجهي، وسمعت صوت نباح كلب من بعيد. لم أكن متأكدة مما أريد أن أقوله، ولكنه كان يدرك تماماً أنني لا أتــذكر أي شيء عنه على الإطلاق.

قلت: "إنني آسفة، فأنا لا أعرف الكثير عنك وعني، ولا أتذكر حتى كيــف التقينا أو متى تزوجنا أو أي شيء آخر يتعلق بنا".

ابتسم لي واقترب مني إلى أن أصبحنا متلاصقَين. وعندما وضع ذراعه حــول كتفي، بدأت أتراجع إلى الخلف، ثم تذكرت أنه ليس رجلاً غريباً، بل زوجي. قال لي: "ماذا تريدين أن تعرفي؟".

قلت له: "لست أدري فعلاً. كيف التقينا؟".

فقال بن: "حسناً، التقينا في الجامعة فور بدءك دراسة الدكتوراه. هل تتذكرين هذا؟".

فهززت رأسي وقلت: "ليس فعلاً. ماذا كنت أدرس؟".

قال: "لقد تخرجت من قسم اللغة الإنكليزية"، حين قــال هــذا، لمعــت في ذاكرتي صورة سريعة وحادة كالوميض، ورأيت نفسي جالسة في مكتبــة بينمــا راحت تخطر ببالي أفكار مبهمة عن كتابة أطروحة تتعلق بالنظرية النســائية وأدب مطلع القرن العشرين. فقد اعتزمت العمل على رسالة الدكتوراه وأنــا أعمــل في

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الوقت نفسه على تأليف الروايات، وهذا بالطبع ما لم تكن أمي لتتفهمه، ولكنها على الأقل كانت لتعتبره طموحاً يستحق الاحترام. ظل ذلك المشهد ماثلاً أمام عيني لبرهة وهو يلمع كأنه حقيقي لدرجة تجعلني أوشك على لمسه بيدي، ولكن بن تكلم في تلك اللحظة. فتلاشى المشهد كما ظهر.

قال بن: "أما أنا، فقد كنت أعمل على نيل شهادتي في التاريخ. فاعتدت أن أراك طوال الوقت في المكتبة وفي المقهى وفي كل مكان. ولطالما دُهِشت لروعة جمالك، ولكنني لم أملك الجرأة الكافية لأتحدث إليك".

فضحكت وقلت: "أحقًا؟"، و لم أستطع أن أتخيل نفسي مرعبة إلى هذه الدرجة.

"لطالما بدوت شديدة الثقة بنفسك وشديدة الانغماس بعملك. فقد اعتدت أن تواصلي الجلوس لساعات محاطة بالكتب وأنت تقرأين أو تدونين الملاحظات وترتشفين القهوة أو أي مشروب آخر. كنت في غاية الحسن والجمال؛ فلم أحلم قط أن تهتمي لأمري. وذات يوم، جلست صدفةً بجانبك في المكتبة. فأوقعت فنجان قهوتك وانسكبت القهوة كلها على كتبي. فاعتذرت لي اعتذاراً شديداً بالرغم من أن الأمر لم يكن مهماً إلى هذا الحد. مسحت القهوة عن كتبي، وأصررت أن أشتري لك كوب قهوة آخر. فقلت لي إنه يجدر بك أنت أن تشتري لي كوب قهوة تعبيراً عن أسفك، فوافقت. لذا، ذهبت أنت لشراء القهوة. وهذا هو كل ما جرى".

حاولت أن أتصور المشهد وأن أتخيل صورة ذينك الشابين الجالسين في المكتبة والمحاطين بالأوراق المبللة وهما يضحكان، فعجزت عن ذلك، وشعرت بالحزن يخترق قلبي كسكين تطعنني في الصميم. وتخيلت كم يعشق كل زوجين أن يتذكرا قصة لقائهما الأول: من تحدث إلى من أولاً، وما قالاه. ومع ذلك، فقد خلت ذاكرتي من أيّ ذكرى تخصُّ لقاءنا. عبثت الريح بذيل الطائرة الورقية التي كان الصبيّ يطيّرها، فبدا صوته مرعباً كقرع ناقوس الموت.

قلت لبن: "ماذا حدث في ما بعد؟".

"حسناً، بدأنا نتواعد كالمعتاد. وبعد ذلك، نلت أنا شهادتي الجامعية وأنهيتِ أنت رسالة الدكتوراه ثم تزوجنا".

"كيف؟ من طلب الزواج من الآخر؟".

فقال: "آه! أنا طلبت يدك".

"أين؟ أخبرني كيف حدث ذلك".

أشاح ببصره وراح يتأمل الأفق وقال: "لقد أحببنا بعضنا حباً جارفاً، واعتدنا أن نمضي جلّ وقتنا معاً. كنت تسكنين في بيت مع رفيقات لك، ولكنك نادراً ما كنت تمضين وقتك في البيت. فوجدنا أن الشيء المنطقي الوحيد بالنسبة إلينا هو أن نعيش معاً وأن نتزوج. وهكذا، فقد اشتريت لك صابونة باهظة الثمن من النوع الذي تحبينه في ذكرى فالنتاين وأخذت ورقة سولوفان وضغطت خاتم الخطوبة داخل الصابونة ثمّ لففتها وقدّمتها لك هدية. وبينما أنت تستعدين للخروج معي تلك الليلة، عثرت عليه ووافقت على الزواج.

ابتسمت لنفسي؛ فقد وجدته أسلوباً غريباً في طلب الزواج. وتخيلت الخاتم موضوعاً داخل الصابونة، وكل هذا مع احتمال ألا أستخدم الصابونة أبداً، أو ألا أعثر على الخاتم لأسابيع. ومع ذلك، فقد اعتبرتها قصة لا تخلو من لمسة رومانسية.

سألت: "مع من كنت أقيم في الشقة؟".

فقال لي: "لا أتذكر هذا فعلاً. مع إحدى الصديقات. وعلى أيّ حال، فقد تزوجنا في العام التالي في دار عبادة في مدينة مانشستر؛ مكان إقامة والدتك؛ لقد كان يوماً رائعاً. في ذلك الوقت، بدأت تدريبي لأمتهن التدريس، ولهذا، فلم نكن نملك الكثير من المال، ولكننا حظينا بحفل زفاف جميل بالرغم من كل الصعوبات. كانت الشمس ساطعة ودافئة، وأمضى الجميع وقتاً رائعاً. وبعد ذلك، سافرنا لتمضية شهر العسل في إيطاليا. فتنزهنا قرب البحيرات وأمضينا أجمل أيام عمرنا".

حاولت أن أتخيل دار العبادة وثوب زفافي وغرفة الفندق، ولكن، لم تخطر أي من تلك الذكريات ببالي.

قلت له: "إنني آسفة، ولكنني لا أتذكر أياً من هذا".

أشاح ببصره وأدار وجهه لكي لا أرى حزنه، ثمّ قال: "لا يهم. إنني أتفهم ذلك".

قلت: "ليست هناك صور كثيرة في دفتر القصاصات، أعني أنني لم أرَ أيّ صور لزفافنا فيه".

قال بن: "لقد شبَّ حريق في آخر شقةٍ أقمنا فيها".

"حريق؟".

قال: "نعم، فقد احترقت معظم الشقة، وخسرنا الكثير من الأشياء".

تنهدت بحزن، إذ لم يبدُ لي من الإنصاف في شيء أن أخسر كلاً من ذاكرتي والأشياء الصغيرة التي تمثل ماضي حياتي.

"ماذا حدث عندئذٍ؟".

"عندئذٍ؟".

قلت: "نعم، ماذا حدث بعد الزفاف وشهر العسل؟".

"انتقلنا للعيش معاً. وعشنا حياة في غاية السعادة".

"وماذا بعد؟".

تنهد بصمت ولم يضف شيئاً آخر. فتساءلت في نفسي إن لم يعد لديه ما يقوله. أيعقل أن يكون هذا هو تاريخ حياتي بأكملها؟ إن هذا لا يمثل كل آمالي وطموحاتي، أي مجرد زفاف وشهر عسل وزواج. ولكن، ما الذي توقعت تحقيقه أكثر من ذلك؟ ترى ما الذي تمنيت إنجازه في حياتي؟

وفجأة خطر الجواب ببالي؛ الأطفال. فقد أدركت برعب أن هناك حلقة مهمة مفقودة من حياتي ومن بيتي، إذ إنني لم أرَ أي صور فوق الموقد لابن يمسك شهادته الجامعية، أو يركب الأمواج، أو حتى يقف ضجراً أمام الكاميرا. ولم ألاحظ ما يدل على وجود أحفاد لي. وهكذا، فلا بد من أنني لم أنجب أطفالاً.

شعرت بخيبة الأمل تصيبني كصفعة على وجهي وبالرغبة غير المحققة تعتصرني في قرارة نفسي وأعماقي. وبالرغم من أنني استيقظت من دون حتى أن أعرف كم عمري، فلا بد من أنني أدركت لاشعورياً أنني لطالما تمنيت أن أنجب أطفالاً، ولكنني لم أنجب قط.

وفجأة، رأيت وجه أمي وسمعتها تخبرني عن الساعة البيولوجية وتصفها بالقنبلة الموقوتة. فقد قالت: "اشغلي نفسك بتحقيق كل الأشياء التي تريدين تحقيقها. إن وجدت نفسك متفرغة لها في أحد الأيام، ففي اليوم التالي...".

أدركت قصدها من ذلك الكلام، وهو أن طموحاتي ستختفي كلها وكل ما سأود القيام به عندئذٍ هو إنجاب الأطفال. قالت لي أمي: "هذا ما حدث لي وما سيحدث لك لأنه ما يحدث لجميع النساء".

ولكنه لم يحدث، على ما أظن، أو أن شيئاً آخر هو ما حرمني من تحقيق هذه الأمنية. فنظرت إلى زوجي وقلت له: "وماذا حدث بعد ذلك يا بن؟".

فنظر إليّ وضغط على يدي وقال: "وبعد ذلك فقدت ذاكرتك".

ها هو يعود للحديث عن ذاكرتي! إن كل شيء يعود إلى هذه الحادثة في نهاية المطاف.

أخذت أتأمل المدينة الممتدة أمامي، فرأيت قرص الشمس معلقاً قريباً من الأفق وهو يشع بضعف عبر الغيوم ويلقي بخيوط أشعته على العشب. وأدركت أن الظلام سيخيم قريباً، وأن الشمس ستغرب، وأن القمر سيتوسّط كبد السماء، وبهذا ينتهي يوم آخر وأخسره إلى الأبد.

قلت له ولكن، ليس على صيغة سؤال: "لم ننجب أطفالاً قط".

فلم يجب، ولكنه التفت لينظر إليّ، وأمسك يديّ بين يديه وفركهما ليحميهما من البرد.

ثم قال: "كلا، لم ننجب أطفالاً".

بدت علامات الحزن واضحة على وجهه. أمن أجل نفسه أم من أجلي يا ترى؟ لم أستطع أن أحدد موقفه فعلاً. تركته يفرك يدي ويمسك بأصابعي بين أصابعه. فأدركت أنني بالرغم من كل ارتباكي شعرت بالأمان هنا مع هذا الرجل. واستطعت أن ألاحظ مدى لطفه وصبره ومراعاته للآخرين. وأدركت أن درجة سوء وضعي، مهما وصلت إلى حدٍّ مريع ومأساوي، فقد كان من الممكن أن تصل إلى حدٍّ أسوأ من هذا بكثير.

قلت لبن: "لماذا؟".

فلم يقل شيئاً بل نظر إليّ وتعبير وجهه يوحي بالأسى وخيبة الأمل.

قلت له: "كيف حصل هذا يا بن؟ كيف انتهى بي المطاف هكذا؟".

شعرت بالتوتر يتملكه، وبعد ذلك قال: "هل أنت واثقة من أنك تريدين سماع هذا؟".

تأملت فتاة صغيرة تركب دراجة من بعيد، وأدركت أن هذه ليست المرة الأولى التي أسأله فيها هذا السؤال، وليست المرة الأولى التي يتوجب عليه فيها أن يشرح لي القصة كاملة. فلا بد من أنني أطرح عليه هذا السؤال كل يوم.

قلت: "نعم، أريد أن أسمعه". أدركت الآن أن هذه المرة مختلفة، إذ إنني في هذه المرة سأدوّن القصة في سجل مذكراتي.

أخذ بن نفساً عميقاً وقال: "وقع الحادث في شهر كانون الأول عندما كان الطقس شديد البرودة والطرقات مكسوة بالجليد. كنت قد أمضيت ذلك اليوم بطوله في عملك خارج المنزل. فوقع الحادث في أثناء عودتك إلى البيت. لم يرَ أحد ما جرى، ولم نستطع أن نحدد ما إذا كنت تقطعين الشارع في ذلك الوقت أو أن السيارة التي صدمتك هي التي صعدت فوق الرصيف. وفي كلتا الحالتين، لا بد من أنك ارتطمت بغطاء السيارة وتعرضت لأذى بالغ. إذ إن كلتا ساقيك كُسرتا بالإضافة إلى ذراعك وعظم الترقوة.

أمسك عن الكلام، فأصغيت إلى صوت نبض المدينة الهادئ الناعم، وضجيج السيارات من بعيد، وصوت الطائرة فوق رأسي، وهمس الرياح بين الأشجار.

ضغط بن على يدي وقال: "قال الأطباء إن رأسك هو ما ارتطم بالأرض أولاً، ولهذا السبب فقدت ذاكرتك".

أغمضت عينيّ؛ لكن، لم أستطع أن أتذكر شيئاً عن الحادث، ولهذا، لم أشعر بأي غضب أو حتى استياء. وبدلاً من ذلك، شعرت بأنني مفعمة بندم هادئ وخواء قاتل كموجة ناعمة على سطح بحيرة ساكنة.

أمسك بن بيدي، فوضعت يدي الأخرى فوق يده واستشعرت برودة خاتم زفافه.

قال بن: "من حسن الحظ أنك نجوت".

شعرت بالبرد يسري في أطرافي: "ماذا حدث للسائق؟".

"لم يتوقف، بل صدمك وهرب. إننا لا نعرف حتى الآن من صدمك".

فقلت: "ولكن، من قد تسوّلُ له نفسه أن يرتكب هذه الجريمة؟ من ذاك الذي يصدم إنساناً وينجو بفعلته بهذه البساطة؟".

لم يقل بن شيئاً، ولم أعرف ما يجب أن أتوقعه منه. فكرت في ما قرأته عن لقائي بالدكتور ناش، وتذكرت أنه قال لي إن سبب مرضي ناجم عن مشكلة عصبية أو بنيوية أو كيمائية أو اختلاط هرموني، فافترضت أنه كان يعني بكلامه مرضاً أو حادثاً وقع هكذا بلا مبرر.

ولكنني وجدت هذا التفسير أسوأ مما توقعت. فقد أدركت أن هذا حدث بفعل فاعل وأنه كان من الممكن تجنبه. فلو أنني اتخذت طريقاً مختلفاً مساء ذلك اليوم، أو أن السائق الذي صدمني هو من فعل ذلك، لتغير الوضع، وربما لكنت بقيت على طبيعتي وأصبحت أماً وجدة بحلول هذا الوقت.

سألت بن: "لماذا؟ لماذا حدث هذا؟".

إن هذا سؤال لا جواب له، لذا، لم يقل بن شيئاً. جلسنا بصمت لبعض الوقت وأيدينا متشابكة. خيم الظلام من حولنا، أما المدينة فأضاءت أمامنا وتوهجت مصابيح الشوارع ونوافذ الأبنية. أخذت أحدّث نفسي أن الشتاء أوشك أن يحلّ قريباً، إذ إن شهر تشرين الثاني بدأ وسيليه شهر كانون الأول ثم الميلاد. فوجدت نفسي غير قادرة على تخيل نفسي أنتقل من هذا اليوم إلى الميلاد، أو أتصور العيش في سلسلة من الأيام المتطابقة التي لا يربط بينها أي رابط.

قال بن: "هلا نعود إلى البيت؟".

فلم أجب بل سألته: "أين كنتُ في ذلك اليوم الذي صدمتني فيه السيارة. ما الذي كنتُ أفعله؟".

قال: "كنت عائدة من العمل".

"أي عمل؟ ماذا كنت أعمل؟".

قال: "لقد عملت في وظيفة مؤقتة كسكرتيرة أو مساعدة شخصية لدى شركة محاماة. نعم، أعتقد أن هذه هي المهنة التي عملت بها".

فأوشكت أن أسأله عن السبب، ولكنه استبق الأحداث وأجابني: "لقد توجب عليك أن تعملي لكي يتيسر لنا سداد ديوننا. فقد عانينا وضعاً مادياً صعباً لبعض الوقت".

ولكنني لم أقصد هذا المعنى من سؤالي بل أردت أن أقول: *لقد قلت لي إنني نلت شهادة الدكتوراه أو كنت منهمكة بالتحضير لها. فإذاً، لماذا عملت بتلك الوظيفة؟*

لم يقل بن شيئاً، ولم أعرف ما يجب أن أتوقعه منه. فكرت في ما قرأته عن لقائي بالدكتور ناش، وتذكرت أنه قال لي إن سبب مرضي ناجم عن مشكلة عصبية أو بنيوية أو كيمائية أو اختلاط هرموني، فافترضت أنه كان يعني بكلامه مرضاً أو حادثاً وقع هكذا بلا مبرر.

ولكنني وجدت هذا التفسير أسوأ مما توقعت. فقد أدركت أن هذا حدث بفعل فاعل وأنه كان من الممكن تجنبه. فلو أنني اتخذت طريقاً مختلفاً مساء ذلك اليوم، أو أن السائق الذي صدمني هو من فعل ذلك، لتغير الوضع، وربما لكنت بقيت على طبيعتي وأصبحت أماً وجدة بحلول هذا الوقت.

سألت بن: "لماذا؟ لماذا حدث هذا؟".

إن هذا سؤال لا جواب له، لذا، لم يقل بن شيئاً. جلسنا بصمت لبعض الوقت وأيدينا متشابكة. خيم الظلام من حولنا، أما المدينة فأضاءت أمامنا وتوهجت مصابيح الشوارع ونوافذ الأبنية. أخذت أحدّث نفسي أن الشتاء أوشك أن يحلّ قريباً، إذ إن شهر تشرين الثاني بدأ وسيليه شهر كانون الأول ثم الميلاد. فوجدت نفسي غير قادرة على تخيل نفسي أنتقل من هذا اليوم إلى الميلاد، أو أتصور العيش في سلسلة من الأيام المتطابقة التي لا يربط بينها أي رابط.

قال بن: "هلا نعود إلى البيت؟".

فلم أُجب بل سألته: "أين كنتُ في ذلك اليوم الذي صدمتني فيه السيارة. ما الذي كنتُ أفعله؟".

قال: "كنت عائدة من العمل".

"أي عمل؟ ماذا كنت أعمل؟".

قال: "لقد عملت في وظيفة مؤقتة كسكرتيرة أو مساعدة شخصية لدى شركة محاماة. نعم، أعتقد أن هذه هي المهنة التي عملت بها".

فأوشكت أن أسأله عن السبب، ولكنه استبق الأحداث وأجابني: "لقد توجب عليك أن تعملي لكي يتيسر لنا سداد ديوننا. فقد عانينا وضعاً مادياً صعباً لبعض الوقت".

ولكنني لم أقصد هذا المعنى من سؤالي بل أردت أن أقول: *لقد قلت لي إنني نلت شهادة الدكتوراه أو كنت منهمكة بالتحضير لها. فإذاً، لماذا عملت بتلك الوظيفة؟*

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تذكرت الإحساس الذي راودني في وقت سابق، فقلت: "هل كنت أؤلف الكتب؟".

فهز رأسه وقال: "كلا".

إذاً، فقد كان ذلك مجرد طموح عابر، أو أنني ربما حاولت وفشلت في محاولتي. وبينما أنا أستدير لأسأله، توهّجت السماء. وبعد لحظة، سمعت صوت دوي مرتفع. فنظرت بسرعة إلى الأعلى وأنا مرعوبة من رؤية السماء مليئة بالشرارات التي راحت تنهمر كالشلال على المدينة تحتنا.

فقلت: "ما هذا؟".

قال بن: "إنها ألعاب نارية. إذ سيحل مهرجان الألعاب النارية قريباً".

بعد لحظة، رأينا المزيد من الألعاب النارية تضيء السماء وسمعنا دوياً آخر.

قال: "يبدو أن هناك عرضاً ما. هل تريدين أن نجلس ونشاهده؟".

فأومأت برأسي موافقة، إذ شعرت بأنني لا أمانع ذلك. وبالرغم من أنني وددت أن أسرع إلى البيت لأدون في سجلي ما قاله لي بن، فقد رغبت في البقاء على أمل أن يخبرني المزيد. فقلت: "نعم، لنبق ونشاهد".

ابتسم ابتسامة عريضة ووضع ذراعه حول كتفي. ظل الظلام مخيماً على السماء لبعض الوقت ثم سمعنا صوت انفجار وأزيزاً ثم صفارة عندما انطلقت شرارة صغيرة عالياً في السماء وبقيت معلقة هناك للحظة قبل أن تنفجر على هيئة أضواء برتقالية مصحوبة بدوي يتردد أصداؤه في الأنحاء؛ لقد بدا المنظر جميلاً.

قال بن: "إننا نذهب عادة لمشاهدة العروض الكبيرة المنظمة، ولكنني نسيت أن موعد العرض هو اليوم". ثم قال وهو يداعب عنقي بيده: "هل هذا جيد؟".

فقلت: "نعم"، ونظرت إلى السماء لأتأمل انفجارات الألوان في الهواء والأضواء الصارخة، ثم أضفت: "هذا جميل، نستطيع بهذه الطريقة أن نرى كل العروض".

تنهد بن. فرأيت أنفاسه تشكّل أبخرة أمامنا، وراحت أنفاس كل واحد منا تمتزج بأنفاس الآخر ونحن جالسان بصمت نراقب السماء تضيء وتتلون. تصاعد الدخان من حدائق المدينة وتألقت بألوان صارخة حمراء وبرتقالية وزرقاء وأرجوانية، واستحال هواء الليل دخانياً وفاحت رائحة غريبة حافة ومعدنية.

فلعقت شفتيّ وأحسست بطعم الكبريت. وبينما أنا أفعل ذلك، راودتني ذكرى مفاجئة.

أصابتني الذكرى بحدة وقسوة، فسمعت أصواتاً شديدة الصخب ورأيت أنواراً ساطعة أبهرت بصري. فلم أشعر بأنني مجرد مشاهِدة، بل أحسست بأنني ما زلت في غمرتها. وانتابني إحساس بالسقوط إلى الخلف، فتشبثت بيد بن.

أرى نفسي برفقة فتاةٍ حمراء الشعر واقفةً إلى جانبها فوق سطح أحد المنازل نشاهد الألعاب النارية من بعيد. وأسمع صوت إيقاع الموسيقى التي تعزف في الغرفة التي تقع تحت أقدامنا، وأشعر بهبوب الرياح الباردة التي أخذت ترسل الدخان اللاذع نحونا. وبالرغم من أنني أرتدي ثوباً رقيقاً، فإنني أشعر بالدفء بفعل الشراب الذي أحتسيه والسيجارة التي أمسكها بين إصبعيَّ. أحس بوجود بعض الحصى تحت قدمي، فأتذكر أنني خلعت حذائي وتركته في غرفة الفتاة في الطابق السفلي. ألقي نظرة خاطفة نحوها، فتلتفت إليّ ووجهها مفعم بالحيوية والسعادة.

تقول وهي تأخذ السيجارة مني: "أتريدين سيجارة ممنوعات يا كريسي؟".

ولكنني لا أفهم معنى كلامها، فأطلب منها تفسيراً.

تضحك الفتاة وتقول: "إنك تعرفين ما أعنيه، أي المخدرات. إنني واثقة من أن نيج قد أحضر بعضها. فقد وعدني بأن يفعل ذلك".

فأقول لها: "لست واثقة من أنني أريدها".

"لِمَ لا؟ سنستمتع كثيراً".

أضحك وأستعيد السيجارة منها ثم آخذ نفساً عميقاً وكأنني أريد أن أثبت لها أنني لست مملة. فقد سبق وتعاهدنا ألا نكون مملتين أبداً.

أقول لها: "لا أعتقد ذلك. إنني لا أحب هذا النوع من الأشياء، بل أريد وحسب أن ألتزم بهذا النوع من السجائر والشراب، حسناً؟".

فتقول: "كما تشائين". وتشيح بوجهها لتراقب المشهد من فوق الحاجز. فألاحظ أنها تشعر بخيبة الأمل بالرغم من أنها ليست غاضبة. وأتساءل بيني وبين نفسي إن كانت ستتعاطى المخدرات بمفردها على كل الأحوال.

ولكنني أشك في ذلك، إذ إنني لا أحظى بصديقة مثلها تعرف كل شيء عني وأثق بها أحياناً أكثر مما أثق بنفسي. أنظر إليها متأملة شعرها الأحمر الذي تداعبه

الرياح والسيجارة المتوهجة في الظلام: ترى أهي سعيدة بالمصير الذي آلت إليه حياتها، أم أنه ما زال من المبكر أن أعرف ذلك؟

تقول الفتاة: "انظري إلى هذا". وتشير بيدها إلى انفجار المفرقعات الذي يشكل وميضاً أحمر خلف الأشجار. وتضيف قائلة: "تباً! ما أجمله! أليس كذلك؟".

فأنفجر ضاحكة وأتفق معها أنه جميل فعلاً ثم نجلس صامتتين لبضع دقائق ونحن نتبادل السيجارة في ما بيننا. وفي نهاية المطاف، تعرض عليّ ما تبقى من السيجارة، ولكنني أرفض، فتسحقها على الإسفلت بحذائها.

تقول لي وهي تقبض على ذراعي: "ينبغي لنا أن ننزل إلى الطابق السفلي، هناك شخص أريدك أن تقابليه".

فأقول: "ليس مجدداً". لكنني أنصاع لها بالرغم من ذلك. فننزل معاً ونمر بشاب وشابة يتحدثان على الدرج. أقول للفتاة: "لا أريد التعرف إلى المزيد من رفاق صفك التافهين".

تقول لي وهي تنزل الدرج: "لا تتفوهي بهذه السخافة. كنت أظنك ستعجبين بآدم!".

فأرد عليها قائلة: "لقد أعجبت به فعلاً إلى أن اكتشفت أنه شاب غريب الأطوار".

تضحك وتقول: "حسناً! من أين لي أن أعرف أنه اختارك أنت بالذات ليكشف لك عن حقيقة شخصيته؟ إن هذا الشاب مختلف. سيعجبك، أنا متأكدة من هذا. تعرّفي إليه وحسب ولا تشعري بأي توتر".

فأقول لها: "حسناً". أفتح الباب، فندخل إلى الحفلة.

تبدو الغرفة كبيرة وذات جدران إسمنتية ومصابيح كهربائية مكشوفة معلقة من السقف. نتوجه في طريقنا إلى المطبخ ونحضر بعض الشراب ثم نعثر على مكان شاغر بجانب النافذة. أقول لها: "إذاً، أين ذلك الشاب؟"، ولكنها لم تسمعني. يبدأ الشراب يحدث مفعوله بي، فأشرع بالرقص. أرى الغرفة من حولي مليئة بأناس يرتدي معظمهم اللون الأسود. فأفكر في سرّي: *هؤلاء هم طلاب الفنون التافهون!*

يتقدم شخص ما ويقف أمامي، فأميزه على أنه كيث، إذ إننا التقينا من قبل في حفلة أخرى حيث انتهى بنا المطاف ونحن نغازل بعضنا. ومع ذلك، أراه الآن يتحدث إلى صديقتي ويشير إلى إحدى لوحاتها المعلقة على الجدار في غرفة المعيشة. فأتساءل إن كان يؤثر أن يتجاهلني أو أنه لا يتذكر أنه قابلني من قبل. وفي كلتا الحالتين، أعتبره مجرد وغد وألهي احتساء شرابي.

أقول: "أتريدين شراباً آخر".

فتقول صديقتي: "نعم، هل تمانعين أن تحضريه بينما ألهي حديثي إلى كيث؟ سأعرفك في ما بعد على ذلك الشاب. اتفقنا؟".

أضحك وأقول: "حسناً". وأشق طريقي إلى المطبخ.

سمعت صوتا عالياً يناديني قائلاً: "كريستين! كريس! هل أنت بخير؟"، فشعرت بالارتباك. إذ إن الصوت بدا مألوفاً، ففتحت عينيّ وأدركت بدهشة أنني خارج المنزل في هواء الليل على التل بجانب بن وهو يناديني والألعاب النارية تتوهج أمامي محوّلة السماء إلى لون أحمر كالدم. قال بن: "لماذا تغمضين عينيك؟ ما الأمر؟ هل هناك خطب؟".

فقلت: "كلا، لا شيء". وشعرت برأسي يدور، وأنني بالكاد قادرة على التنفس. أشحت بوجهي بعيداً عن زوجي متظاهرة أنني أريد متابعة ما تبقى من العرض. قلت: "إنني آسفة، ليس هناك أي خطب. إنني بخير".

قال بن: "إنك ترتعشين. هل تشعرين بالبرد؟ هل تريدين أن نذهب إلى البيت؟".

فأدركت أنني أرغب في الذهاب فعلاً لأدون الذكرى التي راودتني للتو.

قلت: "نعم، ألديك مانع؟".

بينما نحن في طريقنا إلى البيت، أعدت التفكير في تلك الذكرى التي مرت بذهني ونحن نشاهد الألعاب النارية. فقد صدمتني بشدة وضوحها، وجذبتني بقوة حتى شعرت بأنني أعيشها من جديد. وشعرت بكل شيء جرى معي، وأحسست بهبوب الهواء البارد وفوران الشراب وحرارة الدخان في حنجرتي. عشت كل شيء فيها وكأنه حقيقي. وبدت حقيقية فعلاً ربما أكثر من الحياة التي فتحت عينيّ عليها عندما اختفت الذكرى.

لم أدرك بالتحديد الوقت الذي حدثت فيه تلك الذكرى. فافترضت أنها من أيام الجامعة أو ربما بعدها قليلاً. فقد بدت الحفلة التي رأيت نفسي أرتادها من نوع الحفلات التي يستمتع بها صغار السن من الراشدين. إذ إنها أوحت إليّ بالخفة والخلو من الأعباء وعدم الشعور بالمسؤولية.

أوحت إليّ الذكرى أيضاً بأهمية تلك الفتاة في حياتي وبوجود صداقة متينة تجمع بيني وبينها. وبالرغم من أنني لم أعرف من هي، فقد شعرت بنوع من الأمان والطمأنينة إلى جوارها.

تساءلت إن كنا ربما لا نزال مقربين، وحاولت أن أفاتح بن بالموضوع وهو يقود السيارة. بدا هادئاً ومشتت الذهن بالرغم من أنه لم يكن حزيناً. وخطر ببالي أن أخبره كل شيء عن الذكرى التي راودتني ثم قررت ألا أخبره شيئاً. وبدلاً من ذلك، سألته عن الأصدقاء الذين كنت أعرفهم في الفترة التي التقينا فيها.

فقال: "كان لك عدد كبير من الأصدقاء. فقد كنت تتمتعين بشعبية واسعة".

"ألم تكن لي صديقة مقربة ومميزة عن باقي الأصدقاء؟".

ألقى نظرة خاطفة عليّ وقال: "كلا، لا أظن ذلك. ليست هناك صديقة محددة".

"هل أنت واثق من هذا؟".

فقال: "نعم، إنني واثق". ثم استدار ليواجه الطريق. بدأ المطر ينهمر، ورأيت النور منعكساً من المتاجر ومن اللافتات المضيئة فوقها على الطريق. فكرت في الأسئلة الكثيرة التي وددت أن أطرحها عليه، ولكنني التزمت الصمت. وبعد بضع دقائق، فات الأوان على الكلام. فقد وصلنا إلى البيت. وبدأ بن بتحضير العشاء. لقد فات الأوان فعلاً.

* * *

حالما انتهيت من الكتابة، ناداني بن لأنزل وأتناول العشاء. وكان قد أعد المائدة وسكب كأسين من الشراب، لكنني لم أكن أشعر بالجوع، ووجدت السمك جافاً، فتركت معظم وجبتي من دون أن أمسها. وبعد ذلك، عرضت عليه أن أغسل الأطباق لأنه قام بالطهي. فحملت الأطباق إلى حوض الجلي وغسلتها بالماء الساخن وأنا أتمنى من كل قلبي طوال هذا الوقت أن أتمكن من اختلاق

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عذر لأصعد إلى الطابق العلوي وأقرأ سجلي، وربما لأكتب المزيد، ولكنني لم أستطع ذلك. إذ إن تمضية الكثير من الوقت وحدي في الغرفة قد يثير الشكوك، ولهذا، فقد أمضينا بقية الأمسية معاً نشاهد التلفزيون.

عجزت عن الاسترخاء. ورحت أفكر طوال الوقت في سجلي وأنا أراقب عقرب الساعة الموضوعة على الموقد يدنو من التاسعة ثم العاشرة ثم العاشرة والنصف. وأخيراً، عندما اقترب من الحادية عشرة، أدركت أنني لن أحظى بمتسع من الوقت للكتابة هذه الليلة. فقلت: "أعتقد أنني سآوي إلى الفراش. فقد أمضيت يوماً مرهقاً".

ابتسم بن وهو يميل برأسه نحوي وقال: "حسناً، يا حبيبتي. سأوافيك بعد لحظة".

أومأت برأسي موافقة. وبينما أنا أغادر الغرفة، شعرت برعب يتسلل إلى قلبي. وذكرت نفسي قائلة: *إن ذلك الرجل زوجي وأنا زوجته*. ومع ذلك، فقد ظللت أشعر بأن النوم إلى جانبه على السرير نفسه خطأ. و لم أتذكر حتى إنني قمت بذلك من قبل. و لم أعرف ما يجب أن أتوقعه.

دخلت إلى الحمام ونظفت أسناني من دون حتى أن أنظر إلى المرآة أو إلى الصور التي حولها. وبعد ذلك، دخلت إلى غرفة النوم. فوجدت قميص نومي مطوياً بأناقة على وسادتي. وبدأت أغير ملابسي. فقد أردت أن أجهز نفسي وأندس تحت غطاء سريري قبل أن يدخل إلى الغرفة. وخطرت لي فكرة سخيفة بأن أتظاهر بأنني مستغرقة في النوم.

خلعت كنزتي ونظرت إلى نفسي في المرآة، فرأيت الملابس الداخلية البنفسجيّة التي ارتديتها صباح اليوم. وبينما أنا أتأملها بتمعن، خطرت لي ذكرى خاطفة عن نفسي وأنا صغيرة؛ فرأيت نفسي أسأل أمي لماذا ترتدي ملابسَ داخلية كهذه وأنا لا. وتخيلتها تقول لي إنني سأفعل ذلك يوماً ما عندما أكبر. والآن، حل هذا اليوم، ولكنه لم يأتِ بالتدريج بل فجأة. واتضحت لي الآن حقيقة أكثر وضوحاً من الخطوط حول عيني والتجاعيد على يدي، وهي حقيقة أنني لم أعد فتاة صغيرة بعد الآن بل امرأة ناضجة، كل شيء فيها يدل على نضجها.

ارتديت قميص النوم من رأسي وشددته إلى الأسفل ثم مددت يدي من تحته وخلعت الملابس الداخلية. لم أشعر برغبة في رؤية أي جزء من جسمي أو تفحصه بعد الآن، أو ليس الليلة على الأقل. حالما أنهيت خلع ملابسي التي ارتديتها صباح اليوم، دسست نفسي تحت الأغطية واستلقيت على جنبي وأغمضت عينيّ.

سمعت صوت تكتكات الساعة في الطابق السفلي. وبعد لحظة، أتى بن إلى الغرفة. لم أتحرك، بل أصغيت بهدوء إلى صوته وهو يغير ملابسه وشعرت بتحرك السرير عندما جلس على طرفه. ظل ساكناً للحظة ثم شعرت به يضع يده على وركي.

قال لي بصوت أقرب إلى الهمس: "هل أنتِ مستيقظة يا كريستين؟"، فتمتمت أنني لا أزال مستيقظة. فسألني: "هل تذكرت إحدى صديقاتك اليوم؟"، فتحت عينيّ واستلقيت على ظهري لأواجهه. فلاحظت كتفيه العريضتين وهو جالس ووجهه في الاتجاه الآخر.

فقلت: "نعم"، فالتفت ليواجهني.

"ماذا تذكرت؟".

تحدثت بشكل مبهم قائلة: "تذكرت حفلة كنا فيها طالبتين على ما أعتقد".

عندئذ وقف بن واستدار ليستلقي على السرير. فبدا شكله غير واضح في الظلام. انتابني شعور غريب لوجوده معي في الغرفة نفسها وكأنها تجربة جديدة لا آلفها. وتساءلت عن ذكرياتنا السابقة والليالي التي أمضيناها معاً في هذه الغرفة، ولكنني شعرت بأنني مجبرة على الإشاحة بوجهي.

قال لي وهو يسحب الغطاء ليغطي به نفسه: "لقد تذكرت هذه الحفلة من قبل. إذ إنها تعود إلى ذاكرتك بشكل متكرر. يبدو أن هناك ذكريات محددة تعاودك بانتظام".

تنهدت بأسى، إذ إن كلامه أوحى إليّ بمغزى واحد، وهو: *لا ينطوي ما قلته على أي شيء جديد أو مثير للاهتمام*. تمدد بجانبي وشد الغطاء فوق كلينا. ولم يعتّم الغرفة.

سألته: "هل تعاودني الذكريات في كثير من الأحيان؟".

"نعم، إنك تتذكرين بعض الأشياء في معظم الأيام".

"أهي الأشياء نفسها؟".

استدار ليواجهني واضطجع متكئاً على مرفق يده ثم قال: "نعم، إنها عادة الأشياء نفسها. فمن النادر أن تطرأ أيّ مفاجأة".

أشحت بنظري عن وجهه ونظرت إلى السقف وقلت: "هل أتذكرك على الإطلاق؟".

التفت إليّ وقال: "كلا". ثم أمسك يدي وضغط عليها بحنان قائلاً: "كلا، ولكن لا بأس بهذا. فأنا أحبك بالرغم من كل شيء".

قلت: "لا بد من أن هذا يشكل عبئاً كبيراً عليك".

وضع يده على ذراعي وبدأ يربت عليها، فأجفلت. قال: "كلا، ليس هذا عبئاً على الإطلاق. فأنا أحبك".

اقترب مني والتصق بي بلطف، فأغمضت عيني بارتباك. ترى هل يريد التودد إليّ؟ لقد كنت أعتبره مجرد شخص غريب بالرغم من أنني أدركت بشكل عقلاني أن هذا التصرف طبيعي ويحدث كل ليلة منذ تزوجنا. ومع ذلك، فلم أشعر، وأنا بحالتي الجديدة هذه، بأنني أعرفه لأكثر من يوم واحد.

قلت له: "إنني خائرة القوى يا بن".

فأخفض صوته وبدأ يتمتم قائلاً: "أعلم هذا يا حبيبتي". واقترب مني أكثر وهو يداعبني بلطف. فسرت في داخلي موجة من القلق وبدأت تتنامى وتزداد إلى درجة الفزع.

فقلت: "إنني آسفة يا بن". وأمسكت بيده وربت عليها بلطف وأنا أقاوم رغبتي في إبعادها عني وكأنها شيء مثير للاشمئزاز. وأضفت قائلة: "إنني متعبة وأريد أن أنام. ألديك مانع؟".

فالتزم الصمت وسحب يده بسرعة وتمدد على ظهره. وانطلقت من فمه تنهيدة خيبة أمل خافتة. احترت في ما يجب أن أقوله. فقد أدركت في أعماقي أنه عليّ أن أعتذر له، ولكنني أيضاً أقنعت نفسي بأنني لم أرتكب أي خطأ. تمددنا معاً بصمت من دون أن يلامس أحدنا الآخر. تساءلت كم مرة تكرر فيها هذا الموقف نفسه بحذافيره، وكم مرة أتى إليّ متعطشاً لحبي وما إذا كنت أنا أيضاً أتوق إلى

حبه أو أشعر بأنني قادرة على مبادلته المشاعر نفسها. وتساءلت عن كل مرة حدث فيها هذا وتبعه هذا الصمت الأخرق إن لم أمنحه شيئاً مما يتوق إليه.

قال بعد بضع دقائق: "تصبحين على خير يا حبيبتي". ثم تلاشى التوتر الـــذي ساد بيننا. فانتظرت إلى أن بدأ يشخر بنعومة وتسللت من السرير، وبدأت أدوّن ما حدث.

تمنيت من كل قلبـــي أن أتذكره ولو مرة واحدة.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

يوم الاثنين 12 تشرين الثاني

تشير الساعة إلى الرابعة عصراً، ويبدأ الظلام بالهبوط. لن يعود بن إلى البيت الآن، ولكنني أجلس وأكتب وأنا أرهف السمع إلى صوت سيارته عندما يصل. أضع علبة الحذاء بجانب قدمي ويبدو الورق الذي ألف به هذا السجل ظاهراً منها. إن عاد بن فجأة، فسأضع سجلّي في الخزانة وأقول له إنني كنت أنال قسطاً من الراحة. إن هذه كذبة، ولكنها ليست كذبة شنيعة وليس هناك أي ضرر من رغبتي في الاحتفاظ بمحتويات سجلي طي الكتمان. يجب أن أدون ما رأيته وما عرفته، ولكن هذا لا يعني أنني أريد لأيٍّ كان أن يقرأه.

قابلت الدكتور ناش اليوم، فجلسنا مقابل بعضنا بعضاً إلى طاولة مكتبه، ورأيت خلفه خزانة ملفات عليها نموذج بلاستيكي يمثل شكل الدماغ البشري مشقوقاً بأناقة في المنتصف وكأنه برتقالة مقسومة إلى نصفين.

سألني الطبيب عن آخر أخباري فقلت: "إنني على ما يرام، على ما أعتقد". إنه سؤال صعب لأن أجيب عنه. إذ إن الساعات القليلة التي أمضيتها اليوم منذ استيقاظي صباحاً هي الساعات الوحيدة التي أستطيع تذكرها بوضوح. قابلت زوجي وكأنني أقابله للمرة الأولى بالرغم من أنني أدركت أنها ليست كذلك واتصل بي أحد الأطباء ليطلعني على أمر سجل المذكرات. وبعد الغداء، أتى ليقلني بسيارته إلى العيادة.

قلت: "لقد دونت بعض الأشياء في سجلي بعد أن اتصلت بي يوم السبت".

انبسطت أسارير الطبيب وقال: "هل تظنين أنه شكل مصدر مساعدة لك؟".

فقلت: "أعتقد ذلك". وحدثته عن الذكريات التي خطرت ببالي وعن الذكرى التي عاودتني عن صديقتي التي قابلتها في الحفلة، وعن تذكري لمرض والدي. فانهمك الطبيب بتدوين الملاحظات في أثناء كلامي.

قال لي: "أما زلت تتذكرين تلك الأحداث الآن؟ هل تتذكرها عندما استيقظت صباح هذا اليوم؟".

ترددت قليلاً إذ إنني في الواقع لم أتذكر شيئاً أو على الأقل بعض الأشياء. فقد قرأت صباح اليوم ما كتبته عن يوم السبت وعن الفطور الذي تناولته مع زوجي وعن ذهابنا إلى تل البرلمان. وشعرت بأن ذلك كله أشبه بقصة خرافية لا تمت لي بصلة. ووجدت نفسي أقرأ الفقرة نفسها وأعاود قراءتها مرة تلو أخرى محاولة أن أثبتها في ذهني وأرسخها. فاستغرقت ساعة إلى أن انتهيت من هذا في نهاية المطاف.

قرأت عن الأشياء التي حدثني بها بن وعن كيفية لقائنا وزواجنا وكيف عشنا معاً وأن أي شعور لم يتملكني لسماع هذه الذكريات. ومع ذلك، فقد ظلت بعض الأمور الأخرى باقية في ذاكرتي. فعلى سبيل المثال، هناك صديقتي التي لم أتذكر مجرد تفاصيل عن لقائي بها في الحفلة، مثل الألعاب النارية والوقوف معها على سطح المنزل ومقابلة شاب يدعى كيث، وإنما أيضاً ذكراها ظلت راسخة في أعماقي. وبينما أنا أعيد قراءة ما كتبته ليوم السبت محاولة أن أرسخه في ذهني وأفهمه، تذكرت المزيد من التفاصيل عن تلك الحادثة. فقد رأيت شعرها الأحمر المتوهج، والملابس السوداء المفضلة لديها، وحزامها ذا الأزرار، وأحمر الشفاه الفاتح، وأسلوبها في التدخين وكأنه أروع شيء في العالم. وتذكرت الليلة التي التقينا فيها للمرة الأولى في قاعة النادي الليلي التي يكتنفها دخان السجائر وتسودها الحيوية وصوت الصفير والضجيج بسبب لعبة الكرة والدبابيس. في ذلك الوقت، أشعلت الفتاة سيجارتي عندما طلبت منها ذلك ثم عرفتني بنفسها وسألتني إن كنت أود الانضمام إليها وإلى أصدقائها. فاحتسينا الكثير من الشراب. وفي وقت لاحق، ساعدتني عندما دخلت إلى الحمام وتقيأت معظمه، ثم قالت لي وهي تضحك: "أعتقد أننا أصبحنا الآن صديقتين بشكل مؤكد". وبينما أنا أحاول النهوض على قدمي قالت: "إنني لم أكن لأفعل هذا لأي شخص كان، كما أؤكد لك". فشكرت صنيعها. وبينما أنا أشرح لها الدافع وراء تصرفي من دون تفكير، قلت لها إن والدي قد توفي. فقالت: "يا للأسف!"، وبعد ذلك، اصطحبتني إلى غرفتها، وهذا ربما أول تصرف من تصرفاتها الغريبة التي تنقلب بها فجأة من الصخب والفوضى إلى التعاطف والمحبة. فتناولنا بعض الخبز المحمص وشربنا القهوة السادة

ونحن طوال الوقت نصغي إلى الأسطوانات الموسيقية ونتحدث عن حياتنا حتّى بدأ الفجر يبزغ. كانت الغرفة مليئة برسومات معلقة على الجدار وموضوعة على السرير ودفاتر رسم منثورة في أنحاء الغرفة. فسألتها: "إذاً، أنت فنانة أليس كذلك؟"، فأومأت برأسها وقالت: "لهذا السبب أنا هنا". وتذكرتُ أنها أخبرتني أنها تدرس الفنون الجميلة. قالت لي: "سينتهي بي المطاف وأنا أعمل معلمة بالطبع، ولكن في تلك الأثناء لا مانع من أن أحلم قليلاً، أليس كذلك؟"، فضحكت ثمّ سألتني: "وماذا عنك؟ ماذا تدرسين؟"، فأخبرتها أنني أدرس اللغة الإنكليزية، فقالت: "آه! إذاً، هل تريدين أن تولفي الروايات أم أن تدرّسي؟"، وضحكت ضحكة لطيفة، ولكنني لم أذكر لها القصة التي كنت أعمل على تأليفها في غرفتي قبل أن أخرج من البيت. وقلت: "لست أدري. أعتقد أنني أفكر بطريقة أسلوبك نفسها". فضحكت مجدداً. ثمّ قلت لها: "حسناً، هذا نخبنا". وشربنا نخبنا بالقهوة السادة. وشعرت للمرة الأولى منذ أشهر بأن الحياة قد تؤول إلى مآل حسن في نهاية المطاف.

لقد تذكرت كل هذه التفاصيل. وأنهكني ذلك الجهد الذي بذلته من أجل البحث لأملأ الفراغ الذي يسكن ذاكرتي ومحاولتي أن أعثر على أي تفصيل صغير قد يشكل شرارة تعيد الذكرى إليّ، ولكن ماذا عن ذكريات حياتي مع زوجي؟ لقد تلاشت برمتها. و لم تحرك قراءة تلك الكلمات حتى البقية الباقية مما تبقى من تلك الذكرى. وشعرت بأن النزهة التي خرجنا بها إلى تل البرلمان لم تحدث قط، وأن أياً من الأشياء التي أخبرني بها ليست حقيقية.

قلت للدكتور ناش: "لا أزال أتذكر بعض الأشياء. إنها أشياء حدثت في الماضي عندما كنت شابة. تذكرتها البارحة ولا تزال حتى الآن راسخة في ذاكرتي، كما أنني أستطيع أن أتذكر المزيد من التفاصيل أيضاً، ولكنني أعجز عن تذكر ما فعلناه البارحة على الإطلاق. قد أحاول تشكيل صورة للمشهد الذي وصفته في سجلّي، ولكنني أدرك أنها ليست ذكرى بل مجرد تخيلات ابتدعتها بنفسي".

أومأ الطبيب برأسه وقال: "هل هناك أي شيء تتذكرينه من البارحة؟ أي تفصيل صغير عن مساء البارحة على سبيل المثال؟".

فكرت في ما كتبته حول الوقت الذي أويت فيه إلى الفراش. وأدركت أنني كنت أشعر بالذنب لأنني، بالرغم من لطف زوجي وحنانه، لم أتمكن من منحه حبي. فكذبت على الطبيب وقلت: "كلا، لا أتذكر شيئاً".

تساءلت ما الذي قد يود أن يحاول تغييره في نفسه لكي أرغب في أخذه بين ذراعي وإغداق حبي عليه. أعليه أن يهديني زهوراً أو بعض الشوكولاته؟ أعليه أن يمهد طريقه برسائل الغرام في كل مرة يريد فيها مني أن أبادله الحب وكأننا نفعل ذلك للمرة الأولى؟ أدركت أن كل الممرات المؤدية إلى قلبي أصبحت مغلقة في وجهه، إذ إنه لم يعد يستطيع حتى أن يُسمعني الأغنية التي رقصنا عليها للمرة الأولى أو في زفافنا، أو أن يعيد طهي الوجبة التي استمتعنا بها في أول مرة تناولنا فيها طعامنا معاً لأنني لا أتذكر ما هي تلك الأشياء. وفي مطلق الأحوال، فأنا زوجته وينبغي له ألاّ يتودد إليّ في كل مرة وكأنه يفعل ذلك للمرة الأولى.

ولكن هل حدث ولو لمرة واحدة أن سمحت له بملاطفتي أو شعرت أنا بالرغبة في ذلك؟ ترى هل استيقظت ذات مرة مدركة للرغبة الكامنة في داخلي من دون أن يعيقني أي شيء عن التعبير عنها؟

قلت للطبيب: "إنني حتى لا أتذكر بن. ولم تكن لديّ أيّ فكرة عن هويته صباح هذا اليوم".

أومأ وقال: "أكنت تودين ذلك؟".

فكدت أن أضحك، ولكنني بدلاً من ذلك قلت: "بالطبع أريد ذلك. إنني أريد أن أتذكر الماضي، وأن أعرف هويتي وهوية الرجل الذي تزوجته. إن كل هذه الأمور تشكلُ جزءاً لا يتجزأ من مشكلتي...".

قال: "بالطبع". ثم اتكأ على مرفقيه على المكتب وضم يديه إلى بعضهما بعضاً أمام وجهه وكأنه يفكر ملياً في ما قلته أو في ما يجب أن يرد عليّ به. فتابع كلامه قائلاً: "إن ما أطلعتني عليه مشجع جداً، إذ إنه يوحي بأن ذكرياتك لم تتلاشَ بأكملها. إن المشكلة التي تعانينها ليست خللاً في تخزين المعلومات بل في الوصول إليها بعد تخزينها".

فكرت لبعض الوقت ثم أجبته: "أتقصد بكلامك أن ذكرياتي مخزنة في ذهني ولكنني لا أستطيع وحسب أن أصل إليها وأستعيدها؟".

ابتسم وقال: "نعم، إن كنت تودين ذلك".

فشعرت بالإحباط وباللهفة في آن معاً وقلت: "إذاً، كيف أتذكر المزيد من التفاصيل؟".

استند على ظهر كرسيه وتأمل الملف المفتوح أمامه، ثم قال: "عندما قابلتك الأسبوع الماضي وأعطيتك سجل المذكرات، هل كتبت أنني أريتك صورة لبيت عائلتك القديم الذي نشأت فيه في طفولتك؟".

فقلت: "نعم".

"يبدو أنك بدأت تتذكرين المزيد من الأحداث بعد أن رأيت تلك الصورة. فقد تذكرت أموراً أكثر بكثير مما تذكرته عندما سألتك عن المكان الذي كنت تعيشين فيه من دون أن أريك الصورة أولاً..."، سكت قليلاً ثم قال: "وهذا، مرةً أخرى، لا يثير الدهشة، ولكنني أود أن أكتشف ما سيحدث إن أريتك صوراً من المرحلة التي لا تتذكرينها وأن أرى إن كنت ستستعيدين أيّ ذكريات عن تلك المرحلة".

ترددت بعض الشيء وأنا غير واثقة من الغاية التي قد يوصلني إليها هذا الطريق، ولكنني كنت متأكدة من أنه طريق لا خيار لديّ إلا أن أسلكه وأمضي به إلى النهاية.

فقلت: "حسناً".

قال: "سننظر اليوم إلى صورة واحدة فقط"، ثمّ أخرج صورة من آخر الملف المفتوح أمامه ومشى إلى الجانب الآخر من المكتب ليجلس بجانبي. وقال: "قبل أن تلقي نظرة عليها، سأسألك: هل تتذكرين أي شيء عن زفافك؟".

فكرت لوهلة، ولكنني كنت أعرف من قبل أن ذاكرتي خالية تماماً من أيّ ذكرى عن الزفاف. وعلى حدّ علمي، إن زواجي من الرجل الذي استيقظت ووجدته بجانبي صباح اليوم لم يحدث على الإطلاق.

فقلت: "كلا، لا أتذكر شيئاً".

"هل أنت واثقة من هذا؟".

فأومأت قائلة: "نعم".

وضع الصورة على المكتب أمامي، وقال وهو ينقر عليها: "لقد تزوجت هنا". وكانت الصورة لدار عبادة ذات سقف منخفض وبرج صغير. فوجدتها غير مألوفة أبداً.

"هل تتذكرين شيئاً؟".

أغمضت عيني وحاولت أن أفرغ ذهني من كل شيء قد يعكر صفوه، فراودتني ذكرى عن الماء وصديقتي وسقف مائل بالأبيض والأسود ولا شيء آخر.

"كلا، لا أتذكر أنني رأيت هذا المكان من قبل قط".

فقال والإحباط بادٍ عليه: "هل أنت واثقة من هذا؟".

أغمضت عيني مجدّداً، لكنني لم أرَ شيئاً على الإطلاق. حاولت أن أفكر في يوم زفافي وأتصوره، فتخيلت نفسي بفستان الزفاف وبن وهو يرتدي بدلة رسمية واقفَين على العشب أمام دار العبادة، ولكن لم تخطر ببالي أي ذكرى، واستولى عليّ الأسى. فلا بد من أنني كأي عروس أخرى أمضيت أسابيع وأنا أخطط للزفاف وأختار الفستان وأنتظر بقلق إجراء التعديلات عليه والتنسيق مع مصفّف الشعر وأفكر في ما سأضعه من مساحيق التجميل. تخيلت نفسي وأنا أحدد لائحة الطعام لذلك اليوم وأختار أغنية الزفاف وأنتقي الزهور وأنا أتمنى طوال الوقت أن يرقى ذلك اليوم إلى توقعاتي المستحيلة، ولكن، ليس لديّ الآن أي شيء يمكّنني من معرفة إن كان ذلك حدث فعلاً. لقد حرمني الحادث من هذه الذكرى الجميلة، ومُحِيَ كل أثر للماضي بخلاف شيء واحد، وهو الرجل الذي تزوجته.

قلت للطبيب: "كلا، لا أتذكر شيئاً".

أعاد الدكتور ناش الصورة إلى مكانها وقال: "حسب الملاحظات التي كتبتها خلال فترة علاجك الأوّلية، فقد تزوجت في مانشستر في دار عبادة تدعى دار عبادة سانت مارك. إن هذه صورة حديثة لها، وهي الصورة الوحيدة التي بين يدي، ولكنني أتخيل أنها تبدو اليوم تقريباً كما بدت ذلك اليوم".

قلت له بصيغة سؤال وأسلوب تصريحي في الوقت نفسه: "ليست هناك صور لزفافنا؟".

"كلا، فقد فقدتماها في حريق شب في شقتكما على حد علمي".

أومأت برأسي. إذ عندما سمعته يقول هذا، شعرت بأنه جعل الفكرة تصبح أكثر رسوخاً في ذهني وأكثر واقعية. وأدركت أن حقيقة كونه طبيباً منحت هذه الكلمات مصداقية ربما لا يتمتع بها بن.

سألته: "متى تزوجنا؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"لا بد من أن ذلك حدث في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي".
فقلت: "قبل الحادث الذي تعرضت له...".
بدا الدكتور ناش قلقاً بعض الشيء، فتساءلت إن كنت قد تحدثت إليه من قبل عن الحادث الذي أدى إلى إصابتي بفقدان الذاكرة.
فقال: "هل تعرفين ما الذي تسبب لك بفقدان الذاكرة؟".
قلت: "نعم، فقد تحدثت إلى بن بهذا الصدد في أحد الأيام وقال لي كل شيء، ودونته في سجل مذكراتي".
فأومأ برأسه وقال: "كيف تشعرين حيال ما قاله لك؟".
فكرت ملياً وقلت: "لست متأكّدة مما أشعر به". إن الحقيقة هي أن ذاكرتي لا تسجل شيئاً عن ذلك الحادث، ولهذا، لم أشعر بأنه حقيقي بتاتاً. فكل ما أعانيه الآن هو تأثيرات الحادث والنتيجة التي وصلت إليها الآن بسببه. فقلت: "أشعر بأنه ينبغي لي أن أكره الشخص الذي تسبب لي بذلك ولا سيما أن أحداً لم يقبض عليه ويعاقبه لتسببه بالحالة التي وصلت إليها وتدميره لحياتي، ولكن الغريب في الأمر هو أنني لا أكرهه فعلاً ولا أستطيع ذلك. فأنا عاجزة عن تخيله أو تصور شكله وكأنه بالنسبة إليّ مجرد شبح لا وجود له".
بدا الطبيب محبطاً وقال: "أهذا رأيك؟ أتظنين أن حياتك مدمرة؟".
قلت له بعد برهة: "نعم، هذا هو رأيي". التزم الطبيب الصمت، فسألته: "أليس هذا صحيحاً؟".
لا أدري ما الذي توقعت منه أن يقوله أو يفعله، ولكنني أظن أنني وددت من أعماق قلبي أن يقول لي إنني مخطئة وأن يحاول إقناعي بأن حياتي تستحق أن أعيشها، ولكنه لم يفعل ذلك بل راح يرمقني بنظرة ثابتة. فلاحظت كم بدت عيناه لافتتين للنظر، إذ إنهما زرقاوان منقطتان بالرمادي.
قال: "إنني آسف يا كريستين، آسف حقاً، ولكنني أبذل كل طاقتي وأعتقد أنني أستطيع أن أقدم لك المساعدة فعلاً. يجب أن تصدقي هذا".
فقلت: "إنني أصدقه".
وضع الطبيب يده على يدي التي كنت أضعها على المكتب بيني وبينه، فشعرت بيده ثقيلة ودافئة. ضغط على يدي برفق، فشعرت للحظة أنني محرجة من

أجله ومن أجل نفسي، ولكنني عندئذ نظرت إلى وجهه وتأملت ملامحه المفعمة بالأسى، فأدركت أن تصرفه هذا هو مجرد تصرف شاب يحاول أن يخفف عن امرأة عجوز أحزانها ليس إلا.

قلت له: "أرجو المعذرة، فأنا أريد أن أستخدم الحمام".

عندما عدت، وجدته يصب القهوة لكل منا. فجلسنا على الجانبين المتقابلين من المكتب ونحن نرتشف قهوتنا. بدا غير راغب في النظر إلى عيني، وراح بدلاً من ذلك يقلب الأوراق التي على مكتبه ويعبث بها بانفعال. في البداية، ظننت أنه محرج بسبب لمسه ليدي، ولكنه نظر إليّ وقال: "أريد أن أطرح عليك سؤالاً يا كريستين. إنها في الواقع فكرة خطرت لي وتجربة أود إجراءها معك. ألديك مانع؟".

قلت: "فيمَ تفكر؟"، وشعرت بالتوتر، ولكنني ارتحت أيضاً لأنه أوشك أخيراً أن يطلعني على ما يدور في ذهنه.

قال الطبيب: "بعد زواجك من بن، سكنتما معاً في بيتكما الكائن غرب لندن"، سكت قليلاً، فسمعت صوت أمي يهمس في أذني وهي تقول: *تعيشان حياة آمنة!* ورأيتها تهز رأسها باستهجان هزّة عبرت بها عن كل ما يجول بخاطرها. تابع الطبيب قائلاً: "وبعد ذلك، أي بعد عام تقريباً، انتقلتما إلى بيت آخر. فمكثتما فيه فترة طويلة إلى أن تم إدخالك إلى المستشفى"، سكت لبرهة ثم قال: "إنه قريب تماماً من البيت الذي تعيشان فيه الآن". فبدأت أعي الفكرة التي كان يلمح إليها. ثم تابع قائلاً: "فكرت في أن أعرض عليك أن نغادر العيادة الآن ونذهب لزيارة ذلك المنزل ونحن في طريقنا إلى بيتك. ما رأيك بهذا؟".

ما رأيي؟ لم أكن أعرف فعلاً، إذ إنه سؤال لا جواب له تقريباً. أدركت أن هذا تصرف حكيم لأن نقوم به، وأنه قد يساعدني بطريقة غير محددة لا يمكن لأي منا بعد أن يفهمها، ومع ذلك، فقد شعرت بأنني غير راغبة في ذلك وكأن الماضي أصبح فجأة خطراً محدقاً ومكاناً ليس من الحكمة بمكان أن أزوره.

قلت: "لست واثقة فعلاً".

فقال: "لقد عشت هناك لعدة سنوات".

"أدرك هذا، ولكن...".

"يمكننا أن نذهب ونلقي نظرة عليه من الخارج فقط من دون أن يتوجب علينا دخوله".

سألت: "ندخل؟ كيف يسعنا أن ندخل إلى البيت؟".

قال: "نعم، فقد راسلت الزوجين اللذين يعيشان فيه الآن، وتحدثت إليهما عبر الهاتف. وقالا إنهما سيكونان في غاية السرور أن يسمحا لنا بإلقاء نظرة في أنحاء البيت إن كان ذلك يساعدنا على علاجك".

"ولكن...".

ظل الطبيب يبتسم وهو يقول: "إنني أظن فعلاً أن الزيارة قد تساعدك يا كريستين".

ماذا يمكنني أن أفعل غير ذلك؟

اعتزمت أن أكتب في سجلّ مذكراتي وأنا في طريقي إلى هناك، ولكن الرحلة لم تستغرق وقتاً طويلاً. فبالكاد تسنى لي أن أقرأ آخر كلام كتبته. توقفت السيارة أمام أحد المنازل، فأغلقت الكتاب ونظرت إليه لأجده شبيهاً بالمنزل الذي غادرناه صباح اليوم – ذلك المنزل الذي يجب عليّ أن أذكّر نفسي أنني أعيش فيه الآن – بقرميده الأحمر ونوافذه المطلية بعناية. وكانت له النافذة البارزة والحديقة المشذبة نفسهما. وإن كان هناك أي فرق بين المنزلين، فهو أن هذا المنزل بدا أكبر حجماً وأنني لاحظت وجود نافذة بارزة من السقف موحية بوجود علّية غير موجودة في منزلنا. فلم أجد سبباً يدفعنا للانتقال من هذا المنزل إلى منزل آخر يبعد عنه بضعة أميال فقط ويبدو تقريباً نسخة طبق الأصل عنه. وبعد برهة، أدركت السبب وراء ذلك. فلا بد من أن السبب هو ذكرى الأوقات الجميلة التي عشناها قبل الحادث عندما كنا سعيدين ونعيش حياة طبيعية كبقية الناس. وكان بن ليحظى بهذه الأوقات حتى لو لم أكن أنا لأحظى بها. وربما لم يعد يتحمل أن يعيش في هذا المنزل من دوني.

راودني فجأة شعور بأن هذا المنزل قد يبوح لي بأسرار مهمة متعلقة بالماضي.

قلت للطبيب: "أريد أن أدخل إلى البيت".

توقّفت عن الكتابة عند هذا الحد. وبالرغم من أنني أود أن أدون الباقي، فمن المهم جداً أن أسرع لأن بن سيعود إلى البيت قريباً. إنه متأخر عن موعده، فالسماء تبدو مظلمة. وتبدأ أصداء أصوات خبط الأبواب تتردّد في الشارع بينما يعود الناس إلى بيوتهم من العمل. تبطئ السيارات من سرعتها أمام بيتنا. بعد قليل، ستتصل سيارة بن وسيدخل إلى البيت، ولهذا، فمن المهم أن أنهي الكتابة الآن، وأن أخفي السجلّ في الخزانة لأبقيه بأمان.

سأواصل الكتابة لاحقاً.

* * *

كنت أعيد إغلاق غطاء علبة الحذاء عندما سمعت صوت بن يفتح الباب بالمفتاح. عندما دخل إلى المنزل، ناداني من الطابق السفلي. فقلت له إنني سأنزل في غضون لحظات. وبالرغم من أنه ليس هناك سبب يجعلني أتظاهر بأنني لم أكن أبحث في الخزانة، فقد أغلقت بابها بلطف، ثم أسرعت لأقابل زوجي.

أمضينا أمسية مشتتة، فشعرت برغبة ملحة للصعود واستكمال الكتابة في السجل. وبينما نحن نتناول طعامنا، تساءلت إن كنت أستطيع أن أكتب قبل غسل الأطباق. وبينما أنا أغسل الأطباق، تساءلت إن كنت أستطيع أن أتظاهر بإصابتي بالصداع وأكتب عندما أنتهي من غسلها. وعندما أنهيت غسيل الأطباق في المطبخ، قال بن إن لديه بعض العمل ودخل إلى مكتبه، فتنفست الصعداء، وقلت له إنني سآوي إلى الفراش.

إنني في غرفة نومي الآن أسمع صوت نقر بن على لوحة المفاتيح. وأعترف أن الصوت يبدو لسمعي مألوفاً ومريحاً. قرأت ما كتبته قبل أن يعود بن إلى البيت وأصبحت قادرة الآن على إعادة تخيل نفسي كما كنت عصر اليوم وأنا جالسة داخل منزل كنت أعيش فيه في الماضي، وأصبح في وسعي الآن أن أستأنف قصتي من حيث توقفت.

لقد حدث ما كنت آمله في مطبخ بيتنا القديم.

فتحت امرأة اسمها آماندا الباب مستجيبة للرنين المتواصل وحيّت الدكتور ناش بمصافحة وحيّتني أنا بنظرة تتراوح بين الشفقة والافتتان. وقالت: "لا بد من

أنك كريستين؟"، وأمالت رأسها جانباً ومدت يدها ذات الأظفار المطلية لتصافحني ثم قالت: "تفضلا".

أغلقت الباب خلفنا؛ كانت ترتدي بلوزة عاجية اللون وتتزين بحلي ذهبية. عرفتنا بنفسها ثم قالت: "يمكنكما البقاء قدر ما تريدان طالما تشعران بالحاجة إلى ذلك. موافقان؟".

أومأت برأسي ونظرت حولي. كنا واقفين في البهو المضيء المفروش بالسجاد، فرأيت أشعة الشمس تتسرب من بين مصراعي النافذة وتلقي بدفئها على زهرية مليئة بزهور الزنبق الحمراء على طاولة جانبية. ساد صمت طويل ومثير للارتباك. قالت آماندا في نهاية المطاف: "إنه بيت جميل". وشعرت لوهلة أنني والدكتور ناش زبونان وأنها وكيلة عقارية راغبة في التفاوض على بيع المنزل. أضافت قائلة: "لقد اشتريناه منذ عشر سنوات تقريباً. إننا نعشقه كثيراً، فهو مضيء ومنعش. هل تريدان الدخول إلى غرفة المعيشة؟".

تبعناها عبر البهو؛ كانت الغرفة صغيرة ومفروشة بذوق جميل. لم يتملكني أي شعور مهما كان ضئيلاً بأنها مألوفة بالنسبة إليّ. وأحسست أنها مجرد غرفة عادية في أي بيت وفي أي مدينة.

قال الدكتور ناش: "شكراً جزيلاً لك لسماحك لنا بالتجول في أنحاء المنزل".

فقالت بلهجة استخفاف: "آه! لا بأس بذلك". فتخيلتها تمتطي الجياد أو تنسق الزهور.

قال لها: "هل أجريتما تغييرات كبيرة على تنسيق المنزل منذ أقمتما هنا؟".

فقالت: "آه! نعم، أجرينا بعض التغييرات".

نظرت حولي وتأملت ألواح الأرضية الخشبية المصقولة والجدران البيضاء والأريكة العاجية واللوحات الفنية الحديثة المعلقة على الجدار. وفكرت في المنزل الذي تركته صباح اليوم. فقد بدا مختلفاً عنه كاختلاف السماء عن الأرض.

قال الدكتور ناش: "هل تتذكرين كيف كان يبدو المنزل عندما انتقلتما إليه؟".

تنهدت آماندا وقالت: "بشكل مبهم فقط، يؤسفني ذلك. كان مفروشاً بسجاد بلون شبيه بلون البسكويت؛ على ما أعتقد؛ وكان هناك ورق جدران

مخطط نوعاً ما حسبما أتذكر". حاولت أن أتصور شكل الغرفة كما وصفتها، لكن، لم تخطر ببالي أي ذكرى. قالت أماندا: "وكان هناك موقد أيضاً، ولكننا أزلناه. إنني أتمنى الآن لو أننا لم نفعل ذلك؛ فقد كان يضفي لمسة عصرية جداً".

قال الدكتور ناش: "كريستين؟"، فهززت رأسي. فقال لأماندا: "هل تسمحين لنا برؤية بقية المنزل؟".

صعدنا إلى الطابق العلوي المكوّن من غرفتي نوم. قالت أماندا: "إن زوجي غايلز يعمل من البيت كثيراً من الوقت". دخلنا إلى الغرفة الأمامية، وكان معظم أثاثها عبارة عن طاولة مكتب وخزانة ملفات وبعض الكتب. قالت: "أعتقد أن السكان السابقين كانوا بلا شك يستخدمون هذه الغرفة كغرفة نوم". ونظرت إليّ وهي تقول هذا، ولكن عندما لم أقل شيئاً، تابعت كلامها قائلة: "إنها أكبر بقليل من الغرفة الأخرى، ولكن غايلز لا يستطيع النوم هنا بسبب ضجيج السيارات". سكتت قليلاً ثم تابعت: "إنه مهندس معماري". لم أقل شيئاً، فقالت: "إنها مصادفة غريبة لأن الرجل الذي اشترينا المنزل منه مهندس معماري أيضاً. لقد التقينا به عندما أتينا لنشاهد المنزل. فانسجمنا معاً بشكل جيد. أعتقد أننا تمكنا من تخفيض السعر بضعة آلاف فقط بسبب علاقتنا الوطيدة به". أمسكت عن الكلام. فتساءلت إن كانت تتوقع منا أن نهنئها على هذا الإنجاز. قالت أماندا: "إن غايلز يؤسس الآن لمشروعة الخاص".

حدثت نفسي بأن الرجل الذي باعهم البيت مهندس معماري وليس معلماً. واكتشفت أن هؤلاء ليسوا الأشخاص الذين باعهم بن البيت. حاولت أن أتخيل الغرفة تحوي سريراً بدلاً من طاولة المكتب ذات السطح الزجاجي، والسجاد وورق الجدران بدلاً من الألواح المخططة والجدران البيضاء.

التفت الدكتور ناش إليّ متسائلاً وقال: "هل تتذكرين شيئاً؟".

فهززت رأسي قائلة: "كلا، لا أتذكر أي شيء على الإطلاق".

دخلنا غرفة النوم الأخرى والحمام، لكن، لم يخطر ببالي أي شيء. نزلنا إلى الطابق السفلي ودخلنا المطبخ. فقالت أماندا: "هل أنتما واثقان أنكما لا ترغبان في شرب فنجان من الشاي؟ ليست هناك أي مشقة، فهو مجهز سلفاً".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فقلت لها: "كلا، شكراً لك". بدا المطبخ من حولي مكاناً قاسياً وموحشاً. فقد كانت أجزاؤه مصنوعة من معدن الكروم الأبيض، وبدت الطاولة أشبه بالإسمنت الصلب، فأضفَت زبدية من الليمون الهندي وحدها لوناً حيوياً على المكان. تابعت كلامي قائلة: "ينبغي لنا أن نغادر الآن".

قالت آماندا: "بالطبع". وبدا على حماستها المرحة أنها تلاشت وحل محلها تعبير يوحي بخيبة الأمل، وفجأة، شعرت بالذنب، إذ بدا من الواضح عليها أنها كانت تأمل أن تشكل زيارتي إلى بيتها معجزة تشفيني من مرضي. قلت لها: "أيمكن أن تعطيني كوباً من الماء".

فأشرق وجهها على الفور وقالت: "بالطبع، سأحضر لك كوباً على الفور". وأعطتني كوب الماء. وبينما آخذه منها، راودتني ذكرى جديدة.

فجأة، اختفت آماندا والدكتور ناش كلاهما من أمامي، وأصبحت وحدي. ورأيت على طاولة المطبخ سمكة نيئة رطبة ولامعة موضوعة على طبق بيضوي، وسمعت صوتاً؛ كان صوت رجل. فاعتقدت أنه صوت بن ولكنه أصغر سناً نوعاً ما. قال صاحب الصوت: "أتريدين شراباً أبيض أم أحمر؟"، فالتفت ورأيته يدخل إلى المطبخ. وكان المطبخ نفسه الذي أقف فيه مع الدكتور ناش وآماندا، ولكن جدرانه بدت ملونة ومختلفة. رأيت بن يمسك زجاجتي شراب في كلتا يديه. فبدا شبيهاً ببن نفسه ولكنني وجدته أكثر نحافة وشعره أقل بياضاً، ولاحظت أن له شارباً. رأيت نفسي أفغر فمي دهشة لرؤيته وأضحك سعادة. قال: "إنك تريدينه أبيض على ما أعتقد". وراح يضحك معي، ثم وضع الزجاجتين على الطاولة واقترب من مكان وقوفي وأحاطني بذراعيه، فأغمضت عيني وأحطته بذراعي بدوري بشكل غير شعوري. وبينما أنا أرى نفسي أحتضنه، شرعت أفكر في سرّي: *يجب أن أتذكر شعوري حيال بن. يجب أن أدونه في سجلّي. إن هذا هو ما أريد أن أكتبه في روايتي.*

شعرت به يقترب مني أكثر، فقلت له: "توقف! لا تفعل هذا!"، وبالرغم من أنني كنت آمره بأن يتوقف، فقد شعرت بأنني أريده أن يفعل ذلك أكثر من أي وقت مضى. وقلت: "هيا بنا إلى الأعلى بسرعة". فغادرنا المطبخ وتوجهنا إلى الغرفة ذات السجاد الرمادي وورق الجدران الأزرق المزركش. وفي تلك الأثناء،

أخذت أفكر قائلة: *نعم، هذا هو ما يجب عليّ أن أكتبه في روايتي القادمة. هذا هو الإحساس الذي أريد أن أعبر عنه بقلمي.*

وفجأة، تعثرت وسمعت صوت زجاج ينكسر ورأيت الصورة التي أمامي تتبعثر وتختفي فجأة كما ظهرت. وشعرت أن بَكَرة الفيلم السينمائي قد انتهت، وأن الصور التي على الشاشة استبدلت بضوء أبيض مرتعش وظلال ذرات غبار تتطاير في الهواء. وهنا، فتحت عيني.

وجدت نفسي لا أزال هناك في المطبخ، ولكنني رأيت الدكتور ناش واقفاً أمامي وآماندا واقفة خلفه قليلاً. وكان كلاهما ينظران إليّ بقلق وخوف. فأدركت أنني أوقعت الكوب.

قال الدكتور ناش: "كريستين! هل أنت بخير يا كريستين؟".

فلم أرد عليه. و لم أكن أدرك كيفية شعوري. إن هذه هي المرة الأولى، على حد علمي، التي أتذكر فيها زوجي.

أغمضت عيني محاولة أن أجبر تلك الذكرى على العودة. فحاولت أن أرى السمكة والشراب وزوجي وشاربه وذراعيه اللتين تحيطان بي، ولكنني لم أرَ أي شيء. فقد تلاشت الذكرى وتبخرت في الهواء وكأنها لم تدخل إلى حيز الوجود قط. وعاد الزمن الحاضر بقوته وهيمنته، فأجبرها على الرحيل.

قلت: "نعم، إنني بخير".

قالت آماندا: "ما الخطب؟ هل أنت على ما يرام؟".

فقلت: "لقد تذكرت شيئاً". ورأيت آماندا تضع يدها على فمها بدهشة وتعبير وجهها يدل على البهجة.

وقالت: "أحقاً؟ هذا رائع! ماذا تذكرت؟".

قال الدكتور ناش: "من فضلك..."، خطا إلى الأمام ممسكاً بذراعي وأخذ الزجاج المتكسر ينسحق تحت قدميه.

قلت: "زوجي... هنا. لقد تذكرت زوجي".

فتلاشى تعبير وجه آماندا ولسان حالها يقول: أهذا كل شيء؟

قلت: "لقد تذكرت بن يا دكتور ناش!"، وبدأ جسدي كله يرتعش.

قال الدكتور ناش: "هذا جيد جداً، بل ممتاز!"، فاصطحباني إلى غرفة المعيشة لأجلس وأستريح.

جلست على الأريكة، وناولتني آماندا فنجاناً من الشاي الساخن وقطعة من البسكويت. لا يمكن لهذه المرأة أن تدرك حقيقة ما يجري معي أبداً؛ فقد تذكرت بن وتذكرت نفسي في شبابي، ورأيت مشهداً يصور حياتنا وماضينا المشترك. فأدركت الآن حقيقة عواطفنا الجياشة حيال بعضنا بعضاً. ولم يعد عليّ أن أعتمد على كلامه لأتأكد من صحة هذا الحب، إن هذا الاكتشاف يهمني جداً ربما أكثر مما يمكنها أن تتخيله على الإطلاق.

تملكني الانفعال طوال الطريق إلى البيت، وشعرت بأنني متأججة بالطاقة والحيوية، وأخذت أنظر إلى العالم الخارجي الذي بدا في نظري غريباً وغامضاً وغير مألوف، فلم أجد فيه أي تمهيد لسلامتي بل آمالاً ووعوداً. قال لي الدكتور ناش إنه يود أن يحدّد لي موعداً لأجري تصويراً دماغياً. فوافقت من دون تفكير تقريباً. أعطاني الطبيب هاتفاً احتياطياً وقال لي إنه هاتف قديم لإحدى صديقاته. وطلب مني أن أحتفظ به وأتصل منه في أي وقت أجد فيه حاجة وضرورة إلى ذلك. ووعدني بأن يتصل بي ليذكرني بشأن السجل. حدث هذا قبل ساعات. والآن، أدرك بالطبع أنه أعطاني إياه لكي يتصل بي من دون أن يعرف بن بذلك. ولكن، ماذا فعلت أنا؟ لقد أخذت منه الهاتف بلا تردد.

إنني أتذكر حبيبي بن الذي سيعود إلى البيت قريباً. وعندما نأوي إلى فراشنا لاحقاً، ربما سأتمكن من أن أعوض عليه كل تلك الليالي التي أهملته فيها. إنني أشعر الآن أنني مفعمة بالحياة وأن مشاعري فياضة بآمال كبيرة.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

يوم الثلاثاء 13 تشرين الثاني

تحين فترة العصر ويقترب موعد عودة بن من يوم آخر من أيام العمل. إنني أجلس الآن وسجل مذكّراتي مفتوح أمامي. في وقت مبكر من اليوم، وبينما أنا أتناول الغداء في غرفة المعيشة، اتصل بي رجل يدعى الدكتور ناش وأطلعني على مخبأ الكتاب. في بادئ الأمر، لم أصدق أنه يعرفني، فطلب مني أن أبحث عن علبة الحذاء في خزانتي وأفتحها وأخرج السجلّ منها. فلم أصدقه، ولكنه عرض أن ينتظرني على الخط إلى أن أبحث عن الكتاب. فبحثت عنه فعلاً واكتشفت أنه محق بكلامه. وجدت سجلي مخبأً في علبة زرقاء كُتبت على غطائها غير المحكم كلمة شول. فتحت الغطاء ورأيت السجلّ ملفوفاً بورق رقيق. وحالما ودعت الدكتور ناش، جلست أرضاً بجانب الخزانة وشرعت أقرأ كل كلمة فيه.

أصابني التوتر من دون أن أدرك سببه. فقد تملكني شعور بأن السجلّ سر مبجّل وخطير، ولكن، ربما يكون ذلك الشعور ناجماً فقط عن العناية الشديدة التي بذلتها لإخفائه. أبعدت نظري عن السجلّ وأخذت ألقي نظرات خاطفة متكررة إلى الساعة لأتفقد الوقت. وعندما سمعت صوت سيارة وظننت أنها ستتوقف خارج المنزل، أغلقته بهدوء شديد وأعدت لفه بالورق الرقيق. بالرغم من كل هذا الحرص والحذر، فإنني أشعر الآن بأن السكينة تملأني بينما أجلس عند نافذة غرفة النوم وأكتب هذا الكلام. يبدو المكان لعيني مألوفاً وكأنني أكثر الجلوس عنده والتردد عليه. أنظر إلى الشارع من النافذة وأتأمل صفاً من الأشجار الباسقة التي ألمح من خلفها متنزهاً. أنظر في الجانب الآخر، فأرى صفاً من البيوت وطريقاً آخر أكثر ازدحاماً. أفكر ملياً في شأن سجل مذكراتي. وبالرغم من أنني قد أفضّل أن أبقيه سرياً عن بن، فإنني أدرك أن كارثة لن تحلّ فوق رأسي إن شاءت الأقدار واكتشف وجوده. إن بن زوجي ويستحق أن أمنحه ثقتي.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أقرأ ما كتبته عن الانفعال الذي شعرت به في طريق عودتي إلى البيت، ولكن هذا الشعور تلاشى الآن وحل محله إحساس بالرضا والهدوء. تمر بعض السيارات بين الحين والآخر. وأسمع صوت رجل يصفر أو وقع خطوات أمّ شابة تأخذ طفلها إلى المتنزه ثم تعيده إلى البيت في وقت لاحق. وأرى من بعيد طائرة تحلق ثم تهبط في مطار هيثرو بهدوء شديد لدرجة تجعلني أظن معها أنها ثابتة لا تتحرك.

يهيمن جو من الهدوء والسكينة على المشهد بمعظمه، إذ تبدو المنازل مقابل نافذتي فارغة والشارع صامتاً باستثناء نباح كلب تعيس بين الفينة والأخرى. ولا يتبقى أثر لفوضى الصباح التي يسود فيها ضجيج إغلاق الأبواب وصيحات الوداع وهدير محركات السيارات. فيتسلل إلى داخلي إحساس بأنني وحيدة في هذا العالم.

يبدأ المطر بالانهمار، وتسقط قطرات كبيرة مبعثرة على النافذة أمام وجهي وتعلق على الزجاج للحظة ثم تنضم إلى القطرات الأخرى وتشكل جميعها سيلاً ينحدر ببطء إلى أسفل النافذة، فرحت أتحسس الزجاج البارد بيدي.

أشعر بأن ثمة هوة سحيقة تفصل بيني وبين بقية العالم.

أقرأ في سجل المذكرات ما كتبته عن زيارتي للبيت الذي سكنته مسبقاً مع زوجي. أمن المعقول أن أكون قد كتبت تلك الكلمات البارحة؟ إذ إنني لا أشعر بتاتاً بأنني خططتها بقلمي. أقرأ أيضاً عن الذكرى التي خطرت لي وعن عناقي لزوجي في مطبخ البيت الذي اشتريناه معاً قبل وقت طويل. وعندما أغمض عينيّ، يتمثل المشهد أمامي مجدّداً. فيبدو في البداية مبهماً ومشوشاً، ولكن الصورة تبدأ في ما بعد بالوميض وتزداد وضوحاً وحدة. فأرى نفسي وزوجي بين ذراعي أحدنا الآخر، وأتذكر أننا لم نأكل شيئاً من السمك أو نشرب شيئاً من الشراب. وبدلاً من ذلك، فقد أوينا إلى فراشنا وتمددنا فيه لوقت طويل. وكنت أضع رأسي على صدره وهو يربت على شعري مستمتعَين بالسكون، شاعرين بسعادة غامرة تكتنفنا وتحتضننا كالغيمة.

همس في أذني قائلاً: "أحبك". وكأنها المرة الأولى التي يقول لي فيها تلك الكلمة. وبالرغم من أنه قالها بلا شك مرات عدة، فقد بدا وقعها جديداً وعذباً ورائعاً وكأنني لم أسمعها منه في حياتي.

نظرت إليه متأملة لحيته الخشنة وشفتيه الناعمتين وشكل أنفه. وقلت له: "وأنا أيضاً أحبك". ووضعت رأسي باستسلام على كتفه. ضمني إليه بحنان ورقة، وقبل رأسي وجبيني. فأغمضت عيني وشعرت بالأمان. أحسست أن أحضانه هي المكان الوحيد الذي أنتمي إليه في العالم وأتمنى أن أبقى فيه ما دمت حية. تمددنا في الفراش بصمت ونحن نصغي إلى إيقاع أنفاسنا المتناغمة. وشعرت أن هذا الصمت هو ما سيجعل هذه اللحظة تدوم إلى الأبد.

قطع بن الصمت قائلاً في نهاية المطاف: "يجب أن أغادر". ففتحت عيني وأمسكت بيده بين يدي، فشعرت بها دافئة وناعمة، ثمّ قربتها من فمي وقبلتها.

قلت: "الآن؟".

قال بن: "نعم، إن الوقت متأخر أكثر مما تظنين. سأفوّت قطاري".

شعرت بقلبي ينقبض، إذ إن الفراق بدا في نظري أمراً لا يطاق ولا يحتمل، فقلت: "ابقَ معي قليلاً فقط. فأنا لا أحتمل فراقك. استقل القطار التالي".

فضحك وقال: "لا أستطيع يا كريس. إنك تدركين ذلك".

ابتسمت وقلت: "أعرف ذلك".

بعد أن غادر البيت، دخلت الحمام لأستحم وأمضيت وقتاً طويلاً في حوض الاستحمام لأستمتع بالشعور بالصابون والماء الدافئ وكأنني أشعر به للمرة الأولى. وعندما ذهبت إلى غرفتي، رششت بعض العطر على نفسي وارتديت قميص نومي ورداء فوقه، ثم نزلت إلى الطابق السفلي ودخلت غرفة الطعام.

كان الظلام يسود الغرفة، فأنرت المكان ورأيت على الطاولة آلة كاتبة في داخلها ورق أبيض. وكانت توجد بجانب النافذة كومة صغيرة من الصفحات مقلوبة على جهة الكتابة. فجلست أمام الآلة وبدأت أطبع: *القسم الثاني*.

وفي تلك اللحظة، توقفت عن الطباعة، إذ إنني عجزت عن التفكير في ما يجب أن أكتبه بعد ذلك، وفي الأسلوب الذي سأستهل به هذا القسم. أرحت يدي على لوحة المفاتيح، فشعرت بملمسها بارداً وأملس ومألوفاً تحت أصابعي. أغمضت عيني واستأنفت الطباعة مجدّداً.

تراقصت أصابعي العشر كلها على المفاتيح بشكل تلقائي وربما من دون تفكير. وعندما فتحت عيني، اكتشفت أنني طبعت جملة واحدة.

لم تدرك ليزي ما فعلته أو كيف يمكننا أن نتراجع عن فعلتها.

نظرت إلى الجملة وشعرت بها واضحة ومتماسكة وأحرفها مرصوصة أمامي على الصفحة.

ولكن تلك الجملة لم ترقَ إلى مستوى توقعاتي بل وجدتها تافهة. فثار غضبي لأنني كنت أدرك تمام الإدراك أنني قادرة على تأليف أدب أرقى من هذا، إذ إنني فعلت هذا قبل عامين عندما أخذت الكلمات تتدفق من فمي تدفق النهر وتجعل قصتي تتبعثر على الصفحات كقصاصات الورق المنثورة. ولكن ماذا الآن؟ إنني أشعر بأن هناك خطباً ما حلّ بي. فقد أصبحت اللغة بالنسبة إليّ متصلبة وعسيرة على التعامل معها وكأنها عجينة قاسية بين يدي.

أخذت قلم رصاص ورسمت خطاً وسط الجملة. فشعرت ببعض الراحة لأنني حذفتها، ولكن، لم يعد لديّ الآن أي شيء وأي مكان أبدأ منه.

وقفت على قدمي وأشعلت سيجارة من العلبة التي تركها بن على الطاولة، وسحبت الدخان عميقاً داخل رئتي وحبسته ثم زفرت. تمنيت لو أنها سيجارة ممنوعات وتساءلت من أين يسعني الحصول على بعضها في المرة القادمة. صببت لنفسي كأس شراب وارتشفت منه قليلاً، إذ شعرت بأن ذلك سيفي بالغرض، وأخذت أتساءل كيف أصبحت كاتبة مملة وتكرر نفسها بهذا الشكل.

لم أواجه صعوبة في كتابة الرواية السابقة. ترى كيف فعلت ذلك؟ ذهبت إلى خزانة الكتب المعلقة على جدار غرفة المعيشة والسيجارة متدلية من بين شفتي. وأخذت كتاباً عن الرف وأنا أؤكد لنفسي بأنني قد أعثر فيه بلا شك على بعض التلميحات ومصادر الإلهام.

وضعت كأس الشراب على الطاولة وأمسكت الكتاب بين يدي. وضعت أصابعي على الغلاف وكأنه مصنوع من ورق رقيق وتحسست العنوان بعناية. كان العنوان هو: **إلى عصافير الصباح. بقلم كريستين لوكاس**. فتحت الغلاف وقلبت الصفحات.

تلاشت الصورة من ذهني، ففتحت عيني ورأيت الغرفة من حولي رمادية داكنة، ولكن أنفاسي كانت متسارعة ومتلاحقة. ترى هل هذا صحيح؟ هل ألفت رواية؟ هل

تم طبعها؟ وقفت على قدمي. فانـزلق السجل عن حضني. إن كان ذلك صحيحاً، إذاً، فلا بد من أنني كنت امرأة لها حياة حافلة بالأهداف والطموحات، وأنني حققت بعض تلك الآمال. جريت نازلة الدرج إلى الطابق السفلي.

أيعقل هذا؟ لم يذكر بن شيئاً عن الأمر صباح اليوم، ولم ينبس بحـرف عـن عملي بالكتابة والتأليف. صباح اليوم، قرأت عن النـزهة التي قمنا بها إلى تـل البرلمان. فعرفت أن بن قال لي إنني عملت سكرتيرة عندما تعرضت للحادث الذي أفقدني ذاكرتي.

تفحصت رفوف الكتب في غرفة المعيشة، فرأيت معاجم وأطلـس ودليـلاً لمهارات تزيين المنـزل وبعض الروايات الجديدة ذات الأغلفة الفاخرة. فافترضـت أن أحداً لم يقرأها بعد، ولكن أياً من تلك الروايات لم يكن من تـأليفي أنـا. ولم أجد أي شيء يدل على أنني نشرت أيّ رواية بقلمي الخاص. درت حول نفسـي وأنا أشعر بأنني شبه مجنونة. ففكرت في أنها لا بد من أن تكون موجودة في مكـان ما، ولكن، فكرة أخرى خطرت ببالي في تلك اللحظة. فربما لم تكن الذكرى الـتي راودتني من ذكريات الماضي، بل فبركة لفقها ذهني المريض، وربما لم يجـد عقلـي تاريخاً حقيقياً يرتكز عليه، فبدأ يخترع تاريخاً من العدم، وربما افترضـت سـاحة اللاشعور لديّ أنني أصبحت كاتبة لأن هذا هو الهـدف الـذي لطالمـا أردت أن أحققه في حياتي.

أسرعت عائدة إلى الطابق العلوي، فوجدت الرفوف في غرفة المكتب مليئـة بالملفات وكتب دليل الكمبيوتر. ولم أرَ أيّ كتب في كل من غرفتي النـوم وأنـا أستكشف المنـزل صباح ذلك اليوم. وقفت ساكنة لوهلة وأنـا أتأمـل جهـاز الكمبيوتر الصامت الخامل، فأدركت ما يجب عليّ أن أفعله بالرغم مـن أنـني لم أدرك كيف عرفت ذلك. شغلت الجهاز، وأخذ يهدر من تحت المكتب، وأضاءت الشاشة بعد لحظات. صدح صوت الموسيقى من السماعة بجانب الشاشة ثم ظهرت الصورة. وكانت صورة لي ولبن ونحن مبتسمان. رأيت في وسط وجهينـا مربعـاً كتب عليه: "اسم المستخدم" وتحته مربعاً آخر كتب عليه: "كلمة المرور".

في الذكرى التي راودتني، وجدت نفسي أطبع باللمس على لوحة المفـاتيح وأصابعي تتراقص عليها وكأن ذلك يحدث بالفطرة. فوجهت السهم المضيء إلى

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الصندوق الذي كتب عليه: "اسم المستخدم" ووضعت يدي على لوحة المفاتيح. ترى هل ذلك صحيح؟ هل تعلمت الطباعة على الكمبيوتر؟ تركت أصابعي تستقر على لوحة المفاتيح. فأخذت تتحرك عليها بشكل شبه آلي وكأن أصابعي الصغيرة تبحث عن المفاتيح التي تنتمي إليها والأخرى تبحث عن مكانها بجانبها. أغمضت عيني وبدأت أطبع من دون تفكير تقريباً وأصغي فقط إلى تردد أنفاسي وصوت نقر المفاتيح البلاستيكية. وعندما انتهيت من الطباعة ونظرت إلى الكلام المكتوب في المربع، توقعت أن أرى كلاماً لا معنى له، ولكن ما رأيته سبب لي الصدمة.

الثعلب البني السريع يقفز على الكلب الكسول.

حدقت إلى الشاشة بدهشة. فقد اكتشفت أن ما توقعته صحيحاً وأنني أجيد الطباعة باللمس فعلاً. وهكذا، فربما لم تكن الذكرى التي راودتني اختراعاً من اختراعات ذهني بل ذكرى حقيقية.

وربما ألفت رواية فعلاً.

دخلت غرفة النوم مسرعة، لم أعد أجد شيئاً منطقياً، وانتابني شعور غامر بأنني سأفقد عقلي. فقد اختلطت الأمور عليّ، وبدت لي الرواية موجودة فعلاً وغير موجودة في الوقت نفسه. وشعرت بأنها حقيقية ومحض خيال في آن معاً. لم أستطع أن أتذكر أي شيء منها، أو عن حبكتها، أو شخصياتها، أو حتى السبب الذي جعلني أطلق عليها هذا العنوان. ومع ذلك، فقد استولى عليّ هاجس بأنها حقيقية وكأنها تنبض في داخلي مع إيقاع قلبي.

لماذا لم يخبرني بن عنها؟ أو يحتفظ بنسخة منها ليعرضها في مكتبته؟ تخيلتها ملفوفة بورق رقيق ومخبأة أو مخزنة في علبة في العلية أو القبو. ولكن، لماذا؟

خطر لي التفسير المنطقي الوحيد لما حدث؛ لقد قال لي بن إنني عملت في الماضي سكرتيرة، وربما لهذا السبب تعلمت الطباعة على الكمبيوتر. لا بد من أن هذا هو السبب!

أخرجت أحد الهاتفين اللذين في حقيبتي من دون أن أكترث أي واحد أستعمل ومن دون حتى أن أهتم بمن اتصل إلى أن كبست زر الاتصال. فقد بدا كلا الهاتفين غريبين في نظري.

عندما أجاب أحدهم عن المكالمة، قلت: "الدكتور ناش؟ أنا كريستين". أوشك الطبيب أن يقول شيئاً ما، ولكنني قاطعته قائلة: "أصغِ إليَّ. هل تظن أنني ألفت عملاً أدبياً ما على الإطلاق؟".

قال: "أنا آسف، لم أفهم قصدك؟"، وبدا صوته موحياً بالارتباك لدرجة أنني ظننت نفسي ارتكبت خطأً فادحاً. فتساءلت إن كان حتى قد عرف من أنا، ولكنه قال: "كريستين؟".

فكررت ما قلته سابقاً وأضفت: "لقد تذكرت شيئاً ما؛ تذكرت أنني كتبت شيئاً قبل سنوات عديدة عندما قابلت بن للمرة الأولى. إنها رواية. هل لديك فكرة أنني ألفت رواية على الإطلاق؟".

لم يبدُ عليه أنه يدرك ما أقصده بكلامي، فقال: "رواية؟".

قلت: "نعم، أتذكر أنني أردت أن أصبح كاتبة عندما كنت صغيرة، ولهذا، فأنا الآن أتساءل ما إذا كنت قد ألفت رواية فعلاً. لقد قال لي بن إنني عملت سكرتيرة، ولكن خطر ببالي...".

وعندها قال لي الطبيب: "ألم يخبرك بذلك؟ كنت تعملين على تأليف روايتك الثانية، ولكنها لم تكتمل لأنك فقدت ذاكرتك. أما روايتك الأولى فقد طبعت وحصدت نجاحاً كبيراً. لا أقول إنها من الروائع، ولكنها لاقت استحساناً مؤكداً".

شعرت بكلماته تدور في رأسي كالدوامة. *رواية... نجاح... نشر*. لقد تذكرت شيئاً صحيحاً. إن ذاكرتي صحيحة! لم أعرف ماذا أقول أو في ما أفكر.

ودّعت الطبيب ثم صعدت إلى الطابق العلوي لأدوّن ما حدث معي.

* * *

تشير الساعة الموضوعة إلى جانب السرير إلى العاشرة والنصف، فأتوقع وصول بن بين لحظة وأخرى ليأوي إلى السرير، ولكنني مع ذلك أجلس هنا على طرف السرير وأواصل الكتابة. كنت قد تحدثت إليه عندما انتهينا من تناول العشاء وبعد أن أمضيت فترة العصر بأكملها وأنا أجوب أنحاء البيت في نوبة غضب وأنظر إلى كل شيء وكأنني أراه للمرة الأولى وأتساءل عن السبب الذي يجعله يتعمد إخفاء الدليل على هذا النجاح المتواضع الذي حققته؛ لم يبدُ ذلك تصرفاً معقولاً. ترى هل شعر بالخجل أم بالإحراج؟ هل كتبت شيئاً عنه أو عن حياتنا معاً؟ أم أن

السبب أسوأ من ذلك بكثير؟ أيمكن أن يكون هناك سر مظلم يتجاوز حدود إدراكي؟

بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى البيت، كنت قد عقدت العزم على أن أطرح عليه هذا السؤال، ولكنني أدركت أن هذا لم يعد ممكناً الآن، إذ إن مجرد طرح السؤال عليه يشعرني بأنني أتهمه بالكذب.

حاولت أن أتحدث من دون مبالاة قدر المستطاع، فقلت: "ماذا كنت أعمل لأكسب رزقي يا بن؟" أبعد نظره عن الصحيفة التي كان يقرأها ونظر إليّ، فتابعت قائلة: "هل عملت في مهنة معينة؟".

قال: "نعم، لقد عملت سكرتيرة لبعض الوقت بعد أن تزوجنا مباشرة".

حاولت أن أبقي نبرة صوتي طبيعية، فقلت باستغراب: "أحقاً؟ لديّ شعور بأنني لطالما تمنيت أن أصبح كاتبة".

طوى بن الصحيفة ليمنحني كامل انتباهه، وقال متسائلاً: "ما هذا الشعور؟".

"إنني أتذكر أنني لطالما عشقت الكتب وأنا طفلة، ويتملكني شعور مبهم وغامض بأنني تمنيت أن أصبح كاتبة". مد بن يده عبر الطاولة وأمسك بيدي. بدت عيناه مفعمتين بالأسى وخيبة الأمل وكأن لسان حاله يقول: *يا للأسف! هذا طالع سيئ! فأنا لا أظن أنك ستتمكنين من تحقيق هذا الحلم بعد الآن.* ثمّ أضفت قائلة: "هل أنت واثق من هذا؟ إذ يبدو عليّ أنني أتذكر...".

فقاطعني قائلاً: "من فضلك يا كريستين. إنك تتخيلين أشياء لا أساس لها من الصحة...".

أمضيت بقية الأمسية صامتة وأنا أصغي إلى الأفكار التي تتردد أصداؤها في ذهني. *لِمَ قد يود أن يخفي الحقيقة عني؟ لِمَ قد يتظاهر بأنني لم أؤلف رواية قط؟ لماذا؟* راقبته وهو نائم على الأريكة وأصغيت إلى صوت شخيره الهادئ. لِمَ لم أخبره بأنني أعرف أنني ألفت رواية؟ ترى هل تضاءلت ثقتي به إلى هذا الحد؟ كيف انتقلنا من حالة الحب التي عشناها معاً ونحن نرتمي بين ذراعي بعضنا ونهمس بكلمات الهيام بينما راح الظلام يسود المكان من حولنا إلى هذا الوضع المريب المثير للاستغراب؟

ولكنني عندئذ بدأت أتخيل ما قد يحدث لو أنني عثرت مصادفة على نسخة من روايتي في الخزانة أو على أحد الرفوف العالية. ترى ما النتيجة التي سأتوصل إليها من هذا الاكتشاف؟ لا بد من أنني سأقول لنفسي حينها: *انظري إلى الهاوية التي سقطت فيها. انظري إلى ما كنت قادرة على تحقيقه في حياتك قبل أن تأتي سيارة متهورة على طريق جليدي وتسلبك كل شيء تاركة إياك في حال أسوأ من الجماد الساكن عديم الفائدة.*

لم أكن لأجدها لحظة سارة. فقد تخيلت نفسي أنفجر في نوبة غضب هستيرية أسوأ بكثير مما حدث معي عصر هذا اليوم عندما جاشت في أعماقي تلك الذكرى التواقة وصاحت لتوقظني من غيبوبتي. قد يكون التأثير مدمراً.

لا عجب في أن بن أراد أن يخفي الحقيقة عني! إنني أتخيله الآن يزيل كل نسخ الرواية ويحرقها على الشرفة الخلفية ثم يجلس ويقرر ما يجب أن يقوله لي وما هي أفضل طريقة يجب عليه فيها أن يعيد صياغة ماضيَّ لأتقبله وأتحمل وطأته، وما هو الاعتقاد الذي يجب أن أصدقه وأقتنع به طوال السنوات الباقية لي من حياتي.

ولكن كل هذا الكذب انتهى الآن، فقد أصبحت أعرف الحقيقة. إنها حقيقتي التي لم يخبرني بها أحد بل تذكرتها بنفسي. أراها الآن مكتوبة هنا وكلماتها محفورة في سجلي بثبات أكبر مما هي عليه في ذاكرتي، ولكنها ستبقى دائمة على صفحاته على أيّ حال.

أدرك أن الكتاب الذي أؤلفه الآن، وهو كتابي الثاني كما أدرك بفخر عارم، قد ينطوي على خطر محدق وضرورة ملحة في آن معاً. إنه ليس مجرد رواية من نسج الخيال. فقد يكشف عن أشياء من الأفضل أن تبقى طي الكتمان وأسرار يجب ألاّ ترى النور.

ومع ذلك، يظل قلمي يتحرك على الصفحة الفارغة لأنني أشعر بأنه لا خيار أمامي الآن سوى مواصلة الكتابة في كل الظروف.

يوم الأربعاء 14 تشرين الثاني

صباح اليوم ونحن نتناول الفطور، سألت بن إن كان قد أطلق شاربه من قبل. كنت لا أزال مرتبكة وحائرة وغير واثقة مما قد يكون صحيحاً ومما قد لا يكون كذلك. استيقظت اليوم في وقت مبكر. وعلى عكس الأيام الماضية، لم أحسب نفسي طفلة بل شعرت بأنني امرأة ناضجة. ولم يدر بخلدي سؤال عن سبب نومي في هذا السرير مع هذا الرجل، بل خطر ببالي بدلاً من ذلك التساؤل عن هويته وعما دار بيننا في الليلة الماضية. وعندما دخلت إلى الحمام، نظرت إلى انعكاس صورتي برعب، ولكن الصور المحيطة بها بدت لي منسجمة مع الحقيقة. رأيت اسم الرجل، بن، وشعرت أن هناك ما يجعله مألوفاً لي. وللمرة الأولى، بدا على كل الحقائق مثل عمري وزواجي أنها أشياء، وأن هناك ما يذكرني بها من دون أن يخبرني بها أحد. فقد أحسست أنها كامنة في داخلي ولكنها مدفونة على عمق ضحل.

عثرت على سجلي، بمساعدة الدكتور ناش، وقرأته. فاستطعت أن أتذكر بعض الحقائق المذكورة فيه. وهناك فقرات كاملة تذكرت أنني كتبتها. فأحسست أن بقيةً ضئيلة من ذاكرتي قد عاشت وتجاوزت الليلة بنجاح.

وربما لهذا السبب توجّب عليّ أن أحرص على أن تحتوي على معلومات صحيحة.

قلت لبن: "هل أطلقت شاربك من قبل؟".

قال: "هذا سؤال غريب". وضع بعض السكر في قهوته ونظر إلى الصحيفة الموضوعة على حضنه. فشعرت بالارتباك وبأنني غير واثقة مما يجب أن أقوله.

بدأت قائلة: "لقد راودتني ذكرى...".

نظر إليّ بينما بدأ تعبير وجهه يتغير من المزاح إلى القلق. وترك الملعقة ثابتة في فنجانه.

"ذكرى؟".

فقلت: "نعم، أعتقد ذلك". لمعت في ذهني ذكرى الأشياء التي كتبت عنها في ذلك اليوم. وتخيلت وقوفنا في المطبخ معاً وشاربه ووجبة السمك غير المطهية وما إلى هنالك. وتصورت شكلنا معاً ونحن نائمان في سريرنا. أضاءت تلك الأحداث لفترة موجزة في ذهني قبل أن تعاود الغوص في أعماق ذاكرتي. وفجأة توجست خيفة، وقلت: "يبدو أنني أتذكرك بشارب".

ابتسم وعاود النظر إلى صحيفته، وبعد حين شعرت بالأشياء تبدأ بالتلاشي من ذاكرتي. إذ ربما يكون كل شيء كتبته مجرد تلفيق ومحض خيال. فأنا روائية على أيّ حال أو ربما على الأقل كنت كذلك في ما مضى.

صدمتني تفاهة الحجة التي تفوهت بها. فقد كنت أؤلف الروايات الخيالية، ولهذا السبب، فلا بد من أن إصراري على أنني روائية مجرد قصة من تلك القصص الخيالية. وفي كلتا الحالتين، فأنا لم أكتب قصصاً خيالية قط. وشعرت برأسي يدور بكل هذه الاحتمالات المتضاربة.

ولكن الهاجس الذي انتابني عن الكتابة بدا حقيقياً وملموساً، وهذا ما جعلني أقنع نفسي بصحته. وإضافة إلى هذا، فقد اكتشفت أنني أجيد الطباعة على الكمبيوتر، أو أنني قد كتبت على الأقل أنني أجيد ذلك.

قلت له بإلحاح: "هل كان لك شارب فعلاً. إن الأمر بالنسبة إليّ... مهم جداً".

أغمض عينيه وبدأ يعض على شفته السفلى وكأنه يتظاهر بالتركيز على الفكرة. وقال: "أعتقد أنني ربما أطلقت شاربي مرة لفترة وجيزة جداً. حدث ذلك قبل سنوات عدة. ولا بد من أنني نسيت..."، وبدأ يومئ برأسه ثم أكمل قائلاً: "نعم، في الواقع أعتقد أنني فعلت ذلك على الأرجح لأسبوع أو نحو ذلك قبل وقت طويل".

فأومأت برأسي وتنفست الصعداء. شعرت أن الأرض التي أقف عليها أصبحت أكثر أماناً ورسوخاً. سألني وهو يبتسم: "هل أنت راضية؟"، فرددت عليه بالإيجاب.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

في وقت لاحق، توجهت بصحبة الدكتور ناش إلى مركز التصوير، إذ كان قد اتصل بي تقريباً حالما غادر بن البيت متوجهاً إلى العمل ليذكرني بمكان السجل. وقال لي إن اليوم هو موعد إجراء التصوير الدماغي وإنه سيأتي ليقلني عند الساعة الواحدة تقريباً. وقال لي: "تناولي غداءك أولاً. إذ ليس هناك سبب يمنعك من الأكل. سوف نقابل هناك أحد زملائي اسمه الدكتور باكستون". لم أقل شيئاً. فتابع الدكتور ناش كلامه قائلاً: "إنه خبير في مجال التصوير الوظيفي للمرضى الذين يعانون من مشاكل شبيهة بمشكلتك".

قلت: "حسناً".

جلسنا في سيارة الطبيب بسكون في غمرة حركة المرور المزدحمة. قلت له: "هل اتصلت بك البارحة؟"، فقال لي إنني اتصلت.

قال الطبيب: "هل قرأت السجل؟".

ذكرت أنني قرأته وأضفت قائلة: "في الواقع، لقد قرأت معظمه. فقد توجب عليّ أن أتخطى بعض الأجزاء لأنه أصبح طويلاً جداً".

بدا مهتماً بما قلته. فسألني: "ما هي الأجزاء التي تخطيتها؟".

ففكرت للحظة ثم قلت: "هناك أجزاء تبدو لي مألوفة. وأعتقد أنها تشعرني بأنها تذكرني بأشياء أعرفها أصلاً أو أتذكرها".

قال وهو يلقي نظرة خاطفة نحوي: "إن هذا جيد جداً".

شعرت بالسعادة تتوهج في قلبي، ولكنني قلت: "إذاً، لأي سبب اتصلت بك البارحة؟".

فقال: "لقد أردت أن تعرفي إن كنتِ قد ألفت رواية فعلاً".

قلت: "هل فعلت ذلك حقاً؟".

التفت نحوي مبتسماً وقال: "نعم، لقد ألفت رواية".

تحركت السيارات مجدداً فانطلقنا. شعرت براحة غامرة، وأدركت أن ما كتبته صحيح. فجلست مسترخية بقية الرحلة إلى مركز التصوير.

وصلنا بعد وقت قصير، فوجدت الدكتور باكستون أكبر سناً مما توقعت. كان يرتدي سترة من الجوخ، ورأيت بعض الشعر الأبيض نابتاً من أذنيه وأنفه، فشعرت أنه كان يجب عليه أن يتقاعد قبل وقت طويل.

حالما عرفنا الدكتور ناش إلى بعضنا، قال لي الدكتور باكستون وهو يصافحني مبتسماً: "أهلاً بك في مركز فينسنت هول للتصوير"، وأضاف من دون أن يبعد عينيه عن عيني قائلاً: "لا تقلقي. إن الأمر ليس مرعباً كما يبدو. تعالي معي. دعيني أصطحبك للتجوّل في المكان".

توجهنا في طريقنا لندخل المبنى. قال الطبيب ونحن ندخل من المدخل الرئيس: "إننا تابعون لكل من المستشفى والجامعة هنا، وهذا ما يشكل نعمة ونقمة في آن معاً". لاحظت أنه يضع شارة زرقاء عادية مثبتة على طية سترته. فظننت أنه قد وضعها من أجل الأشعة، وتساءلت إن كان لونها قد تغير بسبب تعرّضها للكثير من الإشعاعات وإن كان هذا يشكل نظاماً للتحذير من نوع ما.

قلت: "أحقاً؟"، كان يحاول أن يساعدني، فأردت أن أتصرف بأدب معه.

ضحك وقال: "إن الجميع يريدون منا أن ننجز كل شيء من دون أن يدفعوا لنا شيئاً لقاء جهودنا".

توجهنا إلى غرفة الانتظار فوجدتها مليئة بكراسٍ فارغة ونسخ من المجلات نفسها التي رأيت بعضها في البيت وبعض الأكواب البلاستيكية المبعثرة. فخيل إليّ أنهم كانوا يقيمون حفلة صغيرة، ولكنهم سرعان ما اضطروا إلى إخلاء الغرفة بعجلة. توقف الدكتور باكستون لبعض الوقت أمام أحد الأبواب، ثم قال لي: "هل تودين أن تري غرفة التحكم؟".

فقلت: "نعم، من فضلك".

وحالما دخلنا، قال الطبيب: "إن التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي تقنية حديثة نوعاً ما. هل سمعت بالتصوير بالرنين المغناطيسي؟".

كانت غرفة التحكم صغيرة الحجم ومضاءة بوميض خافت من صف كامل من شاشات الكمبيوتر. رأيت نافذة تحتل أحد الجدران وخلفها غرفة أخرى تهيمن عليها آلة كبيرة أسطوانية الشكل وهناك سرير بارز منها كاللسان. فبدأ الخوف يتملكني، إذ لم تكن لديّ أي فكرة عن طبيعة هذه الآلة. وأنى لي ذلك وأنا فاقدة الذاكرة؟

قلت: "كلا".

فابتسم وقال: "إنهما متشابهان، ولكن الفرق هو أن التصوير بالرنين المغناطيسي أشبه بأخذ صورة بأشعة إكس للجسم، أما هنا، فنحن في الواقع نتفحص كيفية عمل الجسم في أثناء تأديته وظائفه".

عندئذٍ تكلم الدكتور ناش قائلاً: "إن كان المرء يعاني ورماً دماغياً، يتوجّب علينا أن نصور دماغه لنكتشف مكان الورم وموقع الجزء المتضرر من الدماغ. وهكذا، فهو فحص للبنية الدماغية. إن ما يمكننا التصوير بالرنين المغناطيسي منه هو معرفة أي جزء من دماغ الإنسان الذي يستخدمه عندما يؤدي مهمات معينة. وهكذا، فنحن نريد الآن أن نكتشف آلية عمل الذاكرة في دماغك".

قال الدكتور باكستون: "سنرى أي أجزاء منه ستضيء، إن جاز التعبير، وأي سوائل ستفرزها تلك الأجزاء".

فقلت: "هل سيشكل هذا مساعدة لنا".

أجاب الدكتور ناش عن سؤالي بقوله: "إننا نأمل أن يساعدنا هذا على تحديد مكان التلف الذي أصاب دماغك والضرر الذي نجم عنه والجزء الذي لا يؤدي وظائفه كما يجب".

"وهل سيساعدني هذا على استعادة ذاكرتي؟".

سكت قليلاً ثم قال: "نأمل أن يحدث هذا".

خلعت خاتم زواجي وقرطيَّ ووضعتها في صينية بلاستيكية. فقال الدكتور باكستون: "عليك أن تتركي حقيبتك هنا أيضاً". ثم سألني إن كنت أضع أقراطاً في أماكن أخرى من جسمي. وعندما هززت رأسي نافيةً قال: "ستفاجئين قليلاً، يا عزيزتي، بأن هذه الآلة صاخبة قليلاً، لذا، ستحتاجين هذا الزوج من السدادات". وناولني زوجاً أصفر اللون من سدادات الأذنين ثم قال: "هل أنت مستعدة؟".

فترددت وقلت: "لست أدري"، إذ إن الخوف بدأ يتسلل إلى قلبي، وبدا على الغرفة من حولي أنها تتضاءل وتزداد ظلمة. أخذت الآلة نفسها تلوح من خلال الزجاج بشكل مبهم، وانتابني شعور بأنني رأيتها من قبل أو رأيت آلة شبيهة بها. قلت: "لست متأكدةً من هذا".

فتقدم الدكتور ناش نحوي ووضع يده على ذراعي ثم قال: "إنها غير مؤلمة على الإطلاق، ولكنها صاخبة فقط بعض الشيء".

فقلت: "هل هي آمنة؟".

"بكل تأكيد. سأظل واقفاً هنا على هذا الجانب من الزجاج. سنتمكن من رؤيتك من خلاله".

لا بد من أنني بدوت مترددة جداً لأن الدكتور باكستون قال: "لا تقلقي. فأنت في أيد أمينة يا عزيزتي، ولن يحدث لك أي خطب". نظرت إليه، فابتسم لي وقال: "يمكنك أن تعتبري ذكرياتك ضائعةً في مكان ما من دماغك وأن كل ما سنفعله بهذه الآلة هو محاولة استكشاف مكانها".

وجدت الجو بارداً داخل الآلة بالرغم من الملاءة التي لفاني بها، ومظلمة بالرغم من النور الأحمر الذي راح يومض في مكان ما من الغرفة، والمرآة المؤطّرة المعلقة على بعد بضع بوصات فوق رأسي في زاوية معينة حيث إنها تعكس صورة شاشة الكمبيوتر الموضوعة في مكان آخر. وبالإضافة إلى سدادتي الأذنين، وضعت سماعة أذنين ليتمكنا من خلالها من التحدث إليّ. وبالرغم من ذلك، فقد ظلا صامتين ولم أستطع أن أسمع أي شيء باستثناء همهمة بعيدة وصوت أنفاسي الشاقة المثقلة بالقلق ونبض قلبي الخافت.

أمسكت بيدي اليمنى كرة مطاطية صغيرة مليئة بالهواء. وكان الدكتور باكستون قد قال لي: "اضغطي عليها إن شعرت بالحاجة إلى قول أي شيء لنا، لأننا لن نتمكن من سماعك إن تكلمت". تحسست سطحها المطاطي وانتظرت. أردت أن أغمض عيني، ولكنهما طلبا مني أن أبقيهما مفتوحتين وأنظر إلى الشاشة؛ ففعلت ما طلباه مني. كان هناك حاجزان مطاطيان يبقيان رأسي ثابتاً تماماً. فلم أعد أستطيع الحركة حتى لو أردت ذلك.

سادت لحظة سكون ثم سمعت صوت نقرة عالية جداً لدرجة أنني أجفلت بالرغم من سدادتي الأذنين. وتبعتها نقرة ثانية ثم ثالثة. وسمعت ضجة عميقة من داخل الآلة أو ربما من أعماق رأسي. فلم أعد أستطيع التمييز. شعرت بأنها وحش يمشي متثاقلاً ويستكين للحظة مستعداً للانقضاض على فريسته. قبضت على الكرة

المطاطية وأنا مصممة على عدم الضغط عليها ثم سمعت ضجة كجرس الإنذار تتوالى مرة تلو أخرى. وكانت عالية لدرجة تصم الآذان، حتى إنني أحسست بكل جسدي يهتز مع كل صدمة؛ فأغمضت عيني.

سمعت صوتاً في أذني يقول: "أيمكن أن تفتحي عينيك يا كريستين؟". كان الطبيبان يستطيعان رؤيتي عبر الزجاج. أضاف المتحدث قائلاً: "لا تقلقي. فكل شيء سينتهي على خير".

فتساءلت في سرّي عما يقصده بالخير. ترى ما الذي يعرفانه عما أحس بـه؟ ما الذي يدركانه عن حقيقة شعور المرء وهو مستلق في مدينة لا يتذكرها مع أناس لم يقابلهم في حياته قط؟ حدثت نفسي بأنني أطفو من دون أي شيء يثبتني أو أي أرض راسخة أقف عليها وكأنني ريشة تحت رحمة الرياح العاتية.

سمعت صوت الدكتور ناش يقول: "انظري إلى الصور؟ فكري في ما هي عليه، وقولي ذلك، ولكن فقط في سرك من دون أن تتفوهي بأي كلام".

فتحت عيني. فرأيت في المرايا الصغيرة فوقي رسومات تظهر الواحدة تلو الأخرى. وكانت بيضاء على خلفية سوداء. ورأيت رجلاً وسلماً وكرسياً ومطرقة. ففكرت في اسم كل واحدة من تلك الأشياء عندما ظهرت. وبعد ذلك، ظهرت في الصورة عبارة: شكراً لك! الآن استرخي! فقلت ذلك لنفسي حتّى أبقي نفسي مشغولة وأنا أتساءل في الوقت ذاته كيف يمكن للمرء أن يقوى على الاسترخاء وهو قابع في جوف آلة مرعبة كهذه.

ظهرت تعليمات أخرى على الشاشة مفادها: *تذكري حادثة قديمة*. وظهرت تحتها كلمة: *حفلة*.

فأغمضت عينيّ.

حاولت أن أفكر في الحفلة التي تذكرتها عندما خرجت مع بن لرؤية الألعاب النارية. وحاولت أن أتصور نفسي على سطح المنزل مع صديقتي وأن أسمع ضجة الحفلة تحتنا وأن أتذوق طعم دخان الألعاب النارية في الهواء.

راودتني تلك الصور ولكنها لم تبدُ حقيقية. وتملّكني شعور بأنني لا أتذكرها بل أبتكرها من مخيلتي.

حاولت أن أرى كيث وأتذكر كيف تجاهلني، ولكن لم تراودني أيّ ذكرى. فقد تاهت تلك الذكريات من ذهني مرة أخرى ودفنت ربما إلى الأبد بالرغم من أنني أدرك الآن أنها موجودة على الأقل ومخبأة هناك في مكان ما.

حولت تفكيري إلى حفلات الطفولة واحتفالات الميلاد مع أمي وعمتي وابنة عمي لوسي والألعاب التي اعتدنا أن نلعبها. وتصورت شكل أمي وفي حوزتها أكياس من الحلوى لتلفها كهدايا، وشطائر اللحم، ومعجون السمك الذي نزعت حراشفه بكل عناية. وتذكرت حلوى الهلام والشوكولاته.

تذكرت فستاناً أبيض اللون ذا كشاكش على كمّيه وجورباً مكشكشاً وحذاء أسود؛ لم يكن شعري قد تحول إلى اللون البني بعد. رأيت نفسي جالسة إلى طاولة عليها قالب حلوى مزين بالشموع، فأخذت نفساً عميقاً واقتربت منها ونفخت عليها ثم تصاعد الدخان في الهواء.

تزاحمت ذكريات من حفلة أخرى في ذهني؛ فها أنا ذا أرى نفسي في البيت أنظر من نافذة غرفة نومي وأنا أبدو في عمر السابعة عشرة من عمري تقريباً. أشاهد طاولات مصفوفة في الشارع في صفوف طويلة ومحملة بصوانٍ من النقانق والشطائر وأباريق عصير البرتقال. وتبدو أعلام المملكة المتحدة معلقة من كل نافذة بألوانها الزرقاء والحمراء والبيضاء.

أرى أطفالاً يرتدون ملابس تنكرية فخمة على شكل قراصنة وفرسان. فيحاول الكبار أن ينظموهم في فرق من أجل خوض سباق البيضة والملعقة. وأرى أمي في الجانب الآخر من الشارع وهي تثبت وشاحاً حول عنق ماثيو سوبر بينما يجلس والدي تحت نافذتي بالتحديد وفي يده كوب من عصير البرتقال.

يقول أحدهم من ورائي: "هيا عودي إلى هنا". فألتفت وأرى ديف سوبر جالساً على سريري. ويبدو شرشف السرير مجعداً تحته.

أقول: "هيا انهض. عليك أن ترحل قبل أن يعود والداي".

فيطلق ضحكة لا تخلو من اللطف ويقول: "هيا تعالي".

أقول: "كلا، هيا امحض، من فضلك".

تبدو خيبة الأمل واضحة عليه مع أنني لا أعرف ما الذي يتوقعــه، إذ إنـــني نفسي لم أتوقع أن يحدث هذا بالرغم من أن هذا لا يعني أنني لم أكن أريد حدوثه. والآن، أريد أن أبقى وحدي، إذ إن الأمر لا يتعلق به على الإطلاق.

يقول الشاب: "حسناً"، ثمّ ينهض ليرحل، فأشيح بوجهي عنه وأنظــر مـــن النافذة. بدأت في ذلك الوقت أظن أن عالمي قد تغير. فقد عبرت خطاً فاصــلاً لا يسعني التراجع عنه. يقول ديف: "إلى اللقاء"، لكنني لا أتفوه بكلمة واحـــدة ولا أنظر إليه وهو يغادر.

أعادني صوت في أذني إلى أرض الواقع عندما قال: "جيد جداً. الآن ســـترى المزيد من الصور يا كريستين. انظري إلى كل منها على حدة وفكري في ما هي أو من يكون الشخص الذي يظهر فيها. حسناً؟ هل أنت جاهزة؟".

ابتلعت ريقي بصعوبة وأنا أحاول أن أتوقع ما سيعرضانه عليّ من صور ومن سيظهر فيها وما مدى سوء ذلك.

فقلت في سرّي: *نعم*. وبدأنا.

كانت الصورة الأولى بالأبيض والأسود لطفلة صغيرة في عمر الرابعة أو الخامسة من عمرها بين ذراعي امرأة، وكانت الفتاة تشير إلى شيء ما، وبدت كلتاهما تضحكان. وفي الخلفية، رأيت صورة غير واضحة لسياج ونمر يستريح في الجانب الآخر. ففكرت في سرّي قائلة إنها صورة أم وابنتها في حديقة الحيوانات. وفجأة، أصابتني صدمة كبيرة عندما ميزت الصورة وأدركت أن الفتاة الصغيرة هي أنا وأن المرأة هي أمي، فحبست أنفاسي، إذ لم أستطع حتى أن أتذكر على الإطلاق أنني ذهبت إلى حديقة الحيوانات وأنا طفلة صغيرة. ومع ذلك، فقد رأيت الدليل بأم عيني هنا على أننا ذهبنا فعلاً. فقلت بيني وبين نفسي بعد أن تذكرت ما أوصاني به الطبيبان: *هذه أنا. وهذه أمي*. حدقت إلى الشاشة محاولة أن أحفر صورة أمي داخل ذاكرتي، ولكن الصورة تلاشت وحلت محلها صورة أخرى لأمي وهي تبدو الآن أكبر سناً. ومع ذلك، فلم يبدُ سنها موحياً بأنها أصبحت عجوزاً لدرجة تجعلها تتكئ على

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عكاز، وهذا ما كانت تفعله. كانت تبتسم في الصورة، ولكنها بدت خائرة القوى وقد ظهرت عيناها غائرتين في وجهها النحيل. ففكرت مجدّداً: *هذه أمي*. وخطرت ببالي كلمات أخرى بغير قصد: *وهي مثالة*. أغمضت عيني بشكل لاإرادي. فتوجب عليّ أن أجبر نفسي على فتحهما مجدّداً. وبدأت أتشبث بالكرة التي في يدي.

ظهرت الصور بشكل سريع ومتلاحق، فميزت بعضها فقط. وكانت إحدى الصور تخص الصديقة التي رأيتها في ذاكرتي، لذا، فقد ميزتها على الفور، وهذا ما أبهجني كثيراً. فقد بدت كما تخيلتها تماماً مرتدية سروال جينز أزرق قديماً وكنزة قطنية، وهي تدخن وشعرها الأحمر بدا فوضوياً ومبعثراً. كما ظهرت في صورة أخرى وشعرها مقصوص قصيراً ومصبوغ باللون الأسود وقد رفعت نظارة شمسية على رأسها. تبعتها صورة لوالدي بدا فيها، كما تذكرته، مبتسماً بسعادة وهو يقرأ الصحيفة في غرفتنا الأمامية. ورأيت لاحقاً صورة للوسي وصورة أخرى لبن وهو يبدو أصغر سناً بكثير جالساً في مقهى ومرتدياً سروال جينز وكنزة قطنية ويبتسم للكاميرا.

رأيت صوراً أخرى لغرباء، مثل صورة امرأة سوداء مرتدية رداء ممرضة، وصورة امرأة ذات ملامح صارمة مرتدية زيًّا رسميًّا وهي تسترق النظر من فوق إطار نظارتها. ورأيت صورة لرجل ذي شعر أحمر ووجه مستدير وإلى جانبه رجل آخر ملتح. وظهرت صورة لطفل في السادسة أو السابعة من عمره يأكل المثلجات. ورأيت لاحقاً صورة للصبيّ نفسه وهو جالس بجانب مكتب ويرسم صورةً لمجموعة من الناس جالسين بشكل عشوائي وينظرون إلى الكاميرا، وصورة أخرى لرجل وسيم ذي شعر طويل أسود ونظارة ذات إطار داكن وعينين ضيقتين وندبة على طول خده. توالت الصور وواصلت أنا النظر إليها محاولة تحديدها وتذكر موقعها داخل نسيج حياتي إن كان لها موقع أصلاً. فعلت ما طلبه الطبيبان مني وبحثت في إطاعة الأوامر. ومع ذلك، وبينما أنا أفعل ذلك، شعرت بالذعر يتملك قلبي، إذ راح ضجيج الآلة يتصاعد ويرتفع إلى أن أصبح أشبه بجرس إنذار وتحذير. فانقبض قلبي ولم أعد أقوى على الحراك. وأصبحت عاجزة عن التنفس وأغمضت عيني. وشعرت بوزن الملاءة يثقل كاهلي ويضغط عليّ وكأنها لوح من الرخام. وأحسست أنني على وشك الغرق.

ضغطت يدي اليمنى، ولكنها تكورت حول نفسها وانغرزت أظفاري في لحمي؛ فقد أوقعت الكرة، لذلك ناديت بصوت مكتوم.

سمعت صوت أحد الطبيبين في أذني يقول: "كريستين! كريستين!". لكنني لم أميز صاحب الصوت أو ما كان يريد مني أن أفعله. فناديت مجدداً. وبدأت أركل الملاءة لأبعدها عن جسمي. فصاح صاحب الصوت مجدداً بصوت أعلى: "كريستين!". عندئذٍ، توقف ضجيج الآلة وساد الصمت، وانفتح الباب بسرعة وسمعت أصوات أشخاص في الغرفة وشعرت بأيدٍ على يدي وساقي وصدري، ففتحت عيني.

قال الدكتور ناش: "لا بأس. إنك بخير. فنحن هنا إلى جانبك".

حالما تمكن الطبيبان من تهدئتي وطمأنتي أن كل شيء على ما يرام وأعطياني حقيبتي وقرطيّ وخاتم زواجي، توجهت بصحبة الدكتور ناش إلى المقهى الكائن في الممر نفسه. كان مقهى صغيراً فيه كراسٍ بلاستيكية برتقالية اللون وطاولات خشبية مصفرة. رأيت صوانيَ من الكعك العادي والشطائر تحت أغطية بلاستيكية شفافة تذبل تحت الضوء الساطع. لم يكن معي أي مال في محفظتي، ولكنني سمحت للدكتور ناش أن يشتري لي فنجاناً من القهوة وقطعة من حلوى الجزر. وبعد ذلك، اخترت مقعداً بجوار النافذة بينما ذهب هو ليدفع ثمن ما طلبه ويحضره معه. بدا الطقس في الخارج مشمساً، وقد ملأت ظلال طويلة الباحة المعشوشبة المفروشة بزهور صغيرة أرجوانية اللون.

جلس الدكتور ناش بقربي، ثمّ قال وهو يضع الصينية أمامي: "تفضلي. آمل أن يعجبك ما أحضرته".

لاحظت أنه طلب لنفسه فنجاناً من الشاي وأن كيس الشاي كان لا يزال يطفو في الماء بينما أخذ يضيف السكر من الزبدية الموضوعة في وسط الطاولة. أخذت رشفة من قهوتي وعبست. فقد وجدتها مرة وساخنة جداً.

قلت: "إنها جيدة. شكراً لك".

قال لي بعد لحظة: "إنني آسف". في البداية، ظننته يتحدث عن القهوة، ولكنه أضاف قائلاً: "لم تكن لديّ أي فكرة أنك ستجدين المكان مزعجاً".

قلت: "إن الآلة خانقة جداً وصاخبة أيضاً".

"نعم، بالطبع".

"كما أنني أفلتّ الكرة المطاطية من يدي".

فلم يقل شيئاً، وبدلاً من ذلك راح يحرك محتويات كوبه ويخرج كيس الشاي منه ويضعه على الصينية.

قال: "لم أكن أحب الشاي قط إلى أن أتيت إلى هنا". وراح ينفخ على الكوب قبل أن يرتشف منه رشفة.

سألته: "ماذا حدث؟".

وضع فنجانه على الطاولة ونظر إليّ قائلاً: "من الصعب أن أحدد ما جرى تماماً. فقد بدوت مصابة بحالة من الذعر. ليس هذا أمراً غريباً. إذ إن التواجد داخل آلة التصوير ليس وضعاً مريحاً كما سبق وذكرت بنفسك".

نظرت إلى قطعة الحلوى التي أمامي من دون أن ألمسها؛ لقد وجدت أنها أصبحت جافة. ثم قلت: "ماذا عن الصور؟ ما هي؟ ومن أين حصلتم عليها؟".

"إنها خليط من الصور، حصلنا على بعضها من ملفاتك الطبية. فقد تبرع بن بها قبل بضع سنوات. أما بعض الصور الأخرى فهي لأناس لم تقابليهم قط، وهي ما نسميه بمجموعة التحكم. إنك تعرفين بعض أولئك الناس من أيام طفولتك المبكرة، وهم أناس ينبغي لك أن تتذكريهم أو من المحتمل أن تفعلي ذلك، إذ إنهم من أفراد العائلة أو الأصدقاء من المدرسة. أما بقية الصور فهي لأناس يعودون لفترة حياتك التي لا تتذكرينها بتاتاً. إنني والدكتور باكستون نحاول أن نكتشف إن كان هناك اختلاف في الطريقة التي تحاولين فيها أن تصلي إلى ذكريات تعود إلى تلك الفترات المختلفة من حياتك. لقد أبديت أقوى رد فعل حيال صورة زوجك بالطبع، ولكنك أبديت رد فعل تجاه الآخرين أيضاً. وبالرغم من أنك لا تتذكرين الناس الذين عرفتهم في الماضي، فأنماط الإثارة العصبية موجودة حتماً".

قلت له: "من هي المرأة ذات الشعر الأحمر؟".

فابتسم وقال: "إنها ربما صديقة قديمة".

"هل تعرف اسمها؟".

"يؤسفني القول إنني لا أعرف اسمها. فالصور موجودة في ملفك وغير معرفة".

أومأت برأسي. فقد كنت أعرف حق المعرفة بأنها صديقة قديمة، ولكنني أردت معرفة اسمها.

"قلت إنني أبديت رد فعل حيال الصور؟!".

"نعم، لقد حدث ذلك بالنسبة إلى بعض الصور".

"وهل هذه دلالة مبشرة بالخير؟".

"يجب أن نقوم بدراسة النتائج بمزيد من التفصيل قبل أن نتوصل إلى نتيجة نهائية حيالها". فأومأت برأسي، ثمّ تابع الطبيب قائلاً: "إن هذا الإجراء حديث جداً ولا يزال قيد التجربة".

فقلت: "فهمت". وقطعت زاوية قطعة الحلوى، فوجدتها شديدة المرارة والقشدة التي عليها شديدة الحلاوة. جلسنا بصمت لبضع لحظات ونحن نرتشف الشاي والقهوة. عرضت عليه تناول بعض الحلوى، لكنه رفض وهو يهز رأسه وربت على معدته قائلاً: "يجب أن تنظري إلى هذه الكِرش". وبالرغم من ذلك، لم أجد هناك سبباً يدعوه للقلق. فقد بدت معدته مسطحة على الأغلب بالرغم من أنني لاحظت أنها من النوع الذي قد يتحول إلى كرش. أما الآن، فقد بدا في نظري شاباً حديث السن لم يحدث التقدم بالسن تأثيراً في مظهره بعد.

فكرت في جسمي؛ إنني لست بدينة ولا حتى زائدة الوزن، ومع ذلك فهو يدهشني. فعندما أجلس، يتخذ جسمي شكلاً مختلفاً عن الشكل الذي أتوقعه، فأشعر بجلد ساقيّ مترهلاً، وأحس بهما تحتكان عندما أضع ساقاً على ساق. وعندما أستحم، ألاحظ اهتزازاً خفيفاً في جلد ذراعي. لقد ازداد حجم جسمي عما سبق وأصبحت أحتل مساحة أكبر مما أدرك. و لم أعد فتاة صغيرة أو مراهقة ذات جسم مكتنز وجلد مشدود على عظامي. فقد بدأت طبقات الشحم تتراكم وتتخزن تحت جلدي.

نظرت إلى قطعة الحلوى التي لم آكلها وتساءلت عما سيحدث في المستقبل، وتخيلت نفسي وقد ازداد وزني أكثر من ذلك وأصبحتُ مترهلة ثم سمينة ومنتفخة كبالونات الحفلات. وقد أبقى على هذا القياس الحالي نفسه من دون أن أعتاد عليه قط وأبدأ بدلاً من ذلك بمراقبة التجاعيد وهي تحفر نفسها بعمق على وجهي،

وجلد يدي يصبح رقيقاً كقشرة البصل إلى أن أتحول إلى امرأة عجوز مرحلة تلـو أخرى في كل مرة أرى فيها انعكاس صورتي في مرآة الحمام.

أطرق الدكتور ناش برأسه ليحكّ قمة رأسه. واستطعت أن أرى جلد رأسـه من خلال شعره. فقد بدا واضحاً تماماً على شكل دائرة في قمة رأسه. ظننت أنه لم يلاحظها بعد ولكنه يوماً ما سيلاحظها بشكل مؤكد. إذ ربما يرى صورة لنفسـه ملتقطة من الخلف أو يفاجئ نفسه في غرفة تغيير الملابس أو ربما يُـدلي مصـفف شعره أو صديقته بتعليق ما. إن التقدم بالسن يباغتنا جميعاً، ولكن بأساليب شـتى. إن هذه هي الفكرة التي دارت في خلدي وهو يرفع رأسه.

قال لي ببهجة بدت لي مفتعلة قليلاً: "آه! لقد أحضرت لك شيئاً. إنما هدية. حسناً، ليست هدية في الواقع، بل شيء قد تودين الحصول عليه". ومـد يـده إلى الأسفل ورفع حقيبته عن الأرض، ثم قال وهو يفتحها: "إنك على الأرجح تملكين نسخة منها". أخرج شيئاً من حقيبته وقال: "تفضلي".

أدركت حقيقته على الفور حتى قبل أن أنظر إليه. فماذا قد يكون غير ذلك؟ شعرت بالطرد صلباً وثقيلاً بين يدي. وبدت محتوياته مغلفة بمغلّف مبطن ومغلـق بشريط لاصق. رأيت اسمي مكتوباً عليه بقلم تخطيط أسود ثخين. **كريستين**. قـال الطبيب: "إنها روايتك، يا كريستين، الرواية التي ألفتها".

لم أعرف ما يجب أن يكون عليه شعوري. وخطر ببالي أن هذا دليل يثبت أن ما كتبته في سجلي صحيح إن احتجت إليه غداً.

قلت له: "شكراً جزيلاً لك".

فابتسم وقال: "لا داعي للشكر".

خبأت النسخة تحت معطفي وشعرت بها طوال الطريق تنبض مـع نبضـات قلبـي.

* * *

عندما عدت إلى البيت، جلست بجانب طاولة غرفة المعيشة وأخذت أكتـب بينما كان الطرد الذي أعطاني إياه الدكتور ناش أمامي. وعندما أنهيـت الكتابـة، قرأت ما كتبته بسرعة قبل أن أخفي سجلي. وبعد ذلـك، أسـرعت عائـدة إلى الطابق السفلي لأنظر إلى الهدية التي أعطاني إياها. لم يتبقَّ أمـامي سـوى بضـع

ساعات فقط قبل أن يعود بن إلى البيت. وأدركت أنني سأود أن أقرأ روايتي وأكتب عنها أيضاً، ولهذا، لم يكن لديّ وقت لأضيعه. وشعرت بأنني في غاية اللهفة والترقب.

أخرجت نسخة روايتي من المغلف، فوجدتها قديمة ومغلفة بالغلاف الرقيق. ورأيت آثار فنجان قهوة على الغلاف الأمامي وأطراف الصفحات مصفرة بحكم الزمن. فتساءلت إن كان الدكتور ناش قد أعطاني نسخته الخاصة، وما إذا كانت لا تزال متوفرة في الأسواق أم لا. بينما أنا أمسكها بيدي، تذكرت نفسي، كما حدث في ذلك اليوم، وأنا أصغر سناً من الآن بكثير. وكنت أمد يدي إلى هذه الرواية لأعثر على مصدر إلهام يساعدني على كتابة الرواية الأخرى، ولكنني ربما أدركت حينئذٍ أن هذا لن ينجح أبداً، إذ إن الرواية الثانية لم تكتمل قط.

قلبت الرواية، فرأيت على غلافها رسماً ملوناً لطاولة مكتب وُضِعَت فوقها آلة كاتبة. وكان هناك غراب جاثم عليها ورأسه متقدم إلى الأمام وكأنه يقرأ الورقة الموضوعة في الآلة الكاتبة. ورأيت فوق رأس الغراب اسمي مكتوباً وفوقه العنوان.

إلى طيور الصباح. بقلم: كريستين لوكاس.

بدأت يداي ترتجفان وأنا أفتح الرواية. قرأت على صفحة العنوان الإهداء: *إلى والدي*، وتحت الإهداء كلمة: *أفتقدك*.

أغمضت عيني، ورفرفت أمامهما ذكرى بعيدة عن والدي، إذ رأيته مستلقياً على سريره تحت أضواء بيضاء ساطعة وبشرته تبدو شفافة ومبللة بالعرق لدرجة جعلتها براقة. ورأيت أنبوباً في ذراعه وكيساً من سائل نقي متدلياً من حامل إلى جانبه وصينية من الكرتون وعلبة دواء. ورأيت ممرضة تجسّ نبضه وتقيس ضغط دمه، لكنه لم يستيقظ. جلست أمي على الجانب الآخر من السرير وهي تحاول أن تكبح دموعها بينما حاولت أنا أن أجبر دموعي المحتبسة داخل عيني أن تسيل على وجهي.

شممت رائحة زهور مقطوفة وبعض التراب، فوجدتها رائحة غريبة. إنني أدرك الآن أنني تذكّرتُ اليوم الذي قمنا فيه بحرق جثمانه. أرى نفسي متّشحة بالسواد – وهذا ليس أمراً جديداً عليّ – ولكنني هذه المرة لا أضع مساحيق تجميل. وأرى أمي جالسة بجانب جدتي. تنفتح الستائر وينزل التابوت في الحفرة. وعندئذ فقط أجهش بالبكاء بعد أن أتخيل والدي يتحول إلى تراب ورماد. تربت أمي على يدي

بحنان. وبعد انتهاء المراسم، نذهب إلى البيت ونحتسي بعض الشراب الفوار الرخيص ونتناول بعض الشطائر. وبعد ذلك، تبهت صورة أمي شيئاً فشيئاً وتتلاشى من ذهني. فأرى لوسي واقفة في الحديقة الخلفية وهي تدخن. تقول لي وأنا أشعل سيجارتي من سيجارتها: "هل أنت بخير؟"، ولكنني لا أجد رداً على سؤالها، ولهذا ألتزم الصمت. فتقول: "إنني آسفة بشأن وفاة والدك". أهز كتفي وأسحب نفساً عميقاً من سيجارتي وربما أقول: "لا بأس بذلك. نعم، إنه أمر مريع". وأنا أدرك أنني عندما أفعل ذلك، أبدو وكأنني لا آبه لشيء البتة.

تنهدت بعمق وقد اختفت الصورة من أمامي، فتحت عيني، فرأيت روايتي أمامي.

قلبت صفحة العنوان وقرأت السطر الافتتاحي الذي ورد فيه: *في تلك اللحظة، وبينما أخذ محرك السيارة يهدر وقدمها اليمنى تضغط على دواسة البنزين بقوة، أفلتت المقود من يدها وأغمضت عينيها... كانت تعي ما سيحدث وإلى أين سيقودها هذا...*

قلبت صفحات الكتاب حتى وصلت إلى منتصفه. وقرأت فقرة في وسط الصفحة ثم فقرة أخرى قرابة النهاية.

اكتشفت أن أحداث الرواية تدور حول امرأة اسمها **لو** ورجل، وهو زوجها على ما أعتقد، واسمه **جورج**. وبدت أحداثها تدور في أثناء اندلاع إحدى الحروب. فشعرت بخيبة الأمل، إذ إنني لم أدرك ما الذي كنت أطمح إلى التعبير عنه أو الفكرة التي أردت أن أوصلها من خلال هذه الرواية. أهي سيرة ذاتية؟ ولكنني أدركت أن أيَّ أجوبة ستزودني بها تلك الرواية هي أجوبة محدودة جداً.

ومع ذلك، فقد شعرت بالفخر، وأنا أقلبها لأنظر إلى الغلاف الخلفي، أنني على الأقل ألّفتها وتمكنت من طباعتها ونشرها.

في المكان الذي توقعت أن أجد فيه صورة للمؤلفة، لم تكن هناك أيّ صورة. وبدلاً من ذلك، وجدت لمحة مقتضبة عن حياتي.

ولدت كريستين لوكاس عام 1960 في شمالي إنكلترا. ودرست اللغة الإنكليزية في جامعة لندن حيث تقيم حالياً. نقدم لكم في هذا الكتاب أول إبداعاتها الروائية.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ابتسمت لنفسي وأنا أشعر بموجة من السعادة والفخر تغمرني. وفكرت: *لقد ألفت رواية*. وكنت أريد أن أقرأها وأن أكتشف أسرارها وأحل رموزها، ولكنني في الوقت ذاته أحجمت عن فعل ذلك. فقد تملكني قلق من أن تسلبني الحقيقة سعادتي. فإما إن الرواية ستعجبني، وهذا ما سيحزنني لأنني أصبحت عاجزة عن تأليف رواية أخرى، أم إنها لن تعجبني، وهكذا سأشعر بالإحباط لأنني لم أطور موهبتي أكثر من ذلك. ولم أستطع أن أعرف أي الاحتمالين هو الأكثر إمكانية، ولكنني أدركت أنني يوماً ما سأعجز عن مقاومة الشعور بإنجازي الوحيد وسأحقق ذلك الاكتشاف.

ولكن ليس اليوم، إذ لديّ اليوم شيء آخر أكتشفه. إنه شيء أسوأ من الحزن وأشد تدميراً من الإحباط، شيء من المحتمل أن يمزقني إلى أشلاء.

حدث هذا عندما حاولت أن أعيد وضع الكتاب في مكانه داخل المغلف فعثرت في داخله على شيء آخر. إنها رسالة مطوية تبدو حديثة العهد كتبها لي الدكتور ناش. ورد في الرسالة: *فكرت في أن هذا قد يثير اهتمامك!*

فتحت الرسالة. اكتشفت أنها ورقة مطبوعة مأخوذة من صفحات إحدى الصحف. قرأت في أعلى الصفحة: ستاندرد 1988 وتحتها مقالة وبجانبها صورة بالأبيض والأسود. نظرت إلى الصورة للحظة أو اثنتين قبل أن أدرك أن المقالة هي عبارة عن مقالة نقدية لروايتي وأن الصورة صورتي أنا.

ارتعشت يداي وأنا أمسك الصفحة من دون أن أدرك سبب توتري، وشعرت بأن هذه الصفحة تحفة أثرية مضى عليها ردح من الزمن. وسواء أكان تأثيرها جيداً أم سيئاً، فقد انقضى ذلك التأثير منذ وقت طويل. لقد أصبحت تاريخاً وتلاشت أمواجها تماماً، ولكنها لا تزال مهمة في نظري. ترى كيف تلقى القراء عملي الأدبي قبل كل تلك السنوات؟ ترى هل حققت روايتي النجاح الذي كنت أنشده؟

تفحصت المقالة بسرعة على أمل أن أستوعب نبرة كاتبها قبل أن أجبر نفسي على تحليل تفاصيلها. فشعرت بالكلمات الهامة تقفز في وجهي، ووجدت معظمها إيجابية، مثل: *مدروس. منظور. مهارة. إنسانية. وحشية*.

نظرت إلى الصورة؛ كنت أظهر فيها جالسة أمام مكتب وجسمي متقدم إلى الأمام باتجاه الكاميرا. فتملكني شعور بأنني بدوت في الصورة مرتبكة وكأن هناك

شيئاً ما يقلقني. وتساءلت إن كان الشخص القابع خلف الكاميرا هو من يـزعجني أو أن الوضعية التي أتخذها هي السبب. ومع ذلك، فقد بدوت في الصورة مبتسمة، وبدا شعري طويلاً ومنسدلاً. وبالرغم من أن الصورة كانت بالأبيض والأسـود، فقد بدا شعري داكناً أكثر مما هو عليه الآن وكأنه مصبوغ باللون الأسود أو مبلل. رأيت في الخلفية باباً يؤدي إلى الفناء ولاحظت من خلاله شجرة جـرداء تبـدو واضحة من طرف الإطار. وقرأت تحت الصورة تعليقاً مفاده: *كريستين لوكاس في بيتها الكائن في شمالي لندن.*

أدركت عندئذ أنه لا بد من أن يكون ذلك البيت الـذي زرتـه بصـحبة الدكتور ناش. وانتابتني للحظة رغبة عارمة في العودة إلى هناك وأخذ هذه الصورة معي لأقنع نفسي أن هذا صحيح وأنني كنت موجودة هناك فعلاً وعشت في ذلك البيت.

ولكنني بالطبع كنت أعرف ذلك أصلاً. وبالرغم من أنني لم أعد أسـتطيع أن أتذكره بعد الآن، فقد أدركت أنني وقفت هناك في ذلك المطبخ وأنني تذكرت بن وهو يحيطني بذراعيه.

ابتسمت وتحسست الصورة ومررت أطراف أصابعي عليها وأنا أنقب عـن ألغازها المخفية كما قد تفعل امرأة عمياء. تتبعت شعري ومررت أصـابعي علـى وجهي. فأوحت إليّ ملامح وجهي في الصورة بعدم الراحة، ولكن وجهـي بـدا متألقاً بطريقة ما وكأنني أخفي سراً وأتمسك به كتعويذة سحرية. لقـد طبعـت روايتي أخيراً، ولكن لا بد من أن هناك سبباً آخر أهم من ذلك بكثير.

نظرت عن كثب أكثر، واستطعت أن ألاحظ الفستان الفضفاض الذي أرتديه والطريقة التي وضعت بها يدي على بطني. وفجأة، لاحت لي ذكرى من المجهـول؛ فأنا أرى نفسي جالسة ليلتقطوا لي الصورة والمصور واقف قبالتي خلف الكـاميرا والصحفية التي تجري معي مقابلة تحوم في المطبخ. تنادينا من هناك متسائلة إن كان التصوير يجري على خير ما يرام، فنجيبها كلانا ببهجة: "نعم". ثم نضحك. يقـول المصور: "سننتهي قريباً". ويغير الفيلم بينما آخذ أنا رشفة مـن كـوب القهـوة الموضوع على المكتب خلفي. تشعل الصحفية سيجارة وتناديني من بعيـد لـيس لتسألني إن كنت أمانع بتدخينها ولكن لتسألني إن كان لـدينا صـحن سـجائر.

فيتملكني الانـزعاج بشكل بسيط، فالحقيقة هي أنني أتوق إلى تدخين سـيجارة، ولكنني أقلعت عن التدخين وخاصة بعد أن اكتشفت أنني...

تمعنت في الصورة مجدداً وأدركت الحقيقة التي خفيت عني. وعرفـت أنـني كنت في الصورة... حاملاً.

تعطل تفكيري لبرهة ثم بدأت الأفكار تتسارع في ذهني بجنون وتتلاحق فوق بعضها بعضاً بعد أن فوجئت بإدراكي لحقيقة أنني لم أكن أحمل طفلاً في أحشـائي في ذلك الوقت وحسب وأنا جالسة في غرفة المعيشة والمصور يلـتقط صـورتي، ولكنني كنت أعرف ذلك وأتوهج سعادة لمعرفته.

إن هذا لا يعقل أبداً. تُرى ما الذي حدث؟ ينبغي للطفل أن يكون الآن... تُرى كم ينبغي أن يكون عمره؟ في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة أو العشرين؟ الآن.

ولكنني عدت إلى الواقع وتذكرت أنه ليس لديّ أطفال. *ترى أين ابني؟*

شعرت بعالمي ينهار فوق رأسي مجدداً. وفكرت في كلمة *ابـن* الـتي قلتـها لنفسي بنبرة مؤكدة. فقد أدركت بطريقة ما من عمق سحيق في داخلي أن الطفل الذي كنت أحمله صبـي وليس فتاة.

تشبثت بطرف الكرسي لأثبت نفسي. وبينما أنا أفعل ذلك، لمعت في ذهـني كلمة وأضاءت بشدة: *آدم*. وشعرت بعالمي ينـزلق من هاوية سحيقة إلى أخـرى أعمق منها.

لقد أنجبت ذلك الطفل فعلاً، وأسميناه آدم.

نهضت على قدمي، وسقط الطرد الذي كان يحوي الروايـة علـى الأرض. تلاحقت الأفكار في ذهني كطاقة متفجرة كامنة في داخلي تسعى بيأس إلى منفـذ لتتفجر وتتحرر. أخذت قصاصة الصحيفة ووضعتها داخل الطـرد مـع الرواية وهرعت إلى الطابق العلوي. فوقفت في الحمام أمام المرآة و لم ألق حتى نظرة واحدة على وجهي بل أخذت أبحث حول المرآة وأتأمل صور الماضي التي يجب علـيّ أن أعتمد عليها كل يوم لأعيد بناء حياتي عندما تستحيل ذاكرتي إلى مجـرد صـفحة بيضاء فارغة.

رأيت صوراً لي ولبن وصوراً أخرى لي وحدي أو له وحده وصوراً لنا معـاً وبجانبنا زوجان آخران أكبر سناً أظن أنهما والداه. ورأيت صورة لي أبـدو فيهـا

أصغر بكثير وأنا متلفعة بشال وأربّت على كلب وأبتسم بسعادة، ولكن مـا مـن صورة لآدم وهو رضيع، أو في أول مشيه، أو صور أخذت له في أول يوم من أيام المدرسة أو في لعبة رياضية أو عطلة، ولا صور له وهو يبني قصوراً من الرمل علـى شاطئ البحر. بحثت وبحثت، ولكنني لم أجد قط أي دليل على وجود آدم.

عجزت عن استيعاب ما يجري، إذ إنه لا بد من وجود صور كالتي يلتقطهـا كل والد ووالدة لأبنائهما ولا يتخليان عنها أبداً.

فكرت في سرّي في أنها لا بد من أن تكون موجودة هنا في مكان ما. فرفعت الصور المثبتة حول المرآة لأتأكد من عدم وجود صور أخرى تحتها وكأنها حقـب تاريخية تتراكم فوق بعضها بعضاً كطبقات الأرض، ولكنني لم أجـد أي شـيء باستثناء ألواح السيراميك الشاحبة المثبتة على الجدار وزجاج المرآة المصقول اللامع؛ لم أعثر سوى على خواء.

آدم! رنت أصداء الكلمة في ذهني، فأغمضت عيني وراحت ذكريات أخرى تومض أمام ناظري الواحدة تلو الأخرى وتفاجئني بعنفهـا وصـورها المتلاحقـة المرتعشة التي تظهر وتختفي. فرأيت آدم بشعره الأشقر الذي أدركت أنه سيصـبح بنياً حالما يكبر، مرتدياً زيّ الرجل العنكبوت الذي كان يصر على ارتدائه طـوال الوقت حتّى أصبح صغيراً جداً على مقاسه وتوجب عليّ أن أتخلص منه. رأيتـه في عربة أطفال وتذكرت أنني كنت أعتبره أجمل وأروع طفل في الوجـود. ورأيتـه يركب دراجة هوائية زرقاء بلاستيكية ثلاثية العجلات، ثمّ تذكرت أننا اشتريناها له كهدية بمناسبة ذكرى ميلاده وأنه اعتاد أن يركبها في كل مكان نسمح لـه فيـه بذلك. رأيته في المتنـزه ورأسه مدفوع إلى الأمام فوق مقود الدراجة الهوائية وهو يبتسم سعادة وينطلق بسرعة على طول منحدر باتجاهي ثم يرتطم بالأرض عنـدما تصطدم دراجته بشيء ما وتلتوي من تحته. ورأيت نفسي أحمله بين ذراعي وهـو يبكي وأمسح الدم عن وجهه وأعثر على إحدى أسنانه مكسورة وواقعة بجانـب عجلة الدراجة وهي لا تزال تدور في الهواء. وشاهدته يريني صورة رسمها وفيهـا شريط أزرق رفيع في الأعلى يمثل السماء وشريط رفيع آخر في الأسفل يمثل الأرض وبينهما ثلاثة أشخاص كبار وبيت صغير. ورأيت لعبة الأرنب التي اعتاد أن يحملها معه حيثما ذهب.

عادت بي الذاكرة إلى الحاضر، فوجدت نفسي واقفة في الحمام، ولكنني أغمضت عيني مجدداً. فقد أردت أن أتذكره في المدرسة أو أن أتخيله وهو مراهق أو أن أراه معي أو مع أبيه، ولكنني عجزت عن ذلك. وعندما حاولت أن أوجه ذكرياتي، راحت صورته ترتعش إلى أن اختفت كريشة تعصف بها الرياح. فكلما حاولت أن أمد يدي لأمسكها، عصفت بها إلى اتجاه آخر تعجز يدي عن الوصول إليه. وبدلاً من ذلك، رأيته حاملاً المثلجات وهي تذوب وتتقاطر على الأرض، ثم رأيت وجهه ملطخاً بالسوس، ثم تذكرته نائماً على المقعد الخلفي للسيارة. كان كل ما استطعت فعله أنني أخذت أراقب بعجز بينما راحت تلك الذكريات تمر أمام عيني مسرعة ثم تختفي بسرعة كما ظهرت.

استجمعت كل إرادتي ومقاومتي لأمنع نفسي من تمزيق الصور التي أمامي. فقد أردت أن أنزعها عن الجدار بحثاً عن دليل على وجود ابني. وبدلاً من ذلك، فقد تسمرت في مكاني أمام المرآة، وكأنني أخشى أن تخونني يداي، وكل عضلة من عضلات جسمي مشدودة كالوتر.

لم يكن هناك أثر لصور آدم في الألبوم العائلي الموجود في غرفة المعيشة أيضاً، وأدركت ذلك تماماً، إذ إنني كنت لأتذكر رؤية صورة طفلي وأنا أتصفح الألبوم صباح اليوم وأسأل بن عن هويته.

لم أجد أي صور على الموقد، ولا غرفة نوم للمراهقين تملأها ملصقات نجوم الغناء على الجدران، ولا كنزات قطنية في الغسيل أو بين كومة الملابس المعدة للكي، ولا حتى رأيت حذاء رياضياً في الخزانة تحت الدرج. وحتى لو ترك ابني المنزل، فلا بد من دليل على وجوده. ولا بد من وجود أثر له.

ولكن، كلا، لا وجود له في هذا المنزل. سرت موجة برد في جسدي عندما أدركت أنّ لا وجود له وأن عينيه لم تُبصرا نور هذه الحياة قط.

لا أعرف كم أمضيت من الوقت وأنا واقفة هناك أتأمل غيابه. عشر دقائق؟ أم عشرين دقيقة؟ أم ساعة؟ وفي لحظة من اللحظات، سمعت صوت المفتاح في الباب وصوت كشط بينما راح بن يمسح حذاءه بالممسحة. لم أحرك ساكناً، بل وقفت هناك متسمّرة في مكاني وأنا أصغي إليه وهو يدخل إلى المطبخ ثم إلى غرفة

الطعام. وعندما ناداني من الطابق العلوي وسألني إن كان كل شيء على ما يـرام، بدا صوته موحياً بالقلق والخوف ولاحظت فيه نبرة توتر لم ألاحظها صباح اليوم، ولكنني تمتمت فقط أنني بخير. وبعد ذلك، سمعته يدخل إلى غرفة المعيشة ويشـغّل التلفزيون.

توقفت عقارب الزمن عن المضي، وأحسسـت أن ذهـني أصبح مقفـراً كالصحراء من كل شيء باستثناء الرغبة في معرفة مصير ابني مصحوبة بالرعب من الحقائق التي قد أكتشفها.

نـزلت إلى الطابق السفلي.

وقفت خارج باب غرفة المعيشة، محاولةً أن أبطئ من سرعة أنفاسي، ولكنني عجزت عن ذلك. فقد أخذت تتسارع وتزداد انفعالاً. لم أعرف ما يجب أن أقوله لبن. كيف سأقول له إنني اكتشفت أمر آدم؟ وإن سألني كيف عرفـت، فمـاذا سأقول له؟

لم يعد ذلك بذي أهمية على أيّ حال لأنني لم أعد أكترث لأي شيء بخلاف حقيقة ما جرى لابني. أغمضت عيني، وعندما شعرت بأنني وصلت إلى أكبر قـدر من الهدوء استطعت أن أصل إليه، دفعت الباب بلطف وشعرت به ينـزلق علـى السجادة الخشنة.

لم يسمعني بن وأنا أدخل، لقد وجدته جالساً على الأريكة يشاهد التلفزيـون وهناك طبق موضوع على حضنه وعليه بعض البسكويت، فاكتسحتني موجة مـن الغضب، إذ إنه كان يبدو هادئاً ومطمئناً ووجهه بدا موحياً بالاسترخاء والسـعادة وهناك ابتسامة مرسومة على شفتيه. وعندما بدأ يضحك، أردت أن أهـرع إليـه وأمسكه من ثيابه وأصيح في وجهه ليعترف لي بكل شيء ويخبرني عن سبب إخفائه حقيقة روايتي والدليل على وجود ابني وأطالبه بأن يعيد إليّ كل شيء خسرته.

ولكنني أدركت أن هذا لن يجدي نفعاً، بل عليّ أن أتحلى بالهدوء. لـذلك، تنحنحت بلطف ونعومة وكأن لسان حالي يقول: *لا أريد أن أزعجك، ولكن...*

التفت إليّ وابتسم قائلاً: "أنت هنا يا عزيزتي!".

دخلت إلى الغرفة وقلت بصوت عالٍ ومتوتر لدرجة أنه بدا غريباً عني: "إنني أريد أن أتحدث إليك يا بن".

اكتسبت ملامح وجهه تعبيراً قلقاً، فوقف على قدميه وتوجه نحوي وانــزلق الطبق الذي كان على حضنه وسقط أرضاً، ثمّ قال: "ما الأمر يا حبـي؟ هل أنت على ما يرام؟".

فقلت: "كلا". توقف بن على بعد متر أو نحو ذلك من مكان وقوفي، ومــد ذراعيه نحوي لأرتمي في حضنه، ولكنني تسمرت في مكاني.

"ما الخطب؟".

نظرت إلى زوجي وتأملت وجهه القلق والهادئ في آن معاً، وبدا لي مسيطراً على أعصابه وكأننا مررنا بهذا الموقف نفسه من قبل وأصبحنا معتادَين على هــذه اللحظات الهستيرية المجنونة.

لم أعد أقوى على الاحتمال من دون أن ألفظ اسم ابني. فسألته: "أين آدم؟"، خرجت الكلمات من فمي بلا تفكير، ثم قلت: "أين هو؟".

تغير تعبير وجه بن إلى الدهشة أو حتّى الصدمة فابتلع ريقه.

قلت: "أخبرني!".

أخذني بين ذراعيه، فتمنيت أن أنتزع نفسي، ولكنني لم أفعل ذلك. قال بن: "من فضلك هدِّئي من روعك يا كريستين. اهدئي. كل شيء علــى مــا يــرام. سأشرح لك كل شيء".

أردت أن أقول له إن الأمور ليست على ما يرام أبداً، ولكنني لم أقل شـيئاً. أخفيت وجهي عنه ودفنته بين طيات قميصي.

بدأت أوصالي تــرتعش، فقلــت: "أخــبرني، مــن فضلــك، أخــبرني الآن".

جلسنا على الأريكة، فجلست أنا على أحد طرفيها وهو على الطرف الآخر، وهذه هي المسافة التي رغبت في أن نكون عليها.

لم أكن أريده أن يتكلم، ولكنه تكلم.

فقال: "إن آدم ميت".

شعرت بجسدي ينقبض ويتشنج، وأحسست بكلماتــه تنغــرز في قلبـــي كالشفرة الحادة.

فكرت في الذبابة التي رأيتها على زجاج السيارة في طريق العودة من بيت جدتي.

تكلم بن مجدداً وقال: "إنني آسف يا كريستين".

استشطت غضباً من كلامه. وقلت في سرّي: *يا له من وغد!* بالرغم من أنني أدركت أن الخطأ ليس خطأه.

أجبرت نفسي على الكلام، فقلت: "كيف؟".

تنهد وقال: "لقد تطوع آدم في الجيش".

أصبح جسدي بكامله مخدراً وفاقد الشعور، وتلاشت كل مشاعري حتى إنني فقدت الإحساس بكل شيء باستثناء الألم وحده.

لقد أنجبت طفلاً لا أعرف أنني أنجبته، وأصبح جندياً من دون أن أعرف عن ذلك شيئاً. فخطرت ببالي فكرة وحيدة وهي: *ما هذا السخف؟! ترى ماذا سيكون رأي أمي؟*

تكلم بن مجدّداً بشكل متقطع، وقال: "لقد التحق بالبحرية الملكية وتم تعيينه في أفغانستان. فلقي حتفه العام الماضي".

ابتلعت ريقي بصعوبة وشعرت بحلقي جافاً.

وقلت: "كيف؟ ولماذا؟".

"كريستين...".

قلت: "أخبرني ما حدث، أريد أن أعرف كل شيء".

مد يده ليمسك بيدي، فتركته يمسكها بالرغم من أنني ارتحت لأنه لم يحاول الاقتراب مني أكثر.

"هل تريدين فعلاً أن تعرفي كل التفاصيل؟".

بدأ غضبي يتفاقم لدرجة أنني لم أستطع أن أحول دون انفجاره، وامتزج غضبي بفزعي فقلت: "لقد كان ابني".

أشاح بن بوجهه عني ونظر إلى النافذة، ثمّ قال ببطء وكأنه يهمس: "كان يتنقل في عربة مصفحة. وبينما كان الجيش ينقل قوات عسكرية إلى منطقة ما، انفجرت بهم قنبلة مزروعة على جانب الطريق. فنجا أحد الجنود بينما لقي آدم وجندي آخر حتفهما".

أغمضت عيني وانخفض صوتي حتى تحول إلى همس. فقلت: "هل فارق الحياة على الفور؟ هل عانى في احتضاره؟".

تنهد بن وقال بعد لحظة: "كلا، لم يعانِ على الإطلاق. فقد قيل لي إن موته كان سريعاً جداً".

عندما نظرت إليه، لم يلتفت إليَّ، وحدثتني نفسي بأنه يكذب.

تخيلت آدم مرمياً بجانب الطريق ينــزف حتى الموت ثم صرفت الفكرة عن ذهني محاولة ألا أركز تفكيري على أي فكرة وأن أبقيه خالياً.

بدأ رأسي يدور، وراحت الأسئلة تصطخب داخله؛ إنما أسئلة لم أجرؤ على طرحها خشية أن تقتلني إجاباتها حسرة وألماً. ترى كيف كان يبدو وهو صبي؟ ومراهق؟ ورجل؟ هل كنا على علاقة وثيقة؟ هل اعتدنا أن نتشاجر؟ هل عاش حياة سعيدة؟ هل كنت أماً صالحة له؟

ترى كيف انتهى المطاف بذلك الصبي الراكب على دراجة ثلاثية العجلات وهو يلقى حتفه في آخر الدنيا؟

سألت: "ما الذي كان يفعله في أفغانستان؟ ما الذي ذهب به إلى هناك؟".

فأخبرني بن أن ثمة حرباً ضد الإرهاب اندلعت بالرغم من أنني لم أفهم ما يعنيه ذلك. وقال إن هجوماً رهيباً شنه أحدهم على أميركا مما أسفر عن قتل الآلاف من الناس.

قلت له: "والآن انتهى المطاف بابني مقتولاً في أفغانستان؟ لا أفهم ما تعنيه...".

قال لي: "إن هذا أمر يصعب شرحه. لطالما أراد آدم أن ينضم إلى الجيش. فقد كان يظن أنه يقوم بواجبه".

"واجبه؟ أتظن أن هذا هو ما فعله؟ يؤدي واجبه؟ هل كنت أنا أظن ذلك أيضاً؟ لماذا لم تحاول أن تقنعه بالعدول عن هذه الفكرة؟ لِمَ لم تفعل أي شيء؟".

"إن هذا هو ما أراد فعله يا كريستين".

مرت بي لحظة فظيعة كدت بها أن أنفجر ضاحكة، فقلت: "هل أراد أن يعرض نفسه للقتل؟ أهذا هو ما أراده؟ لماذا؟ لم تسنح لي الفرصة حتى لأتعرف إليه".

التزم بن الصمت، وضغط على يدي برفق. وعندئذ، انهمرت دمعة وحيدة على وجهي. فشعرت بها حامية كالنار ثم تبعتها أخرى والمزيد بعد ذلك. فمسحتها خوفاً من أن أجهش بالبكاء وأصبح عاجزة عن التوقف.

شعرت بأن عقلي أصبح عاجزاً عن الفهم، وفارغاً من كل فكرة حتى تحول إلى صحراء خاوية. كررت قائلة: "لم تسنح لي الفرصة لأتعرف إليه". وكانت تلك الفكرة الوحيدة التي أخذت تدور في رأسي.

في وقت لاحق، أحضر بن صندوقاً معدنياً ووضعه على الطاولة أمامنا وقال: "إنني أخفي هذا الصندوق لديّ لأبقيه بأمان".

فتساءلت في سرّي: *ممَّ أراد حمايته؟* كان صندوقاً صلباً ورمادي اللون من نوع الصناديق التي قد يحتفظ فيها المرء بالمال أو الوثائق المهمة.

لا بد من أن ما يحويه هذا الصندوق خطير جداً أياً تكن محتوياته. فتمثلت أمامي صورة الحيوانات المفترسة والعقارب والأفاعي والجرذان الجائعة والضفادع السامة، أو حتى أصغر من ذلك، الفيروسات الخفية والإشعاعات الخطرة.

قلت: "لتبقيه بأمان؟".

تنهد وقال: "هناك أشياء ليس من الحكمة أن أبقيها بين يديك لتعثري عليها بينما أنت بمفردك، بل من الأفضل أن أشرحها لك بنفسي".

جلس بجانبي وفتح الصندوق، فلم أرَ فيه شيئاً سوى بعض الأوراق.

قال بن وهو يناولني كومة من الصور: "هذه صور آدم وهو طفل".

رأيت صورة أظهر فيها وأنا أمشي في الشارع باتجاه الكاميرا وهناك طفل مربوط على صدري في جراب شبيه بجيب الكونغورو. وكان جسده مواجهاً لجسدي، ولكنه كان ينظر إلى الخلف إلى الشخص الذي يلتقط الصورة وعلى وجهه ابتسامة بفم خالٍ من الأسنان مشابهة لابتسامتي.

"هل التقطت هذه الصورة بنفسك؟".

أومأ بن برأسه. تمعنت فيها مجدداً ووجدتها ممزقة وحوافها مصفرة وألوانها باهتة وكأنها بدأت تتحول شيئاً فشيئاً إلى بياض.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

صورة تجمع بيني وبين طفلي! لم أجدها صورة واقعية؛ فقد كنت لا أزال أحاول إقناع نفسي بأنني أم.

قلت: "متى؟".

نظر بن من فوق كتفي وقال: "لا بد من أن عمره ستة أشهر في هذه الصورة. إذاً، دعيني أفكر. لا بد من أن هذه الصورة التقطت عام 1987 تقريباً".

كنت في السابعة والعشرين من عمري. لقد مضى عمر كامل على التقاطها!

عمر ابني!

"متى ولد؟".

مد بن يديه داخل الصندوق مجدّداً وأعطاني وثيقةً وهو يقول: "في شهر كانون الثاني". وكانت الوثيقة عبارة عن شهادة ميلاده. وبدت رقيقة ومصفرّة. فقرأتها بصمت. ورأيت اسمه مدوناً هناك: آدم.

قلت بصوت مرتفع: "آدم ويلر". وكأنني أقول ذلك لنفسي وليس لبن.

قال بن: "إن ويلر هو اسم عائلتي. فقد قررنا أنا نمنح ابننا اسم عائلتي أنا".

فقلت: "بالطبع". قربت شهادة ميلاده من وجهي، فشعرت بها خفيفة الوزن وتافهة جداً لأن تكون وعاء لهذا الكم من المعلومات. أخذت نفساً عميقاً، إذ إنني أردت أن أستنشقها وأجعلها جزءاً مني.

قال بن وهو يأخذ شهادة الميلاد مني ويطويها بعناية: "تفضلي، هناك المزيد من الصور إن أردت رؤيتها".

فأومأت برأسي، وأخذت منه بعض الصور.

قال لي بينما أنا أتأملها: "ليس لدينا عدد كبير من الصور فقد فقدنا الكثير منها".

وأوحت إليّ نبرة كلامه بأنه نسيها على متن أحد القطارات أو أعطاها للغرباء من أجل الحفاظ عليها.

فقلت له من دون تفكير: "نعم، إنني أتذكر أن منزلنا تعرض لحريق. فقد قلت لي ذلك من قبل".

رمقني بن بنظرة استغراب مضيّقاً عينيه ثم قال: "هل قلتُ لك حقاً؟".

فقلت: "نعم".

فاجأني سؤاله، ورحتُ أتساءل عن آخر مرة ذكر لي فيها أمر الحريق، تُرى هل حدث ذلك صباح ذلك اليوم أم قبل بضعة أيام؟ فكرت في سجل المذكرات، وتذكرت أنني قرأت هذا الكلام في السجلّ بعد أن ذهب بن إلى عمله. فقد أخبرني بذلك عندما خرجنا للتنـزه في تل البرلمان قبل بضعة أيام.

حينئذٍ شعرت بأن الفرصة أصبحت مواتية لأن أخبره بأمر السجل، ولكنني لم أخبره. فقد تملكني القلق والانـزعاج. إذ إنه لم يبدُ مسروراً لأنني تذكّرت شيئاً، فقلت: "عندما تصفحنا دفتر القصاصات قبل أن تذهب إلى العمل. لا بد من أنك أخبرتني بأمر الحريق وقتئذٍ على ما أظن".

عبس بن، فانتابني شعور مريع لأنني كذبت عليه، ولكنني لم أشعر بأنني قادرة على التكيف مع اكتشاف المزيد من الأسرار، فقلت: "من أين لي أن أعرف لولا ذلك؟".

أومأ برأسه ثم أشاح بوجهه عني قائلاً: "وأنا أظن ذلك أيضاً".

التزمت الصمت للحظة وأنا أتأمل الصور القليلة التي بين يدي. فآلمتني قلّتها، ولاحظت أن الصندوق لم يكن يحتوي على أكثر من ذلك. *ترى أهذه الصور وحدها هي الوسيلة الوحيدة التي يمكنني بها وصف حياة ابني؟*

قلت: "كيف اندلع الحريق؟".

دقت الساعة الموضوعة فوق الموقد فنظر بن إليها وقال: "حدث هذا قبل بضع سنوات في بيتنا القديم الذي كنا نعيش فيه قبل أن ننتقل إلى هذا البيت". فتساءلت إن كان يعني البيت نفسه الذي ذهبت لزيارته. تابع قائلاً: "خسرنا الكثير من الأشياء؛ كالكتب والأوراق وأشياء من هذا القبيل".

قلت: "ولكن كيف اندلع الحريق؟"، سكت قليلاً ثم أخذ يفتح فمه ويغلقه بتردد، ثمّ قال: "إنه مجرد حادث عرضي".

تساءلت عن معنى كلامه: *تُرى هل نسيت سيجارة مشتعلة أو مكواة موصولة بالكهرباء أو قدراً تغلي على النار؟* تخيلت نفسي في المطبخ الذي كنت واقفة فيه في ذلك اليوم وتصورت جدرانه البيضاء - ولكن قبل سنوات طويلة - ورأيت نفسي واقفة أمام المقلاة وهي تغلي، أهز الشبكة السلكية التي تحوي شرائح البطاطا وأنا أقليها وأراقبها وهي تطفو على السطح قبل أن تنثني ببطء وتغوص مجدّداً تحت

الزيت. ورأيت نفسي أسمع رنين الهاتف وأمسح يدي بمئزري الذي ربطته حول خصري وأذهب إلى الصالة لأرد على الهاتف.

وماذا بعد ذلك؟ تُرى هل اندلعت النيران من الزيت وأنا أرد على الهاتف؟ أم إنني ذهبت إلى غرفة المعيشة أو الحمام ناسية أنني بدأت بطهو العشاء أصلاً؟

لا أعرف ما الذي جرى فعلاً، وليس من الممكن أبداً أن أعرفه، ولكنني شعرت بالامتنان لأن بن قال لي إن الحريق نجم عن حادث عرضي. إن الأعمال المنـزلية تنطوي على أخطار شتى بالنسبة إلى امرأة فاقدة الذاكرة مثلي. وربما كان زوج آخر ليشير إلى أخطائي ونقائصي أو يشعر بأنه غير قادر على مقاومة توجيه اللوم إليّ من مركز أخلاقيّ فوقيّ، وهذا من حقه. لمست ذراعه برفق، فابتسم لي.

يا لي من محظوظة!

قلّبت مجموعة من الصور، ورأيت صورة لآدم يعتمر فيها قبعة رعاة بقر بلاستيكية ويضع وشاحاً أصفر ويسدد بندقية بلاستيكية نحو الشخص الذي يلتقط الصورة. وبدا في صورة أخرى أكبر ببضع سنوات ووجهه أكثر نحولاً وشعره أقرب إلى اللون البنيّ؛ كان يرتدي قميصاً مزرراً حتى العنق ويضع ربطة عنق طفولية.

قال بن: "لقد التقطت له هذه الصورة في المدرسة، لذا، فهي صورة رسمية".

أشار إلى الصورة وضحك قائلاً: "انظري، إنها تالفة!".

رأيت ربطة عنق آدم وقد ظهر المطاط منها من تحت الياقة. مررت أصابعي على الصورة، وفكرت في أنها لا تبدو تالفة في نظري، فقد وجدتها مثالية.

حاولت أن أتذكر ابني وأتخيل نفسي راكعة أمامه وأنا أثبت له ربطة العنق ذات المطاط، أو أسرح شعره، أو أمسح الدم الجاف عن ركبته المخدوشة..

لكن، لم تخطر ببالي أيّ ذكرى. وجدت الصبي في الصورة يشبهني من حيث امتلاء شفتيه، أما عيناه، فقد كانتا إلى حدٍّ ما شبيهتين بعينيّ أمي، ولكن ملامحه الأخرى بدت غريبة تماماً.

أخرج بن صورة أخرى وأعطاني إياها. كان آدم يبدو فيها أكبر قليلاً، أي في عمر الخامسة أو السادسة تقريباً. قال بن: "هل تظنين أنه يشبهني؟".

كان آدم في الصورة يمسك كرة قدم ويرتدي سروالاً قصيراً وكنـزة قطنية بيضاء، وقد بدا شعره قصيراً ومبلّلاً بالعرق. قلت: "ربما قليلاً".

فابتسم بن وواصلنا معاً تصفح الصور والنظر إليها. كانت بمعظمها صوراً لي ولآدم وصوراً له وحده. ولا بد من أن بن قد التقط الغالبية العظمى من هذه الصور. وفي بعض الصور الأخرى، ظهر آدم مع بعض الأصدقاء، بينما ظهر في غيرها في إحدى الحفلات مرتدياً رداء تنكرياً بشخصية قرصان حاملاً سيفاً كرتونياً. وفي إحدى الصور، رأيته حاملاً كلباً أسود صغيراً.

وجدت بين الصور رسالة كتبها إلى سانتا بقلم تلوين أزرق. فبدت حروفها كبيرة الحجم تتراقص على الصفحة. كان يطلب في رسالته دراجة أو جرواً ويعد أن يكون ولداً صالحاً. لقد وقعها باسمه وعمره: أربع سنوات.

عندما قرأت هذه الرسالة، بدأت أشعر بالعالم ينهار من حولي، ولا أعرف سبب ذلك. وتفجر الحزن في صدري كالبركان. كنت قبلها أتحلى بالهدوء والسكينة. فلم أشعر بالسعادة ولا حتى الحزن بل التزمت الهدوء، ولكن الهدوء والسكينة تلاشيا في غمضة عين وكأنهما تبخّرا في الهواء، وشعرت بأن مشاعري كلها استحالت جروحاً نازفة.

قلت وأنا أعيد إليه كومة الصور: "إنني آسفة، لم أعد أقوى على النظر إليها بعد الآن".

ضمني بن إلى صدره، وشعرت بالقيء يتصاعد إلى حنجرتي، ولكنني منعته من الخروج. راح زوجي يطمئنني ويعدني بأنني سأكون على ما يرام ويذكرني بأنه سيبقى إلى جانبي دوماً ولن يتخلى عني أبداً، فتعلقت به أكثر. جلسنا يهدهد أحدنا الآخر بلطف. وشعرت بأنني مخدرة ومعزولة تماماً عن الغرفة التي نحن فيها. وبعد ذلك، تأملته وهو يحضر لي كوباً من الماء ثم راقبته وهو يغلق الصندوق الذي يحوي الصور وأنا طوال الوقت أنتحب وأشعر بأنني في عالم آخر. لاحظت عليه الشعور بالاستياء. ومع ذلك، فقد بدت ملامح وجهه ممزوجة أيضاً بشيء آخر؛ ربما الاستسلام أو القبول بالأمر الواقع، ولكن ليس الصدمة.

أدركت أنه فعل كل هذا من قبل، وارتعشت رعباً لهذه الفكرة، إذ إن حزنه لم يبدُ لي جديداً. وحان الوقت حتى تخمد أحزانه وتستقر في أعماقه وتصبح جزءاً من الأساس الذي يبني عليه كل حياته، لا أن تصبح سبباً في تحطيمها.

إن جرحي وحده هو ما ينزف ويتجدد كل يوم من أيام حياتي.

ابتدعت عذراً وصعدت إلى الطابق العلوي ودخلت إلى غرفة النوم متوجهة إلى الخزانة لأخرج سجلّ مذكراتي وأشرع بكتابة ما حصل.

* * *

إنها مجرد لحظات سرية أستطيع اختلاسها من الزمن وأنا راكعة أمام الخزانة أو منكفئة على السرير أكتب بسرعة محمومة بينما تتدفق الذكريات من قلمي على الورق من دون تفكير. فأملأ صفحات وصفحات. إنني أجلس هنا الآن مجدّداً بينما يظن بن أنني أستريح، ولكنني عاجزة عن كبح نفسي.

بعد أن نزلت إلى الطابق السفلي، أعددت مشروباً ساخناً لكل منا. وبينما أنا أحرك الحليب، فكرت في المرات العديدة التي لا بد من أنني أعددت فيها وجبات آدم. وتخيلت نفسي أعد له الخضار المطهوة وعصير الفاكهة. أخذت الشاي إلى بن وقلت له وأنا أناوله الكوب: "هل كنت أماً صالحة؟".

"كريستين...".

قلت: "أريد أن أعرف. إنني أقصد بسؤالي: هل تكيفت جيداً مع حياتي كأم لطفل؟ لا بد من أنه كان صغيراً جداً عندما...".

فأكمل كلامي نيابة عني وهو يومئ برأسه قائلاً: "عندما تعرضت للحادث. كان عمره سنتين. وكنتِ أماً رائعة حتى ذلك الحين. وبعد ذلك، حسناً...".

أمسك عن الكلام وترك بقية الجملة مدفونةً في داخله وأشاح بوجهه بعيداً. فتساءلت عن الكلام الذي امتنع عن ذكره وفضل أن يخفيه عني.

ومع ذلك، فقد أدركت الحقيقة بما يكفي لأن أملأ الفراغ الذي تركه بن. إذ ربما لا أستطيع أن أتذكر ذلك الوقت من الماضي، ولكنني أستطيع أن أتخيله. فأتخيل نفسي وهناك دائماً مَن يذكرني بأنني زوجة وأم ويخبرني أن زوجي وابني قادمان لزيارتي. وأستطيع أن أتخيل نفسي وأنا أستقبل كلاً منهما ببرود وارتباك كالغرباء وكأنني لم أرهما من قبل. وأتخيل الألم الذي لا بد من أنهما شعرا به، بل وشعرنا به جميعاً.

قلت له: "لا بأس. إنني أتفهم هذا".

"لقد أصبحت عاجزة عن الاعتناء بنفسك. وبلغت شدة مرضك لدرجة أنني عجزت عن الاعتناء بك في البيت. وبات من المستحيل أن أتركك وحدك في البيت ولو لدقائق معدودة. فقد كنت تنسين كل شيء تفعلينه، واعتدتِ أن تتجولي في الأنحاء على غير هدى. كان يتملكني قلق من أن تدخلي إلى الحمام وتنسي الصنبور مفتوحاً أو تحاولي طهو بعض الطعام وتنسي الموقد مشتعلاً. كان الوضع شديد الوطأة عليّ، ولهذا، فقد مكثت في البيت واعتنيت بآدم وساعدتني أمي على هذا، ولكننا بقينا نأتي صباح كل يوم لنزورك و...".

حينها أمسكت بيده، وتابع بن قائلاً: "إنني آسف، ولكنني أجد صعوبة بالتفكير في ذلك الوقت العصيب".

قلت: "إنني أتفهم ما تعنيه. ماذا عن أمي؟ هل قدمت لك يد المساعدة على رعايتي؟ هل استمتعت بدورها كجدة؟"، فأومأ برأسه وأوشك أن يتكلم، لكنني أضفت: "إنها متوفاة، أليست كذلك؟".

أمسك بيدي وقال: "لقد توفيت قبل بضع سنوات. إنني آسف".

كنت محقّة باعتقادي، وشعرت بأن ذهني بدأ ينغلق مجدّداً وكأنه يرفض أن يستقبل المزيد من الأخبار المحزنة أو أي جزء من الماضي المشتت، ولكنني أدركت أيضاً أنني سأستيقظ صباح اليوم التالي من دون أن أتذكر أياً من هذا.

فكرت في سجل مذكراتي؛ ترى ما الذي يسعني أن أكتبه ليساعدني على تخطي اليوم التالي والذي يليه؟

لمعت في ذهني صورة امرأة ذات شعر أحمر. لقد التحق آدم بالجيش. فخطر الاسم ببالي من دون أي تفكير؛ *ترى ما رأي كلير بهذا؟*

ها قد تذكرته أخيراً! إنه اسم صديقتي: كلير.

قلت: "ماذا عن كلير؟ أما زالت صديقتي كلير على قيد الحياة؟".

ارتبك بن للوهلة الأولى ثم قال: "كلير؟"، ثم تغيرت ملامحه وقال: "هل تتذكرين كلير؟".

بدا بن متفاجئاً، فتذكرت ما قرأته في السجل. وعرفت أن بضعة أيام مضت منذ قلت له إنني تذكرت كلير في حفلة على سطح بيتها.

فقلت: "نعم، لقد كنا صديقتين. ماذا حدث لها؟".

رمقني بن بنظرة حزينة، فتسمرت في مكاني للحظة. تحدث ببطء، ولكن الخبر الذي أطلعني عليه لم يكن مؤسفاً كما كنت أخشى. فقد قال: "لقد انتقلت قبل بضعة سنوات. لا بد من أن عشرين سنة قد مضت على انتقالها، على ما أعتقد. في الواقع، لقد حدث هذا بعد أن تزوجنا ببضع سنوات".

"إلى أين انتقلت؟".

"إلى نيوزيلندا".

"أما زلنا على اتصال بها؟".

"لقد حافظنا على الاتصال بها لبعض الوقت، ولكن ليس بعد الآن".

لم أجد كلامه معقولاً، إذ إنها كانت أعز صديقة لي في العالم، هذا ما كتبته عنها. وتملكني الشعور نفسه من العلاقة التي كانت تربطنا وأنا أفكر فيها اليوم. وخلافاً لذلك، ما الذي قد يدفعني للاكتراث برأيها؟

"هل حصل أي خلاف بيننا؟".

لاحظت تردده في الإجابة عن سؤالي، فشعرت مجدّداً بأنه يُجري حساباته وتعديلاته على ما يريد قوله. وأدركت أن بن يعرف ما هي الأخبار التي تزعجني. فقد تعلم خلال تلك السنوات الأمور التي أجدها مقبولة والأخرى التي يعتبر أنه من الخطورة التطرق إليها. وعلى أيّ حال، فهذه ليست المرة الأولى التي نجري فيها هذه المحادثة، وهذا ما سمح له بالتدرب وتعلم الطرائق الصحيحة التي يستطيع بها التوجه حتّى لا تسبب أي شرخ في أسلوب حياتي الهادئ أو تحدث اضطراباً يهدد راحتي.

قال بن: "كلا، لا أظن ذلك. لم يحصل أي خلاف بينكما، أو أنك على الأقل لم تخبريني بشيء من هذا القبيل. أعتقد أنكما انفصلتما بحكم مشاغل الحياة. وبعد ذلك، التقت كلير رجلاً وتزوجته وانتقلا من البلاد".

عندئذٍ، خطرت ببالي صورة مفاجئة؛ فقد رأيت نفسي برفقة كلير تُمازح إحدانا الأخرى بأننا لن نتزوج أبداً. إذ قالت لي كلير وهي ترفع زجاجة الشراب إلى شفتيها: "إن الزواج للمملين فقط". فوافقتها بالرغم من أنني في الوقت ذاته أدركت أنني يوماً ما سأصبح إشبينتها في حفلة زفافها وأنها ستصبح إشبينتي وأننا سنجلس في غرفة فندق مرتديتين ملابس حريرية ونحن نرتشف الشراب الفاخر بينما يقوم مزيّن الشعر بتصفيف شعرنا.

شعرت بموجة غامرة من الحب بالرغم من أنني لم أتذكر شيئاً مهماً عن وقتنا معاً وصداقتنا. وبالرغم من أنني كنت سأنسى كل شيء غداً، فقد شعرت نوعاً ما بأننا لا نـزال مرتبطتين وأنها ظلت لفترة من الوقت تعني لي الكثير.

سألت بن قائلة: "هل شاركتنا في حفلة زفاف كلير؟".

أومأ برأسه وقال: "نعم". ومد يده داخل الصندوق الموضوع على حضنه ثم قال: "توجد بعض الصور هنا".

كانت صور الزفاف - بالرغم من أنها لم تكن لقطات متعمدة - داكنة ومشوشة وكأنها ملتقطة على يد شخص هاوٍ، فظننت أنه بن. أمسكت بالصورة الأولى بعناية، وكنت حتى تلك اللحظة قد رأيت كلير في مخيّلتي فقط.

وجدت كلير كما تخيلتها تماماً، فقد بدت نحيلة وطويلة وأجمل مما تـذكرتها. وكانت واقفة على قمة جرف مرتدية ثوباً رقيقاً يعبث به النسيم. وظهرت الشمس الغاربة فوق البحر من خلفها. ما أجملها من صورة! وضعت الصورة جانباً وتأملت الصور المتبقية. فكانت كلير ظاهرة في بعضها إلى جانب زوجها، وهـو رجـل لم أميزه. أما في صور أخرى، فقد انضممت أنا إليها مرتدية ثوباً حريرياً أزرق فاتحاً، وبدوت أقل جمالاً منها بقليل. فاكتشفت الآن أن ما تصورته صحيحاً وأنني كنت إشبينة العروس.

قلت: "هل هناك صور لزفافنا؟".

هز بن رأسه وقال: "لقد كانت صورنا موضوعة في ألبوم منفصل، وهو أحد الألبومات التي فقدناها".

بالطبع، الحريق.

أعدت إليه الصور، وشعرت بأنني أتأمل حياة أخرى لا علاقة لهـا بحيـاتي. وفجأة، شعرت برغبة عارمة في الصعود إلى الطابق العلوي لأكتب ما اكتشفته.

قلت: "إنني متعبة وبحاجة إلى قسط من الراحة".

فقال: "كما تريدين". ومد يده ليأخذ الصور مني ويضعها في الصندوق.

قال لي وهو يغلق الغطاء: "سأحفظ هذه الصور في مكان آمن". وصعدت أنا إلى الغرفة لأفتح سجلّ مذكراتي وأدوّن ما عرفته.

* * *

أجلس وحدي على سريري عند منتصف الليل محاولة أن أجد تفسيراً منطقياً لما حدث اليوم ولكل ما عرفته من معلومات، ولا أعرف إن كنت أستطيع ذلك.

كنت قد قررت أن آخذ حماماً قبل تناول العشاء. فأقفلت باب الحمام خلفي ونظرت بسرعة إلى الصور المنسقة حول المرآة من دون أن أرى فيها سوى الصور المفقودة. فتحت صنبور المياه الساخنة.

لا بد من أنني في معظم الأيام لا أتذكر آدم على الإطلاق، ولكنني اليوم تذكرته بعد أن نظرت إلى صورة واحدة. ترى هل تم ترتيب هذه الصور بشكل يساعدني على تثبيت نفسي وبناء ذاتي من دون أن تذكرني بما خسرته في حياتي؟

بدأ الحمام يمتلئ بالبخار الساخن، وسمعت صوت الموسيقى التي يستمع إليها زوجي في الطابق السفلي؛ فقد وصل إلى سمعي صوت موسيقى الجاز بشكل مشوّش وغير محدد. واستطعت أن أسمع إلى جانب صوت الموسيقى صوت السكين على لوح التقطيع، فأدركت أننا لم نتناول عشاءنا بعد. فلا بد من أنه كان يقطع الجزر أو البصل أو الفلفل ويعد العشاء وكأننا نمر بمجرد يوم آخر من أيام حياتنا الطبيعية.

فأدركت أنه بالنسبة إليه مجرد يوم طبيعي فعلاً، إذ إنني أنا من يملأني الحزن والحرمان وليس هو.

إنني لا ألومه لأنه لم يخبرني بأمر آدم وأمي وكلير لأنني كل يوم سأفعل الشيء نفسه لو كنت مكانه، إذ إن هذه الأخبار المحزنة تؤلم الفؤاد. قد يمر يوم كامل من دون أن أتذكرها، وهذا يوفر عليّ الحزن لمعرفتها ويوفر عليه الألم الذي سيشعر به لأنه تسبب لي بذلك. لا بد من أنه يشعر بدافع يغريه لإخفاء هذه الأسرار عني، ولا بد من أنه يعيش حياة شديدة الوطأة وهو يعرف بأمر هذه الذكريات العشوائية التي تلازمني في كل مكان وكأنها قنابل موقوتة معرضة لأن تنفجر في أيّ لحظة وتجبرني على خوض الألم والمعاناة، وكأنني أعرف الحقيقة للمرة الأولى، وتجره معي إلى هذه الهاوية.

خلعت ملابسي ببطء وطويتها ووضعتها بعناية على الكرسي بجانب حوض الاستحمام. نظرت إلى المرآة ورأيت تفاصيل جسمي التي لا أعهدها. وأجبرت نفسي على تأمل التجاعيد التي تملأ بشرتي وجلدي المترهل. لم أعد أعرف نفسي بعد الآن ولا أميز جسدي أو ماضيّ.

اقتربت من المرآة، فرأيت خطوطاً فضية رفيعة على بطني وساقي وكأنها ندبات جروح الماضي الأليم. لم أرَ هذه العلامات من قبل لأنني ربما لم أبحث عنها. وتخيلت نفسي أقيس مدى نموها وأتمنى أن تختفي بينما راح جسدي يواصل تمدده واتساعه، ولكنني الآن أشعر بالسرور لوجودها لأنها شكلت بالنسبة إليَّ ذكرى من ذكريات الماضي.

بدأ انعكاس صورتي يختفي بسبب بخار الماء المتراكم على المرآة. فكرت في مدى حسن طالعي لوقوف بن إلى جانبي ولأن أحظى بشخص ما يعتني بي هنا في بيتي بالرغم من أنني لا أتذكر عنه شيئاً. إنني لست الوحيدة التي تعاني. فقد عانى بن أيضاً ما عانيته اليوم، ولكنه سيأوي إلى فراشه وهو على يقين من أن معاناته ستظل ساكنة قلبه ولن تبارح ذاكرته قط. إن زوجاً آخر قد يشعر بأنه عاجز عن التكيف مع هذا الوضع الصعب وقد يهجرني. حدقت إلى وجهي في المرآة وكأنني أحاول أن أرسخ صورتي في دماغي وأتركها قريبة من السطح لكي أستيقظ صباحاً ولا أشعر بأنها غريبة عني ومثيرة للصدمة. وعندما اختفت الصورة كلياً، أشحت بوجهي وغمرت نفسي بالماء. واستغرقت في النوم.

لم أحلم، أو أن هذا هو ما ظننته على الأقل، ولكنني عندما استيقظت شعرت بالارتباك. فقد وجدت نفسي في حمام مختلف ووجدت المياه لا تزال دافئة. فتحت عيني، لكنني لم أميز شيئاً من حولي. ووجدت المرآة عادية وغير محاطة بالصور ومثبتة على ألواح سيراميك بيضاء وليست زرقاء. ورأيت ستارة معلقة على سلك فوقي. وكانت هناك كأسان مقلوبتان على الرف فوق المغسلة بجانب حوض صغير.

سمعت صوت أحدهم يقول: "إنني قادمة". وأدركت أنه صوتي أنا. جلست في حوض الاستحمام ونظرت إلى الباب المقفل حيث رأيت رداءين منزليين معلقين على مشجب على الجدار المقابل وكلاهما أبيضا اللون ومتماثلان ومرمَّزان بالأحرف: أر. دجي. إيتش. فوقفت على قدمي.

قال أحدهم من خارج الباب: "هيا!"، وبدا شبيهاً بصوت بن، ولكنني أدركت في الوقت ذاته أنه ليس صوته، وراح يردد بصوت إيقاعي: "هيا! هيا! هيا!".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قلت: "من هناك؟"، ولكنه لم يسكت. خرجت من حوض الاستحمام فرأيت الأرضية مرصوفة بألواح سراميك بيضاء وسوداء بشكل قطري، وقد شعرت بها مبللة، فأخذت ساقاي تتخاذلان تحتي وأحسست بأنني أنـزلق، فانهار جسمي على الأرض وسحبت الستارة معي، فسقطت فوقي وارتطم رأسي بالمغسلة، فصحت قائلة: "ساعدني!".

استيقظت على صوت شخص مختلف يناديني قائلاً: "كريستين؟ كريس؟ هل أنت بخير؟"، فأدركت بارتياح أن ذلك صوت بن وأنني كنت أحلم. فتحت عيني ووجدت نفسي ممددة في حوض الاستحمام وملابسي مطوية على الكرسي بجانبي وصور سيرة حياتي معلقة على ألواح السيراميك الزرقاء الشاحبة فوق المغسلة.

فقلت: "نعم، إنني بخير. فقد راودني حلم سيِّئ وحسب".

نهضت وتناولت عشائي وأويت إلى الفراش. أردت أن أكتب كل ما عرفته قبل أن يختفي، ولكنني لم أكن واثقة من أنني سأحظى بمتسع من الوقت قبل أن يأتي بن ليخلد إلى النوم.

ولكن ماذا يسعني أن أفعل؟ فقد أمضيت وقتاً طويلاً اليوم وأنا أكتب. ومن المؤكد أن الشكوك ستخامر بن وتدفعه للتساؤل عما أفعله طوال الوقت في الطابق العلوي وحدي. أخبرته أنني متعبة وبحاجة إلى قسط من الراحة، فصدقني.

لا أستطيع القول إنني لا أشعر بتأنيب الضمير؛ فقد سمعته يتسلل في أنحاء المنـزل ويفتح الأبواب ويغلقها بنعومة لئلا يوقظني بينما أنا منكفئة على سجلّ مذكراتي أكتب بسرعة محمومة، ولكن، لم يكن أمامي خيار آخر. يجب أن أسجل كل هذه الأحداث بحذافيرها. إذ إن القيام بهذا يبدو لي أكثر أهمية من أي شيء آخر لأن عدم القيام به يعني أن أفقد كل هذه الذكريات إلى الأبد. لذا، قررت أن أبتدع أي عذر لأتفرغ للكتابة.

فقلت لبن: "أعتقد أنني سأنام في غرفة منفصلة الليلة لأنني منـزعجة قليلاً. أتتفهم ما أعنيه؟".

قال إنه يتفهم شعوري ووعدني بأن يتفقدني في الصباح ليحرص على أنني على ما يرام قبل أن يذهب إلى العمل، ثم قبلني متمنياً لي ليلة سعيدة. إنني أسمعه

الآن يوقف التلفزيون عن العمل، ويقفل الباب الأمامي بالمفتاح ليحبسنا داخل المنزل. فأفترض أنه ليس من المناسب لي أن أتجول في الأنحاء ولا سيما وأنا على هذه الحالة.

لا أستطيع أن أصدق أنني في غضون دقائق معدودة سأستغرق في النوم وأنسى كل ما يتعلق بابني، إذ إن ذكرياتي عنه لا تزال تبدو حقيقية وملموسة. لا يبدو ذلك ممكناً مع أن بن والدكتور ناش يقولان لي إن هذا هو بالتحديد ما سيحدث.

هل يمكنني أن أجرؤ وآمل أن يكونا مخطئين؟ إنني أتذكر المزيد من الأشياء كل يوم وأستيقظ وأجد نفسي أعرف المزيد عن هويتي. إن الأمور ربما تتحسن بفضل كتابة سجلّ مذكراتي الذي بدأ يعيد إليّ ذكرياتي وينبشها من الأعماق.

ربما يكون اليوم هو اليوم الذي سأستيقظ فيه وأميزه على أنه نقطة تحول في حياتي. إن كل شيء وارد الحدوث.

إنني منهكة الآن، سأتوقف عن الكتابة قريباً وأخفي سجلي وأعتّم الغرفة وأنام وأنا أدعو الله أن يدعني أستيقظ غداً وأنا لا أزال أتذكر ابني.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

يوم الخميس 15 تشرين الثاني

كنت في الحمام؛ لست أدري كم مضى من الوقت وأنا واقفة هناك أتأمل كل تلك الصور التي أظهر فيها بصحبة بن ونحن نبتسم بسعادة معاً حيث كان يفترض أن نكون ثلاثة. حدقت إلى تلك الصور بلا تأثر وكأنني أظن أن صورة آدم ستظهر في نهاية المطاف وتعود إلى حيز الوجود، ولكنها لم تظهر بل ظلت ذكراه خفية وبعيدة عن متناول يدي.

استيقظت صباح اليوم بلا أي ذكرى عن ابني على الإطلاق. فقد صحوت وأنا لا أزال أعتقد أن الأمومة مشروع مستقبلي بعيد المنال كحلم براق يرفرف في الأفق. وبعد أن رأيت انعكاس وجهي الذي يدل على أنني في منتصف العمر وعرفت أنني زوجة وفي عمر يتوقع فيه الجميع أن يصبح لديّ أحفاد، وبعد كل تلك الحقائق التي جعلتني أصاب بالدوار، فإنني لم أشعر بأنني مستعدة لما سيحدث عندما قرأت السجل بعد أن اتصل بي الدكتور ناش وقال لي إنني أحتفظ به في خزانتي، إذ إنني لم أتخيل أبداً أنني سأكتشف أنني أصبحت أماً فعلاً وأنجبت ابناً.

أمسكت السجل بيدي، وحالما قرأته، أدركت أن كل ما فيه صحيح. فقد أنجبت ابناً وشعرت بوجوده معي وكأنه يسكن مسام جلدي. قرأت السجل مرة تلو أخرى محاولة أن أثبت الكلام في ذهني.

وعندما واصلت القراءة، اكتشفت أنه توفي. فلم يبدُ لي ذلك معقولاً أو ممكناً. وحاول قلبي أن يقاوم تلك المعرفة ويرفضها بالرغم من أنني أدركت في أعماقي أنها صحيحة. أصبت بالغثيان وشعرت بالقيء يتصاعد إلى حنجرتي فابتلعته، وشعرت بالغرفة تدور من حولي. كدت أنهار على الأرض وأدع السجل ينزلق عن حضني وأنا أكتم صرخة ألم تريد أن تخرج من فمي. وقفت واندفعت خارج غرفة النوم.

ذهبت إلى الحمام لأنظر إلى الصور التي افترضت أنني سأجد صورته بينـــها. فشعرت بيأس شديد و لم أعرف ما يجب أن أفعله عندما يعود بن إلى البيت. تخيلته يدخل إلى البيت ويقبلني ويعد العشاء. وتخيلت أننا جالسان نتناول العشاء معــاً ثم نشاهد التلفزيون معاً أو نفعل ما نفعله عادة في معظم الأمسيات. وكان سيتوجب عليّ طوال الوقت أن أتظاهر بأنني لا أعرف أنني فقدت ابني. وعندئذ كنا سنأوي إلى الفراش معاً، وبعد ذلك...

إن هذا شيء يفوق قدرتي على الاحتمال. لم أستطع كبح نفســي، فبــدأت أنتزع الصور وأمزقها من دون أن أفكر حتى في ما أفعله. لم يستغرق ذلــك وقتــاً على الإطلاق. وأصبحت الصور أشلاء مبعثرة على أرض الحمام وغارقة في ميــاه المرحاض.

انتزعت السجل من مكانه ووضعته في حقيبتي وغادرت المنـــزل من دون أن أعرف إلى أين سأذهب. فقد أردت أن أقابل الدكتور ناش، ولكن لم تكن لــديّ أيّ فكرة عن مكان وجوده أو كيف أستطيع الوصول إليه حتى لو عرفته فعلاً. لقد شعرت بأنني عاجزة ووحيدة بلا معين، ولهذا هربت.

خرجت إلى الشارع وانعطفت يساراً نحو المتنــزه. كان عصر يوم مشمس، وانعكست أشعة الشمس البرتقالية على السيارات المركونة وبرك المياه التي خلفتها عاصفة الصباح، ولكن الطقس كان بارداً. وأخذت أنفاسي تشكل بخــاراً كثيفــاً أبيض. فشددت معطفي حول جسمي ووشاحي حــول أذني وحثثت الخطــى. أخذت الأوراق تتساقط من الأشجار والرياح تعصف بها وتكومها حول المجاري في كومة بنية اللون.

عندما نـــزلت عن الرصيف، سمعت صوت مكابح إحدى السيارات، ورأيت السيارة تتوقف وقوفاً مفاجئاً وأحدهم يصرخ بصوتٍ مكبوت من خلف زجــاج السيارة قائلاً: *ابتعدي عن الطريق، أيتها الحمقاء!*

نظرت حولي، فوجدت نفسي وسط الطريق وهناك ســيارة واقفــة أمــامي وسائقها يصرخ غضباً. وراودتني ذكرى: رأيت نفسي وأنا أنهار وأقع وأنـــزلق على غطاء السيارة أو تحتها وأتمدد ككومة لا معالم لها، فشكل هذا نهايــة حيــاتي المدمرة.

أيمكن أن يحدث ذلك بهذه البساطة؟ أمن المعقول أن يتسبب تصادمٌ ثانٍ بوضع حدٍّ لما بدأه الحادث الأول قبل كل تلك السنوات؟ إنني أشعر الآن بأنني ميتة منذ عشرين عاماً، ولكن، أهذا هو فعلاً المصير الذي سيؤدي إليه كل هذا في نهاية المطاف؟

من سيفتقدني إن فارقت الحياة؟ قد يفتقدني زوجي أو ربما الطبيب مع أنني لست بالنسبة إليه أكثر من مجرد مريضة، ولكن ليس هناك أحد آخر. أيعقل أن تصبح دائرة معارفي ضيقة إلى هذا الحد؟ هل هجرني أصدقائي الواحد تلو الآخر؟ أيمكن أن يطويني النسيان عندما أفارق الحياة؟

نظرت إلى الرجل الذي يقود السيارة، وفكرت في أن شخصاً آخر فعل فعلته بي، فسلبني كل ما أملك وسرق مني حق حياتي. ومع ذلك، فهو لا يزال حياً يرزق يأكل ويشرب ويستمتع بحياته.

ولكنني صممت في قرارة نفسي أن هذا لن يحدث، فمهما كان المصير الذي آلت إليه حياتي، فلست أنا من أردتها أن تنتهي هكذا. وفكرت في الرواية التي ألفتها وفي الطفل الذي ربيته، وحتى في الألعاب النارية التي استمتعت بها مع صديقتي قبل كل تلك السنوات في أثناء مشاركتنا في حفلة ما. ما زالت لديّ ذكرياتي التي يجب أن أنقب عنها وأكتشفها وحقيقة خاصة بي أريد أن أعثر عليها.

تلفظت بكلمة *آسفة* من دون صوت، وواصلت المشي. وعبرت بوابة المتنزه ودخلت.

وجدت هناك مقهى على شكل كوخ صغير وسط ساحة معشوشبة، فدخلت إليه واشتريت كوباً من القهوة وجلست على أحد المقاعد وأنا أدفئ يدي بالكوب الذي يتصاعد منه البخار. رأيت مقابلي ملعباً للأطفال يحوي مزلقة وأرجوحة ودوامة. وكان هناك صبي صغير جالس على كرسي شبيه بالدعسوقة مثبت على الأرض بنابض ثقيل. فراقبته وهو يهز نفسه إلى الأمام والخلف حاملاً كوباً من المثلجات بالرغم من البرد القارس.

لمعت في مخيّلتي ذكرى عن نفسي بصحبة فتاة صغيرة أخرى في المتنزه ونحن نتسلق السلم المعدني إلى قفص خشبي نستطيع من خلاله أن ننزلق إلى الأرض

على مزلقة معدنية. شعرت بها في ذلك الوقت قبل كل تلك السنوات عالية جداً، ومع ذلك فقد بدت في نظري الآن تتجاوز طولي بمسافة قصيرة. لطخت والفتاة فستانينا بالطين. فاستدعت أم كل واحدة منا ابنتها لتذهبا إلى بيتهما. وفي طريق العودة إلى البيت، نمشي وفي حوزتنا أكياس من العلكة ورقائق البطاطا برتقالية اللون.

ترى أهذه ذكرى؟ أم اختراع من بنات أفكاري؟

تأملت الصبي الجالس في الحديقة. ترى هل كان وحده؟ بدا المتنزه فارغاً ليس فيه أحد سوانا في البرد القارس تحت سماء ملبدة بالغيوم السوداء. أخذت أرتشف قهوتي.

ناداني الصبي قائلاً: "يا سيدتي، يا سيدتي".

نظرت إليه ثم أطرقت مجدداً نحو يدي.

فصاح الصبي بصوت أعلى: "يا سيدتي! ساعديني! ادفعي اللعبة!".

نهض الصبي وذهب إلى الدوامة وهو يقول: "ادفعيني!" وحاول أن يدفع الدوامة المعدنية بنفسه، ولكن، بالرغم من جهوده الظاهرة في انقباض ملامح وجهه، فلم تتحرك قيد أنملة. فاستسلم وقال لي وهو يبدو خائب الأمل: "من فضلك؟".

قلت له: "ستكون على ما يرام". فخابت آماله. أخذت رشفة من القهوة، وقررت أن أجلس هنا وأراقبه حتى تعود أمه من حيثما ذهبت.

اعتلى الدوامة وأخذ يدفع نفسه إلى أن توقف في وسطها تقريباً. وقال مرة أخرى: "ادفعيني!"، وقد أصبح صوته أخفض وهو يتحدث بلهجة تقارب التوسل. تمنيت لو أنني لم أذهب إلى ذلك المكان أو أنني أمرته بالرحيل. فقد شعرت بأنني مخلوقة خطرة وغريبة ومنعزلة عن باقي العالم. فكرت في الصور التي مزقتها عن الجدار وتركتها مبعثرة في الحمام. أتيت إلى هنا لأنعم بالسلام وليس من أجل هذا.

نظرت إلى الصبي ورأيته يتحرك محاولاً دفع نفسه مجدداً وقدماه بالكاد تلامسان الأرض حيث وقف على جانب الدوامة. بدا هزيلاً وضعيفاً وعاجزاً، فذهبت إليه.

قال الصبيّ: "ادفعيني!"، فوضعت فنجان القهوة على الأرض وابتسمت.

قلت له: "تمسك جيداً". ودفعت بثقلي على الدوامة، فشعرت بها ثقيلة جداً، ولكنها بدأت تتحرك. فمشيت إلى جانبها كي تصبح أسرع. وقلت: "هيــا!"، ثم جلست إلى جانبه.

ابتسم الصبيّ بسعادة وهو متمسك بالقضيب المعدني بيديه اللتين بدتا باردتين وشبه مزرقتين من شدة البرد. كان مرتدياً معطفاً أخضر رقيقــاً جــداً وســروال جينــز مثنياً عند الكاحلين، فتساءلت كيف أرسله أهله خارج المنـزل هكذا من دون قفازات أو وشاح أو قبعة.

سألته قائلة: "أين أمك؟"، فهز كتفيه. سألته مرة أخرى: "وأبوك؟".

قال: "لا أدري. إن أمي تقول إن والدي رحــل. وتقــول إنــه لم يعــد يحبنا".

نظرت إليه باستغراب. فقد قال ذلك من دون أن يشعر بأي ألم أو خيبة أمل، إذ أصبح الأمر في نظره مجرد أمر واقع لا مفر منه. شعرت بالدوامة ثابتة تمامــاً وأن العالم من حولها يدور حولنا ولسنا نحن من ندور حوله.

فقلت: "ومع ذلك، فأنا واثقة من أن أمك تحبك".

التزم الصبيّ الصمت للحظة ثم قال: "أحياناً".

"ألا تحبك في كلّ الأوقات؟".

صمت قليلاً ثم قال: "لا أظن ذلك". فشعرت بضربات قلبــي تتســارع. أضاف الصبــي قائلاً: "تقول أحياناً إنها لا تحبني".

فقلت: "هذا مؤسف". راقبت المقعد الذي كنت جالسة عليه يقترب منــا ثم يبتعد ونحن ندور وندور.

سألته: "ما اسمك؟".

فقال: "ألفي". بدأت الدوامة تتباطأ، فتوقف العالم عن الدوران خلف رأسه. كانت قدماي تلامسان الأرض، فدفعت الدوامة حتّى تدور مرة أخرى، ونطقــت باسمه وكأنني أقوله لنفسي: *ألفي*.

قال لي ألفي: "تقول أمي أحياناً إنها ستكون أفضل حالاً لو أنــني أعــيش في مكان آخر".

حاولت أن أحافظ على ابتسامتي ونبرة صوتي المبتهجة وقلت: "لا بد من أنها تمزح".

فهز الصبي كتفيه.

شعرت بكامل جسدي مشدوداً، وتخيلت نفسي أسأله إن كان يود أن يرافقني إلى البيت ويعيش معي، وتخيلت ملامحه تشرق وهو يقول إنه لا يفترض به أن يذهب إلى أي مكان مع الغرباء، ولكنني سأقول له إنني لست غريبة. وهكذا، سأحمله وأشعر بوزنه الثقيل وأشم رائحته الحلوة كرائحة الشوكولاته. سندخل معاً إلى المقهى؛ وعندئذ، سأسأله عن نوع العصير الذي يحب أن يشربه، فسيطلب مني عصير الكشمش الأسود. وبعد أن أشتري له العصير وبعض الحلوى أيضاً، سنغادر المتنزه وهو يمسك بيدي ونعود معاً إلى البيت الذي أعيش فيه مع زوجي. وفي تلك الليلة، سأقطّع له اللحم وأهرس البطاطا لأطعمه. وحالما يرتدي لباس نومه، سأقرأ له قصة قبل أن أغطي جسده النائم وأطبع قبلة ناعمة على جبينه. وغداً...

غداً؟ ولكن ليس هناك أي غد بانتظاري، بالتحديد كما ليس لي أي ماضٍ.

عندئذ، صاح الصبي قائلاً: "أمي!"، فظننته للوهلة الأولى يتحدث إليّ، ولكن عندما قفز من الدوامة وركض نحو المقهى، ناديت قائلة: "ألفي!"، ولكنني رأيت امرأة تمشي نحونا ممسكة بكوب بلاستيكي بكل يد من يديها.

انحنت نحوه وهو يحاول أن يصل إليها، وقالت وهو يرتمي بين ذراعيها: "هل أنت بخير، أيها النمر!"، ثم أبعدت نظرها عن ابنها ونظرت إليّ بعينين جارحتين وتحجرت ملامحها. حينها، وددت أن أصيح قائلة: *لم أرتكب أي مكروه! دعيني وشأني!*

ولكنني لم أفعل، وبدلاً من ذلك، أشحت بوجهي. وحالما أخذت المرأة ألفي، ترجّلت من الدوامة. رأيت السماء تزداد ظلمة متحولة إلى لون أزرق كالحبر، جلست على أحد المقاعد ولم أكن أعرف كم الساعة أو كم مضى عليّ من الوقت وأنا خارج المنزل. وكان الشيء الوحيد الذي عرفته هو أنني لم أعد أقوى على العودة إلى البيت. لم أعد أستطيع أن أواجه بن أو أستمر بالتظاهر أنني لا أعرف شيئاً عن آدم، وأنني أظن نفسي لست أمّاً. تمنيت للحظة أن أخبره كل شيء وأن

أخبره عن سجلي وعن لقاءاتي بالدكتور ناش وكل شيء، ولكنني صرفت الفكرة عن ذهني. لم أشعر برغبة في العودة إلى البيت، ولكن لم يكن لديّ مكان آخر أذهب إليه.

عندما اتّشحت السماء بسواد الليل، نهضت وبدأت أمشي.

وجدت المنزل قابعاً في الظلام، وعندما دفعت الباب الأمامي لأفتحه، لم أعرف ما يجب أن أتوقعه، وأدركت أن بن قلق عليّ بلا شك. فقد قال إنه سيعود إلى البيت بحلول الخامسة، لذا، تخيلته يذرع غرفة المعيشة جيئة وذهاباً. ولسبب ما أجهله، وبالرغم من أنني لم أره يدخن صباح اليوم، فقد أضافت مخيلتي سيجارة مشتعلة بين شفتيه إلى المشهد، ولكنني ربما أكون مخطئة في ظني. تخيلته يقود سيارته في الشوارع ببطء بحثاً عني، وتخيلت فرقاً من الشرطة والمتطوعين في الخارج يقرعون الأبواب وفي حوزتهم صور لي، وجعلني هذا أشعر بالذنب. فحاولت أن أقنع نفسي أنني - بالرغم من فقدان ذاكرتي - لست طفلة صغيرة، وفي وسعي أن أخرج من البيت لأتنزه وأعود إليه كما يفعل بقية الناس. ومع ذلك، فقد دخلت وأنا أهيّئ نفسي لتقديم الاعتذار.

ناديت قائلة: "بن؟"، لكنني لم أسمع رداً، بل شعرت بحركة خافتة كصرير ألواح الأرضية الخشبية في مكان ما فوقي أو تغيراً في توازن البيت لا يمكن إدراكه بالحواس. ناديت مرة أخرى بصوت أعلى هذه المرة: "بن؟".

فأجابني بصوت ضعيف قائلاً: "كريستين؟".

قلت: "بن! هذه أنا يا بن. لقد عدت إلى البيت".

ظهر بن من فوقي واقفاً أعلى الدرج، وكانت آثار النوم بادية عليه. كان لا يزال يرتدي الملابس نفسها التي ارتداها صباح اليوم عندما خرج إلى العمل، ولكن قميصه الآن بدا مجعداً ومتهدلاً، وشعره مشعّثاً ومنتصباً في جميع الاتجاهات مؤكداً على مظهره المضحك الموحي بالصدمة الكهربائية. تحركت في داخلي ذكرى بعيدة عن دروس العلوم، ولكنها لم تتخذ صورة واضحة فعلاً.

بدأ بن ينزل الدرج وهو يقول: "أنت في البيت، يا كريس!".

قلت بتردد: "لقد... لقد شعرت بحاجة إلى استنشاق بعض الهواء النقي".

فقال: "الحمد لله". واقترب منّي وأخذ بيدي وضغط عليها بقوة وكأنه يريد أن يهزها أو يتأكد من أنها حقيقية، وقال مجدّداً: "الحمد لله".

نظر إليّ بعينين واسعتين براقتين تلمعان في الضوء الخافت وكأنه يبكي. حينها قلت في سرّي: *كم يحبني!* وتعمقت مشاعر تأنيب الضمير في داخلي.

قلت: "إنني آسفة. لم أقصد أن...".

قاطعني وقال: "آه! دعينا لا نقلق بهذا الشأن، حسناً؟".

قرّب يدي من شفتيه وتغير تعبير وجهه متحولاً إلى تعبير موحٍ بالسعادة والبهجة. واختفت منها كل مظاهر القلق، وقبل يدي.

"ولكن...".

"لقد عدت إلى البيت، وهذا كل ما يهم في الأمر". أضاء المصباح وسرّح شعره ليضفي عليه شيئاً من الترتيب، ثم قال: "أليس كذلك؟"، ودس قميصه داخل سرواله، ثم قال: "ما رأيك أن تذهبي وتغسلي وجهك؟ كنت أفكر في الخروج معاً، ما رأيك بهذا؟".

فقلت: "لا أظن ذلك. فأنا...".

"آه يا كريستين! ينبغي لنا أن نخرج! يبدو وكأنك بحاجة إلى ما يبهجك!".

قلت: "ولكن، يا بن، لا أشعر برغبة في الخروج مرة أخرى".

قال: "من فضلك؟"، وأمسك بيدي مجدّداً وضغط عليها بحنان قائلاً: "إن هذا يعني لي الكثير". وأخذ بيدي الثانية وضمهما معاً بين يديه وقال: "لا أعرف إن كنت قد قلت لك هذا الصباح أم لا. إن اليوم ذكرى ميلادي".

ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ لم أشعر برغبة في الخروج أو في فعل أي شيء، ولكنني قلت إنني سأفعل ما طلبه مني وسأذهب لغسل وجهي ثم أرى إن كنت سأخرج بعد ذلك أم لا. صعدت إلى الطابق العلوي؛ لقد أزعجني مزاجه، إذ بدا قلقاً جداً في البداية، ولكن عندما ظهرت سالمة وعلى ما يرام، تبخر كل قلقه في الهواء. ترى هل كان يحبني إلى هذا الحد فعلاً ويثق بي لدرجة أن كل ما يهتم به هو أن أكون بخير من دون أن يعرف أين كنت؟

www.mlazna.com-RAYAHEEN

دخلت إلى الحمام وأنا أظن أنه ربما لم يرَ الصور المبعثرة علـى الأرض وأنـه يعتقد عن حسن نية أنني خرجت ببساطة للتنـزه. ففكرت في أنه لا يزال أمـامي متسع من الوقت لأغطي آثار فعلتي وأخفي نتيجة غضبـي وحزني.

أقفلت الباب خلفي وأضأت المصباح، حينها اكتشفت أنـه كـنس الأرض ونظفها ثم أعاد لصق الصور في مكانها وكأن أحداً لم ينتزعها قط.

لقد قلت له إنني سأجهز في غضون نصف ساعة. فجلست في الحمام وكتبت ما حدث معي في المتنـزه بأسرع وقت ممكن.

يوم الجمعة 16 تشرين الثاني

لا أعرف ما حدث بعد ذلك. ما الذي فعلته بعد أن قال لي بن إن اليوم يوم ذكرى ميلاده؟ وبعد أن صعدت إلى الطابق العلوي واكتشفت أمر الصور ووجدتها قد أعيدت إلى مكانها بعد أن مزقتها؟ لا أعرف. ربما استحممت وغيرت ملابسي وربما خرجنا لتناول وجبة في أحد المطاعم أو إلى السينما. لا أعرف حقاً. إذ إنني لم أدوّن ما حصل في سجلي ولا أتذكره بالرغم من أنه حدث قبل بضـع سـاعات فقط. وإن لم أسأل بن عنه، ضاع مني كلياً؛ أشعر بأنني سأفقد صوابـي.

في وقت مبكر من صباح اليوم، استيقظت ووجدته نائماً بجانبـي واعتبرته مجرد رجل غريب. وجدت الغرفة مظلمة وساكنة. فظللت مستلقية بلا حـراك وأنا مسمّرة في مكاني من الخوف ولا أعرف من أنا أو أين أنا. ولم أسـتطع أن أفكر سوى في الهرب، ولكنني عجزت عن الحراك، وشعرت بأن ذهني مسـلوب وفارغ، ولكن هذه الكلمات تدفقت إلى لساني: *بن، زوج، ذاكـرة، حـادث، موت، ابن.*

آدم.

رأيتها كلّها تتراقص أمام عيني بشكل ضبابـي وغير واضح. فحاولـت أن أصل بينها لأنني لم أفهم معناها ولم أعِ الرابط بينها. وأخذت تدور في ذهني وتتردد أصداؤها كعبارة مكررة. وبعد ذلك، عاد الحلم إليّ مجدّداً. ولا بد من أنه الحلـم نفسه الذي أيقظني من نومي.

فقد حلمت أنني مستلقية في سريري في غرفة نوم غريبة. وشـعرت بوجـود رجل معي. كان يلقي بنفسه عليّ، فتملكني شعور غريب بأنني أشعر بالدوار وأن جسدي ثقيل جداً. شعرت بالغرفة تهتز من تحتي، وعندما فتحت عـيني، رأيـت سقفها يتراقص وقد بدا ضبابياً ومموهاً.

لم أستطع أن أحدد هوية ذلك الرجل، فقد كان رأسه قريباً جداً لدرجة أنني عجزت عن رؤية وجهه بوضوح، ولكنني استطعت الإحساس بحركاته العنيفة القاسية. أردت أن أمنعه من مضايقتي، ولكنني لم أقل شيئاً. فتمتم قائلاً: "أحبك"، ولكن كلماته بدت مبهمة ومكتومة. أردت أن أتكلم بالرغم من أنني لم أعرف ما يجب أن أقوله، ولكنني لم أدرك كيف أفعل هذا. فقد شعرت بأن ذهني ليس مرتبطاً بفمي. وهكذا ظللت مستلقية هناك بإذعان. تذكرت أنني أردته أن يكف عن محاولاته العابثة، وهذا هو ما قلته لنفسي. فقد أقنعت نفسي بأنني لن أسمح له بالتمادي أكثر من ذلك، ولكنني لم أقاومه. وفكرت في سرّي قائلة: *إنّ هذا هو آخر ما سأسمح له به*. ومع ذلك، فلم أمنعه لأنني شعرت أنني امرأة حقيقية للمرة الأولى في حياتي، ولكنني قررت ألا أسمح له باستغلالي وأن هذا هو آخر حدٍّ سأسمح له بالوصول إليه. بدأت كلمة لا تتشكل في ذهني وتتثبت في داخلي، ولكنني بحلول الوقت الذي ذكرتها فيه، أصبحت حركات ذلك الرجل أكثر عنفاً وإصراراً.

قال لي مرة أخرى: "أحبك". فأدركت أن فرصي بردعه تلاشت واحدة تلو أخرى وأن الأوان قد فات. وعندئذ، رأيت وجهه. وبالرغم من أنني لم أميزه في حلمي، إلا أنني الآن أميزه. إنه بن. فأدركت أن ذلك الرجل هو زوجي بالرغم من أنني قابلته للمرة الأولى صباح هذا اليوم. وأيقنت أنني أستطيع أن أردعه وأنني أستطيع أن أثق به بأن يتوقف عما يفعله.

فتحدثت قائلة: "بن...".

ولكنه قاطعني، فحاولت أن أتجاهل ما يجري وأنا أقنع نفسي بأنني السبب في حدوث هذا وأقول في الوقت نفسه إنني لا أريده أن يحدث. أمن المعقول أن يريد المرء حدوث شيء ما ويرفضه في آن معاً؟

أغمضت عيني. فرأيت وجه رجل غريب ذي شعر داكن ولحية وندبة على طول خده. وبدا مألوفاً لي. ومع ذلك، فلم تكن لديّ أيّ فكرة عن المكان الذي تعرفت إليه فيه. وبينما أنا أراقبه، تلاشت ابتسامته. وعندئذ، صحت عالياً في حلمي. وفي تلك اللحظة، استيقظت حتى أجد نفسي في سريري الهادئ ورأيت بن نائماً بجانبي من دون أن تكون لديّ أي فكرة عن مكان وجودي.

نهضت من السرير لأستخدم الحمام أو ربما لأهرب؛ لا أعرف إلى أين أردت الذهاب وماذا أردت فعله. لو كنت أعرف بوجود سجلي، لفتحت الخزانة بهدوء قدر المستطاع وأخرجت علبة الحذاء التي وضعته فيها، ولكنني لم أكن أعرف بوجوده بعد لأن الدكتور ناش لم يتصل بي حتى وقت متأخر من اليوم. نزلت إلى الطابق السفلي، فوجدت الباب الأمامي مقفلاً. ورأيت ضوء القمر الباهت يشع من خلال الزجاج المكسو بالجليد.

جلست أسفل الدرج أراقب، وعندما أشرقت الشمس، تحول الضوء في البهو من الأزرق إلى البرتقالي المتوهج. شعرت بأنني عاجزة عن استيعاب ما يجري معي ولا سيما ذلك الحلم الذي رأيته. فقد شعرت بأنه حقيقي جداً، واستيقظت في غرفة النوم نفسها التي حلمت بها بجانب الرجل الذي لم أكن أتوقع أن أراه.

والآن، بعد أن قرأت السجل، خطرت لي فكرة أخرى. أيمكن أن تكون تلك ذكرى؟ أيعقل أن أكون قد استعدتها من الليلة الماضية؟

لست أدري. فلو كان ذلك صحيحاً، لأثبت حدوث تقدم في حالتي، كما أظن، ولكن هذا يعني أن بن أساء معاملتي. إن الأسوأ من ذلك هو أنني رأيته بتلك الصورة المختلفة؛ صورة الرجل ذي اللحية والندبة على طول وجهه. من بين كل تلك الاحتمالات، بدت تلك الذكرى شيئاً قاسياً لأن أستعيده الآن.

ولكنها ربما لا تعني شيئاً، بل ليست سوى مجرد حلم أو كابوس. إن بن يحبني أما الرجل الآخر ذو اللحية فهو غير موجود.

ولكن كيف يسعني أن أتأكد من حقيقة هذا؟

في وقت لاحق، قابلت الدكتور ناش. كنا جالسَين في السيارة المتوقفة عند إشارة المرور، فراح الدكتور ناش ينقر بأصابعه على طرف المقود بشكل غير متناغم تقريباً مع موسيقى البوب التي أخذت تصدح من مشغل الاسطوانات، والتي لم أميزها أو أستسغها. لذا، جلست محدقة أمامي بشكل ثابت. كنت قد عاودت الاتصال به صباح اليوم حالما أنهيت قراءة سجلي، ولا سيما ما كتبته عن الحلم الذي ظننته ذكرى من الليلة الماضية. فقد أحسست بأنني أريد أن أفصح عما يجول في خاطري وشعرت بأن الخبر الذي قرأته عن ابني أشبه بشق صغير في حياتي يهدد

بأن يتمزق ويقسمها إلى نصفين. كان الطبيب قد اقترح أن نغير موعد لقائنا الأسبوعي لهذا الأسبوع إلى اليوم. لم أخبره بالمشكلة التي أعانيها رغبة مني في الانتظار حتى نصل إلى عيادته، ولكنني الآن لم أعد أعرف إن كنت أطيق الانتظار أم لا.

تغير ضوء إشارة المرور، فتوقف الطبيب عن النقر على المقود، وانطلقت السيارة فجأة. سمعت نفسي أقول: "لِمَ لم يخبرني بن بشأن آدم؟ لا أدرك السبب الذي قد يدفعه لهذا التصرف. لماذا قد يفعل ذلك؟".

ألقى الطبيب نظرة خاطفة عليّ، لكنه لم يقل شيئاً، بل واصل قيادة السيارة بصمت. كان هناك كلب بلاستيكي موضوع على كونسول السيارة أمامنا ورأسه يتحرك إلى الأعلى وإلى الأسفل بهيئة مضحكة. ورأيت خلفه طفلاً دارجاً ذا شعر أشقر. ففكرت في ألفي.

سعل الدكتور ناش وقال: "أخبريني بما حدث".

إذاً، الخبر صحيح! تمنيت في أعماقي أن يسألني عمّا أتحدث، ولكن حالما ذكرت كلمة آدم، أدركت كم كان أملي عقيماً ومضللاً أيضاً. إنني أشعر بأن وجود آدم حقيقي، إذ إنه يشغل في داخلي وداخل ضميري وإحساسي مساحة لا يستطيع أحد آخر أن يشغلها ولا حتى بن أو الدكتور ناش أو أنا.

تملكني الغضب؛ فقد كان يعرف بأمره طوال الوقت.

قلت: "لقد أعطيتني روايتي. إذاً، لماذا لم تخبرني بأمر آدم؟".

قال الطبيب: "أخبريني بما حدث يا كريستين".

حدقت عبر الزجاج الأمامي للسيارة وقلت: "لقد راودتني ذكرى".

فنظر إليّ بسرعة وقال: "حقاً؟"، ولكنني لم أقل شيئاً. قال: "إنني أحاول أن أساعدك يا كريستين".

قلت له: "حدث هذا قبل بضعة أيام في اليوم الذي أعطيتني فيه روايتي. لقد نظرت إلى الصورة التي وضعتها داخل الرواية. وفجأة تذكرت اليوم الذي التقطت فيه تلك الصورة. ولا أعرف السبب في ذلك. فقد لمعت تلك الذكرى في ذهني هكذا ببساطة. وتذكرت أنني كنت في تلك الصورة حاملاً".

لم يقل شيئاً.

فقلت: "هل أنت على علم بأمره؟ أقصد آدم؟".

تحدث الدكتور ناش بتردد قائلاً: "نعم، إنني أعرف بأمره، إذ إنه مذكور في ملف علاجك. كان عمره بضع سنوات عندما فقدت ذاكرتك". وتوقف ثم قال: "وبالإضافة إلى ذلك، فقد سبق وتحدثت عنه من قبل".

شعرت ببرد يسري في جسدي وارتجفت بالرغم من دفء الجو في السيارة. لقد أدركت من قبل أنه من الممكن، وربما من المرجح أن أكون قد تذكرت آدم من قبل، ولكن هذه الحقيقة الباردة – أي أنني مررت بكل هذه التجربة من قبل وقد أمر بها مجدداً – سببت لي الصدمة.

لا بد من أن الطبيب شعر بدهشتي، فقال: "قبل بضعة أسابيع، قلت لي إنك رأيت صبياً صغيراً في الشارع. في البداية، انتابك شعور غامر بأنك تعرفينه وأنه ضائع ولكنه سيعود إلى البيت وإلى أحضانك. وبعد ذلك، ومن دون سبب منطقي، بدأت تظنين أنك أمه. ثم عاودتك تلك الذكرى. فحدثت بن بالأمر، لذا أخبرك عن آدم. وفي وقت لاحق من اليوم، أخبرتني بدورك بأمره".

لم أتذكر أي شيء من هذا الكلام. فذكرت نفسي أنه لا يتحدث عن امرأة غريبة بل عني أنا.

"ولكنك لم تخبرني بأمره منذ ذلك الحين".

فتنهد وقال: "كلا...".

"ولكن لماذا؟ إنني لا أفهم...".

"يجب أن تدركي يا كريستين، أنه ليس بالإمكان أن أبدأ كل جلسة بإخبارك بكل الأشياء التي أعرفها ولكنك لا تعرفينها. وبالإضافة إلى ذلك، وفي هذه الحال، فقد قررت أن هذا لن يفيدك بالضرورة".

"لن يفيدني؟".

"كلا، إنني أدرك أنه سيكون من المزعج كثيراً بالنسبة إليك أن تعرفي أنك أنجبت طفلاً ثم نسيت أمره. كما أن هذا مزعج بالنسبة إلى بن أيضاً".

التزمت الصمت قليلاً. وفي تلك اللحظة، دخلنا موقف سيارات تحت الأرض. فبهت ضوء النهار الناعم وحلت محله أضواء كهربائية مزعجة ورائحة وقود وإسمنت. تساءلت عما قد يشعر أيضاً بأنه من غير الأخلاقي أن يخبرني به،

وأي قنابل موقوتة أخرى لا أزال أحملها في رأسي تسير في العد التنازلي وتستعد للانفجار.

سألته: "ألم يكن هناك المزيد...؟".

فقاطعني: "كلا، فقد أنجبت آدم فقط. وكان طفلك الوحيد".

لاحظت أنه تحدث عنه بصيغة الماضي. فلا بد من أنه عرف أنه مات أيضاً. فلم أود أن أطرح عليه هذا السؤال، ولكنني أيقنت أنه عليّ فعل ذلك.

أجبرت نفسي على الكلام وقلت: "أتعرف أنه قتل؟".

ركن الطبيب السيارة وأوقف المحرك عن العمل. كان موقف السيارات هادئاً ومضاءً بأضواء كهربائية خافتة. لم أسمع شيئاً سوى صفق باب بين الحين والآخر وهدير مصعد. ظننت لبرهة أنني لا أزال أحظى بفرصة وأنني ربما مخطئة، وأن آدم ربما لا يزال على قيد الحياة؛ فابتهج قلبي لهذه الفكرة. لقد شعرت بأن وجود آدم حقيقة ملموسة حالما قرأت عنه صباح اليوم، ومع ذلك فلم يبدُ لي موته حقيقياً. حاولت أن أتخيله أو أتذكر كيفية شعوري عندما سمعت خبر مقتله، ومع ذلك، فلم أستطع أن أتخيل ذلك. لا بد من أن الحزن فطر قلبي، وأن كل يوم أصبح مليئاً بالألم الدائم وبالتوق إلى معرفتي أن جزءاً مني مات وأنني لن أعود كياناً كاملاً بعد الآن. لا بد من أن حبي لابني قوي بما يكفي لأن يجعلني أتذكر خسارتي إياه؟ فلو أنه ميت فعلاً، إذاً، فمن المؤكد أن حزني على موته أقوى حتى من مرضي.

أدركت أنني لم أعد أثق بزوجي أو أصدق أن ابني مات. ومرت لحظة شعرت بالسعادة تتوازن في عقلي، ولكن الدكتور ناش حطمها بكلمة واحدة.

وقال: "نعم، أعرف أنه مات".

انفجرت البهجة في داخلي كقنبلة صغيرة وتحولت إلى ضدها وإلى شيء أسوأ من خيبة الأمل وأكثر تدميراً منها وانطلق داخلي كرصاصة من الألم.

فكان كل ما قلته هو: "كيف...؟".

قص عليّ القصة نفسها التي قصها عليّ بن. فقال إن آدم التحق بالجيش وإن قنبلة انفجرت... أصغيت إليه وأنا مصممة على أن أستجمع كل قوتي لأمنع نفسي من البكاء. وعندما أنهى قصته، خيم الصمت وساد السكون قبل أن يضع يده على يدي ويتحدث إليّ بلطف مجدداً: "إنني آسف جداً يا كريستين".

لم أعرف ماذا أقول، نظرت إليه ورأسه منحنٍ نحوي، ورحت أتأمل يده فوجدتها مليئة بخدوش صغيرة. وتخيلته في بيته في وقت لاحق من اليوم وهو يلاعب قطة صغيرة أو جرواً، ويعيش حياته الطبيعية.

قلت: "إن زوجي لا يخبرني بأمر آدم، كما أنه يحتفظ بكل صوره ويقفل عليها في صندوق معدني من أجل حمايتي". لم يقل الدكتور ناش شيئاً، لذا أضفت قائلة: "ما الذي قد يدفعه للقيام بهذا العمل؟".

نظر الطبيب أمامه من خلال النافذة، فنظرت إلى الاتجاه نفسه ورأيت كلمة بذيئة مكتوبة على الجدار أمامنا. قال لي: "دعيني أطرح عليك السؤال نفسه. ما الذي قد يدفعه برأيك أنت لفعل هذا؟".

فكرت للحظة وحاولت تخيل كل الأسباب التي قد تخطر بالبال. فقلت في نفسي إنه قد يفعل ذلك ليسيطر عليّ ويحظى بالسلطة، أو ربما ليتمكن من حرماني من الشيء الوحيد الذي يشعرني بأنني إنسانة كاملة، ولكنني أدركت أنني لا أصدق أن أياً من هذه الأسباب صحيح. وشعرت بأنه لم يعد أمامي إلا الاعتراف بالحقيقة الملموسة. فقلت: "أعتقد أنه من الأسهل بالنسبة إليه ألا يخبرني إن لم أتذكر شيئاً عن الأمر".

"لماذا قد يعتبر الأمر أسهل بالنسبة إليه؟".

"ربما لأنني أجد الموضوع مزعجاً جداً. لا بد من أنه شعور رهيب جداً أن يخبرني كل يوم بأنني أنجبت طفلاً ولكنه مات، وبهذه الطريقة الفظيعة".

"ألا تخطر ببالك أي أسباب أخرى؟".

فالتزمت الصمت ثم توصلت إلى الإدراك الذي لم أتوصل إليه من قبل. فقلت: "حسناً، لا بد من أن الأمر يشق عليه هو أيضاً لأنه والد آدم. وحسناً..."، وفكرت في أنه كان بلا شك يكابد حزنه بصمت كما أكابد أنا حزني.

قال الطبيب: "إن هذا صعب عليك يا كريستين، ولكن، عليك أن تتذكري أنه صعب على بن أيضاً. ولا بد من أنه أكثر صعوبة عليه من بعض النواحي. إذ إنه يحبك كثيراً كما أتوقع. ومع ذلك...".

"ومع ذلك، فأنا لا أتذكر حتى وجوده...".

فقال: "هذا صحيح".

تنهدت وقلت: "لا بد من أنني أحببته حباً جماً في الماضي. فقد تزوجته على أيّ حال". لم يقل الطبيب شيئاً، وأخذت أفكر في الرجل الغريب الذي وجدته إلى جانبي عندما استيقظت صباح اليوم، وفي الصور التي رأيتها والتي تظهر حياتنا معاً، وفي الحلم أو الذكرى التي راودتني في منتصف الليل. وفكرت في آدم وفي ألفي وفي ما فعلته أو أوشكت أن أفعله؛ فانتابتني موجة من الذعر، وشعرت بأنني محاصرة وأن الطرقات كلها أصبحت مسدودة في وجهي، وأن عقلي يتخبط من مكان إلى آخر بحثاً عن مخرج ليخرج منه ويتنفس هواء الحرية.

فكرت في أنه يجب عليّ أن أبقى متشبثة ببن لأنه رجل قوي.

قلت: "يا لها من فوضى! أشعر بأنني غارقة في الحيرة".

تحدث عندئذٍ وهو يستدير ليواجهني قائلاً: "إنني أتمنى لو كان بيدي شيء أسهّل به وطأة هذه المعاناة عليك".

بدت تعابير وجهه موحية بأنه يعني ما يقوله فعلاً، وأنه مستعد لفعل أي شيء ليساعدني. وشعرت بحنان عينيه وبالطريقة التي وضع فيها يده برفق على يدي هناك في الضوء الخافت الذي يملأ موقف السيارات في القبو تحت الأرض. فوجدت نفسي أتساءل عما يمكن أن يحدث إن وضعت يدي على يده أو قربت رأسي إلى الأمام قليلاً ونظرت إلى عينيه نظرة عشق. تُرى هل سيبادلني النظرة بمثلها؟ هل سأسمح له بأكثر من ذلك لو فعل؟

أم إنه سيعتبرني امرأة سخيفة؟ يا للغباء! لقد استيقظت صباح اليوم وأنا أظن نفسي في العقد الثاني من عمري، ولكنني لست كذلك فعلاً، فأنا أناهز الخمسين، وأكاد أكون في سن والدته. وهكذا، نظرت إليه للحظة عوضاً عن ذلك، فجلس ساكناً تماماً وهو ينظر إليّ. لقد بدا لي قوياً بما يكفي ليساعدني على تخطي هذه المحنة.

فتحت فمي لأتكلم من دون أن أعرف ما أريد قوله، ولكنّ صوتَ رنين هاتف مكتوماً قاطعني. فلم يحرك الدكتور ناش ساكناً أكثر من مجرد إزاحة يده بعيداً عن يدي. فأدركت أن الهاتف لا بد من أن يكون هاتفي.

أخرجته من حقيبتي وقرأت على الشاشة اسم بن. أدركت الآن كم أجحفت في حق زوجي، فقد فجعه موت ولده أيضاً، ولا بد من أنه كان مجبراً على التعايش

مع هذه المحنة الأليمة كل يوم من دون حتى أن يملك القدرة على التحدث عنها أو اللجوء إلى زوجته طلباً للطمأنينة والعزاء.

لقد ضحّى بكل ذلك في سبيل حبه لي.

وها أنا الآن جالسة في موقف سيارات تحت الأرض مع رجل لا يعرف بين حتى بوجوده. وفكرت في الصور التي رأيتها صباح اليوم في دفتر القصاصات. وتخيلت صوري وصور بن مرة تلو أخرى ونحن نبتسم معاً والسعادة تفيض من عيوننا العاشقة. فلو أنني أذهب إلى البيت الآن وأنظر إلى تلك الصور، فهل كنت سأرى فيها فقط ما أفتقده؟ آدم. ومع ذلك، فهي الصور نفسها التي ننظر فيها إلى بعضنا وكأنه ليس هناك أحد في العالم غيرنا.

لقد كنا عاشقين، وهذا ما بدا مضيئاً ومتلألئاً بوضوح في عيوننا وملامحنا.

قلت: "سأتصل به لاحقاً". فأومأ الدكتور ناش برأسه، ووضعت الهاتف في حقيبتي، واتخذت بيني وبين نفسي قراراً بأن أخبره لاحقاً عن سجلي وعن الدكتور ناش وكل شيء آخر.

سعل الدكتور ناش وقال: "ينبغي لنا أن نتوجه إلى العيادة. ما رأيك بذلك؟".

فقلت من دون أن أنظر إليه: "نعم، بكل تأكيد".

* * *

بينما كان الدكتور ناش يقود السيارة ليعيدني إلى البيت، أخذت أدوّن ما حدث معي. وكان معظم ما كتبته بالكاد مقروءاً من شدة عجلتي في الكتابة. لم يقل الدكتور ناش شيئاً وأنا أكتب، ولكنني رأيته يلقي نظرة خاطفة عليّ وأنا أبعد نظري عن السّجل لأفكر في الكلمة الصحيحة أو العبارة المناسبة للموقف الذي أريد التعبير عنه. وعندما وصلنا، ودّعني الطبيب وقال: "إنني مندهش من رغبتك في الكتابة في السيارة. تبدين مصممة جداً. وأظن أنك لا تريدين أن تفقدي أي معلومة من دون كتابتها".

ومع ذلك، فقد أدركت المغزى الحقيقي لكلامه. فلا بد من أنه كان يعني أنني شديدة الاهتياج ويائسة وتواقة إلى الحصول على أي شيء أكتبه في سجلي.

إنه محق في اعتقاده، فأنا مصممة حقاً. حالما دخلت إلى البيت، أنهيت كتابة كل المعلومات التي أردت كتابتها وأنا جالسة إلى مائدة الطعام، ثم أغلقت السجل

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وأعدت وضعه في مخبئه قبل أن أخلع ملابسي بهدوء. كان بن قد ترك لي رسالة على الهاتف الخلوي يقول فيها: *ما رأيك أن نخرج الليلة لتناول العشاء؟ إن اليوم يوم الجمعة...*

خلعت سروال الكتان الكحلي الذي وجدته في الخزانة صباح اليوم واخترت أن أرتديه. وخلعت البلوزة الزرقاء الشاحبة التي قررت أنها تناسبه أكثر من غيرها. شعرت بذهني يدور لفرط الحيرة والارتباك. فقد أعطيت الدكتور ناش سجلي خلال جلستنا معاً. وكان قد طلب مني سابقاً أن أحضره معي. فقرأه وهو يرتشف الشاي، وقال بعد أن انتهى: "هذا ممتاز! إنه جيد فعلاً. إنك تتذكرين الكثير من الأشياء يا كريستين. لا بد من أن ذكريات كثيرة تعاودك، لذا، ليس هناك من سبب يمنعنا من متابعة العلاج. ينبغي لك أن تشعري بحافز كبير يشجعك على المضي قدماً...".

ولكنني لم أشعر بأي حافز يشجعني على أي شيء فعلاً. فقد شعرت بالارتباك والتشتت. ترى هل حاولت أن أغازله أم أنه هو من حاول هذا؟ لقد كان هو من وضع يده على يدي، ولكنني سمحت له بأن يضعها هناك ولم أحرك ساكناً. أومأت برأسي عندما أعطاني سجلي وقال: "ينبغي لك أن تستمري بالكتابة". فوعدته بأن أفعل ذلك.

وبينما أنا في غرفة نومي، حاولت أن أقنع نفسي بأنني لم أرتكب أيّ حماقة. ومع ذلك، فقد ظللت أشعر بتأنيب الضمير لأنني استمتعت باهتمامه بي واكتراثه بأمري وشعوري بالتواصل معه. وفي غمرة كل شيء آخر كان يجري، انتابني شعور ضئيل من السعادة. فقد أحسست أنني امرأة جذابة ومرغوبة.

توجهت إلى درج ملابسي الداخلية، واخترت زوجاً مناسباً. لا بد من أن هذه الملابس لي بالرغم من أنني لم أشعر بأنها تنتمي إليّ فعلاً. أخذت طوال الوقت أفكر في السجل المخفي داخل الخزانة. ماذا كان بن ليظن لو أنه عثر عليه وقرأ كل ما كتبته وكل ما عبرت به عن مشاعري؟ ترى هل سيتفهم موقفي فعلاً؟

وقفت أمام المرآة وأنا أردد في نفسي: *لا بد من أنه سيتفهم. يجب عليه ذلك.* تمعنت في خطوط جسمي بعينيّ، ومررت أصابعي على بشرتي وكأنها شيء جديد وهدية يجب أن أتعلم حقيقتها من البداية.

بالرغم من أنني أدركت أن الدكتور ناش لم يغازلني فعلاً، فقد شعرت خلال تلك اللحظة الخاطفة بأنني لست كبيرة في السن وأنني مليئة بالحيوية والشباب.

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا واقفة هناك أمام المرآة لأن الوقت ممتد في نظري وعديم المعنى. لقد تسربت سنوات عديدة كالرمال من بين أصابعي و لم تترك أي أثر يدل عليها. لم يعد للدقائق وجود في حياتي، و لم أعد أملك سوى دقات الساعة في الطابق السفلي لتعلمني بأن الوقت يمر ويمضي بلا عودة. تأملت جسدي مجدداً ونظرت إلى الوزن الزائد الذي اكتسبته في عدة أجزاء منه، فشعرت بأن ذلك غريب جداً.

عندما عدت إلى غرفة النوم، ارتديت جورباً وفستاناً أسود ضيقاً، واخترت عقداً ذهبياً من الصندوق الموضوع على طاولة الزينة وقرطاً ملائماً. جلست إلى طاولة الزينة ووضعت بعض مساحيق التجميل وجعدت شعري ورششت عليه مستحضراً ملمعاً. ورششت بعض العطر على رسغي وخلف أذني. وبينما أنا أفعل كل هذا، لمعت ذكرى في مخيلتي. فرأيت نفسي أرتدي الثياب الداخلية والجوارب وأغلق زمام فستاني، ولكن ذلك حدث في غرفة مختلفة تعود إلى الماضي. كانت الغرفة هادئة، ولكنني سمعت صوت موسيقى تعزف بنعومة من بعيد. وسمعت أصواتاً وأبواباً تنفتح وتنغلق وضجة سيارات خافتة، وشعرت بالهدوء والسعادة. التفت لألقي نظرة على نفسي في المرآة وتفحصت وجهي في ضوء الشموع. وفكرت قائلة في سرّي: *لا بأس بي على الإطلاق*.

تراقصت الذكرى بعيداً عن متناول يدي، وشعرت بها تومض في مكان عميق في داخلي. وبالرغم من أنني استطعت أن أرى تفاصيلها وصورها الخاطفة ولحظاتها السريعة، فقد ظلت غارقة في عمق يجعلني عاجزة عن رؤيتها بوضوح والوصول بها إلى المكان الذي ستؤدي إليه. رأيت زجاجة شراب فاخرة على الطاولة بجانب السرير وكأسين وباقة من الزهور على السرير وبطاقة إهداء عليها. أدركت أن الغرفة كانت غرفة فندق وأنني جلست فيها وحدي بانتظار الرجل الذي أحبه. سمعت قرعاً على الباب ورأيت نفسي أقف وأمشي باتجاهه لأفتحه، ولكنها عندئذ انتهت وكأنني كنت أشاهد برنامجاً على التلفزيون وفجأة انقطع البث. نظرت حولي مجدداً، واكتشفت أنني عدت إلى بيتي. وبالرغم من أن المرأة التي رأيت

صورتها في المرآة بدت غريبة عني، وأن الزينة والشعر المصفف جعلاها تبدو أكثر غرابة مما كان يجب أن تبدو عليه عادة، فقد شعرت بأنني مستعدة. لا أعرف لماذا كنت أستعد، ولكنني شعرت بأنني مستعدة. نزلت إلى الطابق السفلي لأنتظر زوجي؛ الرجل الذي تزوجته وأحببته.

وذكرت نفسي مراراً: *إنه الرجل الذي أحبه.*

سمعت صوت مفتاحه يخشخش عند المدخل وصوت الباب وهو ينفتح وصوت مسح حذائه على الممسحة. وصفيراً؟ أم إن هذا صوت تنفسي المذعور المثقل بالأسى؟ لست أدري.

نادى صوت قائلاً: "كريستين؟ هل أنت بخير، يا كريستين؟".

فقلت: "نعم، إنني هنا".

سمعت صوته وهو يسعل ويعلق معطفه ويضع حقيبته أرضاً.

قال: "هل كل شيء على ما يرام؟ لقد اتصلت بك في وقت مبكر. وتركت لك رسالة".

سمعت صوت صرير الدرج الخشبي. وظننت لوهلة أنه سيصعد إلى الطابق العلوي مباشرة ليذهب إلى الحمام أو إلى غرفة مكتبه من دون أن يدخل ليراني أولاً. فشعرت بالحماقة والسخف لأن أبدو متأنقة ومهندمة بهذا الشكل وجالسة بانتظار زوجي ومرتدية ملابس امرأة أخرى لا أعرفها. تمنيت أن أخلع الفستان وأمسح مساحيق التجميل، وأعيد نفسي إلى الحالة التي أعرفها، ولكنني عندئذ سمعت صوت أنفاسه وهو يخلع إحدى فردتي حذائه ثم الأخرى. وأدركت أنه جلس لينتعل خفه. سمعت صوت صرير الدرج مجدداً. ثم دخل بن إلى الغرفة.

بدأ قائلاً: "يا عزيزتي..."، ثم سكت وقد أخذت عيناه تجولان في أنحاء وجهي وملابسي ثم عادتا لتلتقيا بعيني. فلم أستطع أن أخمن ما كان يفكر فيه.

قال بن: "يا للروعة! إنك تبدين..."، وهز رأسه.

فقلت: "لقد عثرت على هذه الملابس. وفكرت في أن أهتم بمظهري قليلاً الليلة. إنها ليلة الجمعة وعطلة نهاية الأسبوع".

قال وهو لا يزال واقفاً عند المدخل: "نعم، ولكن...".

"هل تريد أن تخرج إلى مكان ما؟".

عندئذ، وقفت ومشيت نحوه. وقلت: "عانقني". بالرغم من أنني لم أتعمد حدوث هذا تماماً، فقد شعرت أن هذا هو التصرف الصحيح الذي يجب أن أقوم به، ولهذا وضعت ذراعي حول عنقه. وكانت تفوح منه رائحة الصابون والعرق والعمل. إنها رائحة حلوة كرائحة أقلام التلوين. فغمرتني ذكرى بعيدة رأيت نفسي فيها راكعة على الأرض مع آدم ونحن نرسم، ولكنها سرعان ما تلاشت.

قلت مرة أخرى: "عانقني". فأحاط خصري بذراعيه.

قربني من جسمه بلطف وحنان، و لم أبعد ذراعي عنه، فضمني أكثر إليه.

سألته في وقت لاحق: "بن، هل نحن سعيدان؟".

كنا جالسَين في أحد المطاعم التي زرناها من قبل على حد قوله بالرغم من أنني بالطبع لم أتذكر شيئاً عن ذلك. رأيت صوراً مؤطّرة لأناس اعتقدت أنهم من صغار المشاهير تزين الجدران. وشاهدت فرناً في النهاية مفتوحاً على مصراعيه بانتظار البيتزا. تناولت من طبق البطيخ الموضوع أمامي بلا شهية، و لم أستطع أن أتذكر متى طلبته.

تابعت قائلة: "إنني أعني القول إننا متزوجان... ولكن كم مضى على زواجنا؟".

فقال: "دعيني أفكر... نعم، اثنتان وعشرون سنة". فشعرت أنها مدة طويلة جداً إلى حدٍّ لا يعقل. وفكرت في الذكرى التي راودتني وأنا أستعد للخروج عصر اليوم وتذكرت الزهور في غرفة الفندق؛ لا بد من أنني كنت أنتظره هو.

"هل نحن سعيدان؟".

وضع بن شوكته وارتشف رشفة من الشراب الذي طلبه. وصلت عائلة أخرى إلى المطعم. فاتخذ أفرادها مقاعدهم إلى الطاولة المجاورة لنا؛ كانت العائلة مؤلفة من والدين كبيرين في السن وابنة في العقد الثاني من عمرها.

تحدث بن قائلاً: "إننا عاشقان، إن كان هذا ما تعنينه. إنني أحبك بكل تأكيد".

وعندئذ شعرت أن فرصة قد سنحت لأقول له إنني أحبه أيضاً. إذ لطالما اعتاد الرجال أن يذكروا كلمة الحب لحبيباتهم كعبارة تصريحية ولكنهم يقصدون بها السؤال عن مشاعرهن.

ولكن ماذا يسعني أن أقول له؟ إنه مجرد رجل غريب. إن الحب لا يحدث هكذا بين ليلة وضحاها مهما اعتقدت أنه من الممكن أن يحدث فعلاً.

عندئذ قال بن: "أعرف أنك لا تحبينني". فنظرت إليه وأنا مصدومة للوهلة الأولى. فتابع قائلاً: "لا تقلقي، إنني أتفهم الوضع الذي تعانينه أو بالأحرى نعانيه كلانا، إذ إنك لا تتذكرين شيئاً عن ماضينا، ولكننا كنا عاشقين في الماضي. فقد أحببنا بعضنا حباً جماً عميقاً كحب تلك القصص مثل روميو وجولييت وغيرها من أمثال ذلك الهراء". وحاول أن يضحك، ولكنه بدلاً من ذلك بدا مرتبكاً، ثم قال: "لقد أحببتك وأحببتني. وكنا سعيدين كثيراً يا كريستين، سعيدين جداً".

"إلى أن وقع لي ذلك الحادث".

أجفل بن من سماع ما قلته. ترى هل تفوهت بما هو أكثر من اللازم؟ هل أخبرني اليوم عن ذلك الحادث المروع أم قبل ذلك؟ لم أكن أتذكر فعلاً، ولكن كلمة حادث تشكل مع ذلك تفسيراً منطقياً لوقوع أي شخص في حالة مثل حالتي. فقررت ألا ألقي بالاً لتلك الكلمة.

قال بن بحزن: "نعم، حتى ذلك الحين، كنا في غاية السعادة".

"وماذا عن الآن؟".

"الآن؟ أتمنى لو كان الوضع مختلفاً، ولكنني لست تعيساً يا كريس. فأنا أحبك ولن أتمنى امرأة غيرك أبداً".

ولكن ماذا عن شعوري أنا. هل أنا تعيسة في حياتي؟

نظرت إلى الطاولة المجاورة لنا؛ وكان الوالد يقرّب نظارته من عينيه نصف المغمضتين محاولاً قراءة لائحة الطعام بينما راحت زوجته تعدّل وضعية قبعة ابنتها وتنزع منديلها الواقي. أما الفتاة فقد جلست بهدوء من دون أن تساعد على شيء وهي تنظر إلى الفضاء وفمها منفرج قليلاً. بدت يدها اليمنى ترتعش قليلاً تحت الطاولة، ورأيت خيطاً رفيعاً من اللعاب معلقاً من ذقنها. لاحظ والداها أنني أراقبهم، فأشحت بوجهي وعاودت النظر إلى زوجي بسرعة كبيرة لأجعل الأمر يبدو وكأنني لا أحدق إليهم. لا بد من أنهم معتادون على تحديق الناس إليهم هكذا ثم إبعاد نظرهم بتلك الصورة السريعة، ولكن بعد فوات الأوان.

تنهدت وقلت: "أتمنى لو أستطيع أن أتذكر ما حدث".

فقال بن: "ما حدث؟ لماذا؟".

فكرتُ في كل الذكريات الأخرى التي راودتني، وكانت موجزة ومؤقتة. والآن، انتهت واختفت. ومع ذلك، فقد دونتها في كتابي وأعلم أنها موجودة ولا تزال موجودة في مكان ما في داخلي، ولكنها تائهة بعيداً عن متناول يدي.

أدركت أنني كنت على يقين تام من وجود مفتاح ما أو ذكرى قد تكشف النقاب عن جميع الذكريات الأخرى.

"إنني أفكر وحسب في أنني لو تذكرت الحادث الذي وقع لي، فلربما استطعت حينئذ أن أتذكر أشياء أخرى، ليس كل شيء، ولكن ربما أتذكر ما يكفي، مثل زفافنا أو شهر عسلنا. إنني حتى لا أستطيع أن أتذكر..."، ارتشفت شرابي. فقد أوشكت أن أقول كلمة آدم. فقلت بدلاً من ذلك: "إن مجرد استيقاظي وأنا أتذكر هويتي يعتبر إنجازاً هاماً".

شبك بن أصابعه وأسند ذقنه عليها وهو يقول: "إن الأطباء يقولون إن هذا غير ممكن الحدوث".

"ولكن ليس بالإمكان أن يعرفوا ما قد يجري حقاً، أليس ذلك؟ إنهم لا يعرفون ذلك بشكل مؤكد، أليس كذلك؟ من المحتمل جداً أن يكونوا مخطئين في تقديرهم".

"إنني أشك في ذلك".

وضعت كأسي على الطاولة وأنا أفكر في سرّي: *كم هو مخطئ!* فقد كان يظن أنني خسرت كل شيء وأن ماضي كله تلاشى من حيز الوجود. أحسست بأن تلك اللحظة هي اللحظة المواتية لأن أخبره بكل اللحظات المختلسة التي لا أزال أحظى بها وعن لقاءاتي بالدكتور ناش وكل شيء آخر.

قلت: "ولكنني أتذكر بعض الأشياء بين الحين والآخر. إنني أعتقد أن الذكريات بدأت تعود إليّ بشكل متقطّع".

بدا بن مندهشاً، وأبعد يديه عن بعضهما وقال: "أحقاً؟ ما هي الأشياء التي تتذكرينها؟".

"إن هذا يعتمد على الظروف. ففي بعض الأحيان، لا أتذكر الكثير. وإنما تنتابني مشاعر وأحاسيس غريبة وتراودني ذكريات أشبه بالأحلام، ولكنها تبدو لي

حقيقية جداً لدرجة تجعلني أظن أنه من المستحيل أن تكون مجرد تخيلات". ظل بن ساكتاً بينما واصلت الكلام: "لا بد من أنها ذكريات".

انتظرت متوقعة منه أن يطلب مني أن أحدثه بالمزيد وأخبره كل شيء رأيتــه وكيف عرفت حتى أي ذكريات أعيشها.

ولكنه التزم الصمت وظل يتأملني بعينين يملأهما الحزن. ففكرت في الذكريات التي كتبت عنها وخاصة في الذكرى التي رأيته فيها يقدم لي الشراب في مطبخ بيتنا القديم. فقلت: "لقد راودتني ذكرى عنك وأنت أصغر سناً بكثير...".

فقال: "ماذا فعلت؟".

فأجبت: "لم تفعل شيئاً مهماً. فقد كنت واقفاً في المطبخ وحسب". فكــرت في الفتاة وأمها وأبيها وهم جالسون على بعد بضع خطوات منا. فانخفض صــوتي حتى أصبح أقرب إلى الهمس. وقلت: "رأيتك تغازلني".

عندئذ، ابتسم.

فقلت: "إنني أظن أن قدرتي على استعادة ذكرى واحدة ربما تجعلــني قــادرة على استعادة المزيد...".

مد بن يده عبر الطاولة وأمسك بيدي قائلاً: "ولكن المشكلة هي أنك غداً لن تذكري تلك الذكرى. هذه هي المشكلة. إذ ليس لديك أساس تبنين عليه".

تنهدت بحسرة، إذ إن ما قاله صحيح. إنني لا أستطيع أن أواصل الكتابة كل يوم عما يحدث لي لبقية حياتي، ليس إن كان سيتوجب عليّ أن أقرأ ما كتبته كــل يوم.

نظرت إلى الطاولة المجاورة، فرأيت الفتاة تغرف من الحساء لتشربه لكنه أخذ يتسرب إلى المنديل الذي دسته أمها تحت ياقتها. وأدركت أن حياة والديها المحطمة عالقة في دور مانح الرعاية الذي كان من المفترض أن يتحررا منه قبل سنوات.

فكرت في أننا نعاني الوضع نفسه، إذ إنني كذلك بحاجة إلى مــن يطعمــني بالملعقة. وأدركت أنني على شاكلتهما وشاكلة ابنتهما محبوبة من قبل بن بطريقة لا أستطيع أن أبادله بها الحب أبداً.

ومع ذلك، فربما نكون مختلفين عنهم. وربما لا يزال هناك أمل لنا.

قلت: "هل تريدني أن أتحسن؟".

بدا متفاجئاً من سؤالي. فقال: "من فضلك يا كريستين...".

"ربما يكون هناك شخص أستطيع أن أقابله؛ طبيب مثلاً؟".

"لقد جربنا من قبل...".

"ولكن ربما يستحق الأمر المحاولة مجدّداً؟ إن الطب يتطور طوال الوقت. ربما استحدث الأطباء علاجاً جديداً أو أي شيء آخر نستطيع تجربته".

ضغط بن على يدي وقال: "ليس هناك شيء يا كريستين. صدقيني. فقد سبق وجربنا كل شيء".

قلت: "ماذا؟ ما الذي جربناه؟".

"كريس، من فضلك، لا تبدئي...".

كررت قائلة: "ما الذي جربناه؟ ما هو؟".

فقال بن: "كل شيء. جربنا كل شيء. إنك لا تدركين كيف كان الوضع". وبدأ القلق يتملكه. وأخذت عيناه تجولان في الأنحاء وكأنه يتوقع ضربة من مكان ما ولكنه لا يعرف من أي اتجاه ستأتي. شعرت بأنه من واجبي التخلي عن الموضوع حينئذ، ولكنني لم أستطع أن أكبح نفسي.

"ماذا يا بن؟ يجب أن أعرف. كيف كان الوضع؟".

لم يقل شيئاً. فألححت قائلة: "أخبرني!".

نظر إليَّ وابتلع ريقه بصعوبة، وبدا مرعوباً ووجهه أحمر وعيناه مفتوحتين على وسعهما، ثمّ قال: "لقد دخلتِ في غيبوبة، فظن الجميع أنك تحتضرين، ولكن ليس أنا. فقد كنت على يقين من أنك تتحلين بالقوة والمقاومة وأنك ستتخطين تلك الأزمة بنجاح وستتحسنين. وفي أحد الأيام، اتصل بي أحدهم من المستشفى وقال لي إنك صحوت أخيراً. فاعتبر الجميع تلك معجزة، ولكنني لطالما توقعت حدوثها وعرفت أنك ستعودين إليَّ يا كريس. في بادئ الأمر، كنت مذهولة ومرتبكة. فلم تعرفي أين أنت أو تتذكري أي شيء عن الحادث، ولكنك ميزتني وميزت أمك بالرغم من أنك لم تعرفي هويتينا. فقال لنا الأطباء إنه يجب علينا عدم القلق لأن فقدان الذاكرة المؤقت طبيعي بعد وقوع حادث شديد كهذا، ولكنه سينتهي". هز بن كتفيه ونظر إلى المنديل الذي كان يمسكه بين يديه، فظننت للحظة أنه لن يتابع القصة.

"وماذا بعد؟".

"حسناً، لقد بدأت حالتك تسوء. فقد دخلت عليك في أحد الأيام ولم تكن لديك أي فكرة عن هويتي. فقد ظننت أنني الطبيب. وبعد ذلك، نسيت من أنت، ولم تعودي قادرة على تذكر اسمك والعام الذي ولدت فيه أو أي شيء يتعلق بك. واكتشف الأطباء أنك توقفت عن تشكيل ذكريات جديدة أيضاً. فأجروا عليك الفحوصات والتصوير وفعلوا كل شيء، ولكن من دون جدوى. وقالوا إن الحادث الذي تعرضت له تسبب لك بفقدان الذاكرة الدائم، وإن هذا المرض عضال ولا علاج له. وقالوا إنه لم يعد بأيديهم ما يفعلونه".

"ألم يفعلوا أي شيء؟".

"كلا! فقد قالوا إن ذاكرتك إما أن تعود أو لا تعود. وكلما طالت المدة أكثر من دون عودتها، تضاءل احتمال عودتها كل يوم. وقالوا لي إن كل ما في وسعي أن أفعله هو أن أحرص على أن أقدم لك الرعاية اللازمة، وهذا هو ما أحاول أن أفعله من ذلك الحين". أمسك بكلتا يدي بين يديه وربت على أصابعي وعلى خاتم زفافي القاسي.

اقترب مني لدرجة أن رأسه أصبح على بعد مسافة قصيرة من رأسي وهمس قائلاً: "أنا أحبك"، ولكنني لم أستطع أن أرد عليه. فأكملنا بقية وجبتنا بصمت. واستطعت أن أشعر بالاستياء يتنامى في داخلي وبغضبي يتفجر بهدوء. فقد بدا مصمماً على أنه من المستحيل أن أحصل على المساعدة ومصراً على ذلك. وفجأة لم أعد أشعر برغبة في إطلاعه على موضوع السجل أو لقاءاتي بالدكتور ناش. وأردت أن أبقي أسراري طي الكتمان لوقت أطول قليلاً على الأقل. فقد شعرت بأنها الأشياء الوحيدة الثابتة التي أستطيع التشبث بها والاعتماد عليها في حياتي.

* * *

عدنا إلى البيت، فدخلت إلى الحمام محاولة أن أكتب قدر ما أستطيع عما حدث لي اليوم، ثم خلعت ملابسي ومسحت مساحيق التجميل عن وجهي وارتديت ردائي المنزلي. ها قد انتهى يوم آخر! وسرعان ما سأنام ويبدأ عقلي بمحو كل شيء، وسأعاني غداً ما أعانيه دائماً مرة أخرى.

أدركت أنه لم يعد لديّ أي طموح بعد الآن، وأنني لم أعد أريد من حياتي سوى أن أشعر بأنني إنسانة طبيعية وأن أعيش ككل إنسان آخر يبني تجربة فوق أخرى وأن يمنح كل يوم من أيامي يومي التالي شكله ولونه. إنني أريد أن أنمو ببطء وأن أتعلم الأشياء وأشكال التجارب. بينما أنا في الحمام، فكرت في شيخوختي. وحاولت أن أتخيل ما ستكون عليه. ترى هل سأظل أستيقظ في السبعين أو الثمانين من عمري وأنا أظن نفسي لا أزال في بداية حياتي؟ هل سأستيقظ وأنا غافلة عن عظامي المسنة ومفاصلي المتيبسة الثقيلة؟ لا أستطيع أن أتخيل كيف سأتكيف عندما أكتشف أن حياتي كلها أصبحت وراء ظهري وأن كل أحداثها انقضت وأصبحت طي النسيان ولم يعد لديّ أي شيء يدل عليها. لن يكون لديّ كنز من الذكريات وثروة من التجارب والحكم المتراكمة لأورثها إلى الجيل القادم. ترى كيف سأشعر عندما أنظر إلى المرآة وأرى صورة جدتي بدلاً من صورتي؟ لست أدري، ولكنني لا أقوى على احتمال التفكير في هذا الآن.

خرجت من الحمام وتوجّهت إلى غرفة النوم حيث وجدت بن في السرير، وقد أخذ ينظر إليّ. لم أقل شيئاً بل اندسست في السرير إلى جانبه. قال لي بن: "أحبك يا كريستين". وشعرت بأنه يريد التودد إليّ وملاطفتي. وعندما اقترب مني، شعرت بأنفاسه حارة ومشبعة برائحة الثوم اللاذعة. لم أكن أريده أن يقترب مني، ولكنني لم أدفعه بعيداً. فقد ألحقت هذه النتيجة بنفسي عندما ارتديت ذلك الفستان السخيف ووضعت مساحيق التجميل والعطر، وعندما طلبت منه أن يعانقني قبل أن نخرج من البيت.

التفت لأواجهه بالرغم من كرهي لذلك، محاولةً أن أتخيل ذلك الوقت من الماضي عندما كنا نحن الاثنان واقفين في المطبخ الذي اشتريناه لتونا ونحن نحتضن بعضنا في طريقنا إلى غرفتنا والغداء غير المطهو يفسد في المطبخ. فقلت في سرّي: *لا بد من أنني قد أحببته آنذاك. وإلا، فلماذا تزوجته؟* وهكذا، فليس هناك سبب يمنعني من ألاّ أحبه الآن. وأقنعت نفسي بأن ما أفعله الآن مهم وأنه تعبير عن حبي وامتناني لكل ما فعله من أجلي وكل تضحياته، ولكنني فجأة بدأت أتأوّه، ليس من السعادة، ولكن من الخوف. فقد شعرت بنوبة ذعر تعتريني عندما أغمضت عيني وبدأت الذكريات تتدفق إلى مخيلتي.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

إنني الآن في غرفة بأحد الفنادق، إنما الغرفة نفسها التي رأيتها صباح اليوم وأنا أجهز نفسي للخروج، إذ إنني أرى فيها الشموع نفسها والشراب الفاخر والزهور التي تملأ المكان ثم أسمع صوت قرع على الباب وأرى نفسي أضع الكأس الذي كنت أشرب منها وأقف لأفتح الباب. يتملكني شعور عارم بالإثارة والانفعال. ويبدو الجو مفعماً بالرومانسية والحب. أمد يدي لأمسك مقبض الباب القاسي البارد وأنا أتنفس بعمق وأفكر في أن كل الأمور ستعود إلى نصابها أخيراً.

ولكن في تلك اللحظة، حصلت فجوة في ذاكرتي. فقد رأيت الباب ينفتح ويتأرجح نحوي، ولكنني لم أستطع أن أرى من يقف خلفه. وبينما أنا في السرير مع زوجي، تفاقم الرعب في داخلي. وصحت قائلة: "بن!"، ولكنه لم يسمعني أو يكترث لندائي، فقلت مرة أخرى: "بن!"، أغمضت عيني وتشبثت به. فشعرت بدوامة أخرى تجذبني وتعود بي إلى الماضي:

إن ذلك الرجل واقف في الغرفة خلفي تماماً، كيف يجرؤ على ذلك؟! ألتفت لأنظر إليه، ولكنني لم أرَ شيئاً، ولكنني شعرت بألم رهيب وضغط شديد على حنجرتي. وأصبحتُ عاجزة عن التنفس. إنه ليس زوجي، هذا الرجل ليس بن، ولكن يديه تحيطان بي وجسمه يندفع باتجاهي. أحاول أن أتنفس، ولكنني أعجز عن ذلك. يبدأ جسدي بالارتعاش والانتفاض، وأشعر بكل شيء من حولي يتحول إلى رماد وهواء. وأشعر بماء يتدفق إلى رئتي ويغرقني. أفتح عيني. فلا أرى شيئاً غير لون قرمزي كلون الدم. وأدرك أنني سأموت هناك في غرفة الفندق. فأفكر في سرّي: يا ربّ السماوات. إنني لم أكن أريد حدوث هذا ولم أتمنَّ وقوعه. لا بد من أن يأتي أحد لمساعدتي. لا بد من أن يأتي. لقد ارتكبت خطأً رهيباً، نعم، ولكنني لا أستحق هذه العقوبة القاسية ولا أستحق أن أنال هذا المصير البشع. إنني لا أريد أن أموت.

أشعر بنفسي أتلاشى وأفقد الوعي. أتمنى أن أرى آدم وأن أرى زوجي، ولكنهما ليسا إلى جانبي. لا يوجد أحد هنا إلى جانب ذلك الرجل الذي يحيط عنقي بيديه ليخنقني ويكتم أنفاسي.

أبدأ بالانهيار شيئاً فشيئاً إلى هاوية مظلمة سحيقة. يجب ألاّ أنام، يجب ألاّ أنام.

انتهت الذكرى فجأة مخلفة وراءها هوة فارغة رهيبة. ففتحت عيني بسرعة، ووجدت نفسي وقد عدت إلى بيتي وسريري إلى جانب زوجي. فصحت قائلة: "بن!"، وتشبثت بزوجي بإحكام قدر استطاعتي. فنظر إليّ وقال: "إنك تبكين يا كريس...".

فأجهشت بالبكاء، وأخذت أنتحب بمرارة، فقال بن: "ما الأمر؟ لماذا تبكين؟".

ما الذي كان يسعني أن أقوله له؟ لم أكن متأكّدة مما رأيته. تُرى، أهذه هي الذكرى التي كنت أطاردها وأنا على يقين من أنها ستكشف النقاب عن بقية الذكريات؟ أمن المعقول أن يكون الحادث الأليم الذي أخبرني عنه لم يقع قط؟ بدأت أرتعش بينما راح ذهني يحاول ترتيب الأحداث التي تذكّرها: غرفة فندق ملأى بباقات الورود، والشراب الفاخر والشموع، والرجل الغريب الذي يحيط عنقي بيديه محاولاً خنقي.

أمن المعقول أن يكون بن قد كذب عليّ - بالإضافة إلى كذبه بشأن روايتي وابني - بشأن سبب إصابتي بفقدان الذاكرة أيضاً؟

لم أكن أعرف الجواب فعلاً، ولكنني لم أستطع أن أفعل شيئاً سوى النحيب وذرف المزيد من الدموع. فدفعته بعيداً عني ثم انتظرت إلى أن استغرق في النوم وتسللت من السرير لأكتب كل ما رأيته.

السبت الساعة 2:07 بعد منتصف الليل

أشعر أن النوم يجافيني. إن بن نائم في الطابق السفلي وأنا أكتب هذا في المطبخ. لا بد من أنه يظن أنني أشرب فنجاناً من الكاكاو أعده لي بنفسه وأنني سأعود إلى الفراش قريباً.

سأعود إليه، ولكن يجب عليّ أولاً أن أنتهي من الكتابة.

يسود الهدوء والظلام أنحاء البيت الآن، ولكن كل شيء كان كبيراً ومفعماً بالحيوية في وقت باكر من اليوم. تسللت عائدة إلى الفراش بعد أن كتبت ما خبرته وأنا في السرير مع بن، ولكنني شعرت بالقلق. سمعت صوت تكتكة الساعة في الطابق السفلي ودقاها وهي تعلن الساعات وشخير بن الناعم. وشعرت بوزن الغطاء يثقل على صدري و لم أرَ سوى وميض الساعة المنبهة بجانبي. أدرت ظهري وأغمضت عينيّ، ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي من تخيل صورتي وتينك اليدين اللتين كانتا تحيطان بعنقي كي تمنع عني الهواء، وأن أسمع صوتي وأصداؤه تتردد الكلمة: *سأموت*.

فكرت في سجلي. ترى هل سأستطيع أن أكتب المزيد فيه وأن أقرأه مرة أخرى؟ هل أستطيع فعلاً أن آخذه من مخبئه من دون أن أوقظ بن؟

أنظر إليه الآن وهو مستلق بجانبي وبالكاد يبدو مرئياً في الظلام. لقد حدثتني نفسي بأنه يكذب عليّ. فقد سبق وكذب عليّ بشأن روايتي وبشأن آدم. والآن بدأت أشعر بيقين كبير أنه يكذب عليّ بخصوص السبب الذي أوصلني إلى هذه الحالة وجعلني حبيسة المرض هكذا.

أردت أن أهزه وأوقظه وأصرخ في وجهه قائلة: *لماذا؟ لماذا تقول إنني تعرضت لحادث إذ صدمتني سيارة مسرعة على طريق جليدية؟* أتساءل عمّا يحاول بن أن يحميني منه ومدى الخطر الذي قد ينطوي عليه البوح بالحقيقة.

تُرى ماذا هناك من أسرار أجهلها أيضاً؟

تحولت أفكاري من السجل إلى الصندوق المعدني الذي يحتفظ فيه بن بصور آدم. ففكرت في أنني ربما أجد فيه أجوبة عن أسئلتي وربما أعثر فيه على ضالتي المنشودة.

قررت أن أنهض من السرير، فرفعت الغطاء بهدوء لئلا أوقظ زوجي. أخذت سجلي وتسللت حافية القدمين إلى الممر. بدا مظهر البيت مختلفاً في نظري الآن وهو يومض بنور القمر الشاحب المزرقّ. وشعرت به متجمداً وساكناً.

أغلقت باب غرفة النوم بإحكام خلفي وسمعت صوت احتكاك خفيف لخشب الباب على السجادة وطقطقة خفيفة عندما انغلق الباب. تصفحت ما كتبته وأنا في الممر بسرعة. وقرأت ما قاله لي بن عن حادث السيارة وعن إنكاره أنني كتبت رواية، كما قرأت عن ابننا.

عليّ أن أرى صورة له؛ ولكن، أين يمكنني أن أبحث؟ لقد قال لي بن إنه يحتفظ بهذه الصور في الطابق العلوي لحمايتها. لقد عرفت ذلك لأنني كتبته في سجلي. ولكن، أين خبأها بالتحديد؟ في غرفة النوم الأخرى؟ أم في المكتب؟ كيف يمكنني البدء بالبحث عن شيء لا أستطيع حتى أن أتذكر أنني رأيته من قبل؟

دخلت إلى المكتب وأغلقت الباب خلفي. ورأيت ضوء القمر يشع من النافذة ويلقي بوميض ناعم مائل إلى الرمادي في أنحاء الغرفة. لم أجرؤ على إضاءة المصباح، إذ لم يكن بإمكاني المجازفة بأن يعثر بن عليّ هنا ويسألني عما أبحث عنه. ولم يكن لديّ ذريعة أتحجج بها ولا سبب للتظاهر بأنني أتيت إلى هنا من أجله. لا بد من أن هناك أسئلة كثيرة سيتوجب عليّ أن أجيب عنها.

لقد ذكرت في السجل أن الصندوق معدني ورمادي اللون. بحثت على طاولة المكتب أولاً، فرأيت جهاز كمبيوتر ذا شاشة مسطحة جداً وأقلام حبر، وأقلام رصاص، وفنجان الأقلام، وأوراقاً مرتبة في كدسات أنيقة، وبمثقلة أوراق من الخزف على هيئة حصان البحر. كما وجدت لوحاً مشبكياً أبيض معلقاً فوق المكتب ومليئاً بملصقات ملونة ودوائر ونجوم. أما تحت المكتب، فقد كانت هناك حقيبة كتب جلدية وسلة مهملات كلتاهما فارغتان وبجانبهما خزانة ملفات.

بحثت فيها أولاً، ففتحتُ أول درج ببطء وهدوء، فوجدته مليئــاً بــأوراق مصنفة معاً تحت عناوين مثل: البيت، العمل، المالية. أزحت الأوراق ورأيت تحتها علبة أقراص دواء لم أتمكن من معرفة اسمه. أما الدرج الثاني فكان مليئاً بالقرطاسية – علب صغيرة، ورزم من الورق، والأقلام وطلاء تصحيح الأخطــاء الكتابيــة – فأغلقته بلطف قبل أن أجلس القرفصاء لأفتح الدرج السفلي.

وجدت شيئاً أشبه ببطانية أو منشفة؛ فقد كان من الصعب علــيّ أن أميــز نوعها في هذا الضوء الخافت. رفعت طرفها وتحسست ما تحتها؛ فلمست معــدناً بارداً. رفعت البطانية، فرأيت تحتها الصندوق المعدني وهو يبدو أكبر حجمــاً ممــا تخيلته. فقد كان كبيراً جداً لدرجة أنه كاد يملأ الدرج كله. مددت يدي تحته بحذر لأحمله. فاكتشفت أنه أثقل وزناً مما توقعت أيضاً حتى كدت أن أوقعه وأنا أخرجه وأضعه على الأرض.

وضعته أمامي، ومرت لحظة لم أعد أعرف فيها ماذا أريد أن أفعل، وإذا كنت أريد أن أفتحه أم لا. تُرى ماذا يحوي من حقائق جديدة مسببة للصدمة؟ قد يحوي كذاكرتي تماماً حقائق أعجز حتى عن استيعابها، وأحلاماً يعجز ذهني عن تخيلــها، ورعباً غير متوقع. تملكني الخوف، ولكنني أدركت أن الحقيقة هي كل ما تبقى لي، فهي الماضي الذي يجعلني إنسانة حقيقية. إنني من دونها لا شيء، ولست أكثر مــن مجرد حيوان بلا ماض ولا تاريخ ولا ذاكرة.

تنفست بعمق وأُغمضت عيني وأنا أفعل ذلك وبدأت برفع الغطاء.

تحرك قليلاً ثم توقف عن الزحزحة، فحاولت ثانية ظناً مني أنه عالق، وكررت المحاولة مراراً ثم أدركت أنه مقفل. لا بد من أن بن أقفله.

حاولت أن أحافظ على هدوئي، ولكنني عجزت عن كبح جمــاح الغضــب الذي بدأ يغلي في أعماقي رغماً عن إرادتي. من أعطاه الحق حتى يقفل الصــندوق الذي يحوي كل ذكرياتي، وأن يمنعني من الاطلاع على شيء من حقّي الاطــلاع عليه؟

كنت متأكدةً من أن المفتاح في مكان ما هنا في المكتب، فبحثــت عنــه في الدرج وبين أقلام الحبر وأقلام الرصاص التي في الكوب الذي على طاولة المكتب، لكن، لم أعثر على أي شيء.

نقبت في الأدراج الأخرى قدر المستطاع في العتمة وأنا يائسة، لكن، لم أستطع العثور على أي مفتاح. وأدركت أنه قد يكون مخفياً في أي مكان أعجز عن الوصول إليه، فسقطت منهارة على ركبتيّ.

عندئذ سمعت صوتاً وصريراً هادئاً جداً لدرجة أنني ظننته صادراً عن جسمي أنا، ولكنني سمعت بعدها صوتاً آخر كصوت تنفس أو تنهيدة.

سمعت صوت بن يقول: "كريستين؟"، ثم سمعته ينادي بصوت أعلى: "كريستين؟".

ما الذي يجدر بي فعله؟ لقد كنت جالسة هناك في مكتب بن والصندوق المعدني الذي يعتقد أنني لا أتذكره موضوعٌ على الأرض أمامي. بدأت أصاب بالذعر. انفتح أحد الأبواب، ورأيت ضوء الممر يتسرب من شق باب المكتب؛ لقد كان قادماً.

تحركت بسرعة، ووضعت الصندوق في مكانه مضحية بالصمت من أجل السرعة وأغلقت الدرج بصخب.

قال مجدداً: "كريستين؟"، سمعت صوت وقع قدميه على الأرض، فقال: "يا حبيبتي كريستين؟ هذا أنا بن". وضعت أقلام الحبر وأقلام الرصاص في مكانها داخل الكوب على طاولة المكتب وعاودت الجلوس على الأرض... بدأ الباب ينفتح.

لم أعرف ما يجدر بي فعله، ولكنني تصرفت بشكل تلقائي وفطري، وشعرت بتصرفي نابعاً من شعور أسوأ من الخوف.

قلت له عندما ظهر من الباب المفتوح: "ساعدني!"، ظهر ظلّه المظلم على ضوء الممر. بدأت فعلاً أشعر بالرعب الذي كنت أتظاهر به، فقلت: "أرجوك، ساعدني!".

أضاء بن المصباح وتقدّم نحوي قائلاً: "ما الأمر يا كريستين؟"، وجلس القرفصاء ليقترب مني.

ابتعدت عنه حتّى لامس ظهري الجدار تحت النافذة، وقلت: "من أنت؟"، ووجدت نفسي أشرع بالبكاء والارتجاف بشكل هستيري. حاولت التشبث بالجدار خلفي وتعلقت بالستائر وكأنني أحاول أن أتمسك بها لأقف على قدمي.

لازم بن مكانه في الجانب الآخر من الغرفة، ومد إحدى يديه نحوي وكأنني حيوان برّي شرس.

قال لي: "هذا أنا، زوجك".

فقلت عندئذ: "زوجي؟ ما الذي يجري لي؟".

قال بن: "إنك تعانين فقدان الذاكرة، ونحن متزوجان منذ سنوات". وبعد ذلك، أعد لي فنجان الكاكاو، الذي لا يزال موضوعاً أمامي وهو يخبرني من الألف إلى الياء كل المعلومات التي أعرفها أساساً.

يوم الأحد 18 تشرين الثاني

هذا ما حدث في ساعات الصباح الأولى من يوم السبت. أما اليوم فهو يوم الأحد في منتصف اليوم أو نحو ذلك. مضى يوم كامل من دون أن أسجل من أحداثه شيئاً. فضاعت مني وتلاشت. ومضت أربع وعشرون ساعة صدقت فيها كل ما قاله لي بن. وهكذا، فقد صدقت أنني لم أكتب رواية قط وأنني لم أنجب ابناً كما صدقت أن حادث سيارة هو ما سلبني ذاكرتي وماضيّ.

ربما لم يتصل الدكتور ناش بـي، فلم أعثر على هذا السجل، أو أنـه ربمـا اتصل بـي ولكنني آثرت ألا أقرأه. أشعر برعشة باردة تسري في جسدي: تُرى ما الذي قد يحدث إن آثر في يوم ما ألا يتصل بـي مجدداً؟ في هذه الحال، لن أعثر على سجلي أبداً، ولن أقرأه، ولن أعرف حتى بوجوده، ولن أعـرف شـيئاً عـن الماضي.

ولكن، هذا من غير المعقول، إنني أدرك هذا الآن؛ فزوجي يخبرني رواية عن السبب الذي أوصلني إلى هذه الحالة من فقدان الذاكرة. أما طبيبـي فيخبرني رواية مختلفة تماماً. وليس لديّ شيء يطلعني على الحقيقة سوى ما كتبته بنفسي في هـذا السجل.

كتبته بنفسي، هذا ما يجب أن أتذكره، فقد خطته يداي وقلمي أنا.

أفكر الآن عائدة بذاكرتي إلى صباح اليوم، وأتذكر أن الشمس تسرّبت عبر الستائر وأيقظتني فجأة، ففتحت عيني بسرعة على مشهد غير مـألوف وشـعرت بالارتباك. ومع ذلك، وبالرغم من أن أحداثاً معينة لم تعد إلى ذاكرتي، فقد انتـابني شعور بأنني أنظر إلى تاريخ ثري حافل وليس إلى مجرد سـنوات قليلـة قصـيرة. وعرفت، ولو أن ذلك حدث بشكل مبهم، أن تاريخي يحوي طفلاً أنجبته وأحببته. وخلال تلك الوهلة القصيرة، وقبل أن أستعيد وعيي تماماً، أدركت أنني كنت أماً،

وأنني ربيت طفلاً، وأن جسمي لم يعد الجسم الوحيد الذي يقع على عاتقي واجب رعايته وحمايته.

انقلبت على جنبي الآخر وأنا مدركة لوجود شخص آخر معي في السرير. فقد أحسست بيد تحيط بخصري، ولم أعد أشعر بالذعر بل بالأمان والسعادة. استيقظت وأنا أشعر بأن حياتي أصبحت أكثر كمالاً. وبدأت الصور والأحاسيس تندمج معاً مشكلةً حقائق وذكريات. ففي بادئ الأمر، رأيت طفلي الصغير وسمعت نفسي أناديه: آدم. وشاهدته يجري نحوي، وتذكرت زوجي واسمه، وشعرت بأنني غارقة في الحب، فابتسمت بنعومة وهدوء.

ولكنّ هذا الشعور بالسلام لم يدم وقتاً طويلاً؛ فقد نظرت إلى الرجل النائم بجانبي ولم يكن وجهُه هو الوجهَ الذي توقعت أن أراه. وبعد لحظة، أدركت أنني لم أعد أميز الغرفة التي أنام فيها وأصبحت عاجزة عن تذكر كيفية وصولي إليها. وأخيراً، أدركت أنني لم أعد أتذكر أي شيء بوضوح. وهكذا، فلم تكن تلك اللمحات غير المترابطة ممثلة لذكرياتي نفسها، بل خلاصتها الإجمالية.

شرح لي بن كل شيء بالطبع - أو أجزاءً منها على الأقل - ثم وضّح لي السجل الباقي حالما اتصل بي الدكتور ناش وطلب مني أن أبحث عنه في مخبأه. لم يكن لديّ متسع من الوقت لأقرأه كله. فتظاهرت بالإصابة بالصداع لأصعد إلى غرفتي، وأخذت أصغي إلى أقل حركة تصدر من الطابق السفلي خشية أن يصعد بن في أيّ لحظة وفي حوزته حبة مسكن وكأس من الماء. لذا، وجدت نفسي أتخطى العديد من الفقرات، ولكنني قرأت ما يكفي. فقد علمت من خلال ما قرأته من أنا، وكيف وصلت إلى هنا، وما لديّ وما فقدته. وعلمت أيضاً أنني لم أخسر كل شيء وأن ذكرياتي بدأت تعود إليّ بالرغم من بطء حدوث هذا. قال لي الدكتور ناش في اليوم الذي رأيته يقرأ سجلي فيه: *إنك تتذكرين الكثير من الأشياء يا كريستين. وليس هناك سبب يمنعنا من الاستمرار.* كما ذكرت في السجل أيضاً أن الحادث كذبة، وأنني في مكان ما في أعماقي لا أزال أستطيع تذكّر ما حدث في الليلة التي فقدت فيها ذاكرتي. وعرفت أن هذا لا يتضمن سيارة ولا طريقاً جليديًّا، بل شراباً وزهوراً وقرعاً على باب غرفة أحد الفنادق. وأدركت أنني كنت أقيم علاقة غرامية غير شرعية وأن الشخص الذي اعتزمت اللقاء به في غرفة الفندق - أيًّا يكن - ليس بن.

وفي هذه اللحظة، خطر لي اسمٌ من المجهول؛ إنه اسم الشخص الذي توقعت أن أراه عندما فتحت عينيّ صباح اليوم لأجد بن بدلاً منه.

إنه إد. نعم، فقد استيقظت صباح اليوم متوقعة أن أجد نفسي نائمة بجوار شخص يدعى إد.

لم أكن أعرف من يكون هذا الشخص المدعو إد، فخطر ببالي أنه ربما شخص ليس له وجود أو مجرد اسم اخترعته ولفقته من خيالي. وربما يكون صديقاً أو حبيباً قديماً تعرفت إليه في ما مضى ولم يُمحَ اسمه من ذاكرتي تماماً، ولكنني الآن بعد أن قرأت هذا السجل، عرفت أنني تعرضت لاعتداء في غرفة أحد الفنادق، وهكذا تأكدت أن اسم الرجل الذي هاجمني هو إد.

إنه الرجل الذي كان ينتظر في الجانب الآخر من الباب تلك الليلة ليدخل إليّ؛ الرجل الذي هاجمني وسلبني حياتي.

* * *

مساء اليوم، أجريت اختباراً على زوجي. لم أخطط لفعل ذلك، ولكنني أمضيت اليوم بطوله وأنا أعاني القلق. تُرى لماذا كذب عليّ؟ لماذا؟ ترى هل يتعمد الكذب عليّ كل يوم؟ هل هناك رواية واحدة عن الماضي يطلعني عليها كل يوم أم إن هناك روايات متعددة؟ حاولت أن أقنع نفسي بأنه يجب عليّ أن أثق به، إذ إنه ليس لي أحد سواه يقف إلى جانبي.

جلسنا لنتناول طعام العشاء الذي كان عبارة عن قطعة لحم حمل رخيصة ومدهنة ومطهوة زيادة عن اللزوم. فأخذت أدفع اللقمة نفسها في أنحاء الطبق وأغمسها بالصلصة وأقربها من فمي ثم أعاود وضعها في الطبق. بادرت بالحديث قائلة: "كيف أصبحت هكذا؟"، كنت قد حاولت من قبل أن أستعيد تلك الذكرى المتعلقة بغرفة الفندق، ولكنها ظلت مراوغة وبعيدة عن متناول يدي، فشعرت بالسرور نوعاً ما.

أبعد بن نظره عن طبقه وعيناه مفتوحتان على وسعهما من الدهشة وقال: "يا عزيزتي كريستين، إنني لا...".

فقاطعته قائلةً: "من فضلك أخبرني. يجب أن أعرف".

وضع سكينه وشوكته على الطاولة وقال: "حسناً".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فقلت: "أريد أن أعرف كل شيء".

نظر إليّ بعينين متفحّصتين وقال: "هل أنتِ واثقة من هذا؟".

فقلت: "نعم". ترددت قليلاً، ولكنني قررت أن أقول له ما يجول في خاطري. فتابعت قائلة: "قد يظن البعض أنه من الأفضل ألا تخبرني بكل التفاصيل، ولا سيما إن كانت مزعجة، ولكنني لا أظن هذا. فأنا أعتقد أنه من الأفضل أن تطلعني على كل ما جرى حتى أقرر بنفسي ما ستكون عليه مشاعري. هل تدرك ما أعنيه؟".

قال بن: "ماذا تعنين يا كريستين؟".

أشحت بوجهي عنه واستقر نظري على الصورة الموضوعة في خزانة الأطباق والتي نظهر فيها معاً، ثم قلت: "لست أدري، ولكنني على يقين من أنني لم أكن هكذا دائماً. والآن أصبحت على هذه الحال. وهكذا، فلا بد من أن مكروهاً ما وقع لي. إنني أقول وحسب إنني مدركة لهذه الحقيقة. كما أنني على يقين من أن ما وقع لي لا بد من أنه مريع جداً، ولكنني مع ذلك أريد أن أعرف ما هو. إنني أريد أن أعرف ما حدث لي، وما طبيعة الحادث الذي أوصلني إلى هذه الحالة".

فأضفت قائلة: "لا تكذب عليّ يا بن، من فضلك".

مدّ يده عبر الطاولة ليمسك بيدي وقال: "إنني لا أكذب عليك أبداً يا عزيزتي".

وعندئذٍ، بدأ يقصّ عليّ القصة نفسها قائلاً: "وقع الحادث في شهر كانون الأول. وكانت الطرقات جليدية..."، فأصغيت إليه بينما أخذ شعوري بالرعب يتصاعد وهو يروي لي قصة حادث السيارة. وعندما أنهى كلامه، تناول سكينه وشوكته وواصل تناول طعامه.

فقلت: "هل أنت متأكّد من هذا؟ أأنت متأكد من أن ما أوصلني إلى هذه الحالة كان بسبب حادث سيارة؟".

تنهد وقال: "لماذا؟".

حاولت أن أحسب في ذهني القدر الذي أريد أن أبوح به مما أعرفه، إذ إنني لم أكن أريد أن أفصح له عما أكتبه مجدّداً، ولكنني أردت أن أتوخّى الصدق قدر المستطاع، لذا قلت: "في وقت مبكر من هذا اليوم، راودني شعور غريب أشبه بالذكرى. وشعرت بأن لهذا الأمر علاقة بالسبب الذي أوصلني إلى هذه الحال".

وضع بن سكينة وشوكته مجدّداً وقال: "ما هو هذا الشعور؟".

"لست أدري".

"أهي ذكرى؟".

"نوعاً ما".

"حسناً، هل تتذكرين تفاصيل معينة عن الحادث الذي وقع لك؟".

فكرت في غرفة الفندق والشموع والأزهار، وفي شعوري بأنها ليست من بن ومعرفتي أنني أنتظر شخصاً آخر في تلك الغرفة. وفكرت أيضاً في شعوري بــأنني عاجزة عن التنفس وأكاد أختنق. فقلت: "تفاصيل من أي نوع؟".

"أي تفاصيل؛ مثل نوع السيارة التي صدمتك؟ أو حتى لونهـــا؟ أو الشــخص الذي كان يقودها؟".

أردت أن أصرخ في وجهه وأقول: *لماذا تطلب مني أن أصدق أنني تعرضـــت لحادث سيارة؟ أتقول هذا لأنك تعتبر أن هذه القصة يسهُل عليّ تصديقها أكثر من أي شيء آخر ربما يكون قد وقع لي؟* وتساءلت إن كانت هذه القصـــة خفيفـــة الوطأة بالنسبة إليّ أو أسهل بالنسبة إليه لأن يرويها في كل مرة.

تساءلت عما قد يفعله إن قلت له: *في الواقع، كـــلا، لا أتـــذكر أنّ ســـيارةً صدمتني، بل أتذكر أنني كنت في غرفة أحد الفنادق على موعد مع رجل آخر.*

قلت: "كلا، ليس حقيقةً. فقد كان مجرد انطباع عام".

فقال: "انطباع عام؟ ماذا تقصدين بالانطباع العام؟".

شعرت بنبرة صوته تزداد ارتفاعاً وكأنه غاضب. ولم أعد واثقة من أنني أريد أن أتابع هذا النقاش.

فقلت له: "لا شيء، إنه مجرد شعور غريب بأن مكروهاً وقع لي؛ مجرّد شعور بالألم، ولكنني لا أتذكر أيّ تفاصيل".

عندئذٍ، بدا عليه الشعور بالارتياح، فقال: "إنه على الأرجح شيء تافه ومجرد خدع يلعبها دماغك ليشتت بها انتباهك، لذا، حاولي أن تتجاهليها".

فتساءلت في سرّي: *كيف يمكنني أن أتجاهلها؟ وكيف يطلب مني أن أفعـــل هذا؟ ترى هل كان يخشى أن أتذكر الحقيقة؟*

ظننت أن هذا ممكن ومحتمل؛ فقد سبق وأخبرني بأنني تعرضت لحادث سيارة، ولا يمكن أن يستمتع بفكرة افتضاح كذبه حتى لو دام ذلك لبقية اليوم فقط، وهي

المدة التي سأحتفظ بها بالذكرى ولا سيما إن كان يكذب من أجل مصلحتي. إنني أدرك الآن أن تصديقي لرواية حادث السيارة أسهل بالنسبة إلى كل منا. ولكن، كيف سأتمكن فعلاً من التوصل إلى حقيقة ما جرى؟ ومن هو ذلك الرجل الذي رأيت نفسي بانتظاره في تلك الغرفة؟

قلت له: "حسناً". وما الذي يسعني أن أقوله غير ذلك. وأضفت قائلة: "إنك محق على الأرجح". وعدنا لتناول عشائنا المكون من لحم الحمل بعد أن أصبح بارداً. فخطرت ببالي فكرة أخرى مريعة ومتوحشة: ماذا إن كان محقاً؟ ماذا إن تعرضت لحادث سيارة فعلاً؟ ماذا إن كان عقلي قد لفق قصة غرفة الفندق والهجوم الذي تعرضت له؟ قد يكون كل ذلك اختراعاً ومحض خيال وليس ذكرى حقيقية. أمن المعقول أن يكون عقلي قد عجز عن استيعاب مجرد فكرة حادث السيارة على الطريق الجليدي، فابتدع كل هذه الأشياء؟

إن كان هذا صحيحاً، فذاكرتي لا تعمل، والذكريات لا تعود إليّ، وحالتي لا تتحسّن على الإطلاق.

عثرت على حقيبتي وقلبتها رأساً على عقب فوق السرير. فسقطت منها محفظة، ومفكرة جيب، وأحمر شفاه، وعلبة مسحوق تجميل، ومناديل ورقية، وهاتف خلوي، وهاتف ثانٍ، وعلبة سكاكر بطعم النعناع، وبعض عُمَل معدنية، وقطعة ورقية صفراء مربعة الشكل.

جلست على السرير وأخذت أبحث في هذه الأشياء المتناثرة. فأخذت المفكرة أولاً وظننت أنني محظوظة لأنني وجدت اسم الدكتور ناش مكتوباً بحبر أسود على غلافها الخلفي، ولكنني عندئذٍ رأيت الرقم المكتوب تحته وبجانبه كلمة (العيادة) بين قوسين. وكان ذلك يوم الأحد، ولهذا، فلم يكن الطبيب متواجداً هناك.

كانت الورقة الصفراء مصمغة على أحد أطرافها وهناك غبار وشعر عالق بها، ولكنها خلافاً لذلك، كانت فارغة. بدأت أتساءل عما قد يجعل الدكتور ناش يفكر حتى ولو للحظة، أن يعطيني رقم هاتفه الشخصي عندما تذكرت أنني قرأت ما كتبه على الغلاف الأمامي لسجلي: *اتصلي بي عندما تشعرين بالارتباك*.

عثرت على الرقم، وأخذت كلا الهاتفين، فوجدتهما متطابقين تماماً. تفقدت الهاتف الأول واكتشفت أن كل المكالمات الصادرة والواردة هي من بن إليّ أو مني إليه. أما الهاتف الآخر، فبالكاد كان مستخدماً. فتساءلت عن السبب الذي قد يدفع الدكتور ناش لإعطائي هذا الهاتف إن لم يكن لهذا السبب؟ ألست الآن أشعر بالارتباك؟ طلبت الرقم وضغطتُ على زر الاتصال.

ساد الصمت للحظات ثم سمعت رنيناً خافتاً قاطعه صوت أحدهم.

قال صاحب الصوت: "مرحباً؟". كان النعاس واضحاً على صوته بالرغم من أن الوقت لم يكن متأخراً. سأل قائلاً: "من المتصل؟".

قلت هامسة: "الدكتور ناش؟"، إذ إنني سمعت صوت بن في الطابق السفلي حيث تركته يشاهد برنامج مواهب أو ما شابه على التلفزيون. وسمعت صوت غناء وضحك يتخللهما صوت تصفيق الجمهور. قلت للطبيب: "أنا كريستين".

ساد صمت قصير، ربما حاول الطبيب خلاله أن يعيد ضبط ذاكرته.

"آه! نعم، كيف...".

أصابني شعور مفاجئ بخيبة الأمل. إذ إنه لم يبدُ مسروراً لسماع صوتي.

قلت: "إنني آسفة لإزعاجك. لقد حصلت على رقمك من الغلاف الأمامي لسجلي".

قال الطبيب: "طبعاً، طبعاً. كيف حالك؟"، فلم أقل شيئاً، بينما تابع قائلاً: "هل كل شيء على ما يرام؟".

قلت: "إنني آسفة". وشعرت بالكلمات تتدفق من فمي واحدة تلو أخرى، فقلت: "يجب أن أقابلك الآن أو غداً. نعم، غداً. فقد راودتني ذكرى الليلة الماضية. وكتبت عنها. رأيت غرفة في فندق، وتذكرت أحداً يقرع الباب. وشعرت بأنني عاجزة عن التنفس. إنني... دكتور ناش، هل تسمعني؟".

فقال: "تمهلي قليلاً يا كريستين. ما الذي حدث؟".

أخذت نفساً عميقاً وقلت: "لقد راودتني ذكرى. إنني واثقة من أن لها علاقة بسبب إصابتي بفقدان الذاكرة. ولكن، هذا ليس منطقياً لأن بن يقول إنني تعرضت لحادث سيارة".

سمعت صوت حركة وكأنه كان يعدل جلسته ثم سمعت صوت امرأة. قال الطبيب بهدوء: "لا شيء". ثم تمتم شيئاً لم أستطع سماعه.

قلت له: "دكتور ناش؟ دكتور ناش؟ هل تعرضت حقاً لحادث سيارة؟".

فقال الطبيب: "لا أستطيع أن أتحدث إليك الآن". فشعرت بإحساس يتحرك في داخلي: *أهو الغضب أم الذعر؟*

قلت: "من فضلك". وخرجت الكلمة من فمي أقرب إلى الهمس.

في البداية، ساد الصمت، ثم سمعت صوته مجدداً. فلاحظت أن صوته أصبح أعلى ومتسماً بالسلطة، فقال: "بالطبع، بالطبع، إنني أدرك ما تعنينه. تابعي. سأتصل بك غداً على هذا الرقم".

تملكني شعور بالراحة ممتزج بشعور آخر غير متوقع ولا يمكن تحديده. أهو السعادة أم السرور؟

كلا، إنه أكثر من ذلك؛ فقد شكل القلق جزءاً منه بينما شكلت الثقة جزءاً آخر ممتزجاً بموجة صغيرة من السعادة. ظَلَلتُ أشعر بهذا الشعور بينما كنتُ أكتب هذا الكلام بعد ساعة أو نحو ذلك، ولكنني الآن أدرك ما هو فعلاً؛ إنه شيء لا أعرف إن كنت قد شعرت به من قبل: **الترقّب**.

ولكن ما الذي أترقبه؟ أن يخبرني بما أريد أن أعرفه، وأن يؤكد لي بأن ذكرياتي تعود إليّ، وأن علاجي ينجح؟ أم إنني أريد المزيد؟

فكرت في كيفية شعوري عندما لمس يدي في موقف السيارات، وفي ما فكرت فيه لدرجة أنني تجاهلت مكالمة من زوجي. إن الحقيقة ربما أبسط من هذا.

عندما قال الطبيب لي إنه سيتصل بي قلت له: "نعم، من فضلك". ولكن بحلول ذلك الوقت، اكتشفت أن الاتصال قد انقطع. ففكرت في صوت المرأة الذي سمعته قبل قليل، وأدركت أنها ربما تكون خطيبته.

صرفت الفكرة عن ذهني، إذ إن محاولة ملاحقتها قد تفقدني صوابي.

يوم الاثنين 19 تشرين الثاني

كان المقهى مزدحماً، ولاحظت أنه فرع من سلسلة مقاهٍ. فقد كان كل شيء فيه أو أخضر أو بني اللون وقابلاً للطرح حسب الملصقات التي تملأ الجدران. شعرت بجو مريح وودود يسود المكان. ارتشفت قهوتي من الفنجان الكرتوني شديد الضخامة بينما عدّل الدكتور ناش جلسته على الكنبة المقابلة للكنبة التي جلست عليها. وشعرت بأنني أغوص داخلها.

كانت تلك المرة الأولى التي تسنح لي فيها الفرصة بالنظر إليه عن كثب أو إنما المرة الأولى لهذا اليوم على الأقل، وهذا يعني الشيء نفسه بالطبع. اتصل بي في وقت مبكر من اليوم بعد أن غسلت أطباق وجبة الفطور بوقت قصير وأتى ليقلّني بعد ساعة أو نحو ذلك. وفي ذلك الوقت، كنت قد قرأت معظم ما كتبته في سجلي. جلست طوال الطريق بينما كنا متوجّهَين إلى المقهى وأنا أحدق بثبات عبر النافذة. صباح هذا اليوم، استيقظت من دون حتى أن أشعر بأنني متأكدة من أنني أعرف اسمي، ولكنني أدركت نوعاً ما أنني زوجة وأم بالرغم من أنه لم تكن لديّ أي فكرة - ولو طفيفة - بأنني في منتصف العمر، وأن ابني قد مات. كان يومي حتى تلك اللحظة مشتتاً بشكل رهيب ومؤلماً من صدمة تلو أخرى بدءاً من مرآة الحمام ودفتر القصاصات وصولاً إلى ما قرأته في السجل. وبلغ ذلك أوجه عندما تشكل لديّ الاعتقاد أنني لا أثق بزوجي. فلم أعد أشعر بالرغبة في تفحص أي شيء آخر عن كثب.

والآن، بالرغم من ذلك، أستطيع أن ألاحظ أنه لا يبدو كما توقعته. فقد بدا أصغر سناً. وبالرغم من أنني كتبت أنه ليس بحاجة إلى القلق حيال مراقبة وزنه، إلا أنني لاحظت أن ذلك لا يعني أنه نحيل بقدر ما توقعت. فقد كان يتحلى بصلابة تظهرها سترته الفضفاضة المتهدلة من كتفيه، والتي تبدو من خلالها ذراعاه المشعرتان بارزتين.

قال الدكتور ناش حالما استقر على مقعده: "كيف تشعرين اليوم؟".

فهززت كتفي وقلت: "لست متأكدةً مما أشعر به. إنني مرتبكة على ما أظن".

أومأ برأسه وقال: "نابعي".

دفعت قطعة الحلوى التي قدمها لي الدكتور ناش بعيداً بما أنني لم أطلبها. وقلت: "حسناً، لقد استيقظت صباحاً وأنا أشعر نوعاً ما بأنني امرأة راشدة. لم أدرك أنني متزوجة، ولكنني لم أندهش تماماً من وجود رجل نائم إلى جانبي".

بدأ يقول: "إن هذا جيد. ومع ذلك...".

فقاطعته قائلة: "ولكنني كتبت أنني استيقظت البارحة وأنا أعرف أن لي زوجاً...".

قال الطبيب: "إذاً، أما زلت تكتبين في سجلّ مذكّراتك؟ هل أحضرته معك اليوم؟".

لم أكن قد أحضرته، فقد كان يحوي أشياء لا أريده أن يقرأها أو أن يقرأها أحد غيره لأنها أشياء شخصية تنطوي على تاريخي؛ وهو التاريخ الوحيد الذي أملكه وأتكل عليه.

كما أنه كان يحوي أشياء كتبتها عنه.

فكذبت قائلة: "لقد نسيت إحضاره". لم أستطع أن ألاحظ إن كان محبطاً أم لا.

قال: "حسناً، هذا ليس مهماً. إنني أدرك كم من المحبط بالنسبة إليك أن تتذكري شيئاً في أحد الأيام ثم تكتشفي أنه اختفى في اليوم التالي، ولكن، هذا يعتبر تقدماً في كل الأحوال. إنك بشكل عام تتذكرين أشياء أكثر مما سبق". وسكت ليتناول رشفة من قهوته. وتساءلت إن كان ما يقوله صحيحاً. ففي الصفحات الأولى من هذا السجل، كتبت أنني تذكرت أموراً عن طفولتي ووالدي، وعن حفلة أمضيتها مع صديقتي المفضلة، وتذكّرت زوجي عندما كنا شابين وواقعين في الحب، وتذكّرت نفسي وأنا أؤلف رواية، ولكن، ماذا عمّا تذكرته منذ ذلك الحين؟ مؤخراً لم أرَ شيئاً سوى الابن الذي خسرته والهجوم الذي تركني على هذه الحالة، وهما شيئان ربما يكون من الأفضل لي أن أنساهما.

"لقد قلتِ لي إنك قلقة بشأن بن؟ ماذا قال لك بشأن سبب إصابتك بفقدان الذاكرة؟".

أومأت برأسي. فاليوم، لقد بدا ما كتبته البارحة بالنسبة إليّ غريباً وشبه خيالي وبعيداً عن تفكيري. وسواء أكان السبب حادث سيارة أم هجوماً عنيفاً في غرفة بأحد الفنادق، فلم أعد أشعر بأن أياً من هذين السببين مرتبط بـي. ومع ذلـك، فلم يكن أمامي خيار إلا أن أصدق أن ما كتبته هو الحقيقة، وأن بن قد كذب عليّ فعلاً بشأن السبب الذي تركني على هذا الوضع.

قال الطبيب: "تابعي...".

فأخبرته بما كتبته بدءاً من قصة بن حول الحادث وانتهاء بما تذكرته مما حدث في غرفة الفندق بالرغم من أنني لم أذكر له المكان الذي كنت فيه عندما راودتـني تلك الذكرى، ولا الليلة الرومانسية وما تنطوي عليه الذكرى من ورود وشمـوع وشراب.

تأملته وأنا أتكلم، فرأيته يومئ برأسه باهتمام ويهمس بين الحـين والآخـر بتشجيع، حتى إنه كان يحك ذقنه ويركز عينيه في بعض المرات وكأن تعبير وجهـه يدل على التفكير العميق وليس على المفاجأة. وفي الواقع، لم يبدُ متفاجئـاً علـى الإطلاق.

فقلت له عندما أنهيت إخباره: "إنك تعرف هذه التفاصيل، أليس كذلك؟ هل كنت تعرف كل هذا من قبل؟".

وضع الدكتور ناش فنجان القهوة من يده وقال: "كلا، بالتأكيد لا. إنني على علم أن سبب مشكلتك ليس حادث سيارة، ولكنني لا أعرف أن بن كان يقنعك بأن هذه هي الحقيقة. إنني على علم أيضاً أنك بلا شك كنت مقيمة في فندق في ليلة... في الليلة التي فقدت فيها ذاكرتك، ولكن التفاصيل الأخـرى التي ذكرتها جديدة بالنسبة إليّ. إن هذه، علـى حـدّ علمـي، المـرة الأولى التي تتذكرين فيها شيئاً من أحداث تلك الليلة بنفسك. هذا خـبر رائـع يـا كريستين".

خبر رائع؟ تساءلت إن كان يظن أنه يجب عليّ أن أشعر بالسرور. فقلـت: "أهذا صحيح؟ أليس السبب حادث سيارة فعلاً؟".

توقف ثم قال: "كلا، إننا لا نظن هذا. كلا، هذا ليس صحيحاً".

"لا تظنون هذا؟".

"إن بعض إصاباتك متناغمة مع فكرة حادث سيارة، ولكن ليس كلها على الإطلاق".

قلت: "إذاً، ما هو السبب؟ ما الذي جرى في غرفة الفندق تلك؟ ما الذي كنت أفعله هناك؟".

فقال: "لا أعرف كل التفاصيل".

قلت: "إذاً، أخبرني بما تعرفه". خرجت تلك الكلمات من فمي بغضب، ولكنني اكتشفت أن الأوان قد فات لأتراجع عنها. فراقبته وهو يتظاهر بنفض الغبار عن سرواله.

قال: "هل أنت متأكدة من أنك تريدين معرفة هذا؟". لقد منحني هذا الكلام فرصة أخيرة وكأن لسان حاله يقول: *ما زال في وسعك الهروب ومواصلة حياتك من دون أن تعرفي الحقيقة المرعبة التي أوشك على التفوه بها.*

ولكنه كان مخطئاً؛ فأنا لم أعد أستطيع المضي قدماً بحياتي. فمن دون معرفة الحقيقة، سأشعر بأنني أعيش حياة ناقصة لا نبض فيها.

قلت: "نعم".

بدأ يتكلم ببطء ويتلعثم ويتفوه بجمل ناقصة ومبتورة. فبدت قصته أشبه بدوامة تدور حول حقيقة مريعة خير له ألا يفصح عنها لأنها تحول الأحاديث التافهة التي أتخيلها تدور عادة بين جدران هذا المقهى إلى مجرد سخرية.

قال لي إن ما تذكرته صحيح؛ فقد تعرضت لهجوم ثم تمّ العثور عليّ وأنا أتجول في الشوارع مرتبكة لا أحمل أي شيء يدل على شخصيتي أو ولا حتّى أتذكّر ما جرى لي. وقال إنني كنت أعاني إصابات في الرأس. فظن رجال الشرطة في ذلك الوقت أنني تعرضت لهجوم. تردد قليلاً ثم أخبرني أنهم عثروا عليّ أرتدي ملابس ممزقة وألف نفسي بملاءة سرير ملطخة بالدم.

سرت موجة برد في أعضائي وقلت: "من عثر عليّ؟".

"لست متأكداً...".

"أهو بن؟".

"كلا، ليس بن مَن عثر عليك بل إحدى العائلات، على ما أعتقد. لقد هدأوا من روعك واتصلوا بسيارة إسعاف. فتم إدخالك إلى المستشفى حيث أُجريت لك عملية جراحية طارئة".

"ولكن كيف حددوا هويتي؟".

ومرت بـي لحظة مريعة ظننت فيها أنهم ربما لم يكتشفوا هويتي قط وأن كل شيء بما في ذلك تاريخ حياتي الكامل وحتى اسمي قد مُنح لي في اليوم الذي عُثِر فيه عليّ، وحتى آدم.

تحدث الدكتور ناش قائلاً: "لم يكن ذلك صعباً. فقد سجلت اسمك عنـدما دخلت الفندق. وكان بن قد سبق واتصل بالشرطة ليبلغ عن اختفائك حتى قبل أن يتم العثور عليك".

فكرت في الرجل الذي رأيته يدق باب الغرفة في ذلك اليوم، وهـو الرجـل الذي كنت على موعد معه.

"ألم يكن بن يعرف أين أنا؟".

قال: "كلا، لم تكن لديه فكرة على ما يبدو".

"ألم تكن لديه فكرة عن الشخص الذي كنت معه، الشخص الذي فعل هذا بـي؟".

"لقد قال إنه لا يعرف. إذ لم يتعرض أحد للاعتقال. إن الأدلة التي تـدين أي شخص شحيحة جداً. وبالطبع، لم تسعفك حالتك الصحية لمساعدة الشرطة على كشف المجرم".

تنهدت وأدركت أن الشرطة قد أقفلت القضية بلا شـك قبـل سـنوات عديدة. وأصبحت هذه القصة بالنسبة إلى الجميع، باستثنائي، وحتى بالنسـبة إلى بن، قضية ميتة وتاريخاً موغلاً في القدم. وهكذا، فلن أعرف أبداً من اقترف بحقي هذه الفعلة الشنيعة وما الدافع الذي جعله يفعل ذلك. لن يحـدث هـذا مـا لم أتذكره بالطبع.

قلت: "ماذا حدث بعدها، أي بعد أن تم إدخالي إلى المستشفى؟".

فقال: "دخلت في غيبوبة، وأُجريَت لك عملية جراحية. وكانـت عمليـة سريعة وطارئة، ولكن الحظ حالفك. فنجوت من الموت، ولكن اتضح للجميـع

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عندئذ أنك فقدت ذاكرتك. في بادئ الأمر، ظن الأطباء أن هذا قد يكون عارضاً مؤقتاً نجم عن إصابة رأسك وعوز أكسجة الأنسجة، وهـذا افتـراض منطقـي تماماً..."

قلت: "أرجو المعذرة، ولكن ماذا تقصد بعوز أكسجة الأنسـجة؟"، فقـد استغربت لسماع هذه العبارة.

قال: "نعم، أقصد الإصابة بنقص الأوكسجين".

شعرت أن رأسي بدأ يدور وأن كل شيء من حولي راح يتقلص ويـنكمش ويصبح مشوهاً. وسمعت نفسي أقول: "نقص أوكسجين؟".

فقال الطبيب: "نعم، فقد عانيت أعراض نقص الأوكسجين الحاد في الدماغ المترافق مع تسمم أحادي أوكسيد الكربون أو الاختناق بالرغم من عدم وجـود دليل يثبت أياً من الحالتين. يُعتقد أن التفسير المرجح أكثر من غيره هـو الغـرق". سكت قليلاً بينما أخذت أحاول استيعاب ما يقوله لي، ثم قال: "هل تتذكرين شيئاً عن الغرق؟".

أغمضت عيني، لكنني لم أرَ شيئاً سوى بطاقة موضوعة على وسـادة كتـب عليها كلمة *أحبك*، فهززت رأسي.

"تعافيت من الإصابة، ولكن ذاكرتك لم تتحسن. فمكثـت في المستشـفى لبضعة أسابيع في وحدة العناية المركزة في بادئ الأمر، ثم في الجناح العام. وعنـدما تحسنت صحتك بما يكفي لأن يتم نقلك، تمت إعادتك إلى لندن".

تمت إعادتي إلى لندن. نعم، بالتأكيد. إذ إنهم عثروا عليّ في أحد الفنادق. فلا بد من أنني كنت في مكان بعيد عن البيت. فسألته عن ذلك المكان.

فقال: "في برايتون. ألديك أيّ فكرة عن سبب ذهابك إلى هناك؟ أهنـاك أي شيء يربطك بتلك المنطقة؟".

حاولت أن أفكر في العطلات، ولكن لم يخطر ببالي أي شيء.

فقلت: "كلا، ليس هناك أيّ شيء يخطر ببالي أو أي سبب يـربطني بتلـك المنطقة".

أومأ الطبيب برأسه وقال: "حسناً. هناك بالطبع أسباب كثيرة قد تدفعك إلى الذهاب إلى هناك".

قلت في سرّي: *إنما كذلك فعلاً، ولكنها أسباب لها علاقة بالشموع وباقات الورود وغياب زوجي.*

قلت: "نعم، بالطبع". وتساءلت إن كان أي واحد منا سيذكر كلمة "علاقة غرامية"، وعن شعور بن عندما عرف المكان الذي كنت فيه وسبب تواجدي.

فجأة، اتضحت لي الحقيقة، واكتشفت السبب الذي جعل بن يؤثر ألا يخبرني حقيقة سبب إصابتي بفقدان الذاكرة. فما الذي قد يجعله يرغب في أن يذكرني بأنني في الماضي فضّلت رجلاً آخر عليه ولو لفترة وجيزة.

قلت: "ماذا حدث عندئذٍ؟ هل انتقلت إلى البيت مع بن؟".

هز رأسه وقال: "كلا، فقد كنت لا تزالين مريضة جداً. وتوجب عليك أن تبقي في المستشفى".

"لكم من الوقت بقيت هناك؟".

"في بادئ الأمر مكثت في الجناح العام لبضعة أشهر".

"وماذا بعد؟".

قال: "تم نقلك". وأمسك عن الكلام حتى إنني أوشكت أن أطلب منه المواصلة، ولكنه قال: "إلى جناح الأمراض النفسية".

صدمتني تلك الكلمة، فقلت: "جناح الأمراض النفسية؟"، وتخيلت مكاناً مخيفاً مليئاً بأشخاص مجانين يصيحون بقوة، ولم أستطع أن أتخيل نفسي في مكان كهذا.

"نعم".

"ولكن لماذا؟ لماذا وضعوني هناك؟".

تحدث الطبيب بلطف، ولكنّ نبرة صوته بدت موحية بالانزعاج، فشعرت فجأة بقناعة أننا خضنا هذا الحديث من قبل وربما لمرات عدة. قال الطبيب: "لقد كان ذلك المكان أكثر أماناً، إذ إنك حققت نسبة شفاء معقولة من الإصابات الجسدية بحلول ذلك الوقت، ولكن مشكلاتك المتعلقة بالذاكرة أصبحت في أسوأ حالاتها. فلم تكوني تعرفين مَن أنتِ أو أين أنت. وأبديت أعراضاً مشابهة لفصام الشخصية، وبدأت تدّعين أن الأطباء يتآمرون ضدك وتحاولين الهرب". سكت هنيهةً، ثم قال: "بات التعامل معك صعباً جداً. فتم نقلك من أجل حمايتك إلى جانب حماية الآخرين".

حاولت أن أتخيل شكل وضعي آنذاك، وتصورت شخصاً يستيقظ كل يوم مرتبكاً وغير واثق من هويته ومن المكان الذي هو فيه أو من سبب دخوله إلى المستشفى. لا بد من أن شخصاً في وضع كهذا يطلب أجوبة ثم لا يحصل عليها. ويرى نفسه محاطاً بأناس يعرفون عنه أكثر مما يعرف هو عن نفسه ويدرك أهم لن يخبروه بالحقيقة قط. لا بد من أن هذه الحياة أشبه بالسجن المؤبّد من حيث العذاب.

تذكرت أننا نتكلم عني، لذا قلت: "وماذا بعد؟".

لم يجب الطبيب. فرأيت عينيه تتأملان شيئاً خلفي قرب الباب وكأنه يراقب أو ينتظر، ولكنني لم أرَ أحداً هناك. و لم ينفتح الباب و لم يغادر أحد أو يدخل أحد. فتساءلت إن كان الطبيب يحلم فعلاً بالهرب.

قلت: "ماذا حدث بعد ذلك يا دكتور ناش؟".

قال بصوت أشبه بالهمس: "لقد مكثتِ هناك لبعض الوقت". لا بد من أنه قال لي هذا من قبل، ولكنه هذه المرة يعرف أنني سأدوّنه وأحتفظ به لمدة أطول من مجرد بضع ساعات.

"لكم من الوقت؟".

لم يقل شيئاً، لذا سألته مرة أخرى: "لكم من الوقت؟".

نظر إليّ، فرأيت تعابير وجهه تنطوي على معاني الحزن والألم. قال: "لسبع سنوات".

سدّد الدكتور ناش الفاتورة ثم غادرنا المقهى. شعرت بأن أعصابي خدرة. لا أعرف ما الذي توقعته، وأين ظننت أنني عشت أسوأ مرحلة من مراحل مرضي، ولكن، لم يخطر ببالي قط أن أكون قد أمضيتها هناك في غمرة كل ذلك الألم.

بينما كنا نتمشى، التفت الدكتور ناش نحوي وقال: "لديّ اقتراح أطرحه عليك يا كريستين". فلاحظت الطريقة العفوية التي تكلم بها وكأنه يسألني عن أيّ نكهة حلوى أفضلها.

قلت له: "تابع".

فقال: "أظن أنك قد تستفيدين من زيارة جناح المستشفى الذي تم إدخالك إليه. إنه المكان الذي أمضيت فيه كل تلك المدّة".

فأبديت ردّ فعل فوريًّا وتلقائيًّا قائلة: "كلا، لماذا قد أود الذهاب إلى هناك؟".

قال الطبيب: "إنك تختبرين استرجاعاً لذاكرتك. فكري في ما حدث عندما ذهبنا معاً لزيارة بيتك القديم؛ لقد كتبت عن هذا أليس كذلك؟"، فأومأت برأسي. تابع الطبيب قائلاً: "لقد تذكرت شيئاً حينئذ، وأظن أن هذا قد يحدث مجدداً، إذ إنه من المحتمل أن تثير زيارتك لذلك الجناح المزيد من الذكريات".

"ولكن...".

"لست مضطرة إلى الذهاب إلى هناك، ولكن... أصغي إليّ... سأتوخى الصراحة معك. لقد رتبت لتحديد موعد، فقالوا إنهم سيسرون لاستقبالك واستقبالي في أي وقت. يجب عليّ وحسب أن أتصل بهم لأعلمهم بأننا في طريقنا إلى هناك. سآتي بصحبتك. وإن شعرت بالقلق أو الحزن، يمكننا أن نغادر. سيتم كل شيء كما تشائين. إنني أعدك بذلك".

"أتظن أن هذه الزيارة ستساعدني على التحسن؟ حقاً؟".

فقال: "لست أدري، ولكنها قد تساعد".

"متى؟ متى تريد أن نذهب؟".

توقف عن المشي، وأدركت أن السيارة التي كنا واقفين بجانبها هي سيارته.

قال: "اليوم. أعتقد أنه يجب علينا الذهاب اليوم". ثم قال كلاماً أثار استغرابي: "ليس لدينا وقت لنضيعه".

* * *

لم يكن يتوجب عليّ الذهاب، وأيضاً، لم يجبرني الدكتور ناش على الموافقة، وبالرغم من أنني لا أتذكر أنني فعلت هذا – لأنني لا أستطيع أن أتذكر الكثير في الواقع – فلا بد من أنني وافقت.

لم تكن الرحلة طويلة جداً. ظللنا صامتين طوال الطريق. إذ لم يخطر ببالي أي شيء أقوله أو أشعر به. فقد أحسست بذهني فارغاً ومجوفاً. أخرجت سجلّي من حقيبتي وكتبت آخر ما جرى معي. فعلت ذلك بصمت من دون حتى أن أفكر. لم نتحدث بينما كان يركن السيارة، ولا عندما مشينا عبر الممرات التي تفوح منها

رائحة المعقمات والقهوة القديمة والطلاء الجديد. رأينا أشخاصاً على كراسٍ متحركة يتنقلون بجانبنا، وهناك مصول معلقة بأيديهم. كما كانت هناك ملصقات متقشرة على الجدار وأضواء تئز وترتعش. لم أستطع أن أفكر سوى في السنوات السبع التي أمضيتها في هذا المكان. إنه عمر كامل لا أتذكر عنه شيئاً.

توقفنا أمام باب مزدوج كتب عليه: جناح فيشر. ضغط الدكتور ناش على زر جهاز التواصل المعلّق على الجدار وتمتم شيئاً. وبينما كان الباب ينفتح، تملكتني فكرة سوداء بأنه مخطئ، وأنني لم أنجُ من ذلك الهجوم. إن كريستين لوكاس التي فتحت باب غرفة الفندق تلك الليلة ماتت و لم يعد لها وجود.

عندما وصلنا إلى باب مزدوج آخر، وقد انغلق الباب الأول خلفنا وحبسنا، قال الطبيب: "هل أنت بخير يا كريستين؟ إن هذه وحدة آمنة".

قلت: "فهمت". بدأ الباب الداخلي ينفتح. و لم أكن أعرف ما سأراه خلفه و لم أستطع أن أصدق أنني كنت هنا من قبل. قال الطبيب: "هل أنت مستعدة؟".

عبرنا ممراً طويلاً فيه أبواب مفتوحة على الجانبين. وبينما نحن نمشي، لاحظت أنها تطل على غرف ذات نوافذ زجاجية. وكان في كل منها سرير بعضها مرتب وبعضها الآخر فوضوي، وبعضها مشغول بمرضى وبعضها الآخر فارغ. قال الدكتور ناش: "إن المرضى هنا يعانون مشكلات مختلفة، والعديد منهم يظهرون أعراض فِصام الشخصية العاطفي، ولكن، هناك أيضاً المصابون بالقلق والاكتئاب".

نظرت من إحدى النوافذ، فرأيت فتاة جالسة على السرير تحدق إلى شاشة التلفزيون. وخلف نافذة أخرى، رأيتُ رجلاً جالساً القرفصاء يهتز إلى الأمام والخلف وذراعاه محيطتان بجسمه وكأنه يريد أن يقي نفسه من البرد.

قلت: "هل هم محبوسون؟".

"إن المرضى هنا محتجزون بموجب قانون الصحة العقلية. إنهم هنا من أجل مصلحتهم، ولكن، ضد رغبتهم".

"من أجل مصلحتهم؟".

"نعم. إنهم يشكلون خطراً إما على أنفسهم أو على الآخرين. ويجب أن نحافظ على حمايتهم".

واصلنا المشي، فنظرت إحدى النساء إلينا بينما مررنا بجانب غرفتها. وبالرغم من أن عينيها التقتا عيني، فلم تظهرا أي تعبير. وبدلاً من ذلك، فقد صفعت نفسها وهي لا تزال تنظر إلي. وعندما أجفلت، كررت فعلتها مرّةً أخرى. فراودتني ذكرى جديدة رأيت نفسي فيها عندما كنت صغيرةً أزور حديقة الحيوانات وأراقب النمر يذرع قفصه جيئة وذهاباً، ولكنني صرفتها عن ذهني وواصلت المشي وأنا مصممة على عدم النظر إلى اليمين ولا إلى اليسار.

قلت: "لماذا أحضروني إلى هنا؟".

"قبل أن تأتي إلى هنا، كنت في الجناح الطبي العام وفي سرير مثل هؤلاء جميعاً. وأصبحت تمضين بعض العطلات الأسبوعية مع بن في البيت، ولكن التعامل معك بدأ يزداد صعوبة".

"ما وجه الصعوبة في ذلك؟".

"كنت أحياناً تهيمين على وجهك في الأنحاء. فأصبح يتوجب على بن أن يقفل أبواب المنزل. وأصبت بعدة نوبات هستيرية. وكنت على قناعة من أنه ألحق بك الأذى، وأنه حبسك رغماً عن إرادتك. تحسنت حالتك لبعض الوقت عندما عدت إلى الجناح، ولكنك عندئذٍ بدأت تظهرين سلوكاً مماثلاً هناك أيضاً".

فقلت: "ولهذا توجب عليهم العثور على طريقة لاحتجازي". عندئذ وصلنا إلى مركز الممرضات حيث وجدنا رجلاً يرتدي زي الأطباء الموحد جالساً إلى طاولة مكتب وهو يدخل بعض المعلومات على الكمبيوتر. نظر إلينا عندما اقتربنا منه وقال إن الطبيبة ستتصل على الفور، ثمّ طلب منا أن نجلس. تفحصت وجهه: وكان ذا أنف معقوف، ويضع قرطاً ذهبيًّا في أذنه. توقعت أن يثير وجهه في ذهني وميضاً يدل على أنه مألوف بالنسبة إليّ، ولكن، لم يحدث شيء من هذا القبيل. فقد بدا المكان بأكمله غير مألوف بالنسبة إليّ على الإطلاق.

قال الدكتور ناش: "نعم، بشكل أساسي. فقد اختفيت ذات مرة لمدة أربع ساعات ونصف أو نحو ذلك. وبعد ذلك، عثر عليك رجال الشرطة ووجدوك جالسة بجانب إحدى القنوات مرتدية فقط بيجامة ورداء. وتوجب على بن أن يحضرك من المحطة حيث تركك رجال الشرطة، إذ إنك رفضت الذهاب مع أي من الممرضات. فلم يعد أمامهم أي خيار آخر".

أخبرني الدكتور ناش عندئذ أن بن بدأ يشنّ حملة لنقلي من المستشفى، وقال: "لقد شعر بن بأن القسم النفسي ليس أفضل مكان لعلاجك. وكان محقاً فعلاً في اعتقاده، إذ إنك لم تكوني تشكلين خطراً على نفسك أو على الآخرين. وكان من المحتمل حتى أن يساهم مكوثك محاطة بأناس أشد منك مرضاً في تدهور حالتك. راسل بن الأطباء ومدير المستشفى وعضو البرلمان الذي يمثل منطقتكم، ولكن جهوده لم تفلح أبداً".

تابع الطبيب قائلاً: "وبعد ذلك، تم افتتاح مركز داخلي للمرضى الذين يعانون إصابات حادة بالدماغ. فجرب أن يقوم بالضغط على الجهات المعنية. وهكذا، تم تقييم حالتك وتصنيفها على أنها ملائمة لتنتقل إلى ذلك القسم. ومع ذلك، فحتى اللحظة الأخيرة، بقي التمويل يشكل عقبة أمامك، ولكنّ بن لم يتقبل الهزيمة. ومن الواضح أنه هدد باللجوء إلى الصحافة لفضح قضيتك. وفي اللحظة الأخيرة، وافقوا على الدفع. فتم قبولك في المركز".

فكرت في زوجي وحاولت أن أتخيله يكتب الرسائل ويضغط على الجهات المعنية ويطلق التهديدات؛ فلم أجد ذلك معقولاً على الإطلاق، إذ إن الرجل الذي قابلته صباح اليوم بدا متواضعاً ومراعياً لمشاعر الآخرين. لم يكن ضعيفاً تماماً، ولكنه كان متقبلاً للأوضاع الراهنة وليس من نوع الأشخاص الذين يثيرون الجلبة. فأدركت أنني لست الشخص الوحيد الذي تغيرت شخصيته بسبب الحادث.

قال الدكتور ناش: "كانت دار الرعاية صغيرة إلى حدٍّ ما ولا تتعدى بضع غرف داخل مركز لإعادة التأهيل. ولم يكن هناك الكثير من المرضى الآخرين، ولهذا، فقد قدم لك موظفو المركز عناية كبيرة. وتمتعت بمقدار أكبر من الاستقلالية وأصبحت بأمان، لذا، طرأ عليك بعض التحسن".

"ولكنني لم أكن بصحبة بن؟".

"كلا، فقد عاش وحده في المنزل، إذ توجب عليه أن يواصل العمل. ولم يكن من الممكن له أن يفعل ذلك بينما يستمر برعايتك أيضاً. وهكذا قرر أن...".

في تلك اللحظة، لمعت ذكرى في ذهني وأعادتني بقوة إلى الماضي. وبدا كل شيء فيها ضبابياً ومحاطاً بغشاوة. مرت أمام عينيّ صورٌ متلاحقة مبهرة لدرجة أنني أردت أن أشيح بوجهي عنها. رأيت نفسي أمشي عبر الممرات نفسها وأحدهم

يقودني إلى الغرفة التي أدركت بغموض أنها غرفتي. فبدوتُ منتعلة خفاً ومرتديةً ثوباً أزرق ذا حزام من الخلف. كانت ترافقني امرأة سوداء البشرة ترتدي زياً موحـــداً. وتقول لي: "تفضلي يا عزيزتي. انظري من أتى ليراك". تفلت المرأة يدي وترشدني إلى السرير.

أجد مجموعة من الغرباء جالسين حوله يراقبونني. وأرى رجلاً ذا شعر داكن وامرأة تعتمر قبعة، ولكنني أعجز عن تمييز وجهيهما. فأود أن أقول إنني في الغرفـــة الخطأ وإنهم ارتكبوا خطأً بإحضاري إلى هنا. فهذه ليست غرفتي، ولكنني لا أقول شيئاً.

يقف صبيٌ في الرابعة أو الخامسة من عمره كان جالساً على طرف الســـرير، ثمّ يركض نحوي وينادي: *أمي!* فألاحظ أنه يتحدث إلي. وعندئذ فقط أدرك مـــن هو: إنه آدم؛ أنحني إليه، فيرتمي بين ذراعيّ. أعانقه وأقبل رأسه ثم أقـــف وأقـــول للمجموعة التي حول السرير: "مَن أنتم؟" ما الذي تفعلونه هنا؟"، فيبـــدو الرجـــل حزيناً فجأة، وتقف المرأة ذات القبعة قائلة: "كريس، كريسي! هذه أنـــا! إنـــك تعرفينني، أليس كذلك؟". ثمّ تقترب مني وألاحظ أنها تبكي أيضاً. فأقول: "كـــلا، اخرجي. اخرجي من هنا". وألتفت لأغادر الغرفة، فأجد امرأة أخرى واقفة هناك. إنني لا أعرف مَن هي أو كيف دخلت إلى هنا. فأجهش بالبكـــاء وأنهـــار علـــى الأرض، ولكن الصبيّ يظل واقفاً متمسكاً بركبتي وهو ينادي: أمي... أمي... فلا أعرف لماذا يناديني بهذا الاسم أو مَن هو أو لماذا يتشبث بـــي هكذا.

شعرت بيد تلمس ذراعي، فأجفلت وكأن أحداً قرصني. ثمّ سمعت أحـــدهم يقول: "كريستين؟ هل أنت بخير؟ إن الدكتورة ويلسون هنا".

فتحت عينيّ ونظرت حولي، فوجدت نفسي واقفة بجانب الـــدكتور نـــاش وهناك امرأة ترتدي زيّ الأطباء واقفة أمامنا. قالت: "الدكتور ناش!"، ثمّ صافحته. والتفت إلي وقالت: "كريستين؟".

فقلت: "نعم".

قالت: "إنني مسرورة للقائك. اسمي هـــيلاري ويلســـون". مـــددت يـــدي وصافحتها. وجدتها أكبر سناً مني بقليل، إذ إن شعرها بدا مائلاً قلـــيلاً إلى اللـــون

الرمادي. وكانت هناك نظارة هلالية الشكل متدلية حول عنقها من سلسلة ذهبية. قالت: "كيف حالك؟"، شعرت بأنني على يقين من أنني قابلتها من قبل. أومأت الطبيبة برأسها نحو الممر وقالت: "تفضلا".

كان مكتبها كبيراً ومليئاً بالكتب وصناديق الورق. جلست الطبيبة إلى المكتب وأشارت إلى كرسيين لنجلس عليهما. ثمّ رأيتها تخرج ملفاً من الكومة التي على مكتبها وتفتحه قائلةً: "الآن، دعونا نلقي نظرة".

ترسخت صورتها في ذهني الآن، فقد عرفتها أخيراً، إذ إنني رأيت صورتها وأنا مستلقية داخل آلة التصوير بالرنين المغناطيسي. وظننت آنذاك أنني لم أميزها، ولكنني ميزتها الآن. فقد رأيتها من قبل عدة مرات وأنا جالسة كما جلست الآن على هذا الكرسي أو كرسي مشابه له أراقبها تدون الملاحظات على ملف أمامها وهي تمعن النظر من خلال النظارة الموضوعة برقة على جسر أنفها.

قلت: "لقد قابلتك من قبل. إنني أتذكر..."، نظر الدكتور ناش إليّ ثم نظر إلى الدكتورة ويلسون، فأومأت برأسها.

قالت: "نعم، لقد التقينا من قبل بالرغم من أن ذلك لم يتكرر كثيراً". وشرحت لي أنها بدأت العمل في المستشفى فور انتقالي من هناك وأنني في البداية لم أكن من المرضى الذين تولت مسؤوليتهم. ثم تابعت قائلة: "مع ذلك، إنه لمن المشجع كثيراً بكل تأكيد أن تتذكريني. فقد مضى وقت طويل على إقامتك هنا". فانحنى الدكتور ناش وقال إنه قد يكون من المفيد لي أن أزور الغرفة التي أقمت فيها. فأومأت الدكتورة ويلسون برأسها وأمعنت النظر في الملف. وبعد دقيقة، قالت إنها لا تعرف في أي غرفة كنت أقيم. وقالت: "من المحتمل أن تكوني قد تنقّلت بين عدة غرف، فالكثير من المرضى يحدث لهم هذا. أيمكننا أن نسأل زوجك؟ إذ إنه ذُكِر في ملفك أن زوجك وابنك اعتادا أن يزوراك هنا كل يوم تقريباً".

كنت قد قرأت عن آدم صباح اليوم. فشعرت بموجة من السعادة لذكر اسمه والراحة لأنني شهدت ولو جزءاً بسيطاً من مرحلة نموه، ولكنني هززت رأسي قائلة: "كلا، إنني أفضل عدم الاتصال بين".

فلم تجادلني، ولكنها قالت: "هناك صديقة لك، اسمها كلير، يبدو عليها أنها كانت من الزوار المداومين أيضاً. ماذا عنها؟".

هززت رأسي وقلت: "لست على اتصال بها".

قالت: "هذا مؤسف، ولكن لا تقلقي. إذ إن في وسعي إخبارك ولو قليلاً عن طبيعة الحياة التي عشتها هنا". وسكتت لتقرأ قليلاً ملاحظاتها ثم ضمت يديها أمام وجهها وقالت: "لقد تولى طبيب نفسي استشاري معظم علاجك هنا. وخضعت لجلسات تنويم مغناطيسي، ولكن يؤسفني القول إنك لم تحققي سوى نجاح محدود وغير مؤكد". وأضافت قائلة: "لم تتلقي قدراً كبيراً من العقاقير الدوائية، ولكنك كنت تتعاطين دواء مهدئاً بين الحين والآخر، بالرغم من أن الهدف منه كان مساعدتك على النوم فقط، إذ إنه من الممكن للمكان هنا أن يصبح صاخباً كما يمكنك أن تتخيلي". فأومأت برأسي وأنا أفكر في الصياح الذي سمعته قبل وقت قصير وتساءلت إن كنت أفعل ذلك.

سألتها قائلة: "كيف كانت حياتي هنا؟ هل عشت حياة سعيدة؟".

ابتسمت وقالت: نعم، لقد عشت حياة سعيدة بشكل عام. فقد كنت محبوبة جداً كما أنك وطّدت علاقة صداقة حميمة مع إحدى الممرضات".

"ما كان اسمها؟".

تفحصت ملاحظاتها وقالت: "إن اسمها غير مذكور هنا". سكتت هنيهة ثم قالت: "لقد كنتما تلعبان الورق كثيراً".

"نلعب الورق؟".

"نعم، ربما يستطيع الدكتور ناش أن يشرح اللعبة لك لاحقاً"، فأومأ برأسه. ثمّ تابعت الطبيبة قائلةً: "حسب الملاحظات التي أمامي، فقد أبديت سلوكاً عنيفاً في أغلب الأحيان". نظرت إليّ وقالت: "لا تخافي، إن هذا مألوف تماماً في حالات كحالتك. إن الناس الذين يعانون إصابات دماغية شديدة غالباً ما يظهرون ميولاً عنيفة ولا سيما عندما يحدث تلف بجزء من الدماغ يتحكم بكبح الذات. وبالإضافة إلى ذلك، غالباً ما يميل المرضى الذين يعانون فقدان الذاكرة مثلك إلى فعل شيء نسميه نحن الاختلاق. إذ إنهم لا يجدون الأشياء المحيطة بهم منطقية، ولهذا فهم يشعرون برغبة ملحة لاختلاق الأشياء عن أنفسهم أو الآخرين من حولهم أو

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عن تاريخهم، أي ما حدث لهم. يُعتقد أن هذا يعزى إلى الرغبة في مـلء فراغـات الذاكرة التي لا يمكن فهمها من بعض النواحي، ولكن هذا قد يـؤدي في أغلـب الأحيان إلى تصرفات عنيفة عندما تحدث أمور تناقض مخيلة المريض. ولا بد من أن حياتك باتت مشتتة جداً ولا سيما عندما كنت تستقبلين زواراً".

أستقبل زوّاراً؟! وفجأة بدأت أخشى من أن أكون قد ضربت ابني.

"ماذا فعلت؟".

قالت: "اعتدت في بعض الأحيان على مهاجمة أفراد الطاقم الطبـي".

"ولكنني لم أهاجم ابني آدم، أليس كذلك؟".

"ليس هذا مذكوراً في الملاحظات". فتنهدت بالرغم من أنني لم أشعر براحـة تامة. سكتت الطبيبة ثم قالت: "لدينا صفحات من دفتر يوميات كنت تدونين فيه أفكارك. أمن الممكن أن يكون مفيداً لك أن تلقي نظرة عليهـا؟ قـد تـتفهمين بمساعدتها طبيعة حالتك النفسية بصورة أوضح".

شعرت أن هذا خطير، فنظرت إلى الدكتور ناش، ولكنه أومأ برأسه. دفعـت الطبيبة ورقة زرقاء نحوي لأتفحصها وأنا أشعر بالرعب لمجرد النظر إليها.

عندما نظرت إليها فعلاً، رأيت أن ما يغطيها ليس أكثر من خربشة فوضوية. في أعلى الصفحة، بدت الأحرف منظمة ومرتبة على الأسطر المطبوعة الـتي تمـلأ الصفحة، ولكن قرابة النهاية، أصبحت الأحرف كبيرة وفوضوية وعالية عن السطر ولا تتعدى بضع كلمات. وبالرغم من الرعب الذي تسلل إلى قلبـي، فقد بدأت أقرأ.

الساعة 8:15. لقد استيقظت الآن. إن بن هنا. وتحتها تماماً كتبت: السـاعة 8:17. تجاهلوا الجملة الأخيرة، فقد كتبها شخص غيري. وتحتها كتبت: "السـاعة 8:20. لقد استيقظت الآن. لم أكن مستيقظة قبل ذلك. إن بن هنا.

انتقلت عيناي إلى أسفل الصفحة وقرأت: الساعة 9:45. لقد استيقظت لتوي للمرة الأولى. وبعد ذلك، قرأت بعد بضعة أسطر: الساعة 10:07 إنـني بالتأكيـد مستيقظة الآن. إن كل الجمل السابقة كاذبة. فقد استيقظت في هذه اللحظة.

أبعدت نظري عن الورقة وقلت: "أهكذا كانت حالتي فعـلاً؟"، فأومـأت الدكتورة ويلسون برأسها.

وقالت: "نعم، فقد مضت عليك فترة طويلة استولت عليك فيها حالة دائمة من الشعور أنك استيقظت لتوك من نوم عميق جداً. انظري هنا". وأشارت إلى الصفحة التي أمامي، وبدأت تقتبس الكلام منها قائلة: "لقد نمت لوقت طويل جداً. أشعر بأنني كنت ميتة، ولكنني صحوت للتو. إنني أستطيع أن أرى مجدداً للمرة الأولى". من الواضح أنهم أرادوا تشجيعك على تدوين مشاعرك محاولة منهم لجعلك تتذكرين ما حدث لك قبل ذلك، ولكن، يؤسفني القول إنك أصبحت مقتنعة تماماً بأن كل الجمل السابقة مكتوبة بقلم شخص آخر. وبدأت تظنين أن الناس هناك يجرون تجارب عليك ويبقونك هنا رغماً عن إرادتك".

نظرت إلى الصفحة مجدداً، ووجدتها مليئة بجمل شبه متطابقة لا يفصل بين تدوين جملة وأخرى أكثر من بضع دقائق. فشعرت ببرودة تسري في جسدي، وقلت: "هل كانت حالتي سيئة إلى هذا الحد؟"، شعرت بالكلمات تتردد أصداؤها في رأسي.

قال الدكتور ناش: "نعم، كانت سيئة لبعض الوقت. فقد كنت تستعيدين الذكريات لبضع ثوانٍ فقط، وأحياناً لدقيقة أو دقيقتين، ولكن تلك المدة ازدادت طولاً على مر السنين".

لم أستطع أن أصدق أنني كتبت هذا الكلام، إذ إنني شعرت بأن هذه الكتابة كتبت بقلم شخص عقله مشتت وممزق كلياً. نظرت إلى الكلمات التي كتبتها مجدداً: *أشعر بأنني كنت ميتة*.

قلت: "إنني آسفة. لا أستطيع أن...".

أخذت الدكتورة ويلسون الورقة مني وقالت: "إنني أتفهم شعورك يا كريستين. لا بد من أن هذا مزعج جداً...".

أصابني الذعر، فنهضت على قدمي، ولكن الغرفة بدأت تدور من حولي. وقلت: "أريد أن أغادر، هذه ليست أنا. لا يمكن أن تكون هذه أنا. فأنا لم أكن لأضرب الناس، لم أكن لأفعل هذا. إنني فقط...".

نهض الدكتور ناش على قدميه وتبعته الدكتورة ويلسون، لكنها ارتطمت بالطاولة أمامها. فتبعثرت الأوراق الموضوعة على مكتبها على الأرض. نظرت إلى الأرض، فرأيت صورة ظهرت من بين أوراقها. فقلت: "يا الله!"، فأطرقت الطبيبة

ثم انحنت وغطت الصورة بورقة أخرى، ولكن بعد فوات الأوان؛ فقد رأيت ما يكفي. قلت: "أهذه صورتي أنا؟". وبدأت نبرة صوتي تتصاعد وتصبح شبيهة بالصياح وأنا أقول: "أهذه صورتي أنا؟".

كانت الصورة لامرأة شابة تظهر رأسها وعنقها. كان شعرها معقوصاً إلى الخلف بعيداً عن وجهها. في البداية، ظننتها تضع قناعاً مرعباً؛ فقد بدت إحدى عينيها مفتوحة تنظر إلى الكاميرا أما العين الأخرى فقد كانت مغلقة بسبب كدمة كبيرة أرجوانية اللون. وقد بدت شفتاها كلتاهما متورمتين ومجروحتين، ووجنتاها منتفختين مما منح وجهها مظهراً غريباً جداً. فشبهت ذلك الوجه بثمرة خوخ ناضجة عفنة منزوعة اللب.

صحت بصوت عالٍ قائلة: "أهذه أنا؟"، وبالرغم من الوجه المتورم المشوه، فقد أدركت أن الصورة صورتي أنا.

شعرت بذاكرتي تتشعب وتنقسم إلى نصفين، فقد ظل جزء مني هادئاً ومسالماً بينما راح الجزء الآخر يتخبط ويصيح. فتوجب على الدكتور ناش والدكتورة ويلسون أن يقيداه. فكان لسان حال الجزء الأول يقول: *ينبغي لك فعلاً أن تحسني التصرف لئلا تسببي الإحراج لنفسك.*

ولكن الجزء الآخر كان أقوى. فهيمن على الجزء الأول وتولى هو زمام الأمور. فصحت مراراً واستدرت وركضت باتجاه الباب. فتبعني الدكتور ناش، ولكنني فتحت الباب وجريت بالرغم من أنني لم أكن أعرف إلى أين أريد التوجه. وقد ومضت أمامي صورة أبواب مقفلة وصفارات إنذار ورجل يطاردني وابني يبكي. فقد تخيلت نفسي أفعل هذا من قبل. لا بد من أنني أكرر كل ما فعلته في الماضي.

تصبح ذاكرتي فارغة مجدّداً.

لا بد من أنهم هدأوا من روعي وأقنعوني بالذهاب مع الدكتور ناش، إذ إن الأمر التالي الذي أتذكره هو أنني رأيت نفسي راكبة بجانبه في السيارة وهو يقودها. كانت السماء قد بدأت تتلبّد بالغيوم، وبدت الشوارع رمادية ومسطحة

وثنائية الأبعاد. أخذ يتحدث إلي، ولكنني عجزت عن التركيز وشعرت بأن عقلي تعثر وسقط في وادٍ سحيق وأصبح عاجزاً عن مواكبة ما حولي. نظرت عبر النافذة وتأملت أصحاب المحالّ والناس الذين يدفعون عربات الأطفال وهؤلاء الذين يركبون الدراجات، والذين يُمسكون بأطواق الكلاب. وتساءلت إن كان هذا فعلاً - أي البحث عن الحقيقة - هو ما أريده. نعم، من المحتمل أن يساعدني هذا على التحسن، ولكن، ما الذي أتوقع أن أجنيه منه؟ إنني لا أتوقع أن أستيقظ يوماً ما وأنا أعرف كل شيء كبقية الناس الطبيعيين وأن أتذكر ما فعلته في اليوم الفائت وأعرف أي خطط أنوي القيام بها لليوم التالي، وأن أعي الطريق الذي أوصلني إلى هنا، وإلى هذا الوقت، وإلى الشخصية التي أنا عليها الآن. إن أفضل أمل لي هو أن أنظر يوماً ما في المرآة من دون أن أصاب بصدمة تامة وأن أتذكر أن لي زوجاً اسمه بن وابناً راحلاً اسمه آدم، وألا أضطر إلى رؤية نسخة من روايتي لأعرف أنني ألفتها.

ولكن، هذا الأمل الضئيل بحد ذاته يبدو صعب المنال. فكرت في ما رأيته في جناح فيشر. لم أرَ فيه سوى الجنون والألم والعقول المشتتة والضائعة. إنني أقرب إلى هذا الوضع مما أنا إلى الشفاء، ولهذا، فربما يكون من الأفضل لي أن أتعلم التعايش مع حالتي الراهنة كما هي. كان في وسعي أن أقول للدكتور ناش إنني لم أعد أريد أن أقابله بعد الآن، وأن أحرق سجلي وأدفن الحقائق التي عرفتها أصلاً وأخفيها تماماً ككل الحقائق الأخرى التي لم أعرفها بعد. إنني ربما أحاول بهذا الهرب من الماضي، ولكنني لن أعاني أي ندم. إذ بغضون بضع ساعات لن أعرف بوجود سجلي أو بوجود الدكتور ناش. وعندئذ سأعيش حياتي ببساطة وأمضي أيامي الواحد تلو الآخر من دون أي ترابط بينها. ومع ذلك، فربما تعاودني ذكرى آدم بين الحين والآخر وتجعلني أعاني يوماً آخر الألم والحزن عندما أتذكر ما خسرته، ولكن هذا لن يدوم طويلاً. إذ بعد وقت قصير سأنام بهدوء وأنسى كل شيء. إن هذا أسهل بكثير مما أنا فيه الآن.

فكرت في الصورة التي رأيتها؛ فقد ترسخت في أعماق ذهني. تُرى مَن فعل هذا بي؟ ولماذا؟ فكرت في الذكرى التي راودتني عن غرفة الفندق، وكانت لا تزال قريبة وفي متناول يدي. قرأت صباح اليوم أنني كنت على علاقة غير شرعية

برجل آخر، وأدركت الآن أنني، حتى لو كان ذلك صحيحاً، لا أستطيع أن أتذكر الرجل الذي كنت أقيم معه تلك العلاقة. إن كل ما أملكه هو مجرد اسم تذكرته وأنا أستيقظ قبل بضعة أيام من دون أي أمل بأن أتذكر المزيد مهما تمنيت ذلك.

استيقظت من تأملاتي فوجدت الدكتور ناش لا يزال يتحدث، و لم تكن لدي أيّ فكرة عن موضوع حديثه. فقاطعته قائلة: "هل تتحسن حالتي؟".

سكت قليلاً وهو يلقي نظرة خاطفة عليّ، ومرت لحظة سريعة ظننت خلالها أنه لم يجد إجابة عن سؤالي، ولكنه بعد ذلك قال: "هل تظنين أنك تتحسنين؟".

تنهدت بحيرة؛ ترى هل أعرف الإجابة فعلاً؟ إن هذا صعب. فقلت: "لست أدري. نعم، أعتقد هذا. إنني أستطيع أن أتذكر أشياء من الماضي في بعض الأحيان، أي مجرد ومضات من الذاكرة. راودتني تلك الذكريات وأنا أقرأ سجلي، وقد بدت لي حقيقية، إذ تذكرت كلير وآدم وأمي، ولكنني شعرت بهم أشبه بخيوط لا أستطيع الإمساك بها، أو فقاعات تطفو إلى السماء قبل أن أصل إليها. إنني عاجزة عن تذكر زفافي، أو خطوات آدم الأولى، والكلمة الأولى التي نطق بها. لا أستطيع أن أتذكره يبدأ أيامه في المدرسة أو يتخرج من الجامعة أو أي شيء آخر، ولا أعرف حتى إن كنت موجودة فعلاً هناك، إذ ربما قرر بن ألاّ فائدة من اصطحابي". سكتّ قليلاً ثم قلت: "حتى إنني لا أتذكر اليوم الذي تلقيت فيه خبر وفاته أو جنازته". بدأت أبكي: "أشعر بأنني سأفقد صوابي. في بعض الأحيان، أعتقد أنه ليس ميتاً. أيمكن أن تصدق هذا؟ وأحياناً أظن أن بن يكذب عليّ بهذا الشأن أيضاً كما كذب عليّ بشأن أمور أخرى".

"أمور أخرى؟".

فقلت: "نعم، فقد كذب عليّ بشأن روايتي والهجوم الذي تعرضت له وتسبب بفقدان ذاكرتي. كل شيء".

"ولكن ما الذي قد يدفعه للقيام بهذا العمل؟".

خطر الجواب ببالي بسرعة فقلت من دون تفكير: "لأنني أقمت علاقة مع رجل آخر... لأنني خنته، أليس كذلك؟".

قال: "إنه أمر غير وارد الحدوث يا كريستين. ألا تظنين ذلك؟".

التزمت الصمت؛ فقد كان محقاً بالطبع، إذ إنني في أعماقي لم أصدق أن كذبه عليّ هو مجرد انتقام بارد لغلطة ارتكبتها قبل سنوات بعيدة. فلا بد من أن التفسير الوحيد لذلك هو شيء أكثر واقعية.

قال الدكتور ناش: "إنك تتحسنين فعلاً يا كريستين، أؤكد لك هذا. إنك تتذكرين مزيداً من الأشياء وفي أوقات متقاربة أكثر مما كنت عليه عندما التقينا للمرة الأولى. إن هذه الذكريات الخاطفة دليل مؤكد على التحسن. إنما تعني...".

التفت إليه وقلت: "التحسن؟ أتسمي هذا تحسناً؟". أصبح صوتي أقرب إلى الصياح الآن. وتدفق الغضب من فمي وكأنني عاجزة عن احتوائه. فقلت: "إن كان هذا صحيحاً، فأنا لست متأكدة من أنني أريده فعلاً". وبدأت الدموع تنهمر على وجهي بغزارة.

أغمضت عينيّ واستسلمت للحزن. فقد تملكني سرور غريب لأن أكون عاجزة، و لم أشعر بالخزي من هذا. أخذ الدكتور ناش يتحدث إلي وقد طلب مني في بداية الأمر ألا أستاء وأن أهدئ من روعي، كما قال لي إن الأمور ستصبح أفضل. تجاهلته لأنني لم أستطع أن أهدأ و لم أكن أريد ذلك.

أوقف الدكتور ناش السيارة، وأوقف المحرك عن العمل، عندها، فتحت عينيّ لأجد أننا توقفنا في الطريق الرئيس، حيث كان يوجد أمامنا متنزه. ومن خلال الغشاوة التي تسببت بها دموعي، استطعت أن أرى مجموعة من الصبية المراهقين يلعبون كرة القدم. وكانوا قد وضعوا كومة من المعاطف على الجانبين لتعليم مكان الهدف. بدأ المطر ينهمر، ولكنهم لم يتوقفوا عن اللعب. التفت الدكتور ناش ليواجهني قائلاً: "إنني آسف يا كريستين. إذ ربما كان ذهابنا إلى المستشفى اليوم غلطة. لست أدري حقاً. فقد ظننت أننا قد نثير المزيد من الذكريات في ذهنك، ولكني ربما أخطأت التقدير. وعلى أيّ حال، ما كان ينبغي لك أن تري تلك الصورة...".

قلت: "لست متأكدة من أن السبب هو الصورة وحدها". توقفت عن النحيب، ولكن وجهي كان لا يزال رطباً، وشعرت بأنفي يسيل. قلت له: "هل لديك منديل ورقي؟"، مد يده وبدأ يبحث في علبة القفازات. تابعت قائلة: "لقد أزعجتني الزيارة برمتها، ولا سيما بعد أن رأيت أولئك المرضى وتخيلت ما كانت

عليه حالتي آنذاك ورأيت دفتر اليوميات. لا أصدق أنني كتبتها. لا أصدق أنني كنت مريضة إلى هذا الحد".

فقال وهو يعطيني المنديل الورقي: "ولكنك لم تعودي كذلك على أي حال".

أخذت المنديل الورقي منه ومسحت دموعي.

قلت له: "ولكنني أشعر الآن أنني أصبحت أسوأ حالاً. لقد كتبت في تلك اليوميات أنني أشعر بأنني ميتة، ولكن ماذا عما أنا فيه الآن؟ إنه أسوأ من ذلك، إذ إنه أشبه بالموت كل يوم مرة تلو أخرى. يجب أن تتحسن حالتي، فأنا لا أستطيع أن أتخيل مواصلة حياتي بهذا الشكل. فأنا أدرك أنني سأخلد إلى النوم الليلة ثم أستيقظ غداً من دون أن أعرف أي شيء مجدّداً، ثم أفعل الشيء نفسه في اليوم الذي يليه والأيام التالية وإلى الأبد، ولكنني لا أستطيع أن أتخيل بقائي على هذا الوضع لأنني عاجزة عن مواجهته. إن هذه ليست حياة حقيقية، بل هي مجرد وجود لا معنى له يستمر من دقيقة إلى أخرى من دون أي فكرة عن الماضي أو خطة للمستقبل. إنها حياة أشبه بحياة الحيوانات. وأسوأ ما في الأمر أنني لا أعرف كل شيء عن حقيقة حياتي؛ فقد تكون هناك حقائق كثيرة تنتظر أذيتي وجرحي، وأشياء لم أتخيل حدوثها في حياتي قط".

عندها، وضع يده على يدي، فما كان مني إلاّ أن ارتميت في حضنه وأنا أعرف ما الذي سيقوم به، وما عليه القيام به؛ فتح ذراعيه واحتضنني، وقد سمحت له بذلك. قال لي: "لا بأس". استطعت أن أشعر بكتفه تحت وجهي. تنفست بعمق حتى استطعت تنشّق رائحته المشبعة برائحة الغسيل المنعشة الممتزجة برائحة عرقه. وضع يده على ظهري، فشعرت به يحركها ثم يلمس شعري بلطف، ولكنّ لمسته ازدادت حزماً عندما بدأت أنتحب من جديد. قال: "سيكون كل شيء على ما يرام". فأغمضت عيني.

قلت: "إنني أريد وحسب أن أتذكر ما حدث في الليلة التي تعرضت فيها لذلك الهجوم. فأنا أشعر نوعاً ما بأنني لو تذكرت تلك الليلة، فسأتذكر كل شيء آخر".

تحدث الطبيب بلطف قائلاً: "ليس هناك ما يثبت هذا الافتراض، وليس هناك سبب...".

قاطعته قائلةً: "هذا هو ما أظنه؛ فأنا أدرك ذلك بحدسي".

ضغط الطبيب عليّ بلطف شديد لدرجة أنني لم أشعر بحضنه. شعرت بذراعيه القويتين تضمانني وتنفست بعمق. وبينما أنا أفعل ذلك سرح ذهني في وقت آخر كان فيه رجل آخر يحتضنني. فلمعت في ذهني ذكرى جديدة. إن عيني مغمضتان تماماً كما هما الآن، وأنا أشعر بأحد يضغط بجسمه على جسمي بالرغم من أن الوضع هنا مختلف، إذ إنني لا أريد هذا الرجل أن يحتضنني، فهو يؤذيني. أحاول أن أقاومه وأبتعد عنه، ولكنه قوي. يشدني نحوه وهو يقول: *أيتها الحقيرة*. وبالرغم من أنني أود أن أتشاجر معه، فإنني لا أفعل ذلك. فقط، كنت أشعر به يضغط وجهي على قميصه، فأبكي وأصيح بالتأكيد كما أفعل الآن مع الدكتور ناش. أفتح عيني وأرى قماش قميصه الأزرق وأرى باباً وطاولة زينة وثلاث مرايا وصورة طير معلقة فوقها. وأرى ذراعيه القوية مفتولة العضلات وقد برز عرق منها. فأقول: *دعني وشأني*. وعندئذ أشعر بالغرفة تدور من حولي وبأنني أسقط أو الأرض ترتفع نحوي، لست متأكدة من ذلك. يقبض الرجل على خصلة من شعري ويبدأ بجري نحو الباب، فأدير رأسي لأرى وجهه.

في هذه اللحظة، تخذلني ذاكرتي مجدّداً. وبالرغم من أنني أتذكر رؤية وجهه، إلا أنني لا أستطيع أن أتذكر ما رأيته، إذ إنني رأيته بلا ملامح وكأن وجهه صفحة بيضاء. يبدأ عقلي يدور وكأنه غير قادر على التكيف مع هذا الخواء المفاجئ ويشرع بتقليب كل الوجوه التي أعرفها ويدور في احتمالات غريبة عجيبة. فأرى الدكتور ناش، والدكتورة ويلسون، وموظفة الاستقبال في جناح فيشر، ووالدي وبن، وأرى حتى نفسي أضحك وأنا أرفع قبضة يدي لأسدد ضربة.

أصيح قائلة: *أرجوك لا تؤذني. ولكن مهاجمي ذا الوجوه المتعددة يضربني بلا رحمة. فأشعر بطعم الدم في فمي. يجري على طول الأرض. فأجد نفسي فجأة في الحمام على الأرضية الباردة السوداء والبيضاء، وأشعر بها رطبة، وأشم رائحة براعم البرتقال. فأتذكر أنني كنت أستعد وأتطلع قدماً للاستحمام لأجمل نفسي لأستقبله وأنا في أروع صورة وأجمل شكل، إذ إنني تأكدت أخيراً، وبعد كل تلك الشهور من الشك والحيرة، أنني أحب هذا الرجل. إنني أدرك الحقيقة أخيراً. فأنا أحبه من كل قلبي.*

يرتطم رأسي بالأرض مرة وثانية وثالثة. فيصبح بصري ضبابياً ومكسواً بغشاوة ثم يعود طبيعياً. كما إنني أشعر بطنين في أذني. يصيح أحدٌ ما في وجهي،

ولكنني لا أستطيع سماعه. ويتردد صدى الصوت وكأن هناك رجلاً آخر يردد كلامه، فيقبض كلاهما عليّ ويلويان ذراعي ويشدان خصلات شعري وهما جاثمان على ظهري. أتوسل إليه أن يتركني وشأني، فأسمع صوتي مضاعفاً أيضاً، وأبتلع ريقي فأحس به مشبعاً بطعم الدم.

يرتد رأسي إلى الوراء، ويتضاعف الذعر في قلبي، فأجثو على ركبتي. وأرى مياهاً وفقاقيع صغيرة. أحاول أن أتكلم، ولكنني أعجز عن ذلك، إذ إنه يحيط عنقي بيديه حتى أكاد أعجز عن التنفس. يدفعني إلى الأمام وإلى الأسفل بسرعة أعجز عن كبحها ثم يغوص رأسي تحت الماء. وأشعر بطعم براعم البرتقال في فمي.

سمعت صوتاً ينادي ويقول: "كريستين! توقفي يا كريستين!". فتحت عيني واكتشفت أنني خارج السيارة. كنت أجري في المتنزّه بأقصى سرعة بينما راح الدكتور ناش يجري خلفي.

جلسنا على أحد المقاعد؛ وكان قاسياً وإسمنتياً وعليه ألواح خشبية أحدها ناقص، فشعرنا بالفراغ تحتنا. شعرت بحرارة الشمس تدفئ ظهري ورأيت ظلالها الطويلة الممتدة على الأرض. كان الفتيان لا يزالون يلعبون كرة القدم بالرغم من أن اللعبة بدت موشكة على نهايتها. فقد أخذ بعضهم يتمشون وبعضهم الآخر يتبادلون الأحاديث. لاحظت أن إحدى كومتي المعاطف قد أزيلت تاركة الهدف من دون علامة.

سألني الدكتور ناش عما جرى لي، فقلت له: "لقد تذكرت شيئاً".

"بخصوص الليلة التي تعرضت فيها لهجوم؟".

قلت: "نعم، كيف عرفت؟".

قال: "كنت تصرخين وتقولين ا*بتعد عني* مرة تلو أخرى".

قلت له: "شعرت بأنني هناك فعلاً. إنني آسفة".

"لا داعيَ للاعتذار. هل تريدين أن تخبريني بما تذكّرته؟".

لكن في الحقيقة، لم أشعر برغبة في ذلك. فقد أشعرني حدس عميق في داخلي بأنه من الأفضل الاحتفاظ بهذه الذكرى لنفسي، ولكنني كنت بحاجة إلى مساعدته. وأدركت أنني أستطيع أن أضع ثقتي به، فأخبرته كل شيء.

عندما انتهيت من الكلام، التزم الطبيب الصمت للحظات، ثم قال: "هل هناك شيء آخر؟".

فقلت: "كلا، لا أظن ذلك".

"ألا تتذكرين شكله؟ شكل الرجل الذي هاجمك؟".

"كلا، لا أستطيع تذكر شكله على الإطلاق".

"ولا حتى اسمه؟".

فقلت: "كلا، لا أتذكر شيئاً غير الذي قلته". سكتّ ثم قلت: "أتظن أن معرفة الرجل الذي فعل هذا بي قد يشكل فائدة لي؟ أو أن أراه وأتذكره؟".

"ليس هناك ما يثبت هذه النظرية فعلاً يا كريستين. ولا يوجد شيء يدل على صحتها".

"ولكنّ هذا قد يحدث؟".

"يبدو أن هذه الذكرى من أعمق ذكريات عقلك الدفينة".

"إذاً، فقد يحدث هذا، أليس ذلك؟".

التزم الصمت ثم قال: "قد يساعدك أن تذهبي...".

فقلت: "كلا، لا تكمل هذا".

"يمكننا أن نذهب معاً. ستكونين على ما يرام. أعدك بذلك. إن تواجدك هناك في المكان نفسه...".

"كلا".

"قد يساعدك هذا على التذكر".

"كلا، من فضلك".

"قد يساعدك هذا".

أطرقت بنظري نحو يدي المطويتين بأناقة في حضني وقلت: "لا أستطيع العودة إلى هناك. لا أستطيع ذلك وحسب".

تنهد وقال: "حسناً، ربما يمكننا أن نناقش الموضوع لاحقاً".

همست قائلة: "كلا، لا أستطيع".

فقال: "حسناً، حسناً".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ابتسم، ولكنه بدا محبطاً. فشعرت بأنني متلهفة إلى أن أمنحه شيئاً ما لعلا يتخلى عن علاجي، لذا قلت: "دكتور ناش؟".

"نعم؟".

"لقد كتبت في أحد الأيام أن هناك ذكرى راودتني. إنها ربما مناسبة للموضوع. لست متأكدة فعلاً".

التفت الطبيب ليواجهني وقال: "تابعي". واقترب مني حتى لامست ركبتاه ركبتي، ولم يبتعد أي منا عن الآخر.

قلت: "عندما استيقظت، أدركت نوعاً ما أن هناك رجلاً نائماً بجانبي. وتذكرت اسماً، ولكنه ليس اسم بن. فتساءلت إن كان اسم الرجل الذي أقمت علاقة معه، أي الرجل الذي هاجمني في تلك الليلة في غرفة الفندق".

قال: "هذا وارد. قد تكون هذه بداية ذكرى دفينة تبدأ بالظهور". سكت قليلاً ثم قال: "ما هو الاسم؟".

فجأة شعرت بأنني غير راغبة في إخباره وفي التفوّه بذلك الاسم بصوت عال. فقد أدركت أنني بفعلي ذلك أجعله حقيقياً وأستحضر مهاجمي مجدّداً ليعود إلى حيز الوجود.

أغمضتُ عينيّ وهمست قائلة: "إد. لقد تخيلت نفسي أستيقظ بصحبة رجل اسمه إد".

ساد الصمت، ومرت لحظة مخيفة شعرت بها تمتد إلى الأبد. ثم تكلم قائلاً: "هذا اسمي أنا يا كريستين. اسمي إد؛ إد ناش".

بدأ ذهني يدور للحظة، وكانت الفكرة الأولى التي خطرت ببالي هي أن يكون هو الرجل الذي هاجمني. فقلت: "ماذا؟". وتسلل الرعب إلى قلبي. فقال مجدّداً: "إن هذا اسمي أنا. لا بد من أنني قلت لك من قبل. اسمي إدموند، إد".

أدركت أنه من غير الوارد أن يكون هو. إذ لا بد من أنه كان يافعاً آنذاك.

"ولكن...".

قال الطبيب: "إن ذهنك على الأرجح يبتدع القصص كما اقترحت الدكتورة ويلسون".

فقلت: "نعم، إنني...".

"أو ربما يكون الرجل الذي هاجمك يحمل الاسم نفسه".

ضحك وهو يقول هذا محولاً الموقف إلى فكاهة، ولكن بينما هو يفعل ذلك، اكتشفت الحقيقة التي اتضحت له من دون أن تخطر لي على بال إلا بعد وقت طويل، أي بعد أن أوصلني إلى البيت في الواقع. فقد استيقظت صباح اليوم وأنا مسرورة لأنني بجوار شخص يدعى إد، ولكن هذه ليست ذكرى بل مجرد خيالات. إن الاستيقاظ مع هذا الرجل المدعو إد ليس شيئاً فعلته في الماضي، بالرغم من أن عقلي الواعي لا يعرف من يكون، بل شيئاً أود فعله في المستقبل. لا بد من أنني أهتمّ لأمر الدكتور ناش وأنني أريد تمضية الوقت معه.

وهكذا، فقد بحت له الآن بمشاعري عن غير قصد، وأفصحت له عن شعوري حياله. كان رجلاً محترفاً بالطبع، فتظاهرنا أننا لا نعلق أيّ أهمية على ما حدث، ولكننا بفعلنا هذا وضحنا مدى أهميته فعلاً. مشينا عائدين إلى السيارة ثم أوصلني إلى البيت. وثرثرنا حيال بعض الأمور التافهة، كحالة الطقس وبين. كانت هناك أشياء قليلة نستطيع التحدث عنها، وبحالات خبرة شعرت بأنني بعيدة كل البعد عنها. في وقت ما قال لي: "إننا ذاهبان إلى المسرح اليوم". فلاحظت استخدامه المتعمد المتظاهر باللامبالاة لصيغة المثنى. فوددت أن أقول: *لا تقلق. فأنا أعرف حدودي*. لكنني لم أقل شيئاً لأنني لم أكن أريده أن يجد تصرفي قاسياً.

قال لي إنه سيتصل بي قبل موعد جلستنا التالية، وأضاف قائلاً: "إن كنت تودين أن تتابعي الجلسات؟".

أدركت أنني أصبحت عاجزة عن التوقف الآن، ولا سيما بعد أن عرفت الحقيقة. إنني مدينة لنفسي بمواصلة رحلتي، وإلا، فسوف أستمر بعيش حياة ناقصة. لذا قلت: "نعم، إنني أريد المتابعة".

قال: "حسناً. في المرة القادمة، أظن أنه ينبغي لنا أن نزور مكاناً مختلفاً من ماضيك". ونظر إلى مكان جلوسي ثم أضاف قائلاً: "لا تقلقي، فلن نذهب إلى ذلك المكان الذي تخشينه. أعتقد أنه ينبغي لنا الذهاب إلى دار الرعاية التي انتقلت إليها بعد أن غادرت جناح فيشر. إنها تُدعى دار رعاية ووربنغ". لم أقل شيئاً، فتابع كلامه: "إنها ليست بعيدة عن بيتك. هلاّ أتصل بهم؟".

فكرت ملياً لبعض الوقت متسائلة عن مدى الفائدة التي ستقدمها لي هذه الزيارة، ولكنني أدركت حينئذ ألا خيارات أخرى أمامي وأن أي شيء يبقى أفضل من لا شيء.

فقلت: "نعم، اتصل بهم".

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

يوم الثلاثاء 20 تشرين الثاني

صباح هذا اليوم، اقترح عليّ بن أن أقوم بتنظيف النوافذ، وقال لي وهو يستقلّ سيارته: "لقد كتبت لك ملاحظة على اللوح في المطبخ. افعلي هذا إن تسنى لك متسع من الوقت".

نظرت إلى اللوح، ورأيت الملاحظة التي كتبها: *غسل النوافذ؟* وهناك علامة استفهام *متردّدة* مضافة إليها. لربما كنت أنظر في بعض الأيام إلى هذه المحاولات من جانبه بعين الاستياء وأرى فيها محاولة منه للتحكم بحياتي، ولكنني اليوم قرأتها بعين العطف، و لم أرَ فيها نية شريرة، بل رغبة صادقة في شغل عقلي عن التفكير والهواجس. ابتسمت لنفسي، ولكنني، وبينما كنت أفعل ذلك، فكرت في مدى صعوبة العيش معي بالنسبة إليه. فلا بد من أنه يبذل الكثير من الجهد ليحرص على تمتعي بالأمان. وبالرغم من ذلك، فلا بد من أنه يقلق باستمرار من أن أصاب بالارتباك وأتوه أو أسوأ من ذلك. تذكرت أنني قرأت شيئاً عن الحريق الذي شب في بيتنا ودمر معظم ماضينا، ذلك الحريق الذي لم يتهمني قط بأنني أنا من تسببت به بالرغم من أنه لا بد من أن أكون أنا من افتعله. تخيلت صورة باب محترق يكاد يختفي بسبب تصاعد الدخان الكثيف، وأريكة تذوب في ألسنة اللهب وكأنها شمع منصهر. رفرفت تلك الصورة أمامي من دون أن تتمكن يداي من الوصول إليها، ولكنها رفضت أن تصبح ذكرى حقيقية وظلت أشبه بحلم خيالي من صنع عقلي. فكرت في أنه قد سامحني على ما فعلته كما سامحني على الكثير من الأذى الذي ألحقته به. نظرت من نافذة المطبخ عبر انعكاس صورتي على زجاجها ورأيت المرج بعشبه المجزوز حديثاً والسياج والمخزن. أدركت أن بن لا بد من أن يكون قد عرف بعلاقتي غير الشرعية وخيانتي له، إذ إنه من المؤكد أنه عرف بذلك حالما تم العثور عليّ في برايتون وربما قبل ذلك. كم تطلب الأمر منه من قوة وشجاعة ليقبل برعايتي، حالما فقدت ذاكرتي، بالرغم من معرفته أنني خرجت من المنزل عازمة

على إمضاء وقتي مع رجل آخر. فكرت في ما رأيته وفي اليوميات التي كتبتها، وشعرت بأن ذهني مشتت وممزق. بالرغم من كل شيء، ساندني بن ووقف إلى جانبي في حين أن الرجل الآخر، الذي قدم لي الدنيا بأسرها على طبق من ذهب، دمرني وسحق حياتي.

أشحت بوجهي عن النافذة ونظرت تحت المغسلة باحثة عن أدوات التنظيف والصابون. ورأيت علباً من المساحيق وقوارير البخاخات البلاستيكية، كما وجدت دلواً بلاستيكياً أحمر، فملأته بالماء الساخن وأضفت إليه بعض الصابون ونقطة صغيرة من الخل. تساءلت في نفسي إن كنت قد رددت له الجميل. أخذت إسفنجة وبدأت أنظف النوافذ بدءاً من الأعلى وحتى الأسفل. لقد تجولت في أنحاء لندن وقابلت أطباء وأجريت فحوصات وزرت بيتنا القديم وأماكن تلقيت فيها علاجاً بعد الحادث، وكل هذا من دون علمه. ولكن، لماذا؟ ألأنني لا أثق به؟ ألأنه اتخذ قراراً بأن يحميني من الحقيقة وأن يبقي حياتي بسيطة وسهلة قدر المستطاع؟ راقبت المياه المشبعة بالصابون تسيل على هيئة جداول صغيرة على طول النافذة وتتجمع في الأسفل. فأخذت قطعة قماش أخرى ولمعت النافذة حتى أصبحت براقة.

الآن أدركت أن الحقيقة أسوأ من ذلك بكثير، فقد استيقظت صباح اليوم وأنا أشعر بشعور غامر بالذنب، وتردد في ذهني صوت أحدهم يقول: *ينبغي لك أن تشعري بالخزي من نفسك. ستندمين على أفعالك المشينة*. في البداية، ظننت أنني استيقظت وبجانبي رجل ليس زوجي، ثم اكتشفت الحقيقة لاحقاً، واكتشفت أنني خنته مرتين. فقد حدثت المرة الأولى قبل سنوات عدة مع الرجل الذي سلبني في نهاية المطاف كل شيء، ثم فعلت ذلك مرةً ثانية، ولو بقلبي على الأقل، وبدأت أشعر بإعجاب طفولي سخيف بالطبيب الذي يحاول أن يساعدني ويخفف عني. إنه طبيب لا أستطيع الآن حتى أن أتخيل صورته أو أن أتذكر أنني قابلته من قبل، ولكنه أيضاً رجل أصغر مني سناً بكثير ولديه خطيبة. والآن، قد بحت له بمكنونات قلبي. نعم، لقد فعلت ذلك بشكل لاشعوري، ولكنني بحت له بها. إنني أشعر بشعور يتجاوز تأنيب الضمير؛ فأنا أشعر بالغباء، ولا أستطيع حتى أن أتخيل ما أودى بي إلى هذه المرحلة. يا لي من مثيرة للشفقة!

لقد اتخذت قراري الآن! بالرغم من أن بن لم يكن يشاركني اعتقادي أن علاجي سينجح، فلا يمكنني أن أصدق أنه سيحول دون حصولي على الفرصة لأثبت من ذلك بنفسي أو يمنعني من شيء أريده. فأنا امرأة ناضجة وهو ليس وحشاً. يمكنني بالتأكيد أن أثق به وأخبره بالحقيقة. صببت الماء في المغسلة وأعدت ملء الدلو. لقد قررت أن أخبره الليلة عندما يعود إلى البيت. إذ لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر على هذا النحو. واصلت تنظيف النوافذ.

* * *

كتبت هذا الكلام قبل ساعة، ولكنني الآن لم أعد أشعر بأنني متأكدة تماماً من قراري. فقد فكرت في آدم بعد أن قرأت في السجل عن صوره المخبأة في الصندوق المعدني، واكتشفت أن البيت لا يزال خالياً من أي صور معروضة له؛ لا توجد أيّ واحدة. لم أصدق أن بن، أو أي رجل آخر، يمكن له أن يفقد ابناً ثم يمحو كل دليل على وجوده من بيته. لا يبدو ذلك سلوكاً صائباً أو ممكناً. أمن المعقول أن أثق برجل يتصرف هكذا؟ تذكرت أنني قرأت عن اليوم الذي جلسنا فيه عند تل البرلمان وطرحت عليه السؤال بشكل مباشر وكذب عليّ. قلبت الصفحات الأولى من سجلي وقرأت ذلك الكلام مرّة أخرى. وكنت قد سألته: *ألم ننجب أطفالاً قط؟* فأجابني قائلاً: *كلا، لم ننجب*. أيعقل أن يفعل كل هذا ليحميني فقط؟ أيمكن أن يشعر بأن هذا فعلاً هو أفضل ما يمكن فعله؟ ألاّ يخبرني بأي شيء سوى ما يظن أنه مجبر على إخباري به وما يعتقد أنه ملائم؟

لا بد من أنه أيضاً اختار المعلومات الأقصر ليخبرني بها، إذ إنه بلا شك أصيب بالملل من إطلاعي على القصة نفسها مرة تلو أخرى كل يوم. فخطر لي الآن أن سبب اختصاره للشروح وتغييره للقصص لا يتعلق بي على الإطلاق. ربما السبب يعود إلى أنه لا يريد أن يفقد صوابه جراء التكرار المستمر.

إنني أشعر بأنني أنا مَن ستفقد صوابها لأن كل شيء من حولي متقلب ومتغير. إذ عادة ما تنتابني فكرة ما ثم تتغير إلى نقيضها بعد لحظة. فقد أصدق كل ما يقوله زوجي ثم لا أعود أصدق شيئاً. وقد أثق به في لحظة ما، ثم لا أعود أثق به في اللحظة التي تليها. لم أعد أشعر بأن أي شيء حقيقي. وانتابتني الشكوك في أن يكون كل شيء مخترع ومبتدع، وحتى نفسي.

أتمنى لو أنني أعرف حقيقة مؤكدة واحدة أو معلومة واحدة لا يتوجب أن يخبرني بها أحد، ولا أن يذكرني بها أحد.

أتمنى لو أعرف هوية الرجل الذي كنت بصحبته في برايتون. أتمنى لو أعرف من اقترف بحقي هذه الفعلة الرهيبة.

* * *

في وقت لاحق، وبعد أن أنهيت حديثي إلى الدكتور ناش، جلست وغفوت قليلاً في غرفة المعيشة. رن الهاتف، وكان التلفزيون يعمل والصوت منخفض، فلم أعرف للحظة أين أنا وما إذا كنت نائمة أم لا. ظننت أنني سمعت أصواتاً تزداد ارتفاعاً، ثم أدركت أن أحد الأصوات هو صوتي أنا، وبدا الصوت الآخر شبيهاً بصوت بن. قال صاحب الصوت: *أيتها الحقيرة السافلة!* وتفوه بعبارات أسوأ بكثير، فصرخت في وجهه بغضب ثم بحزن. سمعت صوت خبط على باب، وضربة قبضة يد، وتحطيم زجاج، عندئذٍ أدركت أنني كنت أحلم.

فتحت عيني ورأيت فنجان قهوة بارداً موضوعاً أمامي على الطاولة. رن الهاتف بجانبي فجأة، فرفعت السماعة.

كان ذلك الدكتور ناش، عرّف عن نفسه بالرغم من أن صوته بدا مألوفاً لي على أي حال. سألني إن كنت على ما يرام، فقلت له إنني كذلك وإنني قرأت سجلي.

سألني: "إذاً، أتعرفين ما تكلمنا عنه البارحة؟".

أصبت بالصدمة وربما بالرعب، إذ إنه قرر أن يفاتحني بالموضوع بصراحة. وبعد ذلك، شعرت ببصيص أمل. فربما راوده الشعور نفسه الذي راودني والمزيج نفسه بين الرغبة والخوف، ولكن هذا لم يدم طويلاً. فقال: "بشأن الذهاب إلى المكان الذي كنت تعيشين فيه بعد أن غادرت جناح المستشفى؟ أقصد دار رعاية وورينغ؟".

فقلت: "نعم".

"حسناً، لقد اتصلت بهم صباح اليوم. إنهم موافقون على زيارتنا. يمكننا أن نذهب لزيارتهم. فقد قالوا إنهم يستطيعون استقبالنا في أي وقت نود الذهاب فيه". أخذ يتحدث عن المستقبل مجدداً، فشعرت بأنّ كل هذا غير متعلق بي. قال

الطبيب: "إنني مشغول بعض الشيء في اليومين القادمين، أيمكننا أن نذهب يوم الخميس؟".

قلت: "هذا يبدو مناسباً". لم يكن الوقت الذي سنذهب فيه يمثل أي فرق بالنسبة إليّ، إذ إنني لم أكن أشعر بأي تفاؤل بأن هذه الزيارة ستفيدنا بأي شيء.

قال: "إذاً، سأتصل بك".

أوشكت أن أنهي المكالمة عندما تذكرت ما كتبته قبل أن أغفو، فقلت: "دكتور ناش؟ أيمكنني أن أتحدث إليك بشأن أمر ما؟".

"نعم؟".

"بخصوص بن".

"بالطبع".

"حسناً، إن الأمر برمته هو أنني أشعر بالحيرة. فهو لا يطلعني على كثير من الأشياء المهمة مثل آدم وروايتي ويكذب عليّ حيال الكثير من الأمور. إنه يقول لي مثلاً إن حادث سيارة هو ما تسبب بحدوث هذه المشكلة لي".

قال: "حسناً". وسكت قليلاً ثم تابع قائلاً: "لماذا تظنين أنه يفعل ذلك؟".

فكرت للحظة وقلت: "إنه لا يعرف أنني أدوّن ما أمر به يوميًّا، ولا يعرف أنني على علم بأي شيء مختلف عما يقوله لي، لذا، أفترض أن هذا أكثر سهولة بالنسبة إليه".

"بالنسبة إليه هو فقط؟".

"كلا، أظن أنه أسهل بالنسبة إليّ أيضاً، أو أن هذا هو ما يظنه بن على الأقل. ولكنه ليس كذلك. إن هذا يعني وحسب أنني لا أعرف حتى إن كنت أستطيع الوثوق به".

"إن الناس يغيرون الحقائق على الدوام يا كريستين، ويعيدون كتابة تاريخهم ليسهلوا الأمور على أنفسهم ويجعلوها أكثر ملائمةً لروايات الأحداث المفضلة لديهم. إنهم يفعلون هذا بشكل تلقائي ويخترعون الذكريات من دون تفكير. فإن أقنع المرء نفسه بحدوث شيء ما بشكل متكرر بما يكفي لأن يصدقه، فسوف يصدقه فعلاً، وهذا ما يجعله يتذكره بعد ذلك. أليس هذا ما يفعله بن؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قلت: "نعم، أعتقد ذلك، ولكنني أشعر أيضاً بأنه يستغلني ويستغل مرضي. إنه يظن أن في وسعه أن يعيد كتابة التاريخ بأيّ طريقة يودها من دون أن أعرف به وأزداد حكمة لمعرفته، ولكنني أعرف الحقيقة فعلاً، إذ إنني على علم تام بكل ما يفعله، لذا، فأنا لا أثق به. وفي النهاية، فهو يدفعني بعيداً عنه يا دكتور ناش، ويدمر كل شيء".

فقال الطبيب: "إذاً، ما الذي تظنين أنه باستطاعتك القيام به حيال هذا؟".

كنت أعرف الجواب أساساً، فقد قرأت ما كتبته صباح اليوم حول ما إذا كان ينبغي لي أن أثق به أم لا. وفي نهاية المطاف، كانت الفكرة الأولى التي خطرت ببالي هي أنه من المستحيل لهذا الوضع أن يستمر على هذه الحال.

قلت: "يجب أن أخبره بأنني أدوّن الأشياء في سجلي، وأنني ألتقي بك".

التزم الطبيب الصمت للحظات لم أعرف خلالها ما عليّ توقّعه؛ أيجب أن أتوقّع رفضه لقراري؟ ولكنه بعدئذٍ قال: "أعتقد أنك قد تكونين محقة".

غمرني الشعور بالراحة، فقلت: "أتظن ذلك حقاً؟".

قال: "نعم، فقد فكرت ملياً في الأمر قبل بضعة أيام ووجدت أنه لمن الحكمة فعل هذا، ولكن، لم تكن لدي أيّ فكرة عن مدى الاختلاف بين رواية بن للماضي وروايتك أنت. و لم تكن لدي أيّ فكرة عن مدى الإزعاج الذي تسبب به هذا الاختلاف لك، ولكن، تبادر إلى ذهني أيضاً أننا لا نرى الآن سوى نصف الصورة فقط يا كريستين. إن ما تقولينه يوحي بأن بعض الذكريات الدفينة في ذاكرتك تبدأ بالبزوغ إلى السطح، لذا، فربما تستفيدين كثيراً إن تحدثت إلى بن عن الماضي، وقد يساعد هذا على تحفيز عملية استرجاع الذكريات لديك".

"أتظن ذلك؟".

قال: "نعم، فأنا أعتقد أن إخفاء عملنا عن بن خطأ. وبالإضافة إلى كل هذا، فقد تحدثت إلى هيئة موظفي دار رعاية ورينغ اليوم رغبة مني في أن أكوّن فكرة عن الوضع هناك. تحدثت إلى امرأة كنت على علاقة وثيقة بها. إنها إحدى الموظفات، واسمها نيكول. قالت لي إنها عادت إلى العمل مؤخراً فقط، ولكنها سُرَّت كثيراً عندما عرفت أنك عدت للعيش في بيتك. وقالت إنه لم يكن من الممكن لأحد أن يحبك أكثر من بن. إذ إنه اعتاد أن يأتي لزيارتك كل يوم تقريباً، ويجلس معك في غرفتك أو في الحديقة. وحاول جاهداً أن يبدو مبتهجاً بالرغم من

كل معاناته. وأصبح الجميع هناك يعرفونه حق المعرفة ويتطلعون قـدماً لزيارتـه".
سكت للحظة ثم تابع قائلاً: "لِمَ لا تقترحين على بن أن يأتي معنا عندما نذهب إلى دار الرعاية؟". سكت مجدّداً ثم قال: "ينبغي لي على الأرجح أن أقابله قريباً".

عندئذ، خطرت لي فكرة حمقاء؛ لا بد من أن هذا هو السبب في اقتراحه عليّ دعوة بن، إذ إنه أراد أن يلتقيه أخيراً ليحرص على ألا تتكرر حماقة البارحة مرة أخرى.

قلت: "حسناً، سأفعل هذا إن كنت تظنه مناسباً".

فسُرّ كثيراً لسماع قولي. ساد الصمت للحظات، ثم قال: "كريستين؟ هـل قرأت سجلك اليوم؟".

قلت: "نعم". فساد الصمت للحظة أخرى ثم قال: "لم أتصل بـك صـباح اليوم. و لم أخبرك عن مكانه".

فأدركت أن ما قاله صحيح، وتذكرت أنه لم يتصل بـي صباح ذلك اليوم. فلا بد من أنني ذهبت إلى الخزانة بنفسي من دون حتى أن أعرف ما قد أعثر عليـه في الداخل وفتحت علبة الحذاء من دون تفكير وأخرجت السجل. وهكذا، فقـد عثرت عليه بنفسي وكأنني تذكرت مكان وجوده هناك.

قال الطبيب: "هذا ممتاز!".

* * *

أجلس في سريري لأكتب ما جرى معي خلال اليوم. إن الوقـت متـأخر، ولكن بن لا يزال في غرفة مكتبه الواقعة في الجانب المقابل من الممـر. أسمعـه الآن وهو يعمل بسبب صوت مفاتيح الكمبيوتر ونقرة الماوس. وأسمع تنهيدة بين الحـين والآخر وصرير الكرسي. فأتخيله يحدق إلى الشاشة مستغرقاً في التفكير وأنا علـى يقين من أنني سأسمعه يوقف الكمبيوتر عن العمل عندما يصبح مستعداً للنوم، وأنه سيتسنى لي وقت لإخفاء السجل ريثما يصل إلى هنا. إنني أشعر الآن، أكثر من أي وقت آخر، بأنني متأكدة من أنني لا أريده أن يكتشف ما أكتبه.

لقد تحدثت إليه مساء اليوم ونحن جالسان نتناول طعام العشـاء، فسـألته: "أيمكن أن أطرح عليك سؤالاً؟". عندها، نظر إليّ فسألته قائلة: "لِـمَ لم ننجـب أطفالاً قط؟". أظن أنني أردت بذلك أن أختبره وأجبره علـى البـوح بالحقيقـة ومناقضة المعلومات الأكيدة التي توصلت إليها، ولكنه لم يفعل ذلك.

فقد قال: "لم نجد وقتاً مناسباً لذلك قط. وبعد ذلك، فات الأوان".

أطرقت نحو أطباق الطعام المصفوفة على الطاولة أمامنا وأنا شاعرة بخيبة الأمل. عندما عاد إلى البيت متأخراً اليوم، ناداني وهو يدخل سائلاً: "أين أنتِ؟". وبدا لي سؤاله هذا أشبه بالتمام.

كنت في المطبخ أعد العشاء وأقطع البصل لأقليه بزيت الزيتون الذي كنت أسخنه على الموقد. وقف بن عند المدخل وكأنه متردد لأن يدخل، وبدا متعباً وتعيساً، فسألته: "هل أنتَ بخير؟".

نظر إلى السكين في يدي وقال: "ماذا تفعلين؟".

قلت له مبتسمة: "أحضر العشاء". ولكنه لم يرد لي الابتسامة بمثلها، فقلت: "فكرت في تحضير العجة. فقد عثرت على بعض البيض في الثلاجة وبعض الفطر. هل لدينا بطاطا؟ إذ لم أستطع العثور على أي منها...".

قال بن: "كنت أفكر في تناول شرائح اللحم اليوم، ولهذا، اشتريت بعضها البارحة. ظننت أننا سنعدها على العشاء اليوم".

فقلت: "إنني آسفة، ولكن...".

"كلا، إن العجة جيدة جداً، إن أردتِ أن تحضريها".

بدأت أشعر بجوارنا يتسلل شيئاً فشيئاً إلى مكان لا أريده أن يتجه إليه. وقف بن محدقاً إلى لوح التقطيع الذي تحوم فوقه يدي حاملة السكين.

ضحكت وقلت: "كلا". ولكنه لم يضحك، فقلت: "هذا لا يهم. لم أدرك حقاً... يمكنني دائماً...".

قال بصوت فاتر: "لقد سبق وقطعت البصل". وبدا كلامه مقتضباً وبارداً.

"أعرف، ولكن... لا يزال بإمكاننا تناول الشرائح".

فقال: "كما تشائين". والتفت ليذهب إلى غرفة المعيشة وقال: "سأعد المائدة". لم أقل شيئاً ولم أدرك ما الخطأ الذي ارتكبته؛ إن كنت قد ارتكبت خطأً فعلاً. فعدت لتقطيع البصل.

جلسنا قبالة بعضنا، وتناولنا طعامنا بصمت مطبق. سألته إن كان كل شيء على ما يرام، فهز كتفيه وقال إنه بخير ولكنه أمضى يوماً عصيباً. كان ذلك كل ما

قاله لي. وعندما نظرت إليه طلباً لسماع المزيد، أضاف قائلاً: "في العمل". بدا النقاش مكبوتاً ومخنوقاً قبل أن يبدأ فعلاً، فقررت أن أعدل عن فكرة البوح له بموضوع السجل والدكتور ناش، ورحت أتناول طعامي بلا شهية محاولة أن أخفف من قلقي. قلت في سري إنه من الطبيعي أن يمر بأيام عصيبة أيضاً، ولكن القلق بدأ ينهشني. فقد شعرت بالفرصة للبوح له بالأمر تتسلل من بين يدي، إذ إنني لم أكن أعرف إن كنت سأستيقظ غداً وأنا على القناعة نفسها بأن الإفصاح بالسر هو أمر صائب للقيام به. وفي نهاية المطاف، أصبحت عاجزة عن التحمل أكثر من ذلك، فوضعت سكيني وشوكتي وقلت: "ولكن، هل كنا نريد إنجاب الأطفال؟".

تنهد وقال: "أينبغي لنا مناقشة هذا يا كريستين؟".

قلت: "إنني آسفة". لم أكن أعرف ما أريد قوله لو كنت أريد قول أي شيء. ومع ذلك، فقد فكرت في أنه من الأفضل أن أتخلى عن الفكرة، ولكنني أدركت أنني لم أعد قادرة على كبح نفسي. فقلت: "لقد حصل معي أغرب شيء اليوم". وحاولت أن أجعل صوتي يتحلّى بشيء من الخفة والمرح لم أكن أشعر بهما، وقلت: "ظننت أنني تذكرت شيئاً".

"تذكرت شيئاً؟".

"نعم، آه! كلا، لا أعرف...".

قال: "تابعي". واقترب مني وهو يبدو متلهفاً فجأة وقال: "ما الذي تذكرته؟".

ظلت عيناي مركزتين على الجدار الذي خلفه، وتأملت الصورة المعلقة التي تظهر وريقات زهرة باللونين الأسود والأبيض عليها قطرات من الماء لا تزال عالقة بها. ففكرت في أنها تبدو رخيصة ومبهرجة وأشبه بشيء قد يوضع في المتاجر وليس في البيوت.

"تذكرت أنني أنجبت طفلاً".

استند إلى كرسيه، وفتح عينيه على وسعهما ثم أغلقهما تماماً، وأخذ نفساً عميقاً ثم أطلقه في تنهيدة طويلة.

قلت: "أهذا صحيح؟ هل أنجبنا طفلاً؟". فكرت في أنه لو كذب عليّ الآن، فلن أعرف كيف سأتصرف. وخشيت أن أجادله وأخبره كل شيء دفعة واحدة

بشكل متواصل لا يمكن السيطرة عليه وأتسبب بكارثة كبيرة، ولكنه لم يكـذب، بل فتح عينيه ونظر إلى عيني وقال: "نعم، هذا صحيح".

أخبرني كل شيء عن آدم، فشعرت بالراحة تغمرني، ولكنه كـان شـعوراً بالراحة ممزوجاً بالألم. فقد ضاعت مني كل تلك السنوات إلى الأبد، وانتهت كل تلك اللحظات التي مُحِيَت من ذاكرتي وطواها النسيان من دون أن أستعيدها أبداً. شعرت بالحنين يتحرك في داخلي وينمو ويكبر حتى شعرت بأنه سيغمرني. أخبرني بن عن ولادته، وطفولته، وحياته، والمدرسة التي ذهب إليها، والمسرحية التي لعب دوراً فيها، ومهاراته في لعب كرة القدم، والجري، وخيبة أمله في نتائج الامتحان، وأصدقائه وصديقاته. طرحت عليه بعض الأسئلة وأجاب عنها. وبدا سـعيداً لأن يتحدث عن ابنه، وتلاشى المزاج السيئ الذي هيمن عليه في وقت مبكر بسبب الذكرى.

وجدت نفسي أغمض عيني وهو يتكلم، وأخذت صور عديـدة تطفـو في مخيلتي، صور لآدم ولبن ولي أنا، ولكنني لم أستطع أن أحدد إن كانت هذه الصور ذكريات حقيقية فعلاً أم مجرد تخيلات. وعندما أنهى كلامه، فتحت عيني. وشعرت للحظة بالصدمة لرؤية الشخص الماثل أمامي ومدى الكبر الذي حلّ به، واختلافـه عن الوالد الشاب الذي تخيلته. قلت: "ولكن، ليست هناك أي صـور لـه في أي مكان في البيت".

شعر بعدم الراحة قليلاً وقال: "أعلم ذلك، إذ إنك تستائين منها".

"أستاء؟".

لم يقل شيئاً، وشعرت لوهلة بأنه لم يكن يتحلى بالقوة الكافية لإخباري عن وفاة آدم. بدا مهزوماً ومستنـزفاً نوعاً ما، فشعرت بتأنيب الضمير لما ألحقته به من أذى، وما فعلته به كل يوم.

قلت: "لا بأس. فأنا أعرف أنه ميت".

بدا مندهشاً ومتردداً، وقال: "أنت... تعرفين؟".

فقلت: "نعم". وأوشكت أن أخبره بأمر سجلي، وأنني عرفت كل شيء من خلاله قبل ذلك، ولكنني لم أخبره فعلاً. فقد بدا مزاجه سيئاً، وكان الجـو العـام متوتراً، لذا، قررت أن أنتظر. قلت: "شعرت بهذا".

أومأ برأسه وقال: "إنه أمر منطقي. فقد أخبرتك بأمره من قبل".

كان هذا حقيقياً بالطبع، فقد أخبرني عن موت آدم كما أخبرني بأمر حياته من قبل. ومع ذلك، فقد أدركت أن إحدى الحقيقتين بدت لي صحيحة والأخرى غير صحيحة. فقد راودني شعور عميق بأنني ما زلت لا أريد تقبّل فكرة موت ابني.

قلت: "أخبرني مجدّداً".

فقص عليّ قصة الحرب والقنبلة التي انفجرت في الطريق. جلست بهدوء قدر المستطاع بينما تحدث بن عن جنازته وعن إطلاق الرصاص فوق تابوته والعلم الذي لف به التابوت. حاولت أن أدفع عقلي لتذكر هذا الحدث بالرغم من صعوبته ومعناه المرعب، ولكن، لم يحدث أي شيء.

قلت: "أريد زيارة قبره".

فقال: "لست متأكداً يا كريس من أن...".

أدركت الآن - من دون وجود ذكرى أستند إليها - أنه عليّ أن أرى دليلاً ملموساً على موت ابني أو أنني سأظل إلى الأبد أعيش على أمل أنه ما زال على قيد الحياة. قلت: "أريد الذهاب إلى هناك. يجب عليّ ذلك".

خشيت أن يرفض ويقول إنه لا يظن أن هذه فكرة حسنة، وإنها ستسبب لي إزعاجاً أكثر بكثير. ماذا سأفعل عندئذ؟ كيف سأجبره على الموافقة؟

ولكنه لم يرفض بل قال: "سنذهب في نهاية الأسبوع. أعدك بهذا".

انتابني شعور بالراحة المشوبة بالرعب، وتركني خدرة المشاعر.

رفعنا أطباق العشاء عن الطاولة، فوقفت أمام حوض الغسيل وغمست الأطباق التي مررها إليّ بالماء الساخن المشبع بالصابون ثم مررتها إليه ثانية ليجففها وأنا، طوال الوقت، أتجنّب النظر إلى انعكاس صورتي على زجاج النافذة فوق حوض الغسيل. أجبرت نفسي على التفكير في جنازة آدم وتخيلت نفسي واقفة على العشب في يوم غائم بجانب كومة من التراب أنظر إلى التابوت المعلق فوق حفرة في الأرض. حاولت أن أتخيل إطلاق الرصاص وعزف الموسيقى العسكرية بينما أخذنا نحن أفراد العائلة والأصدقاء نبكي بصمت.

لكنني عجزت عن التخيل. لم يمضِ وقت طويل على تلك الحادثة، ولكنني لم أستطع أن أتذكر شيئاً منها. حاولت أن أتخيل كيفية شعوري. لا بد من أنني استيقظت صباح ذلك اليوم من دون حتى أن أعرف أنني أم. ولا بد من أنه قد توجب على بن أن يقنعني أولاً بأنني أنجبت طفلاً وأننا سنمضي فترة عصر ذلك اليوم بالذات ونحن نشهد مراسم دفنه. لم أتخيل شعوراً بالرعب، بل بالخدر وعدم التصديق والبعد عن الواقع، إذ إن هناك مقداراً معيناً يستطيع العقل أن يتحمله. وليس هناك من يستطيع أن يتحمل هذا القدر؛ وبالتأكيد لست أنا. تخيلت أحداً يقول لي ما عليّ لبسه وأحداً يقودني من البيت إلى سيارة تنتظرني ويجلسني على المقعد الخلفي. ولا بدّ من أنني تساءلت عن الشخص الذي كنا ذاهبين لحضور جنازته والسيارة تنطلق بنا. وربما شعرت بما أشبه بجنازتي أنا.

نظرت إلى انعكاس صورة بن. لقد توجب عليه أن يتكيف مع كل هذه الأحداث في الوقت الذي عاش فيه أشد حالاته حزناً. لا بد من أنه كان من الألطف بالنسبة إلينا جميعاً لو أنه لم يصطحبني إلى الجنازة على الإطلاق. فتساءلت بينما سرت رعشة باردة في جسدي إن كان هذا ما فعله فعلاً.

شعرت بأنني ما زلت غير واثقة إن كنت أريد أن أخبره عن الدكتور ناش، إذ إنه بدا الآن متعباً وشبه محبط، وأخذ يتنهد بشكل متكرر ويبتسم فقط عندما أنظر إلى عينيه وأبتسم له. فكرت في إطلاعه على الأمر لاحقاً بالرغم من أنني لم أعرف إن كان من الممكن أن أجد وقتاً أفضل من هذا، ولم أستطع أن أمنع نفسي من الشعور بأنني الملامة على مزاجه الحالي سواء أكان بسبب شيء فعلته أم لم أفعله. أدركت الآن مدى اهتمامي لأمر هذا الرجل، ولم أستطع أن أعرف إن كنت أحبه فعلاً، وما زلت لا أستطيع معرفة ذلك، ولكن هذا لأنني لا أعرف فعلاً ما يعنيه الحب. وبالرغم من الذكرى الضبابية البراقة التي تراودني عن آدم، فإنني أشعر بحبي له وبرغبتي في حمايته ومنحه كل حياتي، وبأنه يشكل جزءاً مني وبأنني من دونه ناقصة. أما أمي، فإنني أشعر عندما أراها بعين عقلي بنوع مختلف من الحب. إنها رابطة أكثر كمالاً، ولكنني لا أفهمها كلياً. ولكن ماذا عن بن؟ إنني أجده جذاباً وأثق به بالرغم من الأكاذيب التي قالها لي، وأعرف في قرارة نفسي أنه يسعى لمصلحتي في أعماقه، ولكن، أيمكنني القول إنني أحبه في حين أنني مدركة أنني لم أعرفه لأكثر من بضع ساعات؟

لم أكن أعرف فعلاً، ولكنني أردت أن أسعده وأن أكون تلك المـرأة الـتي تشكل مصدر إلهامه ومحبته. قررت أن أبذل المزيد من الجهود لأغير نفسي، فمـن الممكن أن أستغل هذا السجل لأحسن كلاً من حياتي وحياتــه، ولـيس حيـاتي وحدها.

أوشكت أن أسأله عن موعد ذهابنا لزيارة القبر بينما أنا أناوله أحد الأطبــاق الذي لا بدّ من أنني أفلتته قبل أن يمسكه بإحكام فتهشم على الأرض، وصــاحب تهشّمه صوت بن وهو يتمتم قائلاً: تباً! لقد تحول الطبق إلى مئات القطع الصغيرة. قلت: "إنني آسفة". ولكن بن لم ينظر إليّ بل جلس القرفصاء وهو يتمتم بصـوت منخفض، فقلت له: "أنا سأفعل هذا!"، ولكنه تجاهلني. وأخذ يلتقط القطع الكبيرة ويجمعها بيده اليمنى.

قلت مرة ثانية: "إنني آسفة. فأنا خرقاء جداً".

لا أعرف ما الذي توقعته منه: أهو السماح أم التأكيد بأن ذلك ليس مهمـاً؟ ولكن بن قال بدلاً من ذلك: "تباً!"، وأوقع بقايا الطبق وبدأ يمـص إبهـام يـده اليسرى. وتساقطت قطرات من الدم على الأرضية.

قلت: "هل أنت بخير؟".

نظر إلي وقال: "نعم، لقد جرحت إصبعي. هذا كل شيء".

"دعني أرى".

فقال: "هذا لا يهم". ونهض.

كرّرت ما طلبته منه مجدّداً: "دعني أرى". ومددت يـدي إلى يـده قائلـةً: "سأذهب وأحضر ضمادة أو لصاقة. هل لدينا...؟".

قال وهو يبعد يدي عنه: "حباً بالله! دعيني وشأني! اتفقنا؟".

وقفت وأنا أشعر بأنني مصعوقة من تصرفه، واستطعت أن ألاحظ أن الجـرح عميق، وأن الدم أخذ يسيل في خط رفيع على معصمه. لم أعرف ما يجـب علـيّ فعله أو قوله. لم يصرخ بن في وجهي، ولكنه لم يبدِ أي محاولة لإخفاء انـزعاجه. وقفنا قبالة بعضنا بصمت وكأننا متوازنان على شفير المشاجرة وكل واحـد منـا ينتظر الآخر ليتكلم وهو غير متأكد مما حدث ومن مدى الأهمية التي تنطوي عليها اللحظة.

لم أستطع الاحتمال أكثر من ذلك، فقلت له بالرغم من استيائي: "إنني متأسفة".

فلانت ملامحه قليلاً وقال: "لا بأس. إنني آسف أيضاً، فأنا أشعر بأنني متوتر فحسب على ما أعتقد. فقد أمضيت يوماً عصيباً".

أخذت منشفة صغيرة من مناشف المطبخ وأعطيته إياها قائلةً: "يجب أن تنظف جرحك".

أخذها مني وقال: "شكراً لك". وجفف الدم من على معصمه وأصابعه، ثمّ قال: "سأصعد إلى الطابق العلوي وآخذ حماماً". ثم اقترب وطبع قبلة على خدي قائلاً: "حسناً؟".

أومأت برأسي بينما استدار هو ليغادر الغرفة.

سمعت باب الحمام ينغلق وصوت فتح الصنبور وغليان السخان بجانبي.

جمعت بقايا قطع الزجاج ووضعتها في سلة المهملات بعد أن لففتها بقطعة ورق وكنست القطع الصغيرة قبل أن أمسح الدم بالليفة. وعندما أنهيت العمل على التنظيف، توجّهت إلى غرفة المعيشة.

سمعت الهاتف يرن، ولكن صوته بدا مكتوماً داخل حقيبتي، فأخرجته لأرد عليه. كان المتصل هو الدكتور ناش.

أبقيت التلفزيون شغالاً ورددت على الهاتف بسرعة. استطعت سماع صوت صرير ألواح الخشب فوقي بينما كان بن يمشي متنقلاً من غرفة إلى أخرى في الطابق العلوي. لم أكن أريده أن يسمعني أتحدث عبر الهاتف الذي لا يعرف أنني أملكه أساساً، فهمست قائلة: "مرحباً؟".

قال صاحب الصوت على الطرف الآخر: "كريستين! أنا إد. الدكتور ناش. أيمكنك أن تتحدثي إليّ؟".

بالرغم من أن صوته بدا عصر اليوم هادئاً وشبه حالم، فقد ظهر في صوته الآن الإلحاح واليأس، فأوجست في نفسي خيفة.

قلت بصوت منخفض أكثر: "نعم، ما الأمر؟".

فقال: "أصغي إلي، هل تحدثت إلى بن؟".

قلت: "نوعاً ما. لماذا؟ ما المشكلة؟".

"هل أخبرته بشأن سجلك؟ وبشأني أنا؟ هل دعوته لزيارة دار رعاية وورينغ؟".

فقلت: "كلا، لقد أوشكت أن أخبره. إنه في الطابق العلوي. إنني... أصغ إلي. ما المشكلة؟".

عندئذٍ تنهد وقال: "إنني آسف. إن الأمر على الأرجح لا يدعو للقلق، ولكنه يتعلق بامرأة اتصلت بي لتوها من وورينغ. إنها المرأة نفسها التي تحدثت إليها صباح اليوم، واسمها نيكول. اتصلت لتعطيني رقم هاتف. فقد قالت إن صديقتك كلير ذهبت إلى هناك على ما يبدو رغبة منها في التحدث إليك وتركت لهم رقمها".

شعرت بأعصابي تصبح مشدودة، وسمعت صوت تدفق الماء في المرحاض وصوت سيلان الماء في المغسلة. فقلت: "لا أفهم ما تعنيه. هل حدث هذا مؤخراً؟".

قال: "كلا، لقد حدث هذا على ما يبدو بعد أن غادرت لتعيشي مع بن ببضعة أسابيع. وعندما لم تجدك كلير هناك، أخذت رقم بن، ولكنهم قالوا لي إنها اتصلت بهم مرة أخرى وقالت إنها فشلت في الاتصال به. وطلبت منهم أن يعطوها عنوانك، لكن، لم يتمكنوا من فعل ذلك بالطبع، وقالوا إن في وسعها أن تترك لهم رقمها في حال اتصلتِ بهم أو فعل هو هذا. عثرت نيكول على ملاحظة في ملفك بعد أن تحدثنا صباح اليوم. فعاودت الاتصال بي لتعطيني الرقم".

لم أفهم الهدف من حديثه، لذا قلت: "ولكن، لماذا لم يرسلوا الرقم إليّ أو إلى بن؟".

"حسناً، لقد قالت نيكول إنهم فعلوا ذلك، ولكنهم لم يتلقوا رداً من أي منكما". سكت قليلاً ثم قال: "هل أعطاكِ بن رقم كلير؟".

قلت: "كلا، لقد قال لي إننا فقدنا الاتصال معاً قبل سنوات لأنها انتقلت بعد زواجنا بفترة قصيرة إلى نيوزيلاندا".

قال الطبيب: "حسناً. كريستين؟ لقد ذكرت لي هذا من قبل، ولكن هذا الرقم ليس رقماً دولياً".

شعرت بموجة من الرعب تكتسحني بالرغم من أنني لم أعرف سببها.

"إذاً، هل عادت إلى هنا؟".

"لقد ذكرت نيكول إن كلير اعتادت أن تزورك طوال الوقت في دار رعاية ووربنغ، وأنها تواجدت هناك تقريباً بقدر ما تواجد بن. ولم تسمع أي شيء عن انتقالها إلى نيوزيلاندا ولا إلى أي بلد آخر".

بدأ كل شيء يدور من حولي ويتحرك بسرعة رهيبة عجزت عن استيعابها. استطعت أن أسمع صوت بن في الطابق العلوي، وكانت مياه الصنبور قد توقفت عن الجريان الآن وهدأ صوت السخان. لا بد من وجود تفسير منطقي لهذا. لا بد من وجود ذلك. شعرت بأن كل ما أريد فعله هو التخفيف من سرعة الأحداث قليلاً لأستوعب ما يجري وأفهم ماهيته. أردت الطبيب أن يتوقف عن الكلام ويتراجع عن الأشياء التي قالها، ولكنه لم يفعل ذلك.

قال ناش: "هناك شيء آخر. إنني آسف يا كريستين، ولكن نيكول سألتني عن حالك، فأخبرتها عنك. قالت لي إنها متفاجئة من أنك عدت للعيش مع بن. فسألتها عن السبب الذي دفعها لقول هذا".

سمعت نفسي أقول وأنا آخذ نفساً عميقاً: "حسناً، تابع".

"إنني آسف يا كريستين، ولكن أصغي إلي جيداً. لقد قالت نيكول إنك وبن مطلقان".

دارت الغرفة من حولي، فتشبثت بذراع الكرسي لأثبت نفسي. إن هذا لا يعقل. رأيت على شاشة التلفزيون امرأة شقراء تصرخ في وجه رجل أكبر منها سناً وتقول إنها تكرهه. فأردت أن أصرخ بدوري أيضاً.

قلت: "ماذا؟".

"لقد قالت إنك وبن منفصلان وإنه تركك بعد بضع سنوات من انتقالك إلى ووربنغ".

قلت: "منفصلان؟" شعرت بأن الغرفة تتراجع من حولي وتصغر وكأنها تختفي وتتلاشى. فقلت: "هل أنت متأكد؟".

"نعم، على ما يبدو. هذا ما قالته. قالت إنها شعرت بأن لهذا علاقة بكلير. ولم تزد على ذلك أي شيء آخر".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"كلير؟".

قال: "نعم". وبالرغم من الارتباك الذي تملكني، فقد استطعت أن أدرك من صوته مدى صعوبة خوض هذه المحادثة بالنسبة إليه، واستشعرت بالتردد الظاهر في صوته واختياره المتأني من بين الاحتمالات العديدة ليقرر أي كلمة هي الأفضل لقولها. قال: "لا أعرف لماذا لا يخبرك بن بكل شيء. إنني واثق من أنه يظن أن هذا هو الخيار الصحيح. إنه يحاول أن يحميك. ولكن الآن؟! لا أعرف. ألاّ يخبرك بأن كلير لا تزال في البلاد؟ وألاّ يذكر شيئاً عن طلاقكما؟ لا أعرف. إن هذا لا يبدو صواباً". لم أقل شيئاً، لذا تابع قائلاً: "ظننت أنه يمكنك أن تتحدثي إلى كلير، إذ ربما تعثرين لديها على تفسير ما، وربما يمكنها حتى أن تتحدث إلى بن. لست واثقاً تماماً". وسكت مرة أخرى ثم قال: "كريستين؟ ألديك قلم؟ هل تريدين أن تأخذي الرقم؟".

ابتلعت ريقي بصعوبة وقلت: "نعم، من فضلك".

مددت يدي إلى زاوية الصحيفة الموضوعة على طاولة القهوة والقلم الذي بجانبها ودونت الرقم الذي أعطاني إياه. سمعت صوت إغلاق باب غرفة النوم وصوت وقع خطوات بن وهو يخرج إلى الممر.

قال الدكتور ناش: "سأتصل بك غداً يا كريستين. لا تذكري أي شيء أمام بن حتى نكتشف حقيقة ما يجري. أأنتِ موافقة؟".

سمعت نفسي أوافق على كلامه ثم أودعه. قال لي ألا أنسى أن أدوّن ما قاله لي في السجل قبل أن أخلد إلى النوم. فوعدته أن أفعل ذلك. كتبت اسم كلير بجانب الرقم وأنا لا أزال أجهل ما سأفعله ثم اقتطعت الورقة من الصحيفة ووضعتها في حقيبتي.

لم أقل شيئاً عندما نزل بن إلى الطابق السفلي وجلس على الأريكة مقابلي، بل ثبّت نظري على التلفزيون إذ كان يُعرَض برنامج وثائقي عن الحياة البرية والحياة في أعماق البحار. ظهر في البرنامج مركب يمكن التحكم به عن بعد لاستكشاف خندق تحت الماء. وكان هناك مصباحان يدويّان يشعان من مكانين لم يشاهدا النور من قبل. إنها أشباح الأعماق!

أردت أن أسأله إن كنت لا أزال على اتصال بكلير، ولكنني لم أرغب في سماع كذبة أخرى من أكاذيبه. كان هناك حبّار ضخم في الأعماق المظلمة وقد بدا

ساكناً تماماً والتيار الناعم يجرفه بلطف. قال معلّق البرنامج إن أحداً لم يصور هـذا المخلوق من قبل قط.

قال بن: "هل أنت بخير؟". فأومأت برأسي من دون أن أشيح بوجهي عن الشاشة.

فنهض وقال: "لدي عمل لأنجزه في الطابق العلوي. سأراك عندما أخلد إلى النوم".

عندئذ نظرت إليه وأنا أشعر بأنني لم أعد أعرف من يكون.

قلت: "سأراك لاحقاً".

يوم الأربعاء 21 تشرين الثاني

أمضيت طوال فترة الصباح وأنا أقرأ سجلي، ومع ذلك، فقد تخطيت منه بعض الصفحات، أما بعض الصفحات الأخرى فقد قرأتها مراراً وتكراراً محاولة أن أثبتها في ذهني وأحمل نفسي على تصديقها. والآن، أجلس في غرفة النوم لأكتب المزيد.

أضع الهاتف في حضني؛ تُرى لماذا أشعر بأنه من الصعب كثيراً أن أطلب رقم كلير؟ إن كل ما عليّ فعله هو الإمساك بالهاتف وطلب الرقم، وهذا هو كل ما في الأمر. فلا شيء معقد أو صعب. ومع ذلك، فإنني أشعر بأنه من الأسهل بكثير أن أمسك قلماً وأدوّن أحاسيسي على الورق.

صباح اليوم، دخلت إلى المطبخ وفكرت في أن حياتي مبنية بأكملها على رمال متحركة تتغير من يوم إلى آخر. فقد اكتشفت أن كل الأشياء التي أظن أنني أعرفها غير صحيحة، وأن الحقائق الوحيدة التي أعرفها حق المعرفة عن نفسي وحياتي تعود إلى سنوات موغلة في القدم. أشعر بأن كل التاريخ الذي أقرأه قصة خيالية: كالدكتور ناش، وبن، وآدم، والآن كلير. إنهم موجودون فعلاً، ولكنهم أشبه بظلال تتراقص في الظلام، وغرباء مروا مرور الكرام بحياتي وترابطوا مع بعضهم بعضاً وانفصلوا كأشباح أثيرية ورمال ناعمة تتسرّب من بين أصابعي.

إن كل شيء يبدو في نظري مبتدعاً ومستحضراً من العدم، ولهذا، فأنا متلهفة للوقوف على أرض صلبة والاعتماد على شيء حقيقي لا يتلاشى عندما أنام. أريد أن أثبت نفسي.

فتحت سلة المهملات فتصاعدت منها أبخرة حارة - لا بد من أنها حرارة التحلل والفساد - وفاحت منها رائحة خفيفة أشبه برائحة طعام فاسد متعفن. عثرت على صفحة من صحيفة وردت فيها لعبة الكلمات المتقاطعة، وكيس شاي واحد جعلها مشبعة باللون البني. أخذت نفساً عميقاً وانحنيت على الأرض.

وجدت داخل الصحيفة قطع زجاج وبقايا طعام وغباراً أبيض، وتحتها كيس مغلق. أخرجته وأنا أتخيله مليئاً بالحفاضات المتسخة. وقررت أن أفتحه لاحقــاً إن اضطررت إلى ذلك. وعثرت تحته على قشور بطاطا وزجاجة بلاستيكية شبه فارغة يتسرب منها الكتشب. فدفعت كل هذا جانباً.

رأيت قشور بيض يبلغ عددها أربــع أو خمــس بيضــات وقبضــة مــن قشور البصل وبقايا حبة فلفل أحمر منــزوعة البذور وحبة فطــر كــبيرة شــبه متعفنة.

غمرني الشعور بالرضا، وأعدت وضع الأشياء في السلة وأغلقتها. فقد تحققت أخيراً من صحة ما جرى معي الليلة الماضية، وتأكدت من أننا تناولنا العجة فعــلاً. وعثرت على بقايا الصحن المكسور. نظرت إلى داخل الثلاجة فرأيت فيها قطعــتي لحم موضوعتين على صينية بلاستيكية وقد بدأ الجليد بالذوبان عنهما. وفي مدخل البيت، وجدت خف بن موضوعاً أسفل الدرج. كان كل شيء في المكان الــذي ذكرته بالتحديد. وهكذا، فأنا لم أخترع شيئاً مما كتبته، إذ إن كل شيء موجود في مكانه الصحيح.

وكان هذا يعني أيضاً أن الرقم الذي معي رقم كلير، وأن الدكتور ناش اتصل بــي فعلاً، وأنني وبن مطلقان.

أشعر الآن برغبة في الاتصال به وسؤاله عما يجب أن أفعله أو ربما الطلب منه أن يفعله نيابة عني، ولكن، إلى متى سأبقى مجرد ضيفة عابرة في حياتي الخاصة؟ إلى متى سأظل سلبية هكذا أنتظر المبادرة من الآخرين؟ يجب أن أتولى زمام السيطرة في حياتي. راودني هاجس من ألا أرى الدكتور ناش مجدداً، ولا سيما بعد ما قلته لــه، ولكنني لا أفسح لهذا الهاجس مجالاً لغرس جذوره عميقاً. وعلى أيّ حال، عليّ أن أتحدث إلى كلير بنفسي.

ولكن، ماذا سأقول لها؟ يبدو أن هناك الكثير لنتحدث عنه، ومــع ذلــك لا يبدو أن هناك شيئاً فعلاً نتحدث عنه. هناك تاريخ طويل بيننا، ولكنني مع الأسف لا أعرف عنه شيئاً.

أفكر في ما قاله لي الدكتور ناش عن سبب انفصالي عن بن، فقــد ذكــر أن السبب يتعلق بكلير.

إن هذا كله منطقي تماماً. إذ قبل سنوات عديدة، وعندما غدوت أحتـاج إلى زوجي أكثر من أي وقت آخر من دون أن أفهمه فعلاً، طلقني وتخلى عني. والآن، بعد أن عدنا معاً يقول لي إن صديقتي المفضلة انتقلت إلى آخر الدنيا قبل أن يحدث كل هذا.

ألهذا السبب أشعر بأنني عاجزة عن الاتصال بها؟ ألأنني أخشى أن تكون لديها أسرار لا أتخيل فداحتها؟ ألهذا السبب يبدو بن غير متحمس لتشجيعي على تــذكر أي شيء؟ أهذا هو السبب الذي يدفعه لأن يقترح أن أي محاولات لعلاجي عقيمة ولا فائدة ترجى منها لدرجة أنني لن أستطيع أبداً أن أربط الــذكرى بالــذكرى وأعرف ما يجري من حولي فعلاً؟

إنني لا أتخيله قادراً على ارتكاب هذا، إذ إنه لا يوجد أحد يقدر عليه فعــلاً لأنه تصرف سخيف. أفكر في ما قاله لي الدكتور ناش عن الوقت الذي أمضيته في المستشفى، فقد قال إنني كنت أدعي أن الأطباء يتآمرون ضدي، وإنــني أظهــرت بعض أعراض جنون الارتياب.

أتساءل إن كان هذا ما يحدث معي الآن.

فجأة، تغمرني ذكرى جديدة وتصيبني بقوة غامرة عندما تبزغ من بين فجوات الماضي لتعيدني إليها، ولكنها عندئذ تختفي فجأة بسرعة كما ظهرت. أرى نفسي بصحبة كلير في حفلة أخرى وهي تقول لي: "إن هذا مزعج جداً! أتعرفين ما هي مشكلة البشر الحقيقية؟ إن الجميع لا يأبهون إلا للعلاقات الجسدية كالحيوانات. ومهما حاولنا جهدنا لنرقص ونرتدي ملابس لائقة كالجميع، فهذه هي حقيقتنا".

أمن المعقول أن يكون بن وكلير قد لجأ للعزاء بين أذرعة بعضهما بينما كنت أحترق أنا في نار عذاب حياتي الخاصة؟

أنظر إلى حضني وأرى الهاتف. ليست لدي أيّ فكرة عن المكان الذي يقصده بن عندما يغادر المنــزل كل صباح. وليست لدي فرصة لأن أبني شكاً فوق آخر وأربط بين حقيقة وأخرى. فلو أنني رأيت بن وكلير في غرفة مغلقة معــاً، فــإنني سأنسى في اليوم التالي كل ما رأيته. إنني المرأة المثالية لأن يخونها زوجها، لذا، فربما لا يزالان يقابلان بعضهما.

تراودني هذه الأفكار، ولكنني في الوقت ذاته أستبعدها، وأشعر بأنني أثق بين ولا أثق به في الوقت نفسه. من الممكن تماماً أن تتواجد وجهتا نظر متناقضتان في الوقت نفسه وتتصارعان في ما بينهما.

ولكن، ما الذي قد يدفعه للكذب عليّ؟ إنه يحسب نفسه يحسن صنيعاً. أواصل إقناع نفسي بهذه الحقيقة، وأنه يحميني ويبعد عني الأشياء الضارة التي لا تفيدني معرفتها.

طلبت الرقم بالطبع، إذ إنه من غير المعقول أن أقف مكتوفة اليدين هكذا دائماً. رن الهاتف لبعض الوقت. وبعد ذلك، سمعت نقرة وصوتاً يقول: "مرحباً! من فضلك اترك رسالة".

ميزت الصوت على الفور: إنه صوت كلير، إذ إنه من المستحيل أن أخطئه.

تركت لها رسالة قلت فيها: "من فضلك اتصلي بي. أنا كريستين".

نزلت إلى الطابق السفلي؛ فقد فعلت كل ما في وسعي فعله.

* * *

انتظرت ساعات عدة، وأمضيت الوقت كله وأنا أكتب في سجلي. وعندما لم تتصل كلير، أعددت شطيرة وتناولتها في غرفة المعيشة. وبينما أنا في المطبخ أمسح الطاولة وأكنس الفتات عن الأرض وأهيئ نفسي لرميها في القمامة، وإذ بجرس الباب يرنّ، فأجفلت من سماع الرنين. وضعت الإسفنجة وجففت يدي بالمنشفة المعلقة فوق الفرن وذهبت لأرى من الطارق.

رأيت من خلال الزجاج المكسو بالبخار خيال رجل لا يرتدي زياً موحداً، بل يرتدي شيئاً أشبه ببدلة ويضع ربطة عنق. أهو بن يا ترى؟ ولكنني استدركت أنه لا يزال في العمل، ففتحت الباب.

إنه الدكتور ناش. لقد ميزته على الفور لأنني لم أكن أتوقع وصول شخص آخر بالطبع، وربما أيضاً لأن شكله بدا مألوفاً بالرغم من أنني لم أستطع أن أتخيل صورته عندما قرأت عنه صباح اليوم في السجل وبالرغم من أنني لم أميز شكل زوجي حتى بعد أن عرفني إلى نفسه. كان شعره قصيراً ومسرحاً بأناقة، وربطة عنقه مرخية وغير مرتبة وكنزته التي يرتديها تحت السترة غير مناسبة.

لا بد من أنه لاحظ نظرة الدهشة على وجهي فقال: "كريستين؟".

قلت: "نعم، أنا". لم أفتح الباب أكثر من فتحة صغيرة.

قال: "هذا أنا. إد ناش. الدكتور ناش".

قلت: "أعرف. أنا...".

"هل قرأت سجلك؟".

"نعم، ولكن...".

"هل أنت بخير؟".

- "نعم، أنا بخير".

قال بصوت منخفض: "هل بن في البيت؟".

"كلا، إنه ليس هنا، ولكن كل ما في الأمر أنني لم أتوقع حضورك. هل رتبنا لموعد اليوم؟".

التزم الصمت لبرهة قصيرة من الزمن، ولكنها بدت كافية لكسر إيقاع محادثتنا. لم أتذكر أنني ضربت معه موعداً للقاء اليوم أو أنني ربما على الأقل لم أكتب عن ذلك.

قال الطبيب: "نعم، ألم تدوني ذلك؟".

لم أفعل، ولكنني لم أقل شيئاً. وقفنا على عتبة باب البيت الذي كنت أعجز عن التصديق أنه بيتي ونحن ننظر إلى بعضنا بارتباك. وفي نهاية المطاف، تحدث قائلاً: "أتسمحين لي بالدخول؟".

لم أجبه في البداية، إذ إنني لم أكن متأكدة من أنني أريد أن أدعوه فعلاً. فقد بدا هذا التصرف أقرب إلى الخيانة.

ولكن خيانة ماذا؟ ثقة بن؟ لم أعد أعرف مدى أهمية ثقته بالنسبة إليّ بعد الآن، ولا سيما بعد أكاذيبه التي أمضيت معظم فترة الصباح وأنا أقرأ ما كتبته عنها.

قلت: "نعم". وفتحت الباب. أومأ برأسه وهو يدخل إلى البيت ويلقي نظرات خاطفة إلى اليمين وإلى اليسار. أخذت معطفه وعلقته على المشجب بجانب معطف المطر الذي أحسبه معطفي أنا. قلت وأنا أشير إلى غرفة المعيشة: "تفضل من هناك". فدخل الطبيب.

أعددت شراباً لكل منا وأعطيته شرابه وجلست قبالته وكوبي بيدي. لم يقل شيئاً. فأخذت رشفة ببطء منتظرة منه أن يفعل الشيء نفسه. وفي نهاية المطاف، وضع كوبه على الطاولة التي تفصل بيننا.

قال: "ألا تتذكرين أنك طلبت مني أن آتي إلى هنا؟".

فقلت: "كلا، متى طلبت منك ذلك؟".

قال: "صباح اليوم عندما اتصلت بك لأخبرك عن مكان وجود السجل". فأصابني كلامه ببرودة سرت في أوصالي، إذ إنني لم أتذكر شيئاً عن اتصاله بي صباح اليوم، وما زلت لا أتذكر حتى الآن بعد أن غادر.

فكرت في أشياء أخرى كتبت عنها من قبل مثل طبق البطيخ الذي لا أتذكر أنني طلبته وقطعة الحلوى التي لم أطلبها.

قلت: "لا أتذكر". وتضاعف الفزع في داخلي.

ظهر القلق على ملامحه فقال: "هل نمت اليوم نهاراً؟".

فقلت: "كلا، لم أنم على الإطلاق، ولكنني لا أتذكر شيئاً. متى حدث هذا؟ متى؟".

قال: "اهدئي يا كريستين. إن الأمر غير مهم على الأرجح".

"ولكن ماذا لو... إنني لا...".

"من فضلك يا كريستين. إن هذا لا يعني شيئاً. لقد نسيت، وهذا كل ما في الأمر. إن كل الناس ينسون بعض الأشياء أحياناً".

"ولكن أن أنسى مكالمة هاتفية كاملة؟ لا بد من أن هذا حدث قبل بضع ساعات!".

قال: "نعم". تحدث بلطف محاولاً أن يهدئني، ولكنه لم يتحرك من مكان جلوسه، وتابع قائلاً: "ولكنك عانيت الكثير مؤخراً. لطالما كانت ذاكرتك متنوعة، ولهذا، فنسيان شيء ما لا يعني أن حالتك تتدهور وأنك لن تتحسني مرة أخرى. اتفقنا؟". أومأت برأسي محاولة أن أصدقه ومتلهفة لتصديقه. قال الدكتور ناش: "لقد دعوتني إلى هنا لأنك أردت أن تتحدثي إلى كلير ولكنك كنت غير واثقة من أنك تستطيعين ذلك. و...". أخذ نفساً عميقاً وقال: "طلبت مني أن أتحدث إلى بن نيابة عنك".

بعد دقيقة من الصمت قلت له: "أفعلت هذا حقاً؟".

"نعم، فقد قلت إنك غير قادرة على فعل هذا بمفردك".

نظرت إليه وفكرت في كل الأشياء التي كتبتها، وأدركت أنني لا أصدقه، إذ إنني لم أطلب منه المجيء إلى هنا، و لم أرد منه أن يتحدث إلى بن. لماذا قد أقرر فعل هذا في الوقت الذي قررت فيه أساساً ألا أخبر بن بشيء؟ لماذا قد أطلب منه أن يأتي إلى هنا ليساعدني على التحدث إلى كلير في حين أنني اتصلت بها بنفسي وتركت لها رسالة؟

تبادر إلى ذهني أنه يكذب، وتساءلت عن الأسباب التي قد تدفعه للقدوم إلى هنا، وما الذي قد يشعر بأنه غير قادر على إخباري به.

ليست لدي ذاكرة ولكنني لست غبية، فقلت: "لماذا أتيت إلى هنا فعلاً؟". ربما أراد رؤية داخل المنزل الذي أعيش فيه، أو رؤيتي لمرة أخيرة قبل أن أتحدث إلى بن. قلت: "هل أنت قلق من ألا يسمح لي بن بمقابلتك مجدّداً بعد أن أخبره عن لقاءاتنا؟".

قال: "كلا، ليس الأمر هكذا. لقد أتيت إلى هنا بناء على طلبك. وبالإضافة إلى ذلك، فقد قررت ألا تخبري بن بأنك تقابلينني إلى أن تتحدثي إلى كلير. أتتذكرين هذا؟"

هززت رأسي، وفكرت للحظة، ولكنني لم أتذكر شيئاً فعلاً. ولم أستطع أن أعرف عمّا يتحدث.

قلت: "إن كلير على علاقة بزوجي".

هز رأسه وقال: "كريستين. إنني...".

قلت: "إنه يعاملني وكأنني غبية ويكذب عليّ بشأن كل شيء، ولكنني لست غبية".

قال: "إنني على يقين من أنك لست كذلك. ولكن لماذا...".

قلت: "لقد مضى وقت طويل على علاقتهما. إن هذا يفسر كل شيء، ويبين سبب قوله لي إنها انتقلت من البلاد. لماذا لا تأتي لزيارتي مع أنه من المفترض أنها صديقتي الحميمة؟".

قال: "إنك لا تفكرين بصورة صحيحة يا كريستين". قام الطبيب من مكانه وجلس بجانبي على الأريكة. قال: "إن بن يحبك. لقد تحدثت إليه. أتتذكرين

هذا؟ قبل عام أو نحو ذلك. ربما لم أخبرك بهذا. أردت أن أقنعه بأن يسمح لي بمقابلتك. وأثبت لي كلامه شدة إخلاصه لك. فقد قال لي إنه خسرك مرة ولا يريد أن يخسرك مرة ثانية، وإنه رآك تعانين جراء كل العلاجات التي حاول الآخرون أن يجربوها عليك، ولا يريد أن يراك تعانين المزيد من الآلام. إنه يحبك ويحاول أن يحميك، وهذا واضح وضوح الشمس".

فكرت في ما قرأته صباح اليوم عن الطلاق وقلت: "ولكنه تركني ليذهب إليها".

قال: "إنك لا تحكّمين عقلك يا كريستين. لو كان هذا الكلام صحيحاً فعلاً، فلماذا أعادك إلى البيت؟ لقد كان ليتركك في دار رعاية وورينغ، ولكنه لم يفعل ذلك. إنه يبذل ما في وسعه ليعتني بك عناية جيّدة كل يوم".

أحسست بجسدي ينهار وبجدران الغرفة تنطبق عليّ. كنت أفهم كلماته وفي الوقت نفسه لا أفهمها. وشعرت بالدفء الذي يمنحني إياه وجوده إلى جانبي، ورأيت اللطف نابعاً من عينيه. ابتسم لي وأنا أنظر إليه. وبدأ يزداد حجماً حتّى لم أعد أرى غيره، و لم أعد أسمع سوى صوت أنفاسه. تحدث إليّ، ولكنني لم أسمع ما قاله لأنني لم أعد أسمع سوى كلمة واحدة. إنها كلمة الحب.

لم أعتزم فعل ما فعلته و لم أخطّط لحدوثه. فقد حدث هكذا ببساطة شديدة قلبت فجأة موازين الأمور. وفي تلك اللحظة، لم أشعر سوى بنفسي وأنا بين ذراعيه وذراعاي تحيطان بعنقه. شعرت بشعره مبللاً، ولكنني لم أعرف السبب أو آبه لمعرفته. أردت أن أتكلم معه وأخبره بما أشعر به، ولكنني لم أفعل لأنني خشيت أن أبتعد عنه وأنهي اللحظة التي أردتها أن تمتد إلى الأبد. وأخيراً، شعرت بأنني امرأة حقيقية تملك زمام المبادرة على حياتها. وتذكرت أنه لم يحدث أن عانقت شخصاً آخر سوى زوجي.

لا أعرف كم استمرت تلك اللحظة. ولا أعرف كيف حدث وأصبحنا جالسين على الأريكة بجانب بعضنا، وكيف تضاءلت وصغرت حتى كدت أن أتلاشى بين ذراعيه. لا أتذكر كيف حدث ذلك، وهذا لا يعني أنني لا أتذكر أنني أردته. إنني لا أتذكر كيف بدأ بل أتذكر فقط أنني انتقلت من حالة إلى أخرى ولا شيء بينهما، ولا فرصة للتفكير الواعي أو اتخاذ القرارات.

لم يدفعني بعيداً بقسوة، فقد تصرف بمنتهى اللطف ومنحني ما أردته على الأقل. لم يوبخني أو يصرخ في وجهي ليسألني عما أفعله بالرغم من أنني نفسي لم أكن أعرف ما الذي أفعله. فقد قام ببساطة بإبعاد يديه عني وإبعاد يدي اللتين استقرتا على كتفيه ثم قال بنعومة: "كلا".

شعرت بأنني مصعوقة مما فعلته ومن رد فعله في آن معاً. فقد شعرت في تلك اللحظة بأنني أصبحت امرأة جديدة بزغت إلى حيز الوجود واستولت عليّ كلياً ثم تلاشت وخلفتني وحيدة. ومع ذلك، فلم يتملكني الرعب ولا خيبة الأمل. فقد غمرتني السعادة والبهجة لأن شيئاً ما حدث بسبب تلك المرأة الأخرى.

نظر إلي وقال: "إنني آسف". لم أستطع أن أعرف رأيه بما حدث. أهو الغضب؟ أم الشفقة؟ أم الندم؟ كل واحد من هذه الأمور ممكن. وربما كان التعبير الذي رأيته على وجهه مزيجاً من المشاعر الثلاثة جميعاً. كان لا يزال يمسك بيديّ ويضعهما على حضنه ثم يتركهما. وقال مرة ثانية: "إنني آسف يا كريستين".

لم أعرف ما عليّ قوله أو فعله. فالتزمت الصمت وأوشكت على الاعتذار ثم قلت: "إنني أحبك يا إد".

أغمض عينيه وابتلع ريقه وقال: "كريستين... إنني...".

قلت: "من فضلك، لا تفعل هذا. لا تقل لي إنك لم تشعر بذلك أيضاً".

فعبس. قلت له: "إنك تعرف أنك تحبني".

فقال: "كريستين. من فضلك... من فضلك... إنك...".

قلت: "ماذا؟ مجنونة؟".

نظر إلي بشكل مباشر وقال: "كلا، إنك مرتبكة، هذا كل ما في الأمر".

فضحكت وقلت: "مرتبكة؟".

قال: "نعم، إنك لا تحبينني. أتتذكرين ما قلناه عن ابتداع الأمور؟ إنه شائع جداً لدى الناس الذين في مثل...".

فقلت: "نعم، أعلم. إنني أتذكر هذا. إنك تقصد الناس الذين يعانون فقدان الذاكرة. أهذا هو ما تظنه؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"إنه ممكن جداً".

عندئذ كرهته للحظة واحدة فقط. فقد كان يحسب نفسه يعرف كل شيء ويعرفني أكثر مما أعرف نفسي، ولكن الحقيقة أنه لم يكن يعرف عني سوى حالتي المرضية فقط.

قلت: "إنني لست غبية".

"أعرف هذا يا كريستين. لا أظن أنك كذلك. إنني أظن وحسب...".

"لا بد من أنك تحبني".

تنهد بأسى، واستولى عليّ الإحباط لتصرفه. بدأ صبره ينفد، فبدأ قائلاً: "ولكن...".

"إنك لم تخبرني بأنني وبن منفصلان. لماذا؟ لماذا لم تخبرني؟".

فقال: "لم أكن أعرف بالأمر. وليس هناك سبب آخر لذلك. إنه ليس مذكوراً في ملفك ولم يخبرني به بن. لم أكن أعرف". التزمت الصمت. اقترب وكأنه يريد أن يمسك يدي مجدّداً ثم تراجع وحك جبينه بدلاً من ذلك. ثم قال: "كنت لأخبرك لو أنني أعرف".

قلت: "كنت لتخبرني؟ كما أخبرتني بشأن آدم؟".

عندئذ، بدا مجروح الشعور. قال: "من فضلك يا كريستين".

سألته: "لماذا أخفيت أمره عني؟ إنك شرير مثل بن".

قال الطبيب: "لا تقولي هذا يا كريستين. لقد مررنا بهذه الحالة من قبل. ففعلت ما ظننت أنه الأفضل لمصلحتك. لم يكن بن قد أخبرك بشأن آدم. ولم يكن من الممكن أن أخبرك أنا به، إذ إن هذا ليس صواباً وليس عملاً أخلاقياً".

ضحكت ضحكة ساخرة جوفاء وقلت: "أخلاقي؟ كيف يكون إخفاء أمره عني تصرفاً أخلاقياً؟".

"إن الأمر عائد لبن لأن يقرر أن يخبرك بأمر آدم أم لا. لست أنا من يقرر ذلك. لقد قررت أن أدعك تحتفظين بسجل لتدوّني ما عرفته من معلومات، وأنا أظن أن هذا من أجل مصلحتك".

"ماذا عن الهجوم الذي تعرضت له؟ لا بد من أنك سررت كثيراً لأن تدعني أظن خطأً بأنني تعرضت لحادث سيارة!".

"كلا، يا كريستين. لم أفعل ذلك. إن بن هو من أخبرك. ولم أكن على علم بما قاله لك. من أين لي أن أعرف؟".

فكرت في ما تذكرته وتخيلت مياه الحمام المعطرة بالبرتقال واليدين المحيطتين بعنقي، وشعوري بأنني أختنق وأعجز عن التنفس، والرجل الذي لم أرَ وجهه وأجهشت بالبكاء. قلت: "إذاً، لماذا أخبرتني بذلك؟".

تحدث بلطف، ولكنه لم يلمسني، فقال: "لم أخبرك شيئاً. لم أخبرك بأنك تعرضت لهجوم. فقد تذكرت ذلك بنفسك". وكان محقاً في ما قاله بالطبع، فشعرت بالغضب. قال الطبيب: "إنني يا كريستين...".

قلت له: "أريدك أن تغادر من فضلك". وبدأت أبكي بحرقة، ومع ذلك، فقد شعرت بحيوية غريبة. لم أكن أعرف بالتحديد ما الذي حدث للتو، وكنت بالكاد أتذكر ما قلته، ولكنني شعرت أن عبئاً مريعاً رفع عن كاهلي وأن سداً في داخلي انهار أخيراً.

قلت له: "ارحل من فضلك".

توقعت منه أن يجادلني ويتوسلني كي أسمح له بالبقاء، وأردته تقريباً أن يفعل ذلك، ولكنه لم يفعل. فقد قال: "هل أنتِ متأكدة من هذا؟".

أومأت برأسي وهمست قائلة: "نعم". وأشحت بوجهي عنه نحو النافذة مصممة على عدم النظر إليه مرة أخرى اليوم، وهذا يعني بالنسبة إليّ أنني قد لا أراه أبداً. نهض ومشى باتجاه الباب.

قال: "سأتصل بك غداً من أجل علاجك. إنني...".

قلت: "من فضلك، ارحل وحسب".

أومأ برأسه مرة واحدة، ولكنه لم يتفوه بأي كلمة أخرى. وسمعت الباب ينغلق خلفه بلطف.

جلست هناك لوقت امتد ربما لدقائق أو لساعات؛ لست أدري حقاً، وتسارعت دقات قلبي؛ وشعرت بالخواء والوحدة. وفي نهاية المطاف، صعدت إلى الطابق العلوي ودخلت إلى الحمام وأخذت أنظر إلى الصور المعلقة حول المرآة، ورأيت صورة زوجي بن، ورحتُ أتساءل عما فعلته. لم يعد لي أحد الآن أثق به

وألجأ إليه، فانتابتني الهواجس والأفكار المجنونة، وظللت أفكر في ما قاله الدكتور ناش: *إنه يحبك ويحاول أن يحميك*.

مِمَّ يريد أن يحميني؟ من الحقيقة. لطالما ظننت الحقيقة أهم من أي شيء آخر، ولكن، ربما أنا مخطئة.

دخلت إلى غرفة المكتب. وفكرت في أن بن كذب عليّ بشأن الكثير من الأشياء، لدرجة أنني أصبحت عاجزة عن تصديق أي شيء يقوله لي على الإطلاق.

أدركت أخيراً ما يجب عليّ فعله، إذ عليّ أن أعرف الحقيقة وأتأكد من أنني أستطيع أن أضع ثقتي به في هذا الأمر على الأقل.

وجدت الصندوق في المكان الذي أشرت إليه وحدّدته في سجلي، ولكنه كان مقفلاً كما توقعت بالتحديد، لكنّ ذلك لم يزعجني.

بدأت البحث عن المفتاح، وقررت ألا أتوقف عن البحث إلا بعد أن أعثر عليه. فتشت المكتب أولاً والأدراج الأخرى والطاولة، وفعلت ذلك ببطء وحرص. وفي النهاية، أعدت وضع كل شيء في مكانه المحدد. وعندما أنهيت البحث في المكتب، توجّهت إلى غرفة النوم وبحثت في الأدراج ونقبت تحت ملابس بن ومناديله وقمصانه المكوية بأناقة، لكنني لم أعثر على أي شيء، ولا حتى في الأدراج الخاصة بي أيضاً.

كانت هناك أدراج في الطاولتين المجاورتين للسرير، فقررت أن أبحث في كلا الجانبين. وبدأت بالطاولة المجاورة للجانب الذي أنام عليه عادة من السرير، وفتحت الدرج العلوي وبحثت داخله، فوجدت فيه أقلاماً وساعة معطّلة وبعض حبوب الأدوية التي لم أميزها. وبعد ذلك، فتحت الدرج السفلي.

في البداية، ظننته فارغاً، فأغلقته بلطف، ولكن، وبينما أفعل ذلك، سمعت صوت رنين خافت كصوت معدن يحتك بالخشب، ففتحته ثانية وقلبي يدق بسرعة:

لقد عثرت على مفتاح.

جلست على الأرض والصندوق المفتوح معي؛ وجدته طافحاً حتى آخره، ومعظم محتوياته عبارة عن صور لي ولآدم. بدت بعض الصور مألوفة، وهي على ما

أعتقد الصور التي أراني إياها من قبل، ولكن الكثير منها لم يبدُ كذلك. عثرت على شهادة ميلاده، والرسالة التي كتبها لسانتا، وبضع صور له وهو طفل يحبو على الأرض مبتسماً للكاميرا أو نائماً وهو مدثَّر بملاءة خضراء. كما رأيت صورته وهو يرتدي ملابس رعاة البقر، وصور مدرسته، وصوره وهو يركب الدراجة. كانت كل الصور موجودة بالإضافة إلى شهادة ميلاده أيضاً بالتحديد كما ذكرت في السجل.

رفعت كل الصور وفرشتها أمامي على الأرض وأنا أنظر إلى كل واحدة منها على حدة. كانت هناك صور لي ولبن أيضاً نظهر في إحداها أمام البرلمان مبتسمين، ولكننا بدونا واقفين بوضعية خرقاء وكأن كل واحد منا لا يدرك وجود الآخر إلى جانبه. ورأيت صورة من زفافنا نظهر فيها واقفين أمام دار عبادة تحت سماء ملبدة بالغيوم. بدت السعادة مرسومة على وجهينا، ولكننا بدونا حتى أكثر سعادة في الصور الأخرى التي التقطت ربما في شهر عسلنا. كنا في إحدى الصور جالسَين في أحد المطاعم إلى طاولة عليها وجبة نصف مأكولة ووجهانا مسفوعان بلهيب الشمس ومفعمان بالحب.

نظرت إلى الصورة، وبدأت الراحة تغمرني؛ فقد نظرت إلى المرأة الجالسة هناك مع عريسها تفكر في المستقبل الذي لا تستطيع أن تتوقعه ولا تريد ذلك. كما فكرت في التشابه الذي يجمع بيني وبينها، ولكنني أدركت أنني أشبهها؛ ربما بخلايا جسدي وأنسجته وحمضي النووي، وبصمتي الوراثية، ولكن، لا شيء آخر. إنها مجرد امرأة غريبة عني، ليس هناك ما يربطني بها، ولا سبيل للعثور على طريق العودة إليها.

ومع ذلك، فنحن شخص واحد. ويمكنني أن ألاحظ أنها واقعة في حب بن، ذلك الرجل الذي تزوجته والذي أستيقظ إلى جانبه كل يوم. لم ينكث بن العهود التي قطعها لي في ذلك اليوم وفي دار العبادة الصغيرة تلك في مانشستر، فهو لم يخذلني قط. نظرت إلى الصورة، وامتلأ قلبي بالحب.

أضع الصورة أرضاً وأستمر بالبحث. فأنا أعي تماماً ما أريد أن أعثر عليه وأخشى العثور عليه في آن معاً. إنه الشيء الذي يثبت أن زوجي ليس كاذباً وأنه شريك لي حتى لو أنكر وجود ابني.

وجدت الدليل هناك قابعاً في قعر الصندوق داخل مغلف. إنها نسخة من مقالة إخبارية مطوية، حوافها مصفرّة، ولكنّها مع ذلك تبدو جديدة. أدركت ماهيتها ربما قبل أن أفتحها، ولكنني مع ذلك ارتجفت وأنا أقرأها: *لقي جندي بريطاني حتفه في أثناء مرافقته لقوات الجيش في مقاطعة هيلماند في أفغانستان. وقد أعلنت وزارة الدفاع عن اسمه، وهو آدم ويلر وعمره تسعة عشر عاماً من مواليد مدينة لندن...* وجدت صورة مرفقة بالمقالة تظهر أكاليل زهور منسقة حول قبر، والنقش عليه بارز الكلمات: *آدم ويلر: 1987-2006.*

عندئذ أصابني الحزن بقوة أشك في أنها أصابتني من قبل، فأوقعت الورقة وانطويت على نفسي من الألم المبرّح الذي جعلني عاجزة حتى عن البكاء، فما كان منّي إلا أن أطلقت صرخة كصرخة حيوان جريح جائع يتمنى وضع حدٍّ لمعاناته الأليمة. أغمضت عينيّ وراودتني ذكرى خاطفة كالبرق، ولاحت أمامي صورة معلقة في الفضاء. رأيت ميدالية أُمنّح إياها في علبة مخملية سوداء، وتابوتاً، وعلماً. أشحت بوجهي وتمنيت ألا تعود إليّ أبداً. وأدركت أن هناك ذكريات لا تجلب لي سوى المعاناة والأسى، وأنه من الأفضل لي أن أنساها إلى الأبد.

بدأت أرتب الأوراق لأعيدها إلى مكانها، وحدثت نفسي أنه كان ينبغي لي أن أثق بين طوال الوقت وأن أصدق أنه حجب عني أسراراً لا تلحق بي سوى الأذى والألم عندما أواجهها وكأنها جديدة كل يوم. إن كل ما فعله هو محاولة تجنيبي هذا الألم وهذه الحقيقة المرة المؤلمة. وضعت الصور وكل الأوراق التي عثرت عليها في مكانها بحرص، وشعرت بالرضا. أعدت المفتاح إلى الدرج وأعدت الصندوق إلى خزانة الملفات، وفكرت في أنه أصبح في وسعي أن أرى الصور في أيّ وقت أريده.

ومع ذلك، فقد كان هناك أمران اثنان لا أزال أريد معرفتهما: أولاً، السبب الذي دفع بن لهجراني، وثانياً، الشيء الذي كنت أفعله في برايتون قبل كل تلك السنوات. يجب أن أعرف هوية ذلك الشخص الذي سلبني حياتي. عليّ المحاولة مرة أخرى:

فطلبت رقم كلير.

ولكنني لم أسمع أي ردّ، بل سمعت صوتَ رنين متواصل، ومع ذلك، فلم ترد. بما أنها لم تجب عن رسالتي التي تركتها على هاتفها، فلا بد من أن لديها ما تخفيه وسراً تكتمه عني.

أوشكت أن أشعر بالسرور لعدم ردها، إذ إن تلك محادثة أردت أن أجريها نظرياً فقط، ولكنني لم أكن أتخيل أنها تخفي وراءها شيئاً سوى الألم وخيبة الأمل. فهيأت نفسي لسماع طلب آخر خالٍ من المشاعر لترك رسالة.

ولكنني عندها سمعت نقرة ثم صوت أحدهم يقول: "مرحباً؟".

إنها كلير، لقد عرفتها على الفور. لقد بدا صوتها مألوفاً كصوتي. قالت ثانية: "مرحباً؟".

التزمت الصمت للحظة، وغمرتني صور خاطفة من الماضي؛ فرأيت وجهها وشعرها مقصوصاً قصيراً وهي تعتمر قبعة وتضحك. ورأيتها في حفلة زفاف - أفترض أنه زفافي بالرغم من أنني لست متأكدة - ترتدي ثوباً زمردي اللون وترتشف الشراب. كما رأيتها تحمل طفلاً بين ذراعيها ثم تعطيني إياه وهناك كلمات مكتوبة: *وقت العشاء!* رأيتها جالسة على طرف سرير تتحدث إلى الشخص الممدّد عليه، فأدركت أن ذلك الشخص هو أنا.

قلت: "كلير؟".

فقالت: "نعم، مرحباً؟ مَن التي تتكلم؟".

حاولت أن أركز انتباهي وأذكر نفسي أننا كنا صديقتين في ما سبق مهما جرى بيننا منذ ذلك الحين. راودتني صورة لها مستلقية على سريري حاملة زجاجة من الشراب مقهقهةً وهي تقول لي إن الرجال مخلوقات في غاية التفاهة.

قلت: "كلير؟ أنا كريستين".

ساد الصمت، وامتد الوقت إلى ما لا نهاية. وفي البداية، ظننت أنها لن تتفوّه بنت شفة، وأنها نسيت من أنا، وأنها لا ترغب في التحدث إلي، فأغمضتُ عينيّ.

قالت متفاجئة: "كريسي؟!". سمعتها تبتلع ريقها وكأنها تأكل شيئاً، ثمّ قالت: "كريسي! يا الله! عزيزتي كريسي، أهذه أنت حقاً؟".

فتحت عينيّ، وسالت دمعة راحت تشق طريقها على خطوط وجهي غير المألوفة لي.

قلت: "كلير؟ نعم، هذه أنا كريسي".

قالت بصوت هادئ: "يا الله! يا للروعة! روجر! روج! هذه كريسي تتحدث عبر الهاتف!". وفجأة، قالت بصوت مرتفع: "كيف حالك؟ أين أنت؟". ثم قالت: "روجر!".

فقلت: "أنا في البيت".

"في البيت؟".

"نعم".

"مع بن؟".

شعرت فجأة بأنه عليّ الدفاع عن نفسي، فقلت: "نعم، مع بن! هل تلقيت رسالتي؟".

سمعتها تأخذ نفساً عميقاً؛ أتراها تفاجأت أم إنها كانت تدخن؟ قالت: "نعم! ولكنك لم تتركي رقماً لأعاود الاتصال بك". سكتت قليلاً، فتساءلت للحظة إن كانت هناك أسباب أخرى منعتها من الاتصال بي. قالت: "على أي حال، كيف حالك يا عزيزتي؟ إنني مسرورة جداً لسماع صوتك!". لم أعرف بما أجيبها. وعندما طال صمتي قالت كلير: "أين تعيشين؟".

قلت: "لا أعرف بالتحديد". وشعرت بموجة من السعادة لأنني تأكدت من سؤالها أنها لا تقابل بن، ثم أدركت بعد قليل أنها ربما طرحت عليّ ذلك السؤال بعفوية مصطنعة لئلا أشك في الحقيقة. تمنيت من كل قلبي أن أثق بها وأن أعرف أن بن لم يتركني بسبب شيء وحده فيها، لأن هذا يعني أنه في وسعي أن أثق بزوجي أيضاً. قلت: "في شارع كراوتش إند".

فقالت: "حسناً. إذاً، كيف تسير أمورك؟ هل كل شيء على ما يرام؟".

قلت: "حسناً، إنني لا أتذكر شيئاً واحداً على الإطلاق".

فانفجرنا ضاحكتين، وتملكتني موجة من المشاعر الجميلة، ولكنها لم تدم طويلاً، إذ تبعتها فترة صمت.

قالت لي في نهاية المطاف: "إن صوتك يوحي بأنك في حال جيدة حقاً". فقلت لها إنني عدت للتأليف. قالت: "حقاً! يا للروعة! هذا جميل جداً. ماذا تؤلفين؟ رواية؟".

فقلت: "كلا، إذ إنه من الصعب تقريباً أن أكتب رواية في الوقت الذي أعجز فيه عن تذكر أي شيء من يوم إلى آخر، ولكنني أدون وحسب الأحداث التي تجري معي كل يوم".

قالت كلير: "حسناً، إن هذا جيد أيضاً". ظننت أنني شعرت ببعض البرود في صوتها، وتساءلت إن كانت لا تفهم وضعي على حقيقته فعلاً، وتساءلت كيف انتهت الأمور في آخر لقاء جرى بيننا. سألتني: "إذاً، ما هي أخبارك؟".

ماذا أقول لها؟ تملكتني رغبة ملحة لأن أدعها ترى سجلي وتقرأه كله من أجل نفسها، ولكنني بالطبع لم أكن أستطيع ذلك، ولا سيما الآن. شعرت بأنّ هناك الكثير لأقوله والكثير مما أود أن أعرفه؛ إنها حياتي كلها.

قلت: "لست أدري. من الصعب...".

لا بد من أنني بدوت مستاءة، لأنها قالت: "عزيزتي كريسي! ما مشكلتك؟".

فقلت لها: "لا شيء. إنني بخير، ولكنني وحسب..."، وتوقفت عن الكلام.

"عزيزتي؟".

قلت: "لست أدري". وفكرت في الدكتور ناش وفي الأشياء التي قلتها له. أيمكن أن أكون متأكدة من أنه لن يتحدث إلى بن؟ قلت: "إنني مرتبكة فقط. أعتقد أنني ارتكبت عملاً غبياً".

"كلا، إنني متأكدة من أن هذا ليس صحيحاً". وساد الصمت مجدداً. ترى هل تعيد حساباتها؟ قالت: "أصغي إلي. أيمكنني التحدث إلى بن؟".

قلت: "إنه خارج المنزل. فقد ذهب إلى العمل". وشعرت بالراحة لأن المحادثة اتجهت في مسار ملموس وواقعي أكثر.

قالت كلير: "حسناً". وسكتت مجدداً، ولكنني شعرت بأن المحادثة بدأت تتخذ منحى سخيفاً.

فقلت: "يجب أن أقابلك".

قالت: "يجب أن تقابليني؟ ألا تريدين ذلك؟".

فبدأت قائلة: "بلى، من الواضح أنني أريد ذلك...".

قالت كلير: "هدئي من روعك يا كريسي. فأنا أمازحك وحسب. إنني أيضاً أريد أن أقابلك وأتوق إلى ذلك".

تنفست الصعداء؛ فقد راودني قلق من أن تصل محادثتنا إلى طريق مسدود وتنتهي عندما نودع بعضنا بأدب، ونتفوه بمجرد وعد غامض بأن نتحدث مرة أخرى في المستقبل. وشعرت بأن طريقاً آخر يوصل إلى الماضي سينغلق إلى الأبد.

قلت: "شكراً لك... شكراً...".

قالت: "كريسي. لقد افتقدتك كثيراً، وكنت أنتظر هذا الهاتف لبرن على أمل أن أسمع صوتك". سكتت هنيهةً ثم قالت: "كيف أصبحت ذاكرتك الآن؟ ما مدى معرفتك بالماضي؟".

قلت: "لست أدري. أعتقد أنها أفضل مما كانت عليه، ولكنني لا أزال لا أتذكر الكثير". فكرت في الأشياء التي كتبت عنها وكل الأمور التي تذكرتها عني وعن كلير، فقلت: "تذكرت حفلة وألعاباً نارية على سطح المنزل ورسوماتك ودراستي، لكن، لا شيء أكثر من ذلك فعلاً".

قالت: "آه! تلك الليلة الكبيرة! يا الله! لقد مر وقت طويل منذ ذلك الحين. هناك الكثير من التفاصيل التي أريد أن أذكرك بها. هناك الكثير منها!".

تساءلت عما تقصده بكلامها، ولكنني لم أسألها شيئاً. وخطر ببالي أنه في وسعي الانتظار لسماع هذه التفاصيل، فهناك أمور أهم بكثير أريد أن أعرفها.

أخذت نفساً عميقاً وقلت: "هل انتقلت إلى خارج البلاد فعلاً؟".

ضحكت وقالت: "نعم، لقد أقمت هناك لمدة ستة أشهر. فالتقيت بهذا الرجل قبل عدة سنوات. ووقعت الكارثة".

قلت: "أين؟ أين انتقلت؟".

فأجابت: "إلى برشلونة. لماذا تسألين؟".

قلت: "لا شيء". وشعرت بالإحراج لعدم معرفتي بهذه الأمور عن حياة صديقتي، ثم قلت: "إنه مجرد أمر ذكره أمامي أحدهم. فقد قيل لي إنك انتقلت إلى نيوزيلاندا. لا بد من أنّ هناك خطأً".

ضحكت وقالت: "نيوزيلاندا! كلا، لم أذهب إلى هناك قط".

إذاً، فقد كذب بن عليّ بشأن هذا الأمر أيضاً، وما زلت أجهل السبب وأعجز عن إيجاد سببٍ يدفعه لأن يشعر بالحاجة إلى إقصاء كلير عن حياتي كلياً

بهذا الشكل. هل هذا يا ترى مجرد شيء آخر كذب عليّ بشأنه أو آثر ألا يخبرني به؟ هل فعل هذا من أجل مصلحتي؟

إن هذا شيء آخر قررت أن أسأله عنه عندما أجري معه المحادثة التي أعرف أنني مضطرة إلى إجرائها، وعندما أخبره كل ما أعرفه، وكيف اكتشفت الحقيقة.

تجاذبنا أطراف الحديث قليلاً. وكانت محادثتنا مترددة وتتخلّلها فترات صمت طويلة واندفاعات يائسة. قالت لي كلير إنها تزوجت ثم تطلقت وإنها الآن تعيش مع روجر. وقالت: "إنه أكاديمي في علم النفس. يريد الزواج بـي، وهذا مـا يجب عليّ ألا أتسرع به، ولكنني أحبه".

أضفى عليّ التحدث إليها شعوراً جيداً، وارتحت كثيراً لسماع صوتها الذي بدا سلساً ومألوفاً جداً وأشبه بشعور العودة إلى البيت، إذ إنها صديقة غير متطلبة ومتفهمة لوضعي الذي لا يسمح لي سوى بمنحها النزر اليسير. وفي نهاية المطاف، توقفت عن الكلام. سمعتها تأخذ نفساً عميقاً وتطلقه في تنهيدة صغيرة، فظننت أنها على وشك أن تودعني. وأدركت أن أياً منا لن تذكر أمر آدم.

بدلاً من ذلك قالت: "حدثيني عن بن. كم مضى عليك وأنت، حسناً...".

فقلت: "كم مضى علينا معاً؟ لست أدري. لم أعرف أساساً أننا انفصلنا".

قالت كلير: "لقد حاولت أن أتصل به". شعرت بالتوتر لسماع كلامها بالرغم من أنني لم أدرك السبب في ذلك.

"متى؟".

"عصر اليوم بعد أن اتصلت بـي. فقد توقعت أن يكون هو مـن أعطاك رقمي. فلم يجب، ولكنني لم أجد سوى رقم عمله القديم. فقالوا إنه لم يعد يعمل هناك بعد الآن".

تسلل الخوف إلى قلبـي، فنظرت حولي في أنحاء غرفة النوم ووجدتها غريبة وغير مألوفة. وفجأة، انتابني شعور بأنها تكذب عليّ.

قلت لها: "هل تتحدثين إليه كثيراً؟".

"كلا، ليس مؤخراً". سكتت هنيهة، ثم قالت: "لقد قلقت عليك كثيراً".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

تملكني الخوف فجأة من أن تخبر كلير بن أنني اتصلت بها قبـل أن تسـنح لي الفرصة للتحدث إليه.

قلت لها: "من فضلك لا تتصلي به. لا تقولي له إنني اتصلت بك".

قالت: "لماذا يا كلير؟".

"إنني أفضل وحسب ألا تفعلي هذا".

تنهدت بعمق ثم قالت وهي تبدو منـزعجة تقريباً: "حسناً، ما الذي يجـري معك بحق الله؟".

فقلت: "لا يسعني الشرح لك".

"حاولي ذلك".

لم أستطع أن أجبر نفسي على ذكر آدم، ولكنني أخبرتها عن الدكتور نـاش، وعن الذكرى التي راودتني عن غرفة الفندق، وكيف أن بن أصر على أنني تعرضت لحادث سيارة. وقلت: "أعتقد أنه يخفي عني الحقيقة لأنه يظن أنها ستزعجني". لم تعلّق على ما قلته، فسألتها: "كلير؟ ماذا تظنين أنني كنت أفعل في برايتون؟".

امتد الصمت بيننا ثم قالت كلير في نهاية المطاف: "إن أردت أن تعرفي فعلاً يا كريسي، فسوف أطلعك على الحقيقة أو على القدر الذي أعرفه منـها علـى أي حال، ولكن، ليس عبر الهاتف. سأخبرك عندما نلتقي. أعدك بهذا".

الحقيقة! شعرت بها معلقة قربـي وهي تبرق وتومض لدرجة أنني كدت أمد يدي وألمسها.

قلت: "متى ستأتين؟ اليوم؟ الليلة؟".

قالت: "إنني أفضل ألا آتي إليك إن كنت لا تمانعين ذلك".

"لم لا؟".

"إنني أعتقد... حسناً... من الأفضل أن نلتقي في مكان آخـر؟ أيمكـن أن أصطحبك لشرب فنجان من القهوة؟".

بدا صوتها متسماً بالبهجة، ولكنني شعرت بها متكلفة ومصطنعة، وتسـاءلت إن كان هناك شيء تخشاه، ولكنني قلت لها: "حسناً".

قالت كلير: "في قصر أليكساندرا؟ هل يناسبك هذا؟ من المفترض أن تتمكني من الوصول إلى هناك بسهولة من مكان إقامتك في كراوتش إند".

فقلت: "حسناً".

"رائع! إذاً، موعدنا يوم الجمعة. سنلتقي عند الساعة الحادية عشرة. هل أنت موافقة؟".

فقلت: "هذا مناسب". وبعد أن ثرثرنا لبضع دقائق إضافية، ودعنا بعضنا وأخذت سجلي وبدأت أدون فيه كل ما جرى.

* * *

عندما عاد بن إلى البيت، جلس على كرسيه في غرفة المعيشة ليقرأ الصحيفة. بدا متعباً على ما أعتقد وكأنه لم ينم جيداً. قلت له: "بن؟ هل تثق بـي؟".

نظر إلي، فوجدت عينيه مشعتين بالحيوية ومضيئتين بالحب، ولكن بشيء آخر أيضاً ظننت أنه أشبه بالخوف. افترضت أن هذا التعبير ليس مفاجئاً، إذ إن سؤالي عادة ما يطرحه المرء قبل أن يعترف بأن هذه الثقة ربما كانت في غير محلها. ملس شعره باتجاه جبهته وأغمض عينيه نصف إغماضة بسبب أشعة الشمس التي تتسرب من النافذة خلفي.

قال: "بالطبع، يا عزيزتي". ونهض واقترب مني وجلس على ذراع الكرسي الذي أجلس عليه وأخذ إحدى يدي بين يديه وقال: "بكل تأكيد".

التزمت الصمت للحظة وأنا أشعر فجأة بأنني غير متأكدة مما إذا كنت أريد الاستمرار بالحديث أم لا. فسألته: "هل تتحدث إلى كلير؟".

نظر إلي للحظة وتأمل عينيّ قائلاً: "كلير؟ هل تتذكرينها؟".

كنت قد نسيت أن ذكرى كلير ظلت ممحية من ذاكرتي تماماً حتى وقت قريب عندما تذكرت حفلة الألعاب النارية، فقلت: "بشكل ضبابـي".

أشاح بوجهه ونظر إلى الساعة فوق الموقد.

وقال: "كلا، أعتقد أنها انتقلت من البلاد قبل سنوات عديدة".

أجفلت وكأن شيئاً وخزني لأنني أعدت قراءة السجل أو ربما أجزاء منه على الأقل قبل أن يعود إلى البيت بقليل، وعلمت أنها لم تنتقل من البلاد.

فقلت: "هل أنت متأكد من هذا؟". لم أستطع أن أصدق أنه كان لا يزال مصراً على الكذب. شعرت بأن تصرفه شنيع ولا سيما حيال هذا الأمر بالذات أكثر من غيره. لا بد من أن هذا أمر من السهولة بمكان ما أن يصدّقني القول فيه،

إذ إن وجود كلير في البلاد لن يتسبب لي بأي ألم، وربما حتى قد يساعد ذاكرتي على التحسن عندما أراها. إذاً، ما سبب الكذب؟ خطرت فكرة مظلمة برأسي وبدأ الشك ينهشني، ولكنني صرفت تلك الفكرة عن ذهني.

"هل أنت متأكد؟ إلى أين ذهبت؟". أخذت أحثه بيني وبين نفسي على إخباري والقول إن الأوان لم يفت بعد على الصراحة.

ضغط على يدي وقال: "لا أتذكر فعلاً". ثم عاود النظر إلى مكان جلوسي وقال: "إلى نيوزيلاندا ربما أو أستراليا".

شعرت بأن آمالي تحطمت من جديد، ولكنني أدركت ما عليّ فعله. فقلت: "هل أنت متأكد؟"، وبدأت أغامر. تابعت قائلة: "لقد راودتني ذكرى غريبة أنها قالت لي ذات مرة إنها تفكر في الانتقال إلى برشلونة. لا بد من أن هذا حدث قبل سنوات عديدة". لم يقل بن شيئاً، لذا قلت له: "هل أنت متأكّد من أنها لم تنتقل إلى هناك؟".

قال بن: "هل تذكرت ذلك؟ متى؟".

قلت: "لست أدري. إنه مجرد إحساس عابر وغامض جداً".

ضغط على يدي معبراً عن مواساته وقال: "إن هذا من نسج خيالك على الأرجح".

"مع ذلك، فقد بدت تلك الذكرى حقيقية جداً. هل أنت متأكّد من أنها ليست برشلونة؟".

فتنهد وقال: "كلا، ليست برشلونة. إنني متأكّد من أنها سافرت إلى آيدليد في أستراليا على ما أعتقد. لست واثقاً تماماً. فقد مضى وقت طويل على ذلك". وهز رأسه وقال وهو يبتسم: "كلير! لم أفكر فيها منذ سنوات طويلة".

أغمضت عيني وأخذت نفساً عميقاً. وعندما فتحتهما، رأيته يبتسم لي ابتسامة عريضة. بدا غبياً وشبه مثير للشفقة. أردت أن أصفعه، ولكنني قلت بصوت أعلى من الهمس بقليل: "لقد تحدثت إليها يا بن".

لم أستطع أن أتوقع ما سيكون عليه رد فعله. ومضى وقت طويل لم يقل فيه شيئاً وكأنني لم أتحدث على الإطلاق، ولكن عينيه توهجتا غضباً، وقال بصوت صلب كالزجاج: "متى؟".

كان في وسعي أن أخبره الحقيقة، أو أن أعترف أنني أكتب مذكّراتي منذ أيام، فقلت: "عصر اليوم. لقد اتصلت بـــي".

قال: "هي اتصلت بك؟ كيف؟ كيف اتصلت بك؟".

قررت أن أكذب عليه، فقلت: "لقد قالت إنك أعطيتها رقمي".

قال: "أي رقم؟ هذا سخف! كيف يمكنني ذلك؟ هل أنت واثقة من ألها هي؟".

"لقد قالت إنك وإياها كنتما تتحدثان بين الحين والآخر حتى وقت قريب".

ترك يدي تسقط في حضني وكأنها جثة هامدة، ووقف على قدميه واســتدار ليواجهني وقال: "أهي من قالت لك هذا؟".

"قالت لي إنك وإياها على اتصال".

اقترب مني حتى شممت رائحة القهوة تفوح من أنفاسه، وقال: "لا يعقــل أن تأتي هذه المرأة هكذا فجأة وتتصل بك. هل أنت متأكدة من ألها هي؟".

تنهدت وقلبت عيني وقلت: "آه يا بن! من عساها تكــون غــير كلــير؟"، وابتسمت. لم أتوقع قط أن تمضي هذه المحادثة بسهولة، ولكنها بدت مشبعة بشيء من الجدية لم يعجبني.

هز كتفيه وقال: "إنك لا تعرفين ما يجري. فقد حاول أناس كثر في الماضــي أن يتصلوا بك. إنهم من الصحافة والإعلام أو أناس قرأوا عن قصتك وما حــدث لك وأرادوا أن يسمعوا رأيك في القصة، أو حتى أن يتطفلوا ويكتشفوا مدى سوء حالتك، أو إلى أي حدٍّ تغيرت بعد الحادث. كانوا يتظاهرون بأنهم أناس آخــرون قبل ذلك ليقنعوك بالتحدث إليهم. إنهم أطباء مخادعون يدعون المعالجــة بالطــب البديل وغيره وحتى أطباء مشعوذون".

قلت: "لقد ظلت كلير صديقتي المفضلة لسنوات عديدة يا بن. فميزت صوتها".

ارتخت ملامح وجهه بشكل يوحي بالهزيمة، فقلت: "لقد تحدثت إليها، أليس كذلك؟". لم يردّ على سؤالي، ولاحظت أنه بدأ يشد قبضة يده اليمنى ويرخيها مرة تلو أخرى. فقلت: "بن؟".

عندما نظر إليَّ، رأيت وجهه أحمر اللون وعينيه رطبتين. قال: "حسناً! لقــد تحدثت إلى كلير. وطلبت مني أن أبقى على اتصال معها لتطمئن علــى حالتــك، فتحدثنا كل بضعة أشهر بشكل موجز".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"لماذا لم تخبرني؟"، لم يردّ عليّ، فكرّرت سؤالي: "لماذا يا بن؟"، ولكنه ظل صامتاً. قلت: "هل قررت وحسب أنه من الأسهل عليك أن تمنعني من رؤيتها؟ وأن تتظاهر بأنها انتقلت؟ أليس الأمر كذلك؟ بالتحديد كما تظاهرت بأنني لم أؤلف رواية؟".

بدأ يقول: "كريس... ماذا...".

فقاطعته قائلة: "إن هذا ليس منصفاً يا بن. ليس لك الحق بأن تحتفظ بهذه الأشياء لنفسك وأن تطلق الأكاذيب لمجرد أن هذا أسهل من وجهة نظرك. إن هذا ليس صواباً".

نهض على قدميه وقال: "أتظنينه أسهل بالنسبة إليّ أنا؟" وأخذ صوته يرتفع شيئاً فشيئاً وهو يكرر كلامه قائلاً: "أتظنينه أسهل بالنسبة إليّ أنا؟ أتظنين أنني أخبرتك أن كلير تعيش خارج البلاد لأن هذا أسهل بالنسبة إليّ؟ إنك مخطئة يا كريستين، مخطئة تماماً. إن أياً من هذه الأمور ليس سهلاً عليّ. إنني لا أخبرك أنك كتبت رواية لأنني لا أتحمل تذكّر كم كنت تتوقين إلى تأليف رواية أخرى، أو أرى الألم في عينيك عندما تدركين أنك أصبحت عاجزة عن الكتابة. إنني أخبرك أن كلير تعيش خارج البلاد لأنني لا أستطيع أن أتحمل سماع نبرة الألم في صوتك عندما تدركين أنها تخلت عنك في ذلك المكان وأدارت ظهرها لك لما فعل الآخرون". سكت قليلاً منتظراً ردّ فعلي ثم قال: "هل قالت لك ذلك؟". فقلت في نفسي إنها لم تخبرني بذلك فعلاً، ولكنني قرأت اليوم في سجلي أنها اعتادت أن تزورني كل يوم طوال مدة إقامتي في دار الرعاية. كرّر سؤاله: "هل أخبرتك بذلك؟ هل قالت لك إنها توقفت عن زيارتك حالما أدركت أنك ستنسين وجودها بعد انقضاء خمس عشرة دقيقة على زيارتها؟ كانت تتصل في الميلاد لتسأل عن أحوالك، ولكنني أنا من وقف إلى جانبك يا كريس، وأنا من زرتك يوميًّا ومكثت هناك إلى جانبك وانتظرت ودعوت الله كي تتحسني بما يكفي حتّى أخرجك من هناك وأعيدك إلى البيت لتعيشي معي بأمان. أنا مَن فعل كل ذلك. لم أكذب عليك لأن هذا سهل عليّ. لا ترتكبي خطأ وتفكري بتلك الطريقة أبداً. لا تفعلي ذلك أبداً!".

تذكرت أنني قرأت ما قاله لي الدكتور ناش، ونظرت إلى عينيه، وقلت في سرّي: *ولكنك لم تفعل ذلك ولم تقف إلى جانبي*.

"لقد قالت لي كلير إنك طلقتني".

تسمر في مكانه ثم تراجع إلى الوراء وكأن أحداً لكمه. وانفتح فمه ثم انغلق، وبدا المشهد مضحكاً تقريباً. وأخيراً، خرجت كلمة واحدة من فمه.

"الحقيرة!".

اكتسبت ملامحه تعبيراً ساخطاً، حتّى ظننت للحظة أنه سيضربني، ولكنني اكتشفت أنني لم أكن أكترث بذلك.

قلت: "هل طلقتني؟ هل هذا صحيح".

"عزيزتي...".

نهضت وقلت له: "أخبرني! أخبرني!"، ظللنا واقفين قبالة بعضنا. لم أعرف ماذا أراد أن يفعل أو ماذا أردت منه أن يفعل، وأدركت أنني لم أكن أريد منه سوى أن يتحلى بالصدق وأن يمتنع عن التفوه بالمزيد من الأكاذيب. قلت له: "إنني أريد الحقيقة فقط لا غير".

تقدم إلى الأمام ثم خرّ راكعاً على ركبتيه أمامي وأمسك يدي قائلاً: "عزيزتي...".

"هل طلقتني؟ هل هذا صحيح يا بن؟"، طأطأ بن رأسه ثم نظر إليّ وعيناه مفتوحتان على وسعهما ومليئتان بالخوف. صحت في وجهه قائلة: "بن!"، فأجهش بالبكاء. قلت له: "لقد حدثتني كلير عن آدم أيضاً، فقالت لي إننا أنجبنا طفلاً ثم مات".

قال بن: "إنني آسف جداً. فقد ظننت أن هذا من أجل مصلحتك". وفي غمرة نحيبه الهادئ، قال لي إنه سيخبرني بكل شيء.

خفت الضوء تماماً وحل الليل محل الغسق، فأضاء بن المصباح وجلسنا على ضوئه الزهري الناعم قبالة بعضنا إلى طاولة الطعام. وضع على الطاولة كومة من الصور، وهي الصور نفسها التي نظرت إليها في وقت مبكر. تظاهرت بالمفاجأة عندما أخذ يمرر لي كل واحدة منها ويخبرني عن مناسبتها. تلكأ قليلاً أمام صور زفافنا ثم حدثني عن ذلك اليوم المميز وعن مدى جمالي، ولكنني لاحظت أنه بدأ يصبح مستاءً. قال: "إنني لم أتوقف عن حبك يوماً يا كريستين. عليك أن تصدقي

هذا. لقد جعلني مرضك وذهابك إلى ذلك المكان... حسناً... لم أستطع أن... أن أتحمل الوضع أكثر من ذلك. لقد تمنيت أن أتبعك وأن أفعل أي شيء لأعيدك إلى هنا، أي شيء، ولكنهم... لم يسمحوا لي برؤيتك. وقالوا إن هذا أفضل لك".

قلت: "من هم؟ من قال هذا؟"، لكنه لم يجب. فسألته: "أتقصد الأطباء؟".

نظر إليّ، فرأيته يبكي وقد احمرّت عيناه من الدموع.

قال: "نعم، لقد قال الأطباء إن هذا أفضل من أجلك. وكانت هذه الطريقة الوحيدة...". مسح دمعة سالت على خده ثم تابع: "فعلت ما طلبوه مني. أتمنى لو أنني لم أفعل ذلك. أتمنى لو أنني قاومت من أجلك أكثر، ولكنني كنت ضعيفاً وغبياً". سكت قليلاً، ثم انخفض صوته حتى أصبح أشبه بالهمس وهو يقول: "لقد توقفت عن رؤيتك. نعم، من أجل مصلحتك، مع أن هذا أوشك أن يقتلني. لقد فعلت ذلك من أجلك يا كريستين. يجب أن تصدقي هذا، ولكنني لم أطلقك قط. لم أفعل هذا قط. إننا متزوجان منذ يوم زفافنا". اقترب منّي وأمسك بيدي وضغطها على قميصه، وقال: "لطالما كنا معاً هنا". شعرت بملمس القطن الدافئ الرطب وبضربات قلبه السريعة، وشعرت بالحب.

أدركت أنني تصرّفت تصرّفاً بغاية الحماقة. فقد سمحت لنفسي بأن أصدق أنه فعل كل هذه الأمور ليلحق بي الأذى في الوقت الذي يقول لي فيه إنه فعلها بدافع الحب الخالص. يجب ألا أدينه وأحكم عليه. وبدلاً من ذلك، ينبغي لي أن أحاول أن أتفهم موقفه وشعوره. دقت الساعة في غرفة المعيشة.

قلت له: "إنني أسامحك". وسامحته فعلاً.

يوم الخميس 22 تشرين الثاني

عندما استيقظت صباح اليوم، كان بن قد نهض من السرير قبلي. فتحت عينيّ ووجدته جالساً على كرسيه في الغرفة التي وجدت فيها نفسي. رأيته جالساً بسكون تام يراقبني وينتظرني لأستيقظ.

لم أفزع. وبالرغم من أنني لم أستطع التعرف إليه، إلا أنني لم أفزع. وأدركت في قرارة نفسي أن كل شيء على ما يرام وأن ذلك الرجل له الحق بالتواجد معي.

قلت: "من أنت؟ وكيف أتيت إلى هنا؟". أخبرني، ولكنني لم أشعر بأي رعب أو شك. وتفهمت كل الوضع. ذهبت إلى الحمام واقتربت من انعكاس صورتي وكأنني أنظر إلى صورة إحدى قريباتي اللواتي نسيتهن من زمن بعيد أو شبح أمي. ارتديت ملابسي بحرص وفضول وأنا أعتاد شيئاً فشيئاً على تفاصيل جسدي الجديدة وتصرفاتي غير المتوقعة. وبعد ذلك، تناولت الفطور وأدركت لاشعورياً وجود ثلاثة أماكن إلى الطاولة في الماضي. ودّعت زوجي بقبلة و لم أشعر بأنني أرتكب أي خطأ من دون أن أعرف منبع شعوري هذا. فتحت علبة الحذاء في الخزانة وعثرت على هذا السجل، فميزته على الفور وأدركت أنه الشيء الذي كنت أبحث عنه.

أصبحت حقيقة وضعي الآن قريبة جداً من متناول يدي. فقد أستيقظ يوماً ما وأجد أنني أعرفه أصلاً. وبدأت الأشياء تصبح منطقية، ولكنني لا أعرف أنني لن أصبح طبيعية أبداً، وأن تاريخي سيظل مبتوراً وناقصاً، وأن سنوات من حياتي تلاشت من دون أثر. هناك أشياء عن نفسي وماضيّ لا يمكن لأحد أن يطلعني عليها؛ لا الدكتور ناش الذي يعرفني فقط من خلال ما أخبرته إياه ولا ما كُتِب في ملفي في دار العناية، ولا حتى بن أيضاً، إذ إن هناك أشياء حدثت قبل أن أقابله، وأشياء حدثت بعد ذلك، ولكنني آثرت ألا أشاطره إياها. إنها أسراري الخاصة.

ولكنّ هناك شخصاً واحداً قد يعرف بقية الحقيقة ويتمكن من إخباري إياها ويطلعني على اسم الشخص الذي ذهبت لأقابله في برايتـــون والســـبب الحقيقـــي لاختفاء صديقتي من حياتي.

لقد قرأت هذا السجل. وأعرف الآن أنني غداً سأقابل كلير.

* * *

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

يوم الجمعة 23 تشرين الثاني

إنني أكتب هذا في البيت؛ المكان الذي أصبحت أدرك أخيراً أنه بيتي الـــذي أنتمي إليه. قرأت السجل بأكمله ورأيت كلير. وما بين قراءة السجل ولقائي كلير، عرفت كل شيء أحتاج إلى معرفته. وعدتني كلير أن تعود إلى حياتي وألا تتـــركني مجدّداً. يوجد بين يدي مغلف قديم مكتوب عليه اسمي. إنه لقية أثرية تفصح عـــن أسرار أجهلها، وقطعة مفقودة تكمل بقية اللغز الذي يحيرني. وأخيراً أصبح ماضيّ منطقياً.

سرعان ما سيعود زوجي إلى البيت. إنني أتوق إلى رؤيته، فأنا أحبه من كـــل قلبـــي، وهذا ما أصبحت الآن أدركه وأعيه جيداً.

سأدون هذه القصة الآن، وعندئذٍ، سنتمكن يداً بيد من جعل كل شـــيء في حياتنا أفضل حالاً.

كان اليوم الذي ترجلت فيه من الحافلة يوماً مشرقاً، وكان النور ممزوجـــاً ببرودة الشتاء الزرقاء، والأرض قاسية. قالت لي كلير إنها ستنتظرني عند قمة التل بجانب الدرج الرئيس المؤدي إلى القصر، ولهذا، فقد بدأت أصعد المنحدر الممتـــد نحو الحديقة. استغرق المشي وقتاً أطول مما توقعت، فأدركت أنني لا أزال غـــير معتادة على طاقات جسمي المحدودة، لذا، توجب عليّ أن أتوقف قليلاً عنـــدما اقتربت من القمة. لا بد من أنني كنت أتمتّع باللياقة البدنية من قبل أو أكثر لياقة مما أنا عليه الآن على أيّ حال. وتساءلت إن كان عليّ أن أمارس بعض التمارين الرياضية.

رأيت الحديقة تحوي امتداداً واسعاً من العشب المجزوز الذي تقطعـــه ممـــرات إسفلتية مليئة بسلال المهملات، ونساء يحملن الكراسي. بدأت أشعر بالتوتر، إذ لم أكن أعرف ما يجب أن أتوقّعه. وكيف يسعني ذلك؟ ففي الصور التي راودتني عن

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كلير، كانت ترتدي الكثير من الملابس السوداء وسراويل الجينز والكنزات القطنية. رأيتها ذات مرة منتعلة جزمة ثقيلة ومرتدية معطفاً مطرياً، أو تنورة طويلة مصبوغة بطريقة فنية ومصنوعة من قماش يمكن وصفه بأنه هفهاف. لم أستطع أن أتخيل أي صورة تصفها الآن ولا سيما في السن التي وصلنا إليها. ولم تكن لدي أي فكرة عما قد يكون قد حل محل تلك الملابس.

نظرت إلى ساعتي ووجدت أنّ الوقت لا يزال مبكراً. ذكرت نفسي بلا تفكير أن كلير لطالما تأخرت عن مواعيدها، فتساءلت على الفور كيف عرفت ذلك وأي بقايا ذاكرة ذكرتني به. لا بد من أن هناك ذكريات كثيرة لا تزال تطفو تحت السطح كالأسماك الفضية السابحة في مياه الجدول الضحلة. قررت أن أنتظر على أحد الكراسي.

رأيت ظلالاً طويلة ممتدة بكسل على طول العشب وصفوفاً من المنازل خلف الأشجار بعيداً عني. بدت البيوت متقاربة بشكل خانق، وأدركت بفزع أن أحد تلك البيوت التي يمكنني رؤيتها هو البيت الذي أعيش فيه الآن، ولكن ليس من الممكن تمييزه عن البقية.

تخيلت نفسي أشعل سيجارة وأسحب دخانها بقلق محاولة أن أقاوم الإغراء بأن أقف وأذرع المكان جيئة وذهاباً. تملكني شعور سخيف بالقلق والتوتر. ومع ذلك، لم يكن هناك سبب يدعوني لذلك، إذ إن كلير صديقتي الحميمة والمفضلة وليس هناك ما يدعوني للقلق بشأنها، وكنت بأمان تام.

رأيت الطلاء على المقعد متقشراً، فبدأت أعبث به كاشفة عن المزيد من الخشب الرطب. وكان شخص آخر قد استخدم الطريقة نفسها ليحفر الحرفين الأولين من اسمه بجانب مكان جلوسي ثم أحاطه بقلب وأضاف التاريخ. أغمضت عينيّ وتساءلت: *تُرى هل سأعتاد على الشعور بالصدمة لرؤية الدليل على السنة التي أعيش فيها؟* تنفست بعمق، وشممت رائحة العشب الرطب والنقانق والوقود.

ألقى شخص ما بظله على وجهي، ففتحت عينيّ ورأيت امرأة واقفة أمامي. بدت طويلة القامة وذات شعر بني. كانت ترتدي سروالاً وسترة من الفرو. وكان هناك صبي صغير يمسك بيدها، ويحمل بيده الأخرى كرة قدم. قلت لها: "إنني

آسفة". وابتعدت إلى آخر الكرسي لأفسح لهما مجالاً للجلوس معاً إلى جانبـــي، لكن، وبينما أفعل هذا، ابتسمت المرأة.

قالت: "كريسي!". كان الصوت صوت كلير بشكل لا يدع مجالاً للشك. قالت: "هذه أنا، يا عزيزتي كريسي!". نقلت بصري مـــن وجـــه الطفـــل إلى وجهها، فرأيته مجعداً بعد أن كان أملس. وبدا الجلد المحيط بعينيهـــا متـــرهلاً بشكل لا أتذكره من قبل في صورتي الذهنية عنها، ولكنهما كانتا عينيها بـــلا شك. قالت: "يا الله! لقد قلقت عليك كثيراً". دفعت الطفل باتجاهي وقالـــت: "هذا توبـــي".

نظر الصبـــي إليّ من دون أن يتفوه بحرف. قالت كلير: "هيا، ألقِ السلام". ظننتها للحظة تتحدث إليّ، ولكن الصبـــي عندئـــذ تقـــدم خطـــوة إلى الأمـــام، فابتسمت له. كانت الفكرة الوحيدة التي خطرت ببالي هي: أهذا آدم؟ بالرغم من أنني أدركت أنه ليس هو.

قلت له: "مرحباً". فتقدم توبـــي جاراً قدميه نحوي وتمتم شيئاً لم أسمعه جيداً، ثم التفت إلى كلير وقال لها: "أيمكنني أن أذهب وألعب الآن؟".

أومأت كلير برأسها وقالت: "لا تبتعد عن نظري. اتفقنا؟"، وربتـــت علـــى شعره. فجرى مسرعاً إلى الحديقة.

وقفت على قدميّ والتفت لأواجهها، وتملكتني رغبة في أن أنطلـــق بـــدوري وأجري مبتعدة وأوسّع الهوة في ما بيننا، ولكنها عندئذ فتحت ذراعيهـــا وقالـــت: "عزيزتي كريسي". ورأيت أساور بلاستيكية حول معصمها تصطدم ببعضها بعضاً وتخشخش. قالت: "لقد اشتقت إليك كثيراً". شعرت بالحمل الثقيل الذي يضـــغط عليّ ينـــزاح ويتلاشى، فارتميت بين ذراعيها باكية.

للحظة وجيزة، شعرت بأنني أعرف كل شيء عنها وكل شيء عن نفســـي أيضاً. وشعرت بأن الخواء الذي يملأ كياني أصبح فجأة مضاءً بنور متوهج أكثر من الشمس. ومر تاريخ حياتي بسرعة البرق أمام عيني، ولكنني لم أستطع لفرط سرعته أن أرى منه أكثر من ومضات خاطفة. قلت: "إنني أتذكرك". وعندئـــذ تلاشـــى الوميض، وخيم الظلام مكانه مجدداً.

جلسنا على المقعد لوقت طويل ونحن صامتتان نراقب توبي وهو يلعب كرة القدم مع مجموعة من الصبية. شعرت بالسعادة لأن أرتبط بماضيّ المجهول، ومع ذلك، فقد ساد بيننا ارتباك لم أستطع كسره. وظلت تلك العبارة التي سمعتها تتردد أصداؤها في عقلي: *هناك شيء يتعلق بكلير*.

قلت لها في نهاية المطاف: "كيف حالك؟".

ضحكت وقالت: "شعوري مريع". وفتحت حقيبتها وأخرجت علبة تبغ وقالت: "إنك لم تعودي إلى التدخين، أليس كذلك؟"، وقدمت لي سيجارة. فهززت رأسي وأدركت أنها شخص آخر يعرف عني أكثر مما أعرف عن نفسي.

قلت: "ما المشكلة؟".

بدأت تلف سيجارتها وتومئ باتجاه طفلها ثم قالت: "آه! ألا تعرفين؟ إن توبي مصاب بمرض تشتت الانتباه وفرط الحركة. لقد ظل مستيقظاً طوال الليل، ولهذا، فقد بقيت أنا ساهرة أيضاً".

قلت: "وما هو هذا المرض؟".

ضحكت وقالت: "إنها عبارة جديدة نسبيًّا على ما أظن. إنها تعني كثرة الحركة. يتوجب علينا أن نعالجه بعقار الريتالين بالرغم من أنني أكرهه كثيراً، ولكن هذه هي الطريقة الوحيدة. فقد جربنا كل شيء آخر. إنه يتحول من دون علاج إلى وحش ومصدر رعب حقيقي".

نظرت إليه وهو يركض من بعيد، وقلت في سرّي: *إنه ذو دماغ متضرر في جسم سليم معافى مثلي تماماً*.

"هل هو بخير مع ذلك؟".

فقالت وهي تتنهد: "نعم". ووازنت ورقة سيجارتها على طرف ركبتيها وبدأت بوضع التبغ عليها. قالت: "إن تربيته مرهقة للأعصاب، والتعامل معه أشبه بحلقة مفرغة لا نهاية لها".

ابتسمت وأدركت ما تعنيه، ولكن من الناحية النظرية فقط، إذ لم يكن لدي أي مرجع أستند إليه، ولا أي ذكرى عمّا كان عليه آدم وهو في سن توبي أو أصغر.

قلت: "يبدو توبـــي صغيراً جداً".

ضحكت كلير وقالت: "إنك تعنين أنني أبدو كبيرة جداً!"، ولعقت طـــرف ورقة السيجارة وتابعت: "نعم، فقد أنجبته في سن متقدّمة. كنا واثقين جداً من أننا لن ننجب، ولهذا، فلم نكترث بموانع الحمل".

فقلت: "آه! أتقصدين...؟".

ضحكت وقالت: "لن أقول إنه أتى مصادفة، ولكن...". وضعت ســـيجارتها بين شفتيها، وتوقفت عن الكلام لبرهة، ثم قالت: "هل تتذكرين آدم؟".

نظرت إليها ورأيتها تشيح بوجهها إلى الاتجاه الآخر لتحمي ولاعتـــها مـــن الهواء، لذلك، لم أستطع أن أتأمل تعبير وجهها أو أكتشف إن كانت قد تعمـــدت المراوغة أو فعلت ذلك مصادفة. فعاودت النظر إلى توبـــي وقلت: "كـــلا، لقـــد تذكرت أن لي ابناً مرة قبل بضعة أسابيع. ومنذ ذلك الحين، أشعر بأنني أحمل تلك المعرفة في داخلي كصخرة ثقيلة ترهق صدري. ولكن، كلا، إنـــني لا أتـــذكر أي شيء عنه".

نفثت الدخان بثقل وأرسلت غمامة زرقاء نحو السماء وقالت: "هذا مؤسف! إنني آسفة جداً. إن بن يريك صوره، أليس كذلك؟ ألا يساعدك هذا؟".

حاولت أن أفكر ملياً في ما أريد أن أطلعها عليه، فقد استشـــعرت مـــن كلامها أنهما كانا على اتصال وصداقة في الماضي، لذا توجب علـــيّ تـــوخّي الحذر. ومع ذلك، فقد شعرت برغبة متزايدة في الكلام بالإضـــافة إلى ســـماع الحقيقة منها.

"نعم، إنه يريني صوراً في بعض الأحيان بالرغم من أنه لا يضع أيـــاً منـــها في أنحاء المنـــزل، إذ إنه يقول إنني أجدها مزعجة جداً، ولهذا، فهو يبقيها مخفية عـــن الأنظار". كدت أن أقول مقفلاً عليها.

بدت متفاجئة جداً، وقالت: "مخفية؟ حقاً؟".

قلت: "نعم، إنه يعتقد أنني سأجد هذا مزعجاً جداً إن عثرت على صورة له".

أومأت كلير برأسها وقالت: "ولكنك قد لا تميزين شكله أو تعـــرفين مـــن هو؟".

"أظن ذلك".

أومأت برأسها وقالت: "أظن أن هذا قد يكون صحيحاً". ترددت لبرهة ثم قالت: "ولا سيما الآن بعد أن رحل".

فكررت كلمة *رحل* في نفسي مراراً. قالتها وكأنه ذهب في رحلة قصيرة لبضع ساعات، أو اصطحب صديقته لحضور فيلم في السينما، أو لشراء زوج جديد من الأحذية. ومع ذلك، فقد عرفت السبب الذي دفعها لذلك. وتفهمت الاتفاق الضمني بيننا ألا نذكر موت آدم. إذ لم يحن الأوان لذلك بعد. كما أدركت أن كلير تحاول حمايتي من هذه الفاجعة أيضاً.

لم أقل شيئاً، وبدلاً من ذلك، حاولت أن أتخيل ذلك الوقت الذي كنت أرى فيه طفلي كل يوم؛ عندما كانت عبارة كل يوم تعني شيئاً، وقبل أن يصبح كل يوم عالماً منفصلاً عن اليوم الذي سبقه. حاولت أن أتخيل الاستيقاظ كل يوم وأنا أعرف من يكون ابني، حين كنت لا أزال أتمكن من التخطيط للمستقبل وأتطلع لقدوم الميلاد وذكرى مولده.

وفجأة، خطر ببالي أنني لا أعرف حتى متى تحلّ ذكرى ميلاده، فشعرت بالسخف.

"ألا تودين أن تريه...؟".

قفز قلبي من مكانه وقلت: "ألديك صور له؟ أيمكنني...؟".

بدت متفاجئة جداً، وقالت: "بالطبع! لدي الكثير منها في البيت".

قلت لها: "أود الحصول على صورة".

فقالت: "نعم، ولكن...".

"أرجوك، إن هذه الصورة تعني لي الكثير".

وضعت يدها على يدي وقالت: "بالطبع، سأحضر لك صورة في المرة القادمة، ولكن...".

قاطعها صوت صراخ من بعيد، فنظرت إلى الحديقة ورأت توبي يجري نحونا وهو يبكي ومباراة كرة القدم مستمرة خلفه.

قالت كلير بصوت منخفض: "تباً!"، ووقفت على قدميها وقالت: "توبي! توبي! ماذا جرى؟". فلم يقل شيئاً، ولكنه استمر بالبكاء. قالت: "تباً! سأذهب وأحل المشكلة".

ذهبت إلى ابنها وجلست القرفصاء لتسأله عما جرى. فنظرت إلى الأرض أمام قدمي، وتأملت الممر الإسمنتي المكسو بالطحالب والأعشاب التي تشق طريقها من خلاله نحو الضوء. شعرت بالسرور، ليس فقط لأن كلير وعدتني بأن تمنحني صورة لآدم، ولكن لأنها قالت إنها ستفعل ذلك في المرة التالية التي سنلتقي فيها. أدركت أننا سنرى بعضنا كثيراً في المستقبل، وأدركت أن كل مرة ستبدو أشبه بالمرة الأولى. إن هذا الوضع مثير للسخرية لأنني معرضة للنسيان ولأنني بلا ذاكرة.

أدركت أيضاً أن أسلوبها بالحديث عن بن واتسامه بالحزن جعلاني أعتقد أن فكرة إقامتها علاقة معه سخيفة تماماً.

عادت كلير وقالت: "كل شيء على ما يرام". ألقت سيجارتها على الأرض وسحقتها بكعب حذائها، ثم قالت: "إنه مجرد سوء تفاهم بسيط حول ملكية الكرة. هلا تمشّينا؟"، فأومأت برأسي. التفتت كلير إلى ابنها وقالت: "عزيزي! أتريد مثلجات؟".

قال: "نعم، أريد". بدأنا نمشي نحو القصر وقد أمسك توبي يد كلير، فبدوَا متشابهين جداً وعيونهما متألقة باللمعان المتوهج نفسه.

قالت كلير: "إنني أحب المكان هنا. فالمشهد يبعث على الإلهام. ألا تظنين هذا؟".

نظرت إلى المنازل الرمادية التي تنتشر بينها شجيرات خضراء وقلت: "نعم، أظن هذا. أما زلت ترسمين؟".

قالت: "بالكاد. إنني أسلي نفسي بالرسم كهواية فقط. فقد باتُّ هاوية الآن، وأصبحت جدران منزلنا مليئة بلوحاتي، ولكن لسوء الحظ، لا أحد يستطيع أن يشتريها".

ابتسمت لها. ومع ذلك، فلم أذكر شيئاً عن روايتي بالرغم من أنني تمنيت أن أسألها إن كانت قد قرأتها، وأن تعطيني رأيها بها. قلت: "إذاً، ماذا تعملين الآن؟".

قالت: "إنني أعتني بتوبي معظم الوقت لأنه يتعلم في المنزل".

قلت: "فهمت".

أجابت: "ليس هذا الوضع من اختياري، إذ لم تقبل أيّ مدرسة التحاقه فيها. يقولون إنه مزعج جداً ولا يستطيعون التعامل معه".

نظرت إلى ابنها وهو يمشي معنا، وبدا هادئاً جداً وهو يمسك بيد والدته. سأل والدته إن كان يستطيع الحصول على مثلجاته، فقالت له كلير إنه سيحصل عليها قريباً، لذلك لم أستطع أن أتخيله صعب المراس.

سألتها: "كيف كان آدم؟".

قالت: "كطفل؟ لقد كان فتى صالحاً ومؤدباً جداً وحسن السلوك. أؤكد لك هذا".

"هل كنت أماً صالحة له؟ هل كان سعيداً معي؟".

قالت: "آه! نعم، يا كريسي، نعم. لم يكن أحد يحظى بالحب أكثر من ذلك الصبي. إنك لا تتذكرين، أليس كذلك؟ لقد حاولت أن تحملي عدة مرات، وتعرضت للإجهاض في وقت متأخر جداً، ثم حملت حملاً خارج الرحم، ولكنك لم تفقدي الأمل في أن تحملي مجدّداً على ما أعتقد. وبعد ذلك، حملت بآدم، فسررت وزوجك سروراً عظيماً. لقد أحببتِ الحمل جداً، أما أنا، فقد كرهته من كل قلبي. فقد انتفخت انتفاخاً شديداً حتى أصبحت بحجم المنزل، وعانيت غثياناً رهيباً ومريعاً. لكن الأمر كان مختلفاً لديك، فقد أحببت كل ثانية وكل دقيقة من حملك، وبدوت متوهجة ومتألقة طوال تلك الفترة. كانت الأماكن تضيء حين دخولك إليها يا كريسي".

أغمضت عينيّ حتى ونحن نمشي وحاولت أولاً أن أتذكر حملي ثم أن أتخيله، ولكنني عجزت عن كلا الأمرين، فنظرت إلى كلير.

"وماذا بعد؟".

"لقد وضعت طفلك في البيت في أثناء وجودي ووجود بن. إنه أكثر أمر مدهش رأيته في حياتي بالرغم من الفوضى الرهيبة التي تسبب بها، ومع ذلك فقد كان رائعاً". توقفت عن المشي والتفت إليّ وقالت: "لقد كنت أماً عظيمة يا كريسي، عظيمة حقاً. وكان آدم سعيداً ومعتنى به ومحبوباً. وليس هناك طفل في العالم يتمنى أكثر من ذلك".

حاولت أن أتذكر الأمومة وطفولة ابني، ولكن، لم يعاودني أي شيء.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"وماذا عن بن؟".

سكتت لبرهة من الوقت ثم قالت: "كان بن والداً عظيماً أيضاً، فقد أحب ابنه حباً جماً. كما اعتاد على أن يهرع إلى البيت كل مساء ليراه. وعندما لفظ كلمته الأولى، اتصل بالجميع وأخبرهم. وفعل الشيء نفسه عندما بدأ يحبو وعندما خطا خطوته الأولى. وحالما أصبح يمشي أخذه إلى الحديقة ومعه كرة قدم. وفي الميلاد، كان يمنحه الكثير من الألعاب. أعتقد أن هذا الشيء الوحيد الذي رأيتكما تتشاجران بشأنه على الإطلاق، أي الألعاب الكثيرة التي اعتاد بن أن يشتريها لآدم. فقد تملكك القلق من أن يفسده الدلال".

شعرت بوخزة من تأنيب الضمير ورغبة تحثني على الاعتذار من ابني لأنني حاولت أن أحرمه من أيّ شيء كان.

قلت: "إنني على استعداد لأن أمنحه كل شيء يريده الآن لو أنني أستطيع ذلك".

رمقتني كلير بنظرة حزن وقالت: "إنني أتفهم ذلك، ولكن، يجب أن تُسرّي لمعرفتك أنه لم يعش محروماً من أي شيء من ناحيتك قط".

واصلنا المشي، فرأينا شاحنة مركونة في الممر تبيع المثلجات، واستدرنا لنتوجه إليها. وبدأ توبي يشد ذراع أمه. وفي نهاية المطاف، انحنت وأعطته ورقة نقدية من محفظتها قبل أن تتركه يذهب وهي تصيح به قائلةً: "اختر نوعاً واحداً فقط. وانتظر الفكة!"، وراقبته وهو يجري نحو الشاحنة.

قلت: "كلير! كم كان عمر آدم عندما فقدت ذاكرتي؟".

ابتسمت وقالت: "لا بد من أنه لم يكن يتجاوز الثالثة أو الرابعة".

أخذت نفساً عميقاً وشعرت بأنني أخطو في منطقة جديدة الآن؛ إنها منطقة خطرة، ولكنها المكان الذي يجب أن أذهب إليه والحقيقة التي يجب أن أكتشفها.

قلت: "لقد قال لي طبيبي إنني تعرضت لهجوم في برايتون. ما الذي كنت أفعله هناك؟".

ساد الصمت لبعض الوقت، فنظرت إلى كلير وتفحصت وجهها، وشعرت بها تحاول أن تتخذ قراراً وتوازن الخيارات وتقرر ما ستفعله، ثم تحدثت قائلةً: "لست أدري بشكل مؤكد. لا أحد يعرف الحقيقة فعلاً".

توقفت عن الكلام، وأخذنا نراقب توبي لبعض الوقت. كان يمسك قطعة المثلجات وينزع الغلاف وهناك نظرة تركيز مصممة على وجهه. امتد الصمت لفترة من الوقت، ورحت أفكّر في أن الوضع سيستمر هكذا إلى الأبد إن لم أقل شيئاً الآن.

"كنت على علاقة برجل آخر، أليس كذلك؟".

لم تُبدِ كلير أي رد فعل، ولم تأخذ نفساً عميقاً، أو تشهق دهشة، أو تظهر صدمتها مما قلته، بل وقفت أمامي بثبات وهدوء وقالت: "نعم، كنت تخونين بن".

لم يُبدِ صوتها أي مشاعر، فتساءلت عن رأيها بي سواء أكان في الوقت الحالي أم في ذلك الوقت.

قلت: "أخبريني".

قالت: "حسناً، ولكن دعينا نجلس أولاً. فأنا أتوق إلى شرب فنجان من القهوة".

أومأت برأسي موافقة، ومشينا إلى المبنى الرئيس.

دخلنا إلى المقهى؛ كان ذا كراسٍ معدنية وطاولات قاسية ومزيناً بأشجار النخيل ما أضفى عليه جواً استوائياً تعصف به الرياح كلما فتح أحدهم الباب. جلسنا قبالة بعضنا إلى طاولة غارقة بالقهوة المسكوبة ونحن ندفئ أيدينا فوق البخار المتصاعد من فنجاني القهوة.

قلت لها: "ماذا حدث؟ يجب أن أعرف".

قالت كلير: "ليس من السهل أن أقول ذلك". وراحت تختار كلماتها ببطء وكأنها تشق طريقها في حقل ألغام، ثم قالت: "أظن أن الأمر بدأ بعد فترة قصيرة من إنجابك لآدم. فقد مرت فترة أصبحت الأمور فيها صعبة جداً. أظن أنك أصبت باكتئاب ما بعد الولادة بالرغم من أن أحداً لم يقل ذلك في تلك الفترة". سكتت هنيهة ثم قالت: "إن هذا صعب جداً، أليس كذلك؟ من الصعب أن يلاحظ المرء الأمور عندما يعيشها، ولكنه يستطيع بالإدراك المتأخر وحده أن يرى الأشياء على حقيقتها". فأومأت برأسي، ولكنني لم أفهم شيئاً،

إذ إن الإدراك المتأخر شيء أفتقر إليه في حياتي. واصلت كلير كلامها قائلة: "لقد بكيتِ كثيراً، واستبد بك قلق من ألا تشكلي رابطة متينة مع الطفل وإلى ما هنالك. فعلت وبن كل ما في وسعنا، وفعلت أمك أيضاً ما في وسعها عندما كانت بالجوار، ولكن الوضع ازداد صعوبة. وحتى بعد أن انقضت المرحلة الصعبة، كنت لا تزالين تعانين مشقة كبيرة، حتى إنك عجزت عن العودة إلى عملك، وبدأت تتصلين بي في منتصف اليوم وأنت مستاءة وتتذمرين من أنك فاشلة في حياتك بالرغم من سعادة آدم. ومع ذلك، فقد شعرت بأنك فاشلة ككاتبة. ظننتِ أنك لن تتمكني من التأليف مجدداً. كنت أحضر لأقابلك وأجدك باكية وقابعة في حالة فوضى". وتنهدت وسكتت قليلاً. تساءلت عما جرى تالياً ومدى فداحته. تابعت كلير قائلة: "أصبحت وبن تتشاجران كثيراً أيضاً. وبدأت تحتقرينه، وهذا ما آلمه جداً بالطبع. فعرض عليك أن يدفع أجر مربية، ولكن، حسناً...".

"ماذا؟".

"قلت إن هذا من شيمه، أي أن يحل المشاكل بإنفاق النقود. إنما وجهة نظر سليمة، ولكنك... على الأرجح لم تتحلي بالكثير من الإنصاف في كلامك".

حاولت أن أتخيل نفسي وأنا أتشاجر مع بن وأربي طفلاً وأحاول أن أؤلف عملاً أدبياً. كما تخيلت قوارير الحليب، أو آدم وهو يرضع، والحفاضات المتسخة تملأ المكان. تخيلت فترات الصباح التي كنت أستيقظ فيها وأنا لا أتخيل لنفسي طموحاً يتعدى إطعام نفسي وطفلي وفترات المساء التي كنت أصاب فيها بإرهاق شديد لدرجة أنني لم أكن أتوق سوى إلى النوم وأنا أدرك أنه لا يزال عليّ الانتظار لساعات قبل أن أنال ساعات معدودة من الراحة. تخيلت نفسي أصرف فكرة محاولة الكتابة عن تفكيري. كما استطعت أن أرى كل ما جرى وشعرت بالاستياء يتفاقم في داخلي شيئاً فشيئاً.

ولكن الأمر توقف عند ذلك الحد، أي التخيل، إذ إنني لم أتذكر شيئاً، وشعرت أن قصة كلير ليست لها علاقة بي من قريب أو من بعيد.

"ولهذا السبب أقمت علاقة؟".

نظرت إليّ وقالت: "كنت أنا متفرغة وأمارس مهنة الرسم في ذلك الوقت. فقلت لك إنني سأعتني بآدم نهارين في الأسبوع كي يتسنى لك الكتابة، وأصررت على ذلك". أخذت يدي بين يديها وقالت: "إن تلك غلطتي أنا يا كريسي. فقد اقترحت عليك حتى الذهاب إلى المقهى".

سألتها: "المقهى؟".

فقالت: "لقد اقترحت عليك أن تخرجي من المنزل وتمنحي نفسك وقتاً خاصاً عبارة عن بضع ساعات في الأسبوع تنأين فيها عن كل مشاكلك. وبعد بضعة أسابيع، ظهر التحسن عليك وبدوت سعيدة. قلت إن عملك آخذ بالتحسن. وبدأت تذهبين إلى المقهى كل يوم تقريباً وتصطحبين آدم في الأيام التي لا أعتني به فيها، ولكنني لاحظت أنك بدأت تغيرين طريقة ملبسك وهندامك. في البداية، ظننته تصرفاً طبيعياً من جانبك، ولكنني لم أدرك فعلاً ما كان يجري، وظننت أن السبب يعود إلى تحسن نفسيتك وزيادة ثقتك بنفسك، ولكن بن اتصل بي في إحدى الأمسيات، وهو ثمل، على ما أعتقد، وقال لي إن شجاراتكما زادت كثيراً عن أي وقت مضى، وإنه لم يعد يعرف ما يجب عليه القيام به، وقال إنك أصبحت باردة المشاعر تجاهه، فقلت له إن هذا على الأرجح بسبب الطفل وإنه لا داعيَ للقلق. ولكن...".

قاطعتها قائلة: "هل كنت أقابل أحدهم حينئذٍ؟".

"طرحت عليك هذا السؤال، فأنكرت في البداية، ولكن عندما قلت لك إنني لست غبية وكذلك بن، نشب شجار بيننا، ولكنك أطلعتني على الحقيقة في نهاية المطاف".

هذه هي الحقيقة! ولكنها ليست حقيقة متألقة ولا مثيرة بل مجرد حقيقة مرة فجة. فقد اكتشفت أنني تحولت إلى امرأة رخيصة تعرفت إلى رجل آخر قابلته في المقهى بينما كانت صديقتي المفضلة تعتني بطفلي، وكان زوجي يعمل ليكسب المال الذي أنفقته على شراء الملابس وأدوات التجميل لأجمّل بها نفسي من أجل شخص آخر غيره. حاولت أن أتخيل المكالمات الهاتفية المختلسة، والمواعيد الملغاة عندما كان يطرأ شيء ما غير متوقع، والأيام والليالي الموسفة القذرة التي أمضيتها مع ذلك الرجل الذي بدا في نظري لفترة مؤقتة أفضل من زوجي أو أكثر منه

إثارة أو جاذبية أو شغفاً أو ثراء. إنه الرجل نفسه الذي هاجمني في نهاية المطاف، وحاول أن يغرقني مخلّفاً وراءه امرأة لا ماضي لها ولا مستقبل. ماذا حدث يا ترى؟ هل عدت إلى رشدي وأدركت الضرر الذي ألحقته بعلاقتي بزوجي والمخاطرة التي بدأت أقدم عليها حيال ابني فحاولت أن أقطع علاقتي به؟ أم إن الأمر أكثر بساطة من ذلك؟ أي بمجرد شجار نشأ بيننا في غرفة الفندق ثم تطور إلى نتيجة غير متوقعة؟

خطرت فكرة خطيرة ببالي: ترى هل بن هو مَن هاجمني؟ هل اكتشف أمر العلاقة الغرامية والسبب الحقيقي وراء تحسن نفسيتي؟ أصابني رعب شديد ودوار رهيب. أكنت طوال هذا الوقت أعيش مع الرجل الذي ألحق بي كل هذا الأذى؟

أغمضت عيني ولمعت أمامي ذكرى جديدة: رأيت اليدين نفسيهما تقبضان على شعري وتحيطان بعنقي. وكان رأسي غائصاً تحت الماء بينما حاولت التقاط أنفاسي وأنا أبكي. تذكرت الأفكار التي تلاحقت في ذهني في تلك اللحظة: *أريد أن أرى ابني للمرة الأخيرة. أريد أن أرى زوجي. ما كان ينبغي لي أن أفعل هذا به. ما كان ينبغي لي أن أخدعه مع هذا الرجل. لن تسنح لي الفرصة لأعتذر له أبداً.*

فتحت عيني وأنا أشعر بالراحة. فمهما كان ذلك الرجل، فلا بد من أنه ليس بن. أحسست بيد كلير تضغط على يدي وقالت: "هل أنت بخير؟".

قلت لها: "أخبريني".

"لا أعرف إن كان...".

قلت لها: "من فضلك، أخبريني، من هو؟".

تنهدت وقالت: "لقد قلت لي إنك قابلت شخصاً ما اعتاد أن يتردد معك بانتظام إلى المقهى. كما قلت إنه كان لطيفاً وجذاباً. حاولت أن تقاومي، ولكنك عجزت عن كبح نفسك".

قلت: "ما اسمه؟ من هو؟".

"لست أدري".

فقلت: "يجب أن أعرف. أخبريني باسمه على الأقل. أريد أن أعرف من فعل هذا بي".

نظرت كلير إلى عيني وقالت لي بصوت هادئ: "إنك لم تطلعيني على اسمه قط يا كريسي. فقد قلت وحسب إنك قابلته في المقهى، ولهذا أظن أنك لم تودي أن أعرف المزيد من التفاصيل أكثر مما يجب أن أعرف".

شعرت بآخر بصيص أمل يخبو وينجرف بعيداً عني في مهب الريح. وهكذا، فلن أعرف أبداً من اقترف تلك الفعلة بحقي.

"ماذا حدث؟".

صمتت قليلاً ثم قالت: "قلت لك آنذاك إنني أعتبر تصرفك سخيفاً، وإن لديك آدم لتهتمي بأمره وكذلك بن. ونصحتك بأن تقطعي تلك العلاقة على الفور وتتوقفي عن مقابلة ذلك الرجل".

"ولكنني لم أصغ إليك، أليس كذلك؟".

قالت: "كلا، لم تصغي إلي في البداية، فتشاجرنا. قلت لك إنك بدأت تقحمينني في موقف محرج جداً لأن بن صديقي أيضاً. وكنت تطلبين مني أن أكذب عليه كما تكذبين أنت".

"وماذا حدث بعد ذلك؟ إلى متى استمر الوضع؟".

التزمت الصمت ثم قالت: "لا أعرف، ولكن ذات يوم، ولا بد من أن هذا حدث بعد بضعة أسابيع، قلت لي إن العلاقة بينكما انتهت، وإنك قلت لذلك الرجل إن العلاقة بينكما غير ناجحة، وإنك ارتكبت خطأ، واعتذرت له وقلت إنك تصرفت بحماقة وجنون".

"هل كنت أكذب؟".

"لا أعرف، ولكنني لا أظن ذلك. إذ إننا لم نعتد على أن نكذب على بعضنا قط". نفخت على قهوتها وقالت: "وبعد بضعة أسابيع، تم العثور عليك في برايتون، ولكن، ليست لدي أيّ فكرة عما حدث خلال ذلك الوقت".

ربما تكون هذه الكلمات هي التي جعلتني أدرك أخيراً أنني ربما لن أعرف أبداً كيف تعرضت لذلك الهجوم، ولكن صرخة انطلقت من بين شفتي. حاولت أن أكتمها وأخفيها، ولكنني أخفقت في ذلك. فخرجت مني كصرخة الدهشة والألم

أو صوت حيوان جريح. أبعد توبي نظره عن دفتر التلوين الذي كان يرسم عليه ونظر إليّ، كما نظر إليّ جميع مَن في المقهى وراحوا يحدقون إليّ باستغراب، أنا المرأة المجنونة فاقدة الذاكرة.

قبضت كلير على ذراعي وقالت: "كريسي! ما الخطب؟".

بدأت أنتحب بصوت مرتفع وأخذ جسدي يهتز بعنف وأنا أحاول التقاط أنفاسي. بكيت على كل السنوات التي أضعتها، وكل السنوات التي سأستمر فيها بالحياة ثم أفقدها، من هذا اليوم وحتى يوم وفاتي. بكيت لأنها أخبرتني بحقيقة خيانتي لزوجي بالرغم من صعوبة موقفها وإحراجها. ومع ذلك، فقد أدركت أنه سيتوجب عليها أن تعيد الكرّة كلها مجدّداً غداً. وبكيت أكثر شيء لأنني أنا ألحقت كل هذا الدمار بنفسي.

قلت: "إنني آسفة... آسفة".

نهضت كلير ودارت حول الطاولة وركعت بجانبي ووضعت ذراعها حول كتفي. فوضعت رأسي على رأسها. قالت لي وأنا أنتحب: "هوّني عليك. إن الأمر على ما يرام يا عزيزتي كريسي. إنني هنا إلى جانبك".

ربما خشي توبي أن يتفوق أحد عليه في الضجيج، فأصبحت تصرفاته صاخبة وأوقع دفتر التلوين على الأرض بالإضافة إلى كوب العصير البلاستيكي. نظفت كلير المكان وقالت: "أريد أن أستنشق بعض الهواء النقي، هلا خرجنا؟"، فأومأت برأسي وأنا أتنفس الصعداء، وخرجنا من المقهى.

جلسنا قبالة بعضنا على أحد المقاعد التي تطل على الحديقة حتى تلامست ركبنا، أمسكت كلير يدي بين يديها وهي تربت عليهما بين الحين والآخر وكأنهما باردتان.

"هل عرف بن بأمر علاقتي؟".

ترددت كلير للحظة ثم قالت: "لم يعرف في بادئ الأمر، ثم عرف بعد أن تم العثور عليك". سكتت قليلاً ثم أضافت: "أصيب بصدمة عنيفة، وجميعنا كذلك. وفي البداية، ظننا أنك قد لا تنجين من الحادث. وفي وقت لاحق، سألني بن إن كنت أعرف سبب تواجدك في برايتون، فأخبرته الحكاية كلها لأنني شعرت بأن

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ذلك من واجبـي. كنت قد سبق وأخبرت الشرطة بكل ما لدي، فلم يعد لــدي خيار سوى أن أخبر بن".

مزقني الشعور بالذنب مرة أخرى وأنا أفكر في زوجي ووالد ابني وهو يحاول أن يكتشف سبب العثور على زوجته المحتضرة على بعد أميال من البيت. ما الذي دفعني لارتكاب هذا الذنب بحقه؟

قالت كلير: "بالرغم من ذلك، فقد سامحك بن، ولم يضمر لك أي حقد قطّ. كل ما كان يهمه هو أن تنجي من الموت وأن تعودا للعيش معاً. كان مستعداً لبذل الغالي والرخيص وكل شيء من أجلك، ولم يعد أي شـيء آخـر يهمـه علـى الإطلاق".

شعرت بموجة حب تكتسحني نحو زوجي، وبدت حقيقية وغير مجبرة، إذ إنه تقبلني بالرغم من كل شيء واعتنى بـي.

قلت لها: "هلا تتحدثين إليه؟"، فابتسمت.

"بالطبع! ولكن، عَمَّ؟".

فقلت لها: "إنه لا يخبرني الحقيقة أو على الأقل لا يفعل هذا دائماً. إنه يحـاول أن يحميني، ولهذا، فهو يخبرني بما يعتقد أنني أستطيع التكيف معه وما يظن أنني أريد أن أسمعه".

قالت: "إن بن لا يفعل هذا، فهو يحبك جداً ولطالما أحبك".

قلت: "إنه يكذب عليّ لأنه لا يعرف أنني أعرف الحقيقة. ولا يعـرف أنـني أدوّن ما يجري معي. إنه لا يخبرني عن آدم، ولا يخبرني بأنه تركني، كما أنه يقـول إنك تعيشين في أقاصي الدنيا. إنه لا يظن أنني أستطيع التكيف مع هذه الحقـائق. لقد فقد الأمل من شفائي يا كلير. مهما كانت حماسته لشفائي من قبـل، فقـد تلاشت هذه الحماسة. إنه لا يريدني أن أقابل طبيباً بعد الآن لأنه لا يظن أن حالتي ستتحسّن، ولكنني كنت أقابل أحد الأطباء يا كلير، واسمه الدكتور ناش. إنني أقابله سراً لأنني لا أستطيع حتى أن أخبر بن".

تغيرت ملامح وجه كلير وبدت خائبة الأمل مني على ما أعتقد، وقالـت: "إن هذا ليس تصرفاً جيداً. ينبغي لك أن تخبريه بما تفعلينه، فهو يحبـك ويثـق بك".

"لا أستطيع أن أخبره، فقد أنكر البارحة فقط أنه على صلة بك".

تغير تعبير الاستهجان الذي كان يعلو وجهها. وللمرة الأولى، لاحظت أنها بدت متفاجئة.

"كريسي!".

أخذت نفساً عميقاً وقلت: "هذا صحيح. إنني أدرك أنه يحبني، ولكنني أريده أن يتوخى الصدق في ما يقوله لي حيال كل شيء. إنني لا أعرف شيئاً عن ماضي حياتي، وهو الوحيد القادر على مساعدتي. أريده أن يساعدني".

"إذاً، ينبغي لك أن تتحدثي إليه وتضعي ثقتك به".

قلت: "كيف يسعني هذا؟ كيف أثق به بعد كل الأكاذيب التي قالها لي؟ كيف يمكنني ذلك؟".

ضغطت على يدي بين يديها وقالت: "إن بن يحبك يا كريسي. لا بد من أنك تدركين ذلك. إنه يحبك أكثر من حياته ولطالما أحبك".

فهممت بأن أعارض كلامها، ولكنها قاطعتني قائلةً: "يجب أن تثقي به. صدقيني يا عزيزتي. ستكتشفين كل شيء بنفسك، ولكن، عليك أن تخبريه الحقيقة. أخبريه عن الدكتور ناش وعن السجلّ الذي تدونين فيه ما يجري معك. إن هذا هو الحل الوحيد".

أدركت في أعماقي أن ما تقوله حقيقي، ولكنني مع ذلك ما زلت عاجزة عن إقناع نفسي بأنه ينبغي لي أن أخبر بن عن سجلي.

"ولكنه قد يود أن يقرأ ما كتبته".

فنظرت إلي بعينين نصف مطبقتين وقالت: "ليس هناك شيء لا تودين أن يراه، أليس كذلك؟"، فلم أقل شيئاً. فقالت: "أهناك شيء تخفينه يا كريسي؟". فأشحت بوجهي.

جلسنا لدقيقة صامتتين ثم فتحت حقيبتها وقالت: "سأعطيك شيئاً يا كريسي. لقد أعطاني بن هذه الرسالة عندما قرر أن يتركك". أخرجت مغلفاً من حقيبتها وأعطتني إياه. كان المغلف مجعداً ولكنه ملصق. قالت: "لقد قال لي إن هذه الرسالة تشرح موقفه بأكمله". حدقت ورأيت اسمي مكتوباً عليه بأحرف كبيرة مرتبة. قالت كلير: "لقد طلب مني بن أن أعطيك الرسالة عندما تصبحين بحال

حيدة بما يكفي لأن تقرأيها". نظرت إليها ومشاعر متضاربة كانت تحتدم في داخلي مع خليط من الانفعال والخوف. قالت كلير: "أعتقد أن الأوان قد حان لتقرأيها أخيراً".

أخذت الرسالة منها ووضعتها في حقيبتي. وبالرغم من أنني لم أدرك سبب تصرفي هذا، فإنني لم أود أن أقرأها أمامها. إذ ربما خشيت أن تتمكن من قراءة محتوياتها منعكسة على ملامح وجهي، وأن تفتضح أسراري فلا تعود ملكاً خالصاً لي بعد الآن.

قلت: "شكراً لك". فلم تبتسم.

قالت وهي تنظر إلى يديها: "هناك سبب يدعو بن لأن يقول لك إنني انتقلت بعيداً يا كريسي". أمسكت عن الكلام، وشعرت بأن عالمي بدأ يتغير بالرغم من أنني لم أكن واثقة من الاتجاه الذي بدأ يسلكه. تابعت كلير قائلة: "يجب أن أخبرك شيئاً يتعلق بسبب فقدان التواصل بيننا".

أدركت السبب من دون أن تتفوه بكلمة واحدة، ولا بد من أنني أدركته بحدسي. إنه القطعة المفقودة من اللغز، والسبب الذي جعل بن يتركني وجعل صديقتي المقربة تختفي من حياتي لسبب كذب عليَّ زوجي بشأنه. كنت محقة طوال الوقت، كنت على حق في ظني.

فقلت: "هذا صحيح. يا الله! إن ما فكرت فيه صحيح. إنك تقابلين بن. لا بد من أنك على علاقة بزوجي".

نظرت إليَّ برعب وقالت: "كلا! هذا ليس صحيحاً!".

شعرت بتأكيد غريب يسيطر على أفكاري، أردت أن أصيح في وجهها وأنعتها بالكاذبة، ولكنني لم أفعل ذلك. أوشكت أن أسألها مجدداً عما أرادت أن تخبرني به عندما مسحت شيئاً عن عينيها. أهي دمعة يا ترى؟ لست أدري.

همست قائلة وهي تنظر إلى يديها: "مرة واحدة. حدث هذا مرة واحدة فقط".

من بين كل المشاعر التي قد يتوقع المرء أن أشعر بها، ليس الشعور بالراحة شعوراً متوقعاً أبداً، ولكن هذا هو الشعور الذي انتابني فعلاً. فقد شعرت بالراحة.

ترى ألأنها توخت الصدق معي؟ ألأنني أخيراً حصلت على تفسير لكل شيء أستطيع تصديقه؟ لست واثقة فعلاً. ومع ذلك، فالغضب، الذي قد يتوقع المرء أن يغلي في أعماقي، لم يتملكني قط ولا حتى الألم. أدركت أنني سررت لسماع هذا الكلام لأنه جعلني أشعر بشرارة ضئيلة من الغيرة ودليلاً ملموساً على حبي لزوجي، ولكن، ربما شعرت أيضاً بالراحة وحسب لأن بن ارتكب خيانة مماثلة لخيانتي وأننا أصبحنا متعادلين.

همست لها قائلة: "أخبريني كل شيء".

قالت بهدوء من دون أن تنظر إليّ: "لطالما كنا نحن الثلاثة مقربين جداً من بعضنا بعضاً، أقصد أنتِ وأنا وبن، ولكن، لم يحدث أي شيء بيني وبينه. يجب أن تصدقي هذا. لم يحدث أي شيء قط". طلبت منها أن تتابع، فقالت: "بعد الحادث الذي تعرضت له، حاولت أن أقدم يد المساعدة بشتى الوسائل الممكنة. ويجب أن تتخيلي كم كان الوضع سيئاً بالنسبة إلى بن من الناحية العملية على الأقل. جربت أن أقدم كل مساعدة ممكنة ولا سيما العناية بآدم. فأمضينا الكثير من الوقت معاً، ولكننا لم نكن على علاقة غرامية في ذلك الوقت. أقسم بذلك يا كريسي".

فقلت: "إذاً، ماذا حدث؟ ماذا بعد؟".

قالت كلير: "حدث هذا قبل أن تنتقلي إلى دار رعاية وورينغ بوقت قصير. وكنت وقتئذٍ في أسوأ حالاتك، وأصبح وضع آدم صعباً جداً، وباتت حياة بن برمتها عملاً شاقاً". أشاحت بوجهها وقالت: "بدأ بن يشرب بكثرة، ليس بإفراط، ولكن بما يكفي لأن يجعل وضعه سيئاً. لم يعد يتكيف مع ظروفه الحياتية. وفي إحدى الليالي بعد أن عدنا من زيارتك، وضعت آدم في سريره. كان بن جالساً في غرفة المعيشة يبكي ويكرر قوله: *إنني عاجز عن الاستمرار بعد الآن. إنني أحبها كثيراً، ولكن هذا الوضع يكاد أن يقتلني*".

أمسكت عن الكلام، وهبت علينا رياح باردة وعاصفة، فشددت معطفي حول جسمي. تابعت كلير: "جلست بجانبه، و...". توقفت مجدداً عن الكلام، ولكنني استطعت أن أتخيل كل ما حدث. فقد تخيلته يضع يده على كتفها ويعانقها ورأيت دموعهما تمتزج، واللحظة التي شعرا فيها بالذنب الذي يؤكد لهما أن هذا

خطأ يجب ألاّ يستمر، ولكن ذلك الشعور لم يستمر طويلاً عندما أصبحا عاجزين عن التوقف.

وماذا بعد ذلك؟ أين حصل هذا؟ لا أريد أن أعرف.

"وماذا بعد؟".

قالت: "إنني آسفة جداً. فأنا لم أتعمد حدوث هذا، ولكنه حدث مرة واحدة فقط. ومنذ ذلك الحين، انتابني شعور سيئ جداً وكذلك هو. فقررت أنني مدينة لك وله أيضاً بالابتعاد عنكما من ذلك الوقت فصاعداً. إن السبب هو شعوري بالذنب على ما أعتقد".

خطرت فكرة مريعة ببالي.

"هل قرر عندئذٍ أن يتركني؟".

فقالت كلير بسرعة: "كلا، هذا ليس صحيحاً يا كريسي. لا تدعي تلك الفكرة تستولي عليك. لقد انتابه شعور مريع أيضاً، ولكنه لم يتركك بسببي".

قلت في سرّي إنه لم يفعل ذلك مباشرة، ولكنها ربما ذكرته بكل الأمور الجميلة التي كان يفتقدها في حياته معي.

نظرت إليها من دون أن أشعر بالغضب، إذ إنني لم أستطع ذلك. ولو أنها قالت لي إنهما لا يزالان على علاقة معاً، لربما تملكني شعور مختلف، ولكنها لم تقل هذا. وجعلني ما قالته أشعر بأنه حدث في وقت مختلف وربما في عصور ما قبل التاريخ. و لم أستطع أن أجد علاقة تربطه بي على الإطلاق.

نظرت كلير إليّ وقالت: "بالرغم من كل ما حدث، فإنني لم أقوَ على البقاء بعيداً عنك يا كريسي. وعجزت عن حمل نفسي على هجرانك. فظللت أزورك في دار الرعاية، واعتدت أن أفعل ذلك كل بضعة أسابيع ثم كل بضعة أشهر، ولكن هذه الزيارات كانت تزعجك بشكل رهيب جداً. إنني أدرك الآن كم تصرفت بأنانية، ولكنني لم أستطع أن أتركك هناك وحيدة، لذا، واصلت المجيء لأراك فقط وأتفقد أنك على ما يرام".

"ألم يعرف بن بذلك؟".

"كلا، لم أخبره. إذ إننا لم نعد على اتصال ببعضنا".

"ألهذا السبب لم تعودي تزورينني مؤخراً في البيت؟ أبسبب بن؟".

"كلا، ليس هذا هو السبب. ذات مرة، زرتهم هناك وقالوا لي إنك غادرت وذهبت للعيش مع بن. كنت أعرف أن بن انتقل من البيت، لذا طلبت منهم أن يعطوني عنوانك، ولكنهم رفضوا ذلك بحجة أن هذا خرق للخصوصية. وقالوا إنهم مستعدون أن يسمحوا لي بكتابة رسالة يعطونك إياها عندما يتسنى لهم ذلك".

"هل كتبت رسالة؟".

أخذت نفساً عميقاً وقالت: "نعم، كتبت رسالة إلى بن قلت له فيها إنني آسفة ونادمة على ما حدث. وتوسلت إليه أن يدعني أراك".

"ولكن هل قال إنه يمنعك من هذا؟".

سكتت ثم قالت: "كلا، لم يقل شيئاً، بل أنت من كتبت لي يا كريسي. قلت في رسالتك إنك تشعرين بتحسن كبير وإنك سعيدة مع بن". وأشاحت بوجهها لتتأمل الحديقة ثم قالت: "ثم قلت إنك لا تريدين أن تري وجهي مجدداً لأنني خنتك". مسحت دمعة من عينها ثم قالت: "وطلبت مني ألا أقترب منك مجدداً على الإطلاق. وقلت إنك تفضلين أن تنسي أمري".

شعرت ببرودة تسري في جسدي، وحاولت أن أتخيل الغضب الذي لا بد من أنني قد شعرت به لدرجة دفعتني لكتابة رسالة قاسية كتلك، ولكنني في الوقت نفسه أدركت أن الغضب ربما لم يتملكني على الإطلاق. إذ إن كلير بالكاد أصبحت موجودة في حياتي، وباتت صداقتنا طي النسيان.

قلت: "إنني آسفة".

ابتسمت وقالت: "كلا، لا تعتذري. فقد كنت محقة في ما قلته، ولكنني لم أتخلَّ عن أمل أن تغيري رأيك، ولهذا السبب اتصلت بدار الرعاية وتركت لديهم رقمي. فقد أردت أن أراك وأخبرك الحقيقة وجهاً لوجه". لم أعلّق على ما قالته، فتابعت حديثها قائلة: "إنني آسفة جداً. أيمكن أن تسامحيني؟".

أمسكت يدها. كيف يسعني أن أغضب منها أو من بن؟ فقد شكل وضعي عبئاً ثقيلاً جداً علينا جميعاً.

فقلت: "نعم. إنني أسامحك".

غادرنا الحديقة بعد وقت قصير، وعندما وصلنا إلى سفح التل، التفتت كلير لتواجهني وقالت: "هل سأراك مرة أخرى؟".

ابتسمت وقلت: "آمل ذلك!".

ارتسمت ملامح الراحة على وجهها وقالت: "سأفتقدك يا كريسي. ليست لديك فكرة كم اشتقت إليك".

إن كلامها صحيح تماماً، إذ لم تكن لدي فكرة فعلاً، ولكن وجودها في حياتي ووجود هذا السجل منحاني الفرصة كي أعيد بناء حياة تستحق أن أعيشها. فكرت في الرسالة التي وضعتها في حقيبتي واعتبرتها رسالة من الماضي، والقطعة الأخيرة من اللغز الذي أريد حله، والأجوبة التي أريد الحصول عليها.

قالت: "سأتصل بك في وقت مبكر من الأسبوع القادم. موافقة؟".

قلت: "موافقة". عانقتني كلير بحنان، وضاعت كلماتي بين خصلات شعرها. شعرت بأنها صديقتي الحميمة والشخص الوحيد الذي يمكنني الاعتماد عليه بالإضافة إلى بن. في الحقيقة، إنها أخت لي وليست مجرد صديقة. ضغطت عليها بقوة وقلت: "شكراً لأنك قلت لي الحقيقة. وشكراً لك على كل شيء. إنني أحبك". عندما افترقنا ونظرنا إلى بعضنا من بعيد، كنا نحن الاثنتان باكيتين.

* * *

عندما عدت إلى البيت، جلست لأقرأ رسالة بن، فاستولى عليّ توتر شديد، وتساءلت ما إذا كانت الرسالة ستطلعني على ما أريد معرفته. ترى هل سأفهم أخيراً لماذا تركني بن؟ ولكنني في الوقت نفسه شعرت بالانفعال لأنني كنت متأكدة من أنها ستطلعني فعلاً على ما أريد معرفته. وشعرت بأنني على ثقة بأنني بوجود بن وكلير سأحصل على كل ما أحتاج إليه.

هذا هو نص الرسالة: *عزيزتي كريستين. إن هذه أصعب رسالة اضطررت إلى كتابتها في حياتي، بل أظن أنها أصعب عمل اضطررت إلى القيام به على الإطلاق. إنني أعي أنني أبدأ رسالتي بعبارة قديمة ومكررة، ولكنك تفهمين تماماً أنني لست*

كاتباً، بل لطالما كنت أنت الكاتبة! ولهذا، فأنا آسف جداً، ولكنني سأبذل قصارى جهدي لأجيد التعبير عما يجول بخاطري.

بحلول الوقت الذي ستقرأين فيه هذه الرسالة، ستكونين على ما آمل مدركة للسبب الذي يدفعني للقيام بهذا يا كريستين. فقد قررت أن أتركك. إنني لا أتحمل فكرة التفوه بهذا الكلام أو حتى كتابته أو التفكير فيه، ولكن يجب عليّ ذلك. حاولت جاهداً أن أجد حلاً آخر. صدقيني يا عزيزتي. فقد بذلت كل ما في وسعي.

ولكن ما من حل آخر. يجب أن تظلي على يقين من أنني أحبك ولم أكفّ عن حبك قط مهما حصل ولأي سبب كان. إنني لا أكترث بأي شيء، وليس هذا انتقاماً من جانبي أو شيئاً من هذا القبيل. عندما كنت في غيبوبة، أدركت كم أصبحت تشكلين جزءاً من كياني. فقد شعرت بأن جزءاً من فؤادي كان يموت كلما نظرت إليك. وأدركت أنني لم أعد أكترث بما كنت تفعلينه في تلك الليلة في برايتون. فقد أردت وحسب أن تعودي إلي سليمة معافاة.

ثم عدت إلي، وجعلني هذا أسعد مخلوق في العالم. لا يسعك أن تصدقي كم أسعدني اليوم الذي قالوا لي فيه إنك تجاوزت مرحلة الخطر ولم تعودي مهددة بالموت. أدركت أنه لا يزال أمامنا الكثير من العمل لنقوم به إلى أن تتحسني فعلاً، ولكنني ارتحت لأنني أصبحت على يقين من أنك لن تفارقيني بعد اليوم أو تفارقينا. كان آدم صغيراً جداً، ولكنني أؤكد لك أنه كان يفهم ما يجري حوله.

ولكننا صدمنا عندما عرفنا أنك أصبحت فاقدة الذاكرة. لم تعد ذاكرتك قط. وفي البداية، ظن الأطباء أن حالتك مؤقتة، ولكنها ازدادت سوءاً ولم تتحسن. اعتدنا أن نأتي لزيارتك يوميًّا. وفي بادئ الأمر، كنت تعرفين هويتك أنت ولا تعرفيننا بل كنت تجهلين سبب ظهورنا فجأة وكأننا أتينا من المجهول. وأصبحت على قناعة من أن الأطباء أرادوا أن يجروا تجارب عليك. وظللت تتوسلين إلي أن أصطحبك إلى البيت، ولكنني لم أستطع ذلك، فحطم ذلك فؤادي كل يوم.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وذات يوم أتيت لزيارتك، فقالوا لي إنك مفقودة بعد أن خرجت من المستشفى من دون أن يعرف أحد وجهتك. فاتصلوا بالشرطة، ولكنك لم تغيبي لفترة طويلة بما يكفي لأن يتم تصنيفك كشخص مفقود، ولهذا، فقد أرسلوا بعض الممرضات للبحث عنك.

لكنني عثرت عليك بنفسي. كان هناك مقعد بجانب إحدى القنوات اعتدنا أن نجلس عليه دائماً عندما نخرج معاً، فوجدتك هناك. كنت تبدين تائهة جداً وأنت جالسة هناك مرتدية بيجامتك ومنتعلة خفك الملطخ بالوحل. توسلت إلي أن أصطحبك إلى البيت، ولكنني لم أستطع ذلك. فقد توجب علي أن أعيدك إلى المستشفى. قالوا لي هناك إنهم عثروا على مكان ينقلونك إليه، وهو عبارة عن جناح مغلق.

ما كان ينبغي لهم أن يرسلوك إلى هناك. أتمنى لو أنني قاومتهم أكثر من ذلك، ولكن، ما الذي بيدي أن أفعله؟ لقد فعلوا ذلك من أجل سلامتك، وكنت مقتنعاً بذلك، وكانوا هم على حق على ما أعتقد، ولكن لم يخطر ببالي قط أنك ستمكثين هناك وقتاً طويلاً.

أحرزت تقدماً في جناحك الجديد، وبعد عام أو نحو ذلك، بدأت تمضين العطلات الأسبوعية في البيت معنا. وكان يتوجب علي أن أقفل الباب وأن أحرص كثيراً إن خرجنا من البيت ألا تتوهي وتنسي أين أنت أو أين أنا. بدأ آدم في ذلك الوقت يصبح كبيراً بما فيه الكفاية لأن يفهم حقيقة مرضك ويدرك أنك أصبحت مختلفة عن سابق عهدك.

أعتقد أن هذا هو الوقت الذي ازدادت فيه صعوبة الوضع. لطالما أحببت آدم حباً جماً وواضحاً وضوح الشمس. فقد كان حبك له يشع من عينيك عندما نصل لزيارتك. واعتاد آدم أن يركض ليرتمي بين ذراعيك. فكنت تحملينه وتتعرفين إليه على الفور، ولكنك في ذلك الوقت، وأنا آسف لنلك يا كريس، إذ يجب علي أن أقول لك هذا، بدأت تعتقدين أن أحداً أخذ آدم منك عندما كان طفلاً رضيعاً. فأصبحت في كل مرة ترينه فيها تظنين أنه أول لقاء بينكما منذ كان عمره بضعة شهور. طلبت منه أن يخبرك عن آخر مرة رأيته فيها، فقال لك: "البارحة يا أمي أو الأسبوع الماضي". ولكنك لم تصدقي كلامه بل قلت: "ماذا الذي تقوله له؟ إن هذه كذبة".

وبدأت تتهمينني بأنني أحبسك في جناح المستشفى، وظننت أنني على علاقة غرامية بامرأة أخرى وأن تلك المرأة أصبحت تربي آدم وكأنه طفلها في أثناء وجودك أنت في المستشفى. وذات مرة، ضربتني على رأسي بصينية عشائك وأخذت آدم وركضت به باتجاه الباب محاولة أن تهربي وتنقذيه مني، ولكنه راح يصرخ ويبكي لأنه لم يفهم سبب تصرفك هذا.

توجب عليّ أن أعيده إلى البيت، ولكن هذا الحدث راح يتكرر بحذافيره أو بصيغة أخرى مشابهة. وبدأ آدم يخاف منك، لذا، أصبحت آتي لرؤيتك بمفردي، ولكن هذا التصرف أثار استياءك، فاستشطت غضباً وارتجفت أوصالك من الخوف والألم، وبدوت مرتبكة كلياً وكأنه ليست لديك أيّ فكرة عما يجري. كنت تعرفين من أنا، ولكنك لم تعرفي أي شيء آخر.

ذات مرة، وعندما غادرت المستشفى، بدأت تبكين. وعندما عدت إليك في اليوم التالي، وجدتك لا تزالين تبكين. وقال أحد الأطباء: "لم تذق طعم النوم. فقد أمضت الليل بطوله تبكي بلا توقف".

استمر الوضع لأربعة أيام ظللت فيها تبكين باستمرار من دون حتى أن تعرفي السبب. فأحضرت آدم إليك في اليوم الخامس ولكنك لم تتعرفي إليه.

أزعج تصرفك آدم كثيراً، حتى إنه لم يعد يطلب مني أن أحضره لـيراك. واصلت اصطحابه إليك، ولكن الزيارة كانت تزعجكما أنتما الاثنين وتـدفعكما لغضب هستيري. فتحطم قلبـي لرؤيتكما معاً على هذه الحال، إذ إنكما أخـذتما تثيران غضب بعضكما، ولم يدرك أي منكما السبب الحقيقي وراء ذلك.

ذات يوم، اتصلت بالمستشفى وسألتهم عن حالك في غيابـي وغيـاب آدم، وقلت: "صفوا لي حالتها". فقالوا إنك هادئة وسعيدة وجالسة على الكرسي بجانب سريرك. ثم سألتهم: "ما الذي تفعله؟"، فقالوا لي إنك تتجاذبين أطراف الحديث مع إحدى صديقاتك من بين الممرضات. وأخبروني أنكما كنتما في بعـض الأحيـان تلعبان الورق معاً.

فقلت: "تلعب الورق؟"، ولم أستطع أن أصدق أذني. قالوا لي إنـك تلعبـين الورق فعلاً وإنك بارعة به وتستمتعين باللعب. وبالرغم من أنه كان يتوجب عليهم أن يشرحوا لك قواعد اللعبة كل يوم، فقد كنت تفوزين على الجميع باللعب.

قلت: "أهي سعيدة؟".
قالوا: "نعم، إنها سعيدة دائماً".
قلت: "هل تتذكرني أو تتذكر آدم؟".
فأجابوا قائلين: "إنها لا تتذكركما إلا عندما تأتيان إلى هنا".

لقد كنت أنا السبب يا كريس، أنا من يأتي لزيارتك، ولا أدرك السبب في ذلك. إذ ربما ذكرتك بما مضى، ولكنني أنا من أثرت استياءك وكذلك آدم. أعتقد أنني حينئذ قررت أن أنقلك من ذلك المكان إلى مكان آخر يمكنك البقاء فيه بقية حياتك إن تطلب الأمر. وأدركت أنني ربما سأضطر إلى تركك يوماً ما.

وهذا هو ما فعلته، فقد عثرت على مكان يمكنك أن تعيشي فيه أطول وقت ممكن، مكان تعيشين فيه بسعادة وراحة من دوني ومن دون آدم. وهكذا، فلن تعرفينا ولن تفتقدي إلى وجودنا في حياتك.

أحبك من كل قلبي يا كريس. يجب أن تدركي هذا. أحبك أكثر مما أحب أي أحد آخر. لقد أحببتك منذ أول لحظة رأيتك فيها، ولكن، يجب عليّ أن أمنح ابننا الحياة التي يستحقها. إذ سرعان ما سيكبر بما فيه الكفاية لأن يدرك ما يجري حوله، لذا، أريد أن أبقي ذهنه مليئاً بذكريات سعيدة عن أمه. لن أكذب عليه يا كريس. سأخبره كل شيء عندما يكبر بما فيه الكفاية حتى يستطيع أن يتفهم الحقيقة، وسأشرح له القرار الذي اتخذته. وسأخبره أنه كان يود أن يراك كل يوم، ولكن هذا أزعجه كثيراً. قد يكرهني ويلومني لما فعلته. آمل ألا يفعل ذلك، ولكن هذا هو الصواب، وهذا هو الحل الوحيد. أريده أن يعيش حياة سعيدة، وأريدك أنت أيضاً أن تنعمي بالسعادة حتى لو اضطررت إلى الانسحاب من حياتك.

لقد مضى على وجودك في دار رعاية وورينغ بعض الوقت الآن، وأصبحت تنعمين بالاستقرار والرضا، ولم تعودي تشعرين بأي فزع بعد الآن. كما أصبح لديك إحساس بالروتين، وهذا حسن. إن هذا هو ما أريده من أجلك. وأخيراً، حان الوقت كي أرحل من حياتك.

حاولت أن أشرح لك قراري يا عزيزتي، ولكنني لم أستطع. كنت في البداية تفهمينني، ولكن، إن غادرت لتلك الأمسية أو خرجت لأقابل أحد الأطباء أو أثرثر مع نيكول أو ماري أو أياً كان ثم عدت، كنت أجدك وقد نسيت كل شيء. فتألمت كثيراً لرؤيتك تعانين هذا الوضع.

لن أكف عن حبك أبداً يا كريس. سأحبك دائماً من كل قلبي الآن وإلى الأبد. سأربي ابننا وسيحبك هو أيضاً بدوره. صدقيني.

سأعطي هذه الرسالة لكلير وأطلب منها أن تحتفظ بها من أجلك وتريك إياها عندما تتحسن حالتك بما يكفي لأن تفهميها. لا أستطيع أن أحتفظ بها بنفسي، إذ إنني سأفكر فيها طوال الوقت ولن أقاوم الدافع لأن أعطيك إياها في الأسبوع التالي أو الشهر التالي أو حتى العام التالي وفي وقت أبكر من اللازم.

لا يسعني الادعاء بأنني لا آمل أن نعود للعيش معاً من جديد عندما تتعافين من مرضك وأن نعيش نحن الثلاثة معاً كعائلة. يجب أن أصدق أن هذا ممكن الحدوث. يجب أن أصدق هذا يا كريستين، وإلا فسوف أموت من الحزن.

لست أتخلى عنك يا كريس. ولن أتخلى عنك قط. فأنا أحبك حباً يفوق الوصف.

سأفتقدك كثيراً. وسينفطر قلبي كل يوم وأنا بعيد عنك، ولكن هذا هو الحل الصائب الوحيد لأفعله.

لا تكرهيني، فأنا أحبك.

زوجك المحب بن.

* * *

أعيد قراءة الرسالة مرة ثانية وأطوي الورقة لأعيدها إلى المغلف، وأشعر بالرسالة جديدة وكأنها مكتوبة البارحة فقط، ولكن المغلف الذي وُضعت فيه يبدو طرياً وحوافه مصفرّة وهناك رائحة حلوة عالقة به أشبه برائحة العطر، فأتساءل عن المكان الذي حفظته فيه كلير. ترى هل حملته معها مُخبأً في حقيبتها؟ أم إنها على الأرجح قد خبّأته في أحد الأدراج في بيتها بعيداً عن الأنظار من دون أن تنسى أمره أبداً؟ لقد ظل المغلف هناك لسنوات بانتظار الوقت المناسب لفتحه وقراءة

الرسالة. ومضت سنوات لم أعرف فيها من هو زوجي وحتى من أنا. ولم يكن من الممكن أن أرأب الصدع بيننا لأنه صدع لم أكن أعرف بوجوده على الإطلاق.

أضع المغلف على حضني وأنفجر باكية وأنا أكتب هذا الكلام، ولكنني لا أشعر بالتعاسة حقاً، إذ إنني أدرك أخيراً أنني فهمت حقيقة كل شيء وعرفت سبب هجران بن لي وكذبه عليّ.

لقد كذب عليّ، ولكنه لم يخبرني عن الرواية التي كتبتها كي لا تدمرني معرفتي أنني لن أتمكن من كتابة رواية أخرى طوال حياتي. وأخبرني أن صديقتي المقربة انتقلت من البلاد لأنه أراد أن يحميني من معرفة سر خيانتهما لي ذات مرة، ولأنه لم يكن واثقاً من أن حبي لهما كليهما سيشفع لهما ويدفعني لمسامحتهما. أخبرني بن أنني تعرضت لحادث سيارة ليجنبني معرفة أن حقيقة الهجوم الذي تعرضت له هي نتيجة عمل متعمد نابع عن كراهية وحقد ضاريين. ولم يخبرني أننا أنجبنا طفلاً ليس فقط ليحميني من معرفة أن ابني الوحيد مات، ولكن ليحميني أيضاً من معرفة هذه الحقيقة المرّة كل يوم من حياتي. ولم يخبرني، بعد سنوات أمضاها وهو يحاول أن يجد طريقة يلم بها شمل أفراد العائلة جميعاً، أنه اضطر أخيراً إلى مواجهة حقيقة استحالة عودتنا إلى بعضنا وأخذ ابني ورحل ليعثر على السعادة في مكان آخر.

لا بد من أنه ظن أن فراقنا سيستمر إلى الأبد عندما كتب هذه الرسالة، ولكن من المؤكد أنه تمنى ألا يستمر فعلاً، وإلا فلماذا كتب هذه الرسالة؟ ترى هل راح يفكر وهو جالس هناك في بيته، بيتنا الذي لا بد من أنه كان فيه، وأخذ قلمه محاولاً أن يشرح لامرأة - ليس من المتوقع أن تفهمه - دافعه وراء الشعور بألا خيار أمامه إلا تركها؟ لقد قالها بنفسه: إنني لست كاتباً. ومع ذلك، فقد بدت كلماته في غاية الجمال والعمق والتأثير. لقد جعلتني أشعر بأنه يتحدث عن شخص آخر. ومع ذلك، فأنا أشعر في قرارة نفسي وأعماقي ووجداني بأنه ليس كذلك. إنه يتحدث عني أنا، عن كريستين لوكاس، زوجته المحطمة.

ولكن الفراق لم يدم إلى الأبد، فقد تحققت آماله، وتحسن وضعي إلى حدٍّ ما، أو أنه ربما وجد فراقي أصعب مما تخيله، فعاد إلي.

رحت أتأمل المكان من حولي، فرأيت كل شيء فيه مختلفاً، ولا تبدو الغرفة التي أجلس فيها الآن مألوفة أكثر مما بدت عليه صباح اليوم عندما استيقظت

ودخلت إليها متعثرة محاولة أن أعثر على المطبخ لأنني كنت أشعر برغبة ملحة لشرب كأس من الماء، ورغبة ملحة أكثر لأن أفهم ما حدث الليلة الماضية. ومع ذلك، فلا أراها الآن مغمورة بالحزن والأسى والألم ولا رمزاً للحياة التي لا أستطيع تخيل عيشها. ولا يعود صوت تكتكة الساعة فوق كتفي مجرد تعبير عن مرور الوقت، إذ إنها تتحدث إلي وتقول: *استرخي وتقبلي الواقع.*

لقد ارتكبت خطأً وعاودت ارتكابه مرة تلو أخرى. ومن يعلم كم مرة فعلت ذلك؟ نعم، إن زوجي هو من يحميني، ولكنه أيضاً حبيبي. والآن أدرك أنني أحبه ولطالما أحببته. وإن توجب عليّ أن أتعلم حبه كل يوم، إذاً، فليكن ذلك. فهذا هو ما سأفعله.

سيعود بن إلى البيت قريباً. إنني أشعر بقربه. وعندما يصل، سأخبره كل شيء. وسأقول له إنني قابلت كلير وقرأت رسالته. سأخبره عن لقاءاتي بالدكتور ناش والدكتور باكستون. سأخبره أنني أتفهم كل شيء قام به. سوف أتفهم كل ما فعله في ذلك الوقت وسبب تركه لي وأسامحه عليه. سأخبره أنني أتفهم كل ما يفعله الآن وأسامحه عليه أيضاً. سأدعه يعلم أنني أعرف بشأن الرجل الذي هاجمني، ولكنني لم أعد أريد أن أعرف ما جرى ولم أعد أكترث بمعرفة هوية الرجل الذي ألحق بي هذا الضرر.

سأخبره أنني أعرف بشأن آدم وما حدث له. وبالرغم من أن فكرة مواجهة حقيقة موته كل يوم ترعبني بشكل يفوق الوصف، فهذا هو ما يجب أن أفعله. يجب عليه أن يسمح لذكرى ابننا أن تعم أرجاء البيت وتملأ قلبي أيضاً مهما سبّب لي ذلك من ألم.

وسأخبره أيضاً عن سجلي، وأنني أخيراً أصبحت قادرة على سرد قصة حياتي، وسأريه إياه إن طلب مني ذلك. سوف أستمر بالكتابة في السجل لأروي قصتي وسيرة حياتي، ولأعيد بناء نفسي من العدم.

سأقول لزوجي: لا أسرار بيننا بعد اليوم. إنني أحبك يا بن. سأحبك مدى الحياة. لقد أخطأنا في حق بعضنا، ولكنني أرجوك أن تسامحني كما أسامحك. إنني آسفة لأنني تركتك كل تلك السنوات ولو ليوم واحد لأكون بصحبة رجل آخر،

وآسفة لأننا بعد كل تلك السنوات لن نتمكن أبداً من أن نتخذ قراراً بشأن ذلك الأمر لأنني لا أستطيع أن أتذكر الرجل الذي ذهبت لمقابلته في غرفة الفندق ولا ما عثرت عليه هناك، ولكنني أدرك تمام الإدراك أنني آسفة على فعلتي وأنني مصممة على تعويضك عن ذلك الخطأ الآن.

وعندئذ، وعندما لا يتبقى بيننا شيء سوى الحب، يمكننا أن نجد طريقة لنكون معاً فعلاً ونعيد بناء حياتنا من جديد.

اتصلت بالدكتور ناش وقلت له: "يجب أن أراك مرة أخرى. أريدك أن تقرأ سجلي". أعتقد أنه بدا متفاجئاً، ولكنه وافق وقال: "متى؟".

قلت له: "الأسبوع القادم. تعالَ الأسبوع القادم".

فوعدني بأن يمرّ لأخذه يوم الثلاثاء.

القسم الثالث

اليوم

أقلب الصفحة، ولكنني لا أجد شيئاً آخر، إذ إن القصة تنتهي هنا بعد أن قرأت لساعات طويلة.

ترتعش أوصالي وأكاد أعجز عن التنفس. فإنني لا أشعر بأنني عشت حياة كاملة خلال الساعات القليلة الماضية وحسب، بل أشعر بأنني تغيرت كذلك. فأنا لست المرأة نفسها التي قابلت الدكتور ناش صباح اليوم وجلست لتقرأ السجل. فقد أصبح لدي ماضٍ الآن وشعور بنفسي. وبتُّ أعرف ما أملكه في حياتي وما خسرته. فأجهش بالبكاء بحرقة.

أغلق السجل وأجبر نفسي على الهدوء. ويبدأ الحاضر يصبح أكثر وضوحاً وتأكيداً: الغرفة المظلمة التي أجلس فيها وصوت الحفر الذي أسمعه في الشارع خارجاً وفنجان القهوة الفارغ عند قدمي.

أنظر إلى الساعة بجانبي وتصيبني الصدمة، إذ أدرك الآن فقط أنها الساعة نفسها التي وصفتها في السجل الذي قرأته، وأنني المرأة نفسها الجالسة في غرفة المعيشة نفسها. وأفهم الآن تماماً أن القصة التي قرأتها قصتي أنا.

آخذ سجلي وأتوجه نحو المطبخ، وهناك أرى على الجدار اللوح الأبيض النظيف نفسه الذي رأيته صباح اليوم ولائحة المقترحات نفسها المكتوبة عليه بالأحرف الكبيرة بشكل مرتب، والملاحظة نفسها التي أضفتها بنفسي: حزم الحقيبة من أجل السفر هذه الليلة.

أنظر إليها وآخذ نفساً عميقاً. أشعر أن هناك حدساً داخلياً يقض مضجعي، ولكنني لا أدرك السبب في ذلك.

أفكر في بن وأتخيل مدى صعوبة الحياة التي عاشها لسنوات وسنوات من دون أن يعرف شخصية المرأة التي سيستيقظ إلى جانبها صباح كل يوم أو يكون على يقين مما سأتذكره ومدى الحب الذي سأتمكن من منحه إياه.

ولكن الآن؟ إنني أدرك الحقيقة فعلاً، وأتساءل إن كنت قد فتحت معه المحادثة التي قررت أن أفتحها. لا بد من أنني فعلت ذلك لأنني كنت واثقة جداً من أن ذلك هو الصواب لأن أفعله، ولكنني لم أكتب شيئاً عما دار فيها. إذ ربما أعطيت الدكتور ناش سجلي قبل أن تسنح لي الفرصة للكتابة وربما شعرت بألا حاجة إلى الكتابة الآن بعد أن أصبحت أتشارك وبن كلّ شيء.

أعود إلى أول السجل وأرى الكلمات الثلاث نفسها المكتوبة بالحبر نفسه على الصفحة تحت اسمي: إياك والوثوق ببن.

آخذ قلماً وأشطب الكلمات الثلاث. وعندما أعود إلى غرفة المعيشة، أنظر في أنحاء الغرفة بحثاً عن دفتر القصاصات. لا تزال هناك صور لآدم. ومع ذلك، فلم يذكره بن لي صباح اليوم. ولم أرَ محتويات الصندوق المعدني.

أفكر في روايتي: **إلى عصافير الصباح**. وعندئذ أنظر إلى السجل الذي أحمله. وتخطر ببالي فكرة غريبة: *ماذا لو كنت قد اخترعتُ كل هذا؟*

أقف على قدمي وأشعر بأنني بحاجة إلى دليل ورابط يربط بين ما قرأته وما أعيشه، وإشارة إلى أن الماضي الذي قرأت عنه ليس ماضياً مبتكراً من بنات أفكاري.

أخرج من غرفة المعيشة، فأرى مشجب المعاطف هناك في أسفل الدرج والخف بجانبه. تُرى هل سأعثر على المكتب وخزانة الملفات؟ وهل سأعثر على الصندوق المعدني الرمادي في الدرج السفلي المخفي تحت المنشفة؟ هل سأعثر على المفتاح في الدرج السفلي بجانب سريري؟

وإن وجدت كل ذلك، فهل سأجد ابني؟

يجب أن أعرف الحقيقة. أنهض بسرعة وأقفز على الدرج متخطية عدة درجات.

يبدو المكتب أصغر مما تخيلته وأكثر ترتيباً مما توقعت، ولكنني أرى الخزانة موجودة هناك وذات لونٍ رمادي معدني كلون الرصاص.

أجد منشفة في الدرج السفلي وتحتها صندوقاً، فأنتزعه وأستعد لرفعه، ولكنني أجد في تصرفي شيئاً من الغباء لأنني أشعر بقناعة مفاجئة بأنني إما سأجده مقفلاً أو فارغاً.

ولكنني أجده مفتوحاً ومليئاً؛ فأعثر فيه على روايتي؛ ليست النسخة التي أعطاني إياها الدكتور ناش، إذ إنني لا أرى أثر قهوة على الصفحات الأمامية، كما تبدو صفحات هذه النسخة جديدة. لا بد من أن بن احتفظ بها طوال الوقت بانتظار اللحظة التي سأتحمس فيها بما يكفي حتى أحصل عليها وتكون ملكاً لي مجدداً. أخرجها من مكانها وأجد تحتها صورة واحدة؛ إنما صورة تظهرني إلى جانب بن ونحن نبتسم بالرغم من أننا نبدو حزينين. تبدو الصورة حديثة، إذ إن وجهي يبدو شبيهاً بالوجه الذي رأيته في المرآة، ويبدو وجه بن كما بدا عندما غادر صباح اليوم. كما ظهر بيت في الخلفية، ومدخل سيارات مرصوف بالحصى، وأصص كبيرة من نبتة إبرة الراعي الحمراء القانية. بالإضافة إلى لافتة كُتِب عليها: *دار وورينغ للرعاية*. لا بد من أن هذه الصورة التقطت في اليوم الذي أخذني فيه بن ليعيدني إلى البيت.

ومع ذلك، فلم أعثر على أي شيء آخر، إذ ليست هناك صور أخرى لي أو لآدم، ولا حتى تلك الصور التي رأيتها هنا من قبل.

أحاول أن أقنع نفسي بوجود تفسير ما لما يجري. فلا بد من وجود سبب لغياب صور ابني من بين هذه الصور. لا بد من وجود سبب ما.

أنزل إلى الطابق السفلي لأعد لنفسي مشروباً ساخناً، فأغلي المياه وأحضر كيس الشاي. أسمع صوتاً يردد في ذهني ما يلي: *لا تدعيه يغلي لوقت طويل، ولا تعصري كيس الشاي وإلا ستخرجين الكثير من حمض التينك وسيصبح مذاق الشاي مراً*. أتساءل في نفسي: *كيف أتذكر هذه التعليمات ولا أتذكر ولادة طفلي؟* يرن الهاتف في مكان ما في غرفة المعيشة، فأخرجه من حقيبتي وأرد؛ إنه بن:

"كريستين؟ هل أنت بخير؟ هل أنت في البيت؟".

"نعم، شكراً لك".

"هل خرجت من البيت اليوم؟".

يبدو صوته مألوفاً. ومع ذلك، فإنني أشعر بنبرته فاترة. وأعود بتفكيري إلى المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها، ولكنني لا أتذكر أنه ذكر شيئاً عن موعدي مع الدكتور ناش. فيخطر ببالي أنه ربما لا يعرف، أو يختبرني متسائلاً إن كنت سأخبره أم لا.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قلت: "نعم، لقد خرجت لمقابلة أحد الأطباء".

يسود الصمت لوقت طويل، ثمّ أقول: "بن؟".

فيردّ عليّ قائلاً: "نعم، آسف. لقد سمعتك. إنها ضجة المرور. أصغي إلي، أريد فقط أن أحرص على أن تتذكري حزم الأمتعة".

إذاً، فهو يعرف! أقول له: "هل أحزم الأمتعة؟". لا أتذكر ما الذي يتحدث عنه، إذ إنني أشعر بأنني عشت حياة كاملة منذ المرة الأخيرة التي تحدثنا فيها معاً.

فيقول: "نعم، سنذهب لتمضية عطلة نهاية الأسبوع خارجاً، أتتذكرين هذا؟ لقد قلت لك".

يبدو من خلال صوته أنه متعب – على ما أعتقد – ولكنه ليس منزعجاً.

أقول: "نعم، بالطبع". ثم أضيف قائلة: "إنني أتلهف إلى ذلك". وأدرك أنني أعني ما قلته فعلاً. وأفكر في أن هذه الإجازة ستنفعنا وأن الخروج سيشكل بداية جديدة لنا.

يقول بن: "سأعود إلى البيت قريباً. أيمكن أن تحزمي الحقيبة؟ سأساعدك عندما أعود إلى البيت، ولكن، من الأفضل أن ننطلق باكراً".

فأقول: "حسناً، سأحاول هذا".

"هناك حقيبة في غرفة النوم الاحتياطية داخل الخزانة. استخدميها".

"حسناً".

يقول بن: "أحبك". وبعد مرور وقت قصير، أقول له إنني أحبه أيضاً، ولكن، بعد أن ينهي المكالمة.

* * *

أذهب إلى الحمام، فأنظر إلى نفسي في المرآة وأشعر بأنني امرأة، وأحاول أن أقنع نفسي بأنني إنسانة ناضجة ولديها زوج تحبه. أعود بمخيلتي إلى ما كتبته عن لحظاتنا العاطفية معاً عندما عبر عن مشاعره نحوي، ولكنني لم أذكر في سجلّي أنني استمتعت بها.

أيمكن أن أستمتع بحبه؟ أدرك الآن أنني لا أعرف ذلك، إذ إنني أشعر بأن جسدي غريب عني وكأنه جسد امرأة أخرى. كيف سأشعر بالسعادة حتّى أمنح رجلاً حبي في الوقت الذي أجد فيه نفسي عاجزة حتى عن تمييز نفسي؟ أتساءل عما سيجري لاحقاً.

أجد الحقيبة في الخزانة حيث طلب مني أن أبحث عنها، فأجدها متراصة وقاسية. آخذها إلى غرفة النوم التي استيقظت فيها صباح اليوم وأضعها على السرير ثم أفتح الدرج العلوي وأرى ملابسي بجانب ملابسه.

أختار ملابس وجوارب لكلينا. أتذكر حين أرتّب جواربي ما كتبته عن وجود جوارب ضيقة وأربطة جوارب ارتديتها في أحد الأوقات. فأفكر في أنه سيكون من اللطيف أن آخذها معي. إذ إنها قد تفيدني.

أنتقل إلى الخزانة وأختار فستاناً وقميصاً وسروالاً وسروال جينز وأنا أتساءل في نفسي أي نوع من الأزواج نحن، وعن الأماكن التي نقصدها في عطلاتنا، وسواء أكنا نمضي أمسياتنا في المطاعم أم في المشارب الدافئة نسترخي ونستدفئ بحرارة نار حقيقية ذات وميض وردي رقيق. أتساءل ما إذا كنا نذهب في نزهات سيراً على الأقدام لنستكشف البلدة ومحيطها أو نستقل سيارة لنشارك في مناسبات خاصة منتقاة بعناية. هناك أمور ما زلت أجهلها، وأشياء ما زالت أمامي حياتي بطولها حتّى أكتشفها وأستمتع بها.

أنتقي بعض الملابس لكل منا بشكل عشوائي تقريباً وأطويها وأضعها بعناية داخل الحقيبة. وبينما أنا أفعل هذا، تغمرني موجة من السعادة وأغمض عيني، فتراودني ذكرى صورتها ساطعة جداً، ولكنها مرتعشة، إذ بدت غير واضحة في البداية وكأنها تحوم بعيداً عن متناول يدي وتركيزي. ولهذا، أحاول أن أصفي ذهني لأستدعيها إلي. وأدرك الآن أنني أتذكر الليلة التي كنت أحزم فيها حقيبتي لأسافر إلى برايتون.

أرى نفسي واقفة أمام حقيبة من الجلد الناعم المهترئ، وأشعر بانفعال شديد وكأنني عدت شابة من جديد، أو طفلة ذاهبة لتمضية العطلة، أو مراهقة تتهيأ للخروج في موعد وتتساءل كيف سيمضي وإن كان حبيبي سيدعوني لزيارته أو سيطلب مني أن نلتقي مرة أخرى. يتملكني ذلك الشعور بالترقب حتى أكاد أتذوقه وأستسيغه وأستمتع به لأنني أعرف أنه لن يدوم طويلاً. أفتح أدراجي الواحد تلو الآخر وأختار البلوزات والجوارب والملابس المثيرة، وأضع حذاءً ذا كعب عالٍ بالإضافة إلى الحذاء المسطح الذي أنتعله وأخرجه ثم أضعه مجدّداً، إذ إنه لا يعجبني، ولكن هذه الليلة ستكون ملأى بالأناقة والملابس الجميلة وتغيير مظهرنا إلى مظهر آخر مختلف. عندئذ فقط أنتقل إلى الأشياء الأخرى التي سأحتاج إليها؛ أي الأشياء

العملية، فآخذ حقيبة يد جلدية حمراء صغيرة وأضع فيها العطر ووسائل الاستحمام ومعجون الأسنان. أريد أن أبدو جميلة الليلة من أجل الرجل الذي أحبه، الرجل الذي أوشكت أن أفقده. ثمّ أضيف أملاح الاستحمام المعطّرة برائحة البرتقال.

تتلاشى الذكرى من مخيلتي، فأفتح عيني. لم يكن من الممكن أن أعرف في ذلك الوقت أنني كنت أحزم أمتعتي لأقابل الرجل الذي سيسلبني كل شيء ويختفي هكذا فجأة كما ظهر.

أتنهد وأواصل حزم أمتعتي من أجل الرجل الذي لا أزال أحظى به.

أسمع صوت سيارة تقترب من البيت وتبطئ من سرعتها ثم تتوقف ثم يتوقف المحرك عن العمل. وبعد لحظة، ينفتح باب السيارة وينغلق مصحوباً بتنهيدة خافتة. أسمع صوت مفتاح يدور في قفل الباب؛ إنه بن.

يتملكني التوتر والخوف؛ فأنا لست المرأة نفسها التي تركها صباح اليوم بعد أن عرفت قصتي واكتشفت نفسي. ترى ماذا سيكون رأيه عندما يراني؟ ماذا سيقول؟

يجب أن أسأله إن كان يعرف شيئاً عن سجلي أو قرأه وعن رأيه به.

ينادي بن عندما يغلق الباب خلفه: "كريستين؟ كريس؟ لقد عدت إلى البيت". لا تتسم نبرة صوته بالترنم بل توحي بالتعب والإرهاق. فأناديه وأخبره أنني في غرفة النوم.

أسمع صوت صرير الدرجة السفلى عندما يخطو صاعداً على الدرج، وصوت زفيره عندما يخلع أول فردة حذاء ثم الأخرى. سينتعل خفّه الآن ثم يصعد ليراني. تغمرني موجة من السعادة لأنني أعرف طقوسه اليومية. لقد عرفتها من سجلي بالرغم من أن ذاكرتي خانتني في هذا الأمر، ولكن، بينما هو يصعد الدرج، يستولي عليّ شعور آخر؛ إنه الخوف؛ وأفكر في ما رأيته مكتوباً على الغلاف الأمامي للسجل: إياك والوثوق ببن.

يفتح بن باب غرفة النوم ويقول: "عزيزتي!". فلا أتحرك من مكان جلوسي على طرف السرير والحقيبة مفتوحة أمامي. يظل واقفاً أمام الباب إلى أن أقف وأفتح ذراعي، فيتقدم نحوي ويطبع قبلة على خدي.

أقول: "كيف كان يومك؟".

ينــزع ربطة عنقه ويقول وهو يبدو متعباً: "آه! دعينا لا نتحدث عن هــذا. فنحن في عطلة!".

يبدأ بفك أزرار قميصه، فأقاوم رغبتي الغريزية بأن أشيح بــوجهي وأذكــر نفسي بأنه زوجي الذي أحبه.

أقول له: "لقد حزمت الحقيبة. آمل أنني لم أنسَ شيئاً. لم أعرف ما الذي قــد تود أخذه".

يخلع بن قميصه ويطويه ويعلقه في الخزانة ويقول: "إنني متأكــد مــن أنــك وضعت كلّ شيء".

"لست متأكدة تماماً من المكان الذي ننوي أن نقصده، ولهذا، فلم أعرف مــا يجب حزمه من ثياب".

يلتفت نحوي، فأتساءل إن كنت ألمح نظرة انــزعاج خاطفــة في عينيــه، ثمّ يقول: "ستفتقدها قبل أن أضعها في السيارة. لا تشغلي بالك. شكراً لأنك بــذلت المجهود". يجلس على الكرسي بجانب طاولة الزينة ويخرج ســروال جينــــز أزرق باهتاً. فألاحظ أنه مكوي وذو طية مثالية في المقدمة، ويجعلني إحساسي الدفين بأنني ما زلت في العقد الثاني من عمري أشعر برغبة ملحة لأن أحد ذوقه سخيفاً.

أقول: "بن؟ إنك تعرف أين كنتُ اليوم، أليس كذلك؟".

ينظر إلي عندئذ ويقول: "نعم، أعرف هذا".

"أتعرف بأمر الدكتور ناش؟".

يشيح بوجهه عني ويقول: "نعم، فقد أخبرتني". يمكــنني أن أرى في المرايــا المنسقة حول طاولة الزينة ثلاث صور منعكسة عليها للرجل الذي تزوجته وأحببته. يقول: "أعرف كل شيء. فقد أخبرتني بذلك كله".

"هل أخبرتك عن آدم؟ أتعرف بأنني أعرف بأمر آدم؟".

أراه يجفل وكأنني قذفت كلماتي في وجهه بعنف، فأندهش لأنني كنت أتوقع منه أن يبدو أكثر سعادة.

يتلفت لينظر إلي ويقول: "نعم".

فأقول له: "ليست هناك صور له". يسألني عما أقصده بسؤالي فأقول: "هناك صور في كل مكان، ولكن، لا صورَ له".

ينهض على قدميه ويتوجه نحوي حيث أجلس، ثم يجلس على السرير بجانبي ويمسك بيدي. أتمنى لو أنه يكفّ عن معاملتي وكأنني هشة وأشبه بدمية من الخزف وأن الحقيقة ستكسرني وتحطمني.

يقول: "لقد أردت أن أفاجئك". يمد يده تحت السرير ويخرج ألبوم صور ثم يقول: "لقد وضعتها هنا".

يسلمني الألبوم، فأشعر بوزنه ثقيلاً، وأراه داكناً ومربوطاً بشيء أشبه بالجلد الأسود. أفتح الغلاف وأرى في الداخل عدداً لا يُحصى من الصور.

يقول بن: "كنت أود أن أرتبها بشكل ملائم لأمنحك إياها كهدية هذه الليلة، ولكن، لم يتسنَّ لي متسع من الوقت لذلك. إنني آسف".

أقلّب الصور فأجدها لا تتبّع ترتيباً زمنياً؛ فهناك صور لآدم وهو طفل ثم مراهق، وصور له وهو رجل، يظهر في بعضها وحده، وفي بعضها الآخر معي، وفي أخرى مع فتاة شابة، فأسأله قائلة: "أهي صديقته؟".

يقول بن: "إنها إحدى صديقاته، ولكنه أمضى معها وقتاً أطول من غيرها".

أنظر إليها وأجدها جميلة بشعرها الأشقر المقصوص قصيراً، فتذكرني بكلير. ويبدو آدم في الصورة ينظر مباشرة نحو الكاميرا ويضحك وهي تنظر إليه وتعبير وجهها يحمل مزيجاً من الفرح والاستهجان. يبدوان متآمرين وكأنهما يلقيان دعابة على الشخص الذي يحمل الكاميرا، كما يبدوان سعيدَين، فتسرني تلك الفكرة كثيراً. أسأل بن قائلة: "ماذا كان اسمها؟".

يسكتُ هنيهة ثم يقول: "هيلين. إن اسمها هيلين".

فأجفل عندما أنتبه إلى أنني طرحت السؤال بصيغة الماضي وكأنها ماتت أيضاً. وتتحرك في مخيلتي فكرة: *ماذا لو ماتت بدلاً منه*، ولكنني أجبرها على الانصراف قبل أن تتشكل وتصبح أكثر رسوخاً.

"هل كانا لا يزالان يخرجان معاً عندما توفي؟".

"نعم، كانا يفكران في إعلان خطوبتهما".

تبدو الفتاة صغيرة جداً، ومحبّة للحياة، كما بدت عيناها مليئتين بالوعود والآمال بما يخفيه المستقبل لها، ولكنها مع ذلك، بدت غير مدركة لكمية الألم الرهيبة التي كانت ستواجهها.

أقول: "أود أن أقابلها". يأخذ بن الصورة مني ويتنهد قائلاً: "إننا لسنا على اتصال بها".

لا يبدو ذلك الكلام ممكناً، فأسأله: "لماذا؟"، وكنت قد خططت بيني وبين نفسي أن يشكّل أحدنا دعامة للآخر تعويضاً عما فقدناه في الماضي، وأن نتشارك الذكرى والتفهم والحب الذي يجمع بين الناس جميعاً، ولو ليس لبعضنا، ولكن للشخص الذي فقدناه.

يقول بن: "حدث خلاف بيننا. ونشأت بعض العراقيل".

أنظر إليه، فألاحظ أنه لا يريد أن يخبرني الحقيقة، وأشعر أن الرجل الذي كتب إليّ الرسالة والذي دعمني واعتنى بي حتى النهاية وأحبني بما يكفي حتى يتركني ثم يأتي ليستعيدني، قد اختفى من حيز الوجود.

"بن؟".

"نشأ خلاف بيننا".

"قبل وفاة آدم أم بعدها؟".

"قبل وفاته وبعدها".

إذاً، فقد تشاجرنا، وتلاشى وهم الدعم الذي تخيلته وحلّ محله شعور مقيت. ماذا إن كنت قد تشاجرت مع آدم أيضاً؟ كان بالتأكيد سينحاز إلى صف صديقته ضد أمه.

أقول: "هل كنتُ مقرّبةً من آدم؟".

فيقول: "آه! نعم، كنتِ مقربة منه إلى أن دخلت إلى المستشفى، وحتى بعد أن فقدت ذاكرتك، وظللتما مقربين في كل الأحوال كما كنتما دائماً".

لقد وقعت كلماته وقع الصفعة على وجهي، وأدركتُ أن آدم كان طفلاً صغيراً عندما فقدت ذاكرتي، وأنني لم أتعرف إلى خطيبة ابني. فقد كان كل يوم أراه فيه وكأنه أول يوم.

أغلق الألبوم، وأقول: "أيمكنني أن آخذه معي؟"، ثم أضيف: "أود أن أنظر إليه مرة أخرى".

فيومئ بن برأسه ويقول: "نعم، بكل تأكيد".

* * *

تناولنا كوبين من الشاي كان قد أعدهما بن، بينما أنهي حزم الأمتعة للرحلة، ثم صعدنا إلى السيارة. قبل أن ننطلق، تفقد بن الحقيبة التي حزمتها وأخرج الكثير من الأشياء التي وضعتها من أجله واستبدلها بأشياء من اختياره هو. ثمّ أحضر حقيبة أخرى والحقيبة الجلدية التي كان يحملها صباح اليوم وزوجين من الأحذية الرياضية من داخل الخزانة. وبينما أنا واقفة أمام الباب، وضع كل الأشياء في صندوق السيارة ثم تفقد إغلاق جميع الأبواب وإقفال جميع النوافذ. سألته: "كم ستستغرق الرحلة من الوقت؟".

هزّ كتفيه وقال: "هذا يعتمد على ازدحام المرور. لن تستغرق وقتاً طويلاً حالما نخرج من لندن".

إنه يرفض إعطائي جواباً بأسلوب متنكر على هيئة الجواب نفسه، وأتساءل إن كان هذا أسلوبه طوال الوقت، وإن كانت السنوات التي أمضاها وهو يقول لي الشيء نفسه كل يوم قد أنهكته وأضجرته لدرجة أنه لم يعد يقوى على إخباري بأي شيء.

لاحظت أنه سائق حريص ويقظ، فهو يقود ببطء وينظر في المرآة مراراً وتكراراً وبشكل واضح وحريص ويخفف من سرعة السيارة عند أقل إحساس باقتراب الخطر.

تساءلت إن كان آدم قد تعلم القيادة، ولكنني أظن أنه لا بد من أنه قد فعل ذلك لأنه التحق بالجيش، ولكن هل كان يقود السيارة في إجازاته؟ هل اعتاد أن يقلني، أنا أمه المريضة، بسيارته ويأخذني في رحلات إلى أماكن يظن أنني أود الذهاب إليها؟ أم إنه قرر أخيراً ألا فائدة ترجى من أي متعة قد أحصل عليها لأنها ستختفي في اليوم التالي كالثلج المتجمع على سطح دافئ؟

انطلقنا خارجين من المدينة على الطريق السريع، وقد بدأت تمطرُ قطرات ضخمة تسقط على الزجاج الأمامي وتحتفظ بشكلها للحظة قبل أن تبدأ جريانها السريع على الزجاج. غرُبت الشمس من بعيد وتوارت خلف الغيوم وألقت على الإسفلت والزجاج وهجاً برتقالياً ناعماً. إن المنظر جميل، ولكنني كنت أشعر به مريعاً لفرط ما كنت أكابد من ألم في أعماقي، إذ إنني أتمنى من كل قلبي ألا أفكر في ابني على أنه مجرد فكرة مجردة، ولكنني لم أستطع أن أفعل ذلك من دون

وجود ذكرى ملموسة. بدأت الأفكار تدور داخل عقلي الذي حاول أن يركز على شيء أستطيع التشبث به أو فكرة راسخة، ولكن، لا شيء. لقد كان ابني حقيقياً، ولكنني لا أستطيع أن أتذكره. ومن دون ذكرى، لا أستطيع أن أثبت ذلك لنفسي. واصل تفكيري العودة إلى الحقيقة الوحيدة، وهي أنني لا أستطيع أن أتذكره وكأنه لم يكن موجوداً قط.

أغمضت عيني وعدت بتفكيري إلى ما قرأته عصر اليوم في سجلي، فلمعت الصورة أمامي: رأيت آدم طفلاً صغيراً يدفع دراجته الزرقاء ذات العجلات الثلاث على طول الطريق، ولكن حتى بينما كنت أتأملها بإعجاب، أدركتُ أنها ليست حقيقية. فأنا أعرف أنني لا أتذكر ما حدث فعلاً، بل أتذكر الصورة التي رسمتها في ذهني عصر اليوم وأنا أقرأ عمّا حدث، ولهذا، فهذه مجرد ذكرى لذكرى سابقة. إنها ذكريات للذكريات. إن معظم الناس يعودون بذاكرتهم إلى سنوات عديدة وعقود مديدة، ولكن الأمر بالنسبة إليّ لا يتعدى بضع ساعات.

عندما فشلتُ في تذكّر ابني، حاولت أن أفعل أفضل شيء ممكن، أن أقوم بالشيء الوحيد الذي يهدئ تفكيري المضطرب: ألاّ أفكر في أي شيء على الإطلاق.

أخذت تغزوني رائحة الوقود الثقيلة المزعجة، وشعرت بألم في عنقي. وعندما فتحتُ عينيّ، رأيت زجاج السيارة الرطب وقد تكوّنت عليه غشاوة من أنفاسي، ورأيتُ من خلاله ضوءاً بعيداً مبهماً وغير واضح. أدركتُ أنني كنت نائمة ومستندة إلى الزجاج ورأسي مائل بوضعية مؤلمة، ساد الصمت السيارة وشعرت بأن المحرّك قد أوقف عن العمل.

التفتّ نحو بن، فوجدته مستيقظاً وينظر أمامه من النافذة. إنه لا يتحرك ولا يبدو عليه حتى إنه لاحظ أنني استيقظت، ولكنه بدلاً من ذلك واصل التحديق أمامه ووجهه خالٍ من التعبير وملامحه عصية على التفسير في الظلام. التفتّ لأرى ما الذي ينظر إليه.

عبر زجاج السيارة المنقط بماء المطر، رأيتُ حاجزاً خشبياً مضاء بشكل خافت بنور مصابيح الشارع. وخلف الحاجز، لم أكن أستطيع رؤية شيء بل مجرد مساحة سوداء ضخمة وغامضة، في وسطها يبدو القمر بدراً.

قال بن من دون أن ينظر إلي: "أحب البحر". حينها أدركت أننا ركنا سيارتنا عند جرف بعد أن وصلنا إلى آخر نقطة في الساحل.

التفت إليّ وقال: "ألا تحبينه؟". بدت عيناه مفعمتين بالحزن. ثمّ قال: "إنك تحبين البحر، أليس كذلك، يا كريسي؟".

قلت: "نعم، إنني أحبه". تحدث بن وكأنه لا يعرف شيئاً عني وكأننا لم نأتِ إلى الساحل من قبل ولم نخرج في عطلة معاً قط. بدأ الخوف يتسلل إلى أعماقي، ولكنني أخذت أقاومه ليبقى بعيداً، محاولة البقاء في الحاضر بصحبة زوجي. حاولت أن أتذكر كل ما عرفته من سجلي عصر هذا اليوم، وقلت: "إنك تعرف هذا يا عزيزي".

تنهد وقال: "أعرف ذلك. إذ لطالما أحببته، ولكنني لم أعد أعرف شيئاً بعد الآن. إنك تتغيرين. فقد تغيرت كثيراً على مدى السنين منذ فقدت ذاكرتك، ولم أعد أعرفك بعد الآن. إنني أستيقظ كل يوم من دون أن أعرف كيف ستكونين".

التزمتُ الصمت، إذ لم يخطر ببالي أي شيء أقوله. لطالما عرف كلانا أنه من الغباء أن أحاول الدفاع عن نفسي وأن أقول له إنه مخطئ لأننا ندرك جيداً أنني الشخص الأخير في العالم الذي يعرف مدى التغير الذي يطرأ عليه من يوم إلى آخر.

قلت له في نهاية المطاف: "إنني آسفة".

نظر إلي وقال: "لا بأس. عليك ألاّ تعتذري، لأنك لست مخطئة. أنا أعرف أن الذنب ليس ذنبك، ولكنني أتعامل معك بإجحاف، على ما أعتقد، عندما أفكر في نفسي فقط".

عاودتُ النظر إلى البحر، ولمحتُ ضوءاً خفيفاً من بعيد؛ لا بد من أنه قارب يمخر عباب البحر وكأنه بصيص الأمل الأخير في بحر من الظلام. تحدث بن قائلاً: "سنكون على ما يرام، أليس كذلك يا كريسي؟".

قلت: "بالطبع سنكون كذلك. إن هذه بداية حياة جديدة بالنسبة إلينا معاً، إذ لدي سجلي الآن وسوف يساعدني الدكتور ناش. سأتحسن يا بن. إنني واثقة من هذا. أعتقد أنني سأعود إلى الكتابة، إذ ليس هناك سبب يمنعني من ذلك. ينبغي لي أن أكون على ما يرام. وعلى أيّ حال، فأنا على اتصال بكلير الآن، وقد

وَعَدَت بأن تساعدني". وخطرت ببالي فكرة فقلتُ: "يمكننا أن نجتمع نحن الثلاثة معاً، ألا تظن ذلك؟ كما كنا نفعل في الأيام الخوالي؟ كأيام الجامعة؟ نحن الثلاثة. ويمكننا أن ندعو زوجها، على ما أعتقد. أظن أنها قالت لي إنها تزوّجت. يمكننا أن نلتقي نحن الأربعة معاً ونمضي أوقاتاً ممتعة". ركزت تفكيري على الأمور التي كذب عليّ بشأنها والتي قرأت عنها في سجلّي، إضافة إلى كل الوسائل التي لم أتمكن بسببها من الوثوق به، ولكنني سرعان ما كنت أصرفها عن ذهني وأذكر نفسي بأننا حللنا كل المشاكل، وأن دوري قد حان الآن لأتحلى بالقوة والإيجابية. ليس هناك سبب يدعوني للشك والريبة بعد الآن، فأقول: "طالما أننا نتعاهد على الصدق والثقة المتبادلين، فسوف تنتهي كل الأمور على خير".

التفت نحوي ليواجهني ويسألني: "إنك تحبينني فعلاً، أليس كذلك".

"بالطبع أحبك".

"هل تسامحينني لأنني تركتك؟".

"نعم، إنني أسامحك".

"لم أكن أريد فعل ذلك، ولكنني ظننت أن هذا هو الأفضل. لم يكن لدي خيار آخر. إنني آسف".

وهنا، أراني أمسك بيده، وأشعر بها دافئة وباردة في آنٍ معاً. حاولت أن أرفعها بين يدي، ولكنه لم يساعدني ولم يقاوم عملي في آنٍ معاً. وبدلاً من ذلك، بقيت يده موضوعة على ركبته كجثة لا حياة فيها. عندما أخذت أضغط عليها برفق لاحظ أنني أمسكها.

"إنني أتفهم موقفك يا بن، وأسامحك". رحت أنظر إلى عينيه، فرأيتهما فاترتين وخاليتين من الحيوية وكأنهما شهدتا الكثير من الرعب لدرجة جعلتهما غير قادرتين على التكيف مع المزيد منه.

قلت: "إنني أحبك يا بن".

انخفض صوته حتى أصبح أقرب من الهمس وقال: "قبليني".

اقتربتُ منه وقبلته، وعندما ابتعدت عنه همس قائلاً: "قبليني مرة أخرى".

فقبلته مرة ثانية. وبالرغم من أنه يطلب مني تقبيله مرة أخرى، لكنني لم أستطع أن أفعل ذلك مرة ثالثة. رحنا نتأمل البحر بينما ينعكس ضوء القمر على

صفحة الماء وتعكس قطرات المطر على زجاج السيارة وميض أضواء السيارات المارة. لا أحد سوانا هنا. فجلسنا بصمت وأيدينا في أيدي بعضنا.

بقينا هناك لوقت طويل امتدّ وكأنه ساعات. جلس بن إلى جانبي محدقاً إلى البحر ووجهه أشبه بقناع خالٍ من التعبير. راح يتفحص الماء بعينيه وكأنه يبحث عن شيء ما وعن جواب في الظلام من دون أن يتفوه بحرف. سألته عن السبب الذي حمله على إحضاري إلى هنا وعمّا يأمل أن يجده.

سألته: "أهذه ذكرى زواجنا السنوية حقّاً؟"، لكنه لم يرد عليّ وكأنه لم يسمعني، ولهذا كررت السؤال ثانية.

فأجاب بنعومة قائلاً: "إنها ذكرى".

"أهي ذكرى زواجنا؟".

"كلا، إنها ذكرى الليلة التي التقينا فيها للمرّة الأولى".

وددت أن أسأله إن كان من المفترض بنا أن نحتفل بهذه المناسبة، وأقول له إن هذا لا يعتبر احتفالاً، ولكن هذا قد يبدو تصرفاً قاسياً جداً، فالتزمتُ الصمت. ساد الهدوء في السيارة لبضع دقائق.

هدأ الشارع المزدحم خلفنا وسطع ضوء القمر في السماء. بدأ القلق يتملكني من أن نبقى هنا طوال الليل ننظر إلى البحر بينما ينهمر المطر بشدة، فتظاهرتُ بالتثاؤب.

قلت: "أشعر بالنعاس. أيمكننا أن نذهب إلى الفندق؟".

نظر إلى ساعته وقال: "نعم، بكل تأكيد. إنني آسف. نعم، علينا أن نذهب. سننطلق حالاً". وشغّل محرّك السيارة.

تنفستُ الصعداء، إذ إنني كنتُ أشعر بأنني بحاجة إلى النوم، وبأنني في الوقت نفسه أخشاه.

أخذ الطريق الساحلي يعلو وينخفض بينما كنا نتجول بسيارتنا في أطراف إحدى القرى. رأينا أضواء بلدة أخرى تلوح في الأفق وتقترب منا شيئاً فشيئاً، حتّى أصبح شكلها أكثر وضوحاً لنا من خلال الزجاج المبلل بقطرات الماء. ازداد الطريق ازدحاماً. وظهر أمامنا حوض للسفن مليء بالقوارب والمحالّ التجارية

والنوادي الليلية. بعد ذلك، وصلنا إلى البلدة حيث بدا كل بناء على طول الطريق وكأنه فندق يعلن عن الغرف الشاغرة برايات بيضاء تعصف بها الرياح. إن الطرقات مزدحمة جداً. فلا بد من أن الوقت ليس متأخراً جداً كما تصورت أو أن هذه البلدة من نوع البلدات التي لا ينام قاطنوها أبداً.

تأملت البحر ورأيتُ رصيفاً ممتداً داخل المياه تتلاطم عليه الأمواج. كما وقع نظري على حديقة مسقوفة، وأفعوانية وألعاب أخرى. كدت أسمع صرخات وصيحات الركاب وهم يدورون فوق البحر الأسود الحالك.

أخذ شعور غريب بالقلق يتسلل إلى صدري فقلت: "أين نحن؟". رأيت فوق مدخل الرصيف كلمات محفورة ومضيئة باللونين الأبيض والأحمر، ولكنني لم أستطع أن أقرأها من خلال النافذة المبللة بمياه المطر.

قال بن: "ها قد وصلنا". رحتُ أتساءل إن كان قد سمع سؤالي أو أنه آثر ألا يجيبني. انعطف في طريق جانبي وتوقف أمام فندق ذي شرفات. رأيت نقشاً على الظلة فوق الباب يشكل اسم الفندق: فندق *ريجنسي غيست هاوس*.

هناك درج يوصل إلى الباب الأمامي وسياج مطلي يفصل البناء عن الطريق. إلى جانب الباب، كانت هناك قدر صغيرة مكسورة فيها شجيرة، ولكنها بدت فارغة. فجأة استولى عليّ رعب شديد.

قلت: "هل أتينا إلى هنا من قبل؟". فهز بن رأسه نافياً، ولكنني ألححتُ عليه بالسؤال قائلة: "هل أنت متأكّد من هذا؟ يبدو مألوفاً بالنسبة إليّ".

"إنني متأكد، ولكن، ربما أقمنا في مكان ما قريب من هنا ذات مرة. إنك على الأرجح تتذكرين ذلك".

أومأت برأسي وحاولت الاسترخاء. عندما ترجلنا من السيارة قال: "سنسجل اسمينا للدخول إلى الفندق، وبعد ذلك، سأعود لآخذ الأمتعة. اتفقنا؟".

شددت معطفي حول جسمي، إذ كان الطقس بارداً جداً والمطر غزيراً. اندفعت على الدرج وفتحت الباب الأمامي. هناك لافتة مثبتة على الزجاج كتب عليها: *لا يوجد أماكن شاغرة*، لكنني دخلت إلى الردهة.

عندما انضمّ بن إليّ سألته: "هل حجزت؟". وقفنا في البهو ورأينا باباً مفتوحاً. وصل إلى مسامعنا من خلال الباب صوت تلفزيون خافت. ليس هناك

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مكتب استقبال، بل مجرّد جرس على طاولة صغيرة على النـــزلاء دقّـه للفـت الانتباه.

قال بن: "نعم، بالطبع، لا تقلقي". ودقّ الجرس.

في البداية، لم يرد أحد، ثم أتى شاب طويل القامة من الغرفة المجـاورة لبـهو الاستقبال. وقد بدا على هيئة الخرقى، إذ كان يرتدي قميصاً كبيرَ الحجم فضفاضاً، ومتدليًا فوق سرواله. وبالرغم من توقّعه حضورنا، فقد ألقى علينا تحيـة بـاردة، وطلب من بن ملء البيانات الخاصة بالفندق.

رحتُ أنظر حولي في أنحاء البهو بينما كان بن يملأ البيانات، وقـد بـدا لي، وبكل وضوح، أن الفندق عاصر أياماً أكثر رخاء من هذا اليوم، إذ إن السجاد بدا خالياً من الوبر في بعض الأماكن بينما بدا الطلاء في أنحاء البهو مقشـراً وملطخـاً بالبقع. مقابل البهو، رأيتُ باباً آخر كتب على اللافتة المعلقة عليه: غرفة الطعـام. وتوجد في الخلفية أبواب كثيرة أحسب أن أحدها يودي إلى المطبخ وبقيتها تـودي إلى غرف شخصية للأشخاص الذين يديرون الفندق.

عندما انتهى بن من ملء البيانات، قال الرجل طويل القامة: "هلا أوصلك إلى غرفتك الآن؟". انتبهتُ إلى أنه يتحدث إليّ، إذ إن بن خرج على ما أظن ليحضـر الحقائب.

فقلت له: "نعم، شكراً لك".

سلمني الرجل المفتاح وصعدنا الدرج معاً. في الطابق الأول غـرف كـثيرة، ولكننا تجاوزناه وصعدنا درجاً آخر. شعرت بأن هذا الفندق أخذ يصغر ويضـيق أكثر كلما صعدنا إلى الأعلى. إذ إن السقف يصبح منخفضاً والغرف أضيق. وقفنا في أسفل درج آخر يودي بلا شك إلى أعلى طابق في الفندق.

قال مشيراً إلى الأعلى: "إن غرفتكما هناك. هذه الغرفة الوحيدة في ذلك الطابق".

عندما شكرته، استدار ونـزل الدرج بينما صعدتُ أنا إلى غرفتي.

* * *

ها أنا أفتح الباب وأجد الغرفة مظلمة وأكبر حجماً مما توقعت، خاصة أنهـا تقع في أعلى الفندق. أرى نافذة مقابلي يشع من خلالها ضوء رمـادي خافـت. وأتبين بصعوبة شكل طاولة زينة وسرير وطاولة وكرسي.

تلكأت للحظة وبدأ الخوف يعتصر قلبي. إنه الخوف نفسه الذي راودني خارج المنزل، ولكنه أسوأ منه نوعاً ما. أخذت رعشة باردة تسري في جسدي. لا بد من وجود خطأ ما، ولكنني لا أعرف ما هو. أخذت نفساً، ولكنني عجزت عن الحصول على ما يكفي من الهواء داخل رئتيّ، وشعرت بأنني على وشك الغرق.

أغمضت عينيّ آملةً أن تبدو الغرفة مختلفة عندما أفتحهما، ولكن، لم يتغيّر شيء. بدأت أشعر بأنني مليئة برعب غامر لما سيحدث عندما أضيء المصباح وكأن مجرد القيام بهذا العمل البسيط سينفتح الباب على كارثة عارمة تكتسحني.

فكرت للحظة في ما يمكن أن يحدث إن غادرتُ هذه الغرفة التي يكتنفها الظلام وخرجت. يمكنني أن أسير بهدوء متجاوزة الرجل الطويل وأقطع الممر وأتجاوز بن، إن اضطررت إلى ذلك، وأخرج من الفندق كله.

لكنهما سيظنان أنني فقدت عقلي بالطبع. وسيلحقان بي ويعيداني إلى هنا. ماذا سأقول لهما؟ أأقول لهما إن المرأة التي لا تتذكر شيئاً يراودها شعور غير مريح، وأن هناك فكرة غامضة تسيطر عليها؟ سيظنان بالطبع أنني سخيفة.

فأعود وأذكر نفسي أنني برفقة زوجي، فقد أتيت إلى هنا لأتصالح معه. إنني بأمان مع بن.

وهكذا، أضيء المصباح.

مرت لحظات حتى اعتادت عيناي النور الساطع بعدها، رأيت الغرفة بوضوح؛ وجدتها غرفة عادية ليس فيها ما يثير الإعجاب ولا ما يخيف أيضاً. هناك سجادة رمادية اللون وستائر وورق جدران مزركش بالرغم من أن الزركشة غير متناسقة. أما طاولة الزينة، فقد بدت باهتة وذات ثلاث مرايا وقد علّقت فوقها لوحة طائر باهتة الألوان. كما وُضع في الغرفة كرسي عليه وسادة مزركشة وسرير مغطى بملاءة برتقالية اللون مزينة بتصميم ألماسي.

لاحظت مدى خيبة الأمل التي قد يشعر بها أي شخص حجز هذه الغرفة ليمضي فيها عطلته، ولكن، بالرغم من أن بن حجزها لنا، فليست خيبة الأمل هي ما أشعر به. وتحول الخوف في أعماقي إلى رعب حقيقي وإحساس مريع بأن هناك خطأً ما بالرغم من أنني لا أدرك مصدره.

ترددت للحظة ثم أغلقت الباب خلفي. حاولت أن أهدئ من روعي، فأنا أتصرف بغباء وريبة شديدين. يجب أن أشغل نفسي بفعل شيء ما.

شعرت بالهواء البارد في الغرفة ولاحظت أن الستارة تتحرك؛ إن النافذة مفتوحة. لذلك توجهت إليها لأغلقها. وقبل أن أفعل ذلك، نظرت من خلالها. ولاحظت أن غرفتنا على ارتفاع شاهق وأن أضواء الشارع بعيدة في الأسفل. ورأيت طيور النورس حائمة بصمت عليها. نظرت إلى الأفق، فرأيت القمر الشاحب بازغاً في السماء فوق البحر الشاسع. وميّزت شكل الرصيف والدوامة والأضواء الساطعة.

وفي هذه اللحظة، أصبحت أرى جيداً وبوضوح تام، استطعت أن أتبين الكلمات المكتوبة على مدخل الرصيف:

رصيف برايتون.

بالرغم من أنني كنت أرتعش من شدة البرد، إلا أنني شعرت بقطرات العرق تتجمع على جبيني. أخيراً، أصبح الأمر منطقياً. تُرى لماذا أحضرني بن إلى برايتون؟ لماذا فعل هذا؟ أيظن أنه من المرجح لي أن أتذكر ما حدث لي إن عدت إلى البلدة التي سلبت فيها حياتي؟ أيظن أنني سأتذكر من اقترف بحقي هذه الجريمة؟

تذكّرت أنني قرأت ما قاله الدكتور ناش واقتراحه بأن آتي إلى هنا، وأنني رفضت اقتراحه.

سمعت صوت وقع خطوات على الدرج وكلام؛ لا بد من أن الرجل طويل القامة يوصل بن إلى غرفتنا. إنهما يحملان أمتعتنا معاً ويصعدان بها الدرج ويمشيان بها على طول الممرات. وسرعان ما سيصلان إلى هنا.

ماذا ينبغي لي أن أقول لبن؟ أأقول له إنه مخطئ؟ وإن هذا لن يقدم لي أي نفع يُذكر؟ وإنني أريد العودة إلى البيت؟

أيمكنني أن أفعل هذا في الوقت الذي يبذل هو فيه قصارى جهده ليساعدني؟

توجهت نحو الباب: *سأساعده على إحضار الحقائب ثم أخرج أغراضنا منها. وبعد ذلك، سنخلد إلى النوم. وغداً...*

الآن أدرك ما سيجري، إذ إنني سأصحو غداً من دون أن أعرف شيئاً مجدداً. لا بد من أن هذا هو ما يحمله بن في حقيبته: الصور ودفتر القصاصات.

سيتوجب عليه أن يستخدم كل شيء لديه ليشرح لي هويته وسبب وجودنا هنا مرة أخرى.

رحت أتساءل إن كنت قد أحضرت سجلي معي ثم تذكرتُ أنني وضعته في الحقيبة تحت ملابسي. حاولت أن أهدئ من روعي: *سأضع السجل هذه الليلة تحت وسادتي. وغداً سأعثر عليه وأقرأه. وسينتهي كل شيء على خير.*

وقف بن خارج الباب حيث سمعت صوته في الممر. إنه يتحدث إلى الرجل طويل القامة ويناقش معه إجراءات تقديم الفطور، فسمعته يقول: "نود على الأرجح أن نتناول فطورنا في الغرفة".

توجّهت نحو الباب ثم رأيت إلى يميني حماماً بابه مفتوح، فيه مرحاض وحوض استحمام ومغسلة، ولكن أرضية الحمام هي ما أثارت انتباهي وملأتني رعباً، إذ إن أرضيته مكسوة بالسيراميك الأسود والأبيض، بطريقة غير اعتيادية، وتصميم مائل.

انفتح فمي على وسعه وشعرت بجسدي يصبح بارداً. أظن أنني سمعت نفسي أصرخ بالرغم من أن ذلك الصوت قد يكون صوت طائر نورس خارج النافذة.

عندئذ، أدركت أنني أميز شكل الأرضية.

ليست برايتون وحدها هي التي ميزها عقلي الباطن.

فقد أتيت إلى هنا قبلاً وإلى هذه الغرفة بالتحديد.

انفتح الباب، لكنني لم أرَ حتى بن عندما دخل، إذ إن عقلي كان مشغولاً بأمور أخرى. ترى أهذه هي الغرفة التي تعرضت فيها لذلك الهجوم؟ لماذا أحضرني إلى هنا؟ لماذا لم يخبرني بذلك؟ كيف أمكنه أن يغير رأيه فجأة من عدم الرغبة في أن يخبرني أنني تعرضت لهجوم إلى إحضاري إلى الغرفة نفسها التي تعرضت فيها لذلك الهجوم؟

رأيت الرجل طويل القامة خارج الباب تماماً، فوددت أن أناديه وأطلب منه البقاء، ولكنه استدار مغادراً وأغلق بن الباب. لقد أصبحنا الآن وحيدَين في هذه الغرفة.

نظر بن إلي وقال: "هل أنت بخير يا عزيزتي؟". أومأت برأسي قائلة: "أنا بخير"، لكن كلماتي لم تبدُ طبيعية. شعرت بأنني مجبرة على التفوه بها وكأنني كنت أعتصرها لتخرج من فمي. وقد بدأت بذور الكراهية تنمو في داخلي.

أمسك بن بيدي وضغط عليها قليلاً؛ لو أنه ضغط عليها بشكل أقوى، لقلت شيئاً، ولو ضغط عليها بشكل أخف، فلربما لم أكن لألاحظ. قال: "هل أنت واثقة؟".

قلت: "نعم". لماذا يفعل هذا؟ لا بد من أنه يعرف أين نحن وما يعنيه وجودنا هنا. لا بد من أنه كان يخطط لهذا منذ وقت طويل. تابعت قائلةً: "نعم، إنني بخير، ولكنني أشعر ببعض التعب ليس إلا".

في هذه اللحظة، بدأت تلمع الفكرة في ذهني. نعم، الدكتور ناش. لا بد من أن له علاقة بكل هذا. وإلا، فلماذا قرر بن بعد كل تلك السنوات - بعدما كان في وسعه ولكنه رفض - أن يحضرني إلى هنا الآن؟

قال بن: "لِمَ لا تستلقين قليلاً؟". لا بد من أنهما على اتصال معاً. إذ ربما قام بن بالاتصال به بعد أن أخبرته عن كل لقاءاتنا.

سمعت نفسي أتحدث إليه وأقول: "أظن أنني سأفعل هذا". وتوجهت إلى السرير. رحت أفكر في أنهما ربما كانا على اتصال طوال الوقت، وأن الدكتور ناش كذب عليّ بشأن كل شيء. فتخيلته يطلب رقم بن بعد أن يودعني عقب كل لقاء ويخبره عن تقدمي بالعلاج أو عدمه.

قال بن: "إنك فتاة طيبة. أعتقد أنني سأذهب وأشتري بعض المشروب الفاخر. يوجد محلٌ، على ما أظن، في مكان غير بعيد من هنا". ابتسم ثم قال: "وبعدها، سأنضم إليك".

اقترب منّي وعانقني، وأطال عناقي، ثم وضع يده على شعري وربت على ظهري، حينها كنت أقاوم دافعي الداخلي لأنتزع نفسي من بين ذراعيه. مرر يده على ظهري، وأخذت أبتلع ريقي باشمئزاز.

لم أعد أستطيع أن أثق بزوجي، ولا بالرجل الذي كان يدعي بأنه يساعدني. فلا بد من أنهما تعاونا معاً وخططا لهذا اليوم الذي بدا من الواضح لهما أنني سأواجه فيه رعب الماضي.

أخذت أتساءل كيف يجرؤان على فعل هذا بي ومن دون علمي.

قلت: "حسناً". وأبعدت رأسي عنه قليلاً ودفعته بلطف كي يتركني.

استدار وغادر الغرفة، قال بعد أن أغلق الباب خلفه: "سأقفل باب الغرفة. لا يمكن للمرء أن يبالغ بأخذ الحيطة والحذر". سمعت صوت المفتاح يدور في قفل

الباب وبدأ الرعب يتسلل إلى قلبـي. فأنا لا أعرف ما أفعل، ولا يسعني أن أصدق أنه أحضرني إلى هذه الغرفة من دون أن يخبرني، وكذب عليّ كذبة أخـرى فـوق كل أكاذيبه. سمعت صوت وقع خطواته وهو ينـزل الدرج مبتعداً.

جلست على طرف السرير وأنا أضغط يديّ معاً بتوتر. عجزت عن تهدئـة عقلي المضطرب والاستقرار على فكرة واحدة. وبدلاً من ذلك، أخذت الأفكـار تتسارع في ذهني وكأن عقلي الخالي من الذكريات أصبح فجـأة مرتعـاً خصبـاً للأفكار لتنمو وتتحرك وتتصادم مع بعضها بعضاً محدثة شلالاً من الشرر.

ماذا أفعل؟ نهضت واقفة على قدمي وأنا أستشيط غضباً لا أعرف له سـبباً. وعجزت عن مواجهة فكرة عودته وفي حوزته زجاجة الشراب وعن تصور فكـرة اقترابه مني ووضعه يديه عليّ ومغازلته إياي. كيف يسعني ذلك وأنا لا أشعر بـأن لدي مشاعرَ لأمنحه إياها؟

أظن أنني قادرة على تحمل أي شيء إلا هذا.

لا يسعني البقاء هنا في هذا المكان الذي دمر حياتي وسـلبني كـل شـيء. حاولت أن أحسب ما لدي من وقت. عشر دقائق؟ خمس؟ توجّهت إلى الحقيبـة وفتحتها من دون أن أدرك السبب. فأنا لا أفكر في الأسباب أو الكيفية بل فقط أن عليّ التحرك في أثناء غيابه وقبل أن تتغير الأشياء مجدداً وأصبح حبيسة المكان هنا. إنني ربما أنوي أن أعثر على مفاتيح السيارة وأكسر الباب وأنـــزل إلى الطـابق السفلي وأخرج إلى الشوارع الماطرة وأركب السيارة. وبالرغم من أنـني لسـت متأكدة حتى من أنني أجيد قيادتها، فإنني أنوي أن أحاول على الأقل وأن أنطلق بها إلى أبعد مكان.

أو أنني أنوي ربما أن آخذ صورة لآدم. فأنا أعرف أن صوره هنـا. سـآخذ صورة واحدة فقط ثم أغادر الغرفة وأهرب. سأركض وأركض. وبعـد ذلـك، وعندما أصبح عاجزة عن الركض، سأتصل بكلير أو نيكول أو أياً كان وأخـبرهم أنني لم أعد أحتمل بعد الآن وأتوسل إليهم أن يساعدوني.

أقحمتُ يدي في الحقيبة، وشعرت بوجود شيء معدني وبلاستيكي وشـيء طري، ثم شعرت بوجود رزمة ملفوفة من الورق. قبضـت عليهـا وأخرجتـها ونـزعت المطاطة التي تحزمها، حتّى أصبحت الأوراق مفروشة أمامي.

ميزت شكل الأوراق السميكة والأسطر الزرقاء الباهتة والهامش الأحمر. إن هذه الأوراق تشبه أوراق السجل الذي أكتب فيه مذكراتي.

عندئذٍ، لاحظت أن الكتابة بخط يدي، واتضحت أمامي صورة ما يجري.

لا بد من أنني لم أقرأ كل قصتي قبل أن آتي إلى هنا. فهناك المزيد والمزيد من الصفحات التي أراها للمرة الأولى.

أخرجت سجلي. لم ألاحظ هذا من قبل، ولكن، بعد الصفحة النهائية التي كتبتها، هناك قسم كامل منزوع من الكتاب. إن الصفحات المفقودة منزوعة من الكتاب بعناية فائقة وكأن مَن نزعها استخدم مشرطاً أو شفرة لفصلها بإتقان وخبرة.

لا بد من أن بن هو الفاعل.

جلست على الأرض والصفحات أمامي وقرأت الحلقة المفقودة من قصتي.

* * *

وجدت الصفحة الأولى مؤرخة بتاريخ يوم الجمعة 23 تشرين الثاني. إنه اليوم نفسه الذي قابلت فيه كلير – على ما أعتقد – لا بد من أنني دونت هذه الصفحة في تلك الأمسية بعد أن تحدثت إلى بن وناقشت معه الموضوع الذي كنت أعتزم أن أناقشه فيه. بدأت الصفحة كما يلي: *إنني أجلس هنا على أرضية الغرفة في المنزل الذي أظن أنني أستيقظ فيه كل صباح منذ سنوات. أضع هذا السجل أمامي والقلم في يدي وأكتب لأن هذا هو الشيء الوحيد الذي أستطيع التفكير في فعله.*

هناك كمية من المناديل الورقية المكورة والمبللة بالدموع والدم متناثرة من حولي. عندما أرمش بعيني يتحول كل ما يقع عليه نظري إلى اللون الأحمر. ويتقاطر الدم داخل عيني، فأمسحه بأقصى سرعة ممكنة.

عندما أنظر إلى المرآة، أستطيع أن أرى أن الجلد فوق عيني مجروح وكذلك شفتي. وعندما أبتلع ريقي، أشعر بطعم الدم اللاذع.

أشعر برغبة في النوم وفي اللجوء إلى مكان آمن. فأغمض عيني وأستريح كحيوان جريح.

هذه حقيقتي. إنني مجرد حيوان يعيش من لحظة إلى أخرى، ومن يوم إلى آخر وهو يحاول أن يجد تفسيراً منطقياً للعالم الذي وجد نفسه فيه.

تسارعت دقات قلبي، وأعدت قراءة المقطع من جديد، فلفتت كلمة دم نظري أكثر من غيرها. ترى ما الذي حدث؟

بدأت بالقراءة بسرعة وتوقّفت عند كلمات غريبة مختبئة بين السطور. لا أعرف متى سيعود بن إلى الفندق، ولا يمكنني أن أجازف بأن يراني ويأخذ الأوراق مني قبل أن أقرأها. إن هذه ربما فرصتي الوحيدة لقراءتها.

لقد اتخذت قراري بأن أفضل وقت للحديث إليه هو بعد العشاء. تناولنا عشاءنا في حجرة الجلوس؛ أكلنا اللحم والبطاطا المهروسة والطبقان موضوعان على ركبنا. وعندما انتهينا من الأكل، طلبت منه أن يوقف التلفزيون عن العمل. فبدا غير راغب في ذلك. فقلت له: "أريد أن أتحدث إليك".

ساد صمت مطبق في الغرفة لا يملأه سوى صوت تكتكة الساعة وهمهمة المدينة من بعيد. شعرت بصوتي يتردد في المكان أجوف وفارغاً.

قال بن وهو يضع طبقه على الطاولة بيننا: "هل أنت بخير يا عزيزتي؟"، وكانت هناك قطعة لحم نصف مأكولة على جانب الطبق وبعض حبات البازيلاء تطفو في المرق الخفيف.

قلت: "نعم، كل شيء على ما يرام". لم أعرف كيف أتابع كلامي. نظر إلي بعينين واسعتين بانتظار سماع ما أريد قوله. فقلت: "إنك تحبني، أليس كذلك؟"، شعرت بأنني بذلك أجمع الأدلة وأؤمّن على نفسي ضد أي استهجان قد يصدر منه لاحقاً.

قال بن: "نعم، بكل تأكيد. ما الأمر؟ هل من مشكلة؟".

أخذت نفساً عميقاً وقلت: "إنني أحبك أيضاً يا بن، وأتفهم الأسباب التي دفعتك لفعل ما فعلته، ولكنني أعرف أنك تكذب عليّ".

حالما أنهيت تلك الجملة، ندمت أنني بدأت بها، ولكن بعد فوات الأوان. إذ إنني لاحظت أنه أجفل لسماعها. نظر إلي وشفتاه منفرجتان وكأنه يريد الكلام. وبدت عيناه جريحتين.

وقال: "ماذا تقصدين يا عزيزتي...؟".

توجب عليّ أن أواصل كلامي الآن. إذ لم تعد هناك طريقة تساعدني لأن أجذّف عكس التيار.

"إنني مدركة تماماً أنك تخفي عني بعض الأمور لكي تحميني، ولكنني لا أستطيع الاستمرار على هذا المنوال. يجب أن أعرف كل شيء".

بدا مرتبكاً، فتمنيت من كل قلبي أن يخبرني الحقيقة وأن يعترف بها كلها لكي لا أضطر إلى شرح أي شيء أعرفه. فظننت للحظة أنه قد يفعل هذا، ولكنه قال: "ماذا تعنين؟ إنني لا أكذب عليك".

شعرت بموجة من الغضب تتملكني، فقلت: "إنني أعرف بشأن آدم يا بن".

عندئذ تغيرت ملامحه، فرأيته يبتلع ريقه ويشيح بوجهه نحو زاوية الغرفة. نفض شيئاً عن كنزته وقال: "ماذا؟".

قلت: "آدم. أعرف أننا أنجبنا ابناً".

التزم بن الصمت للحظة، وتوقعت أن يسألني كيف عرفت بالأمر، ولكنني أدركت عندئذ أن هذه المحادثة لا تتسم بالغرابة. فلا بد من أننا أجرينا المحادثة نفسها من قبل في أيام كاليوم الذي رأيت فيه روايتي، والأيام الأخرى التي تذكرت فيها آدم أيضاً.

لاحظت أنه كان على وشك الكلام، ولكنني لم أرد أن أسمع أي أكاذيب أخرى.

قلت: "أعرف أنه مات في أفغانستان".

أغلق فمه ثم فتحه مجدّداً بشكل شبه فكاهي.

قال: "كيف؟ كيف تعرفين هذا؟".

قلت: "لقد أخبرتني بنفسك قبل أسابيع. كنت تتناول الحلوى. وكنت أنا في الحمام. فنزلت إلى الطابق السفلي. وقلت لك إنني تذكرت أنني أنجبت ابناً. وتذكرت اسمه، ثم جلسنا معاً وأخبرتني أنه قتل في الحرب. وأريتني بعض الصور المخبّأة في الطابق العلوي. إنما صور لي وله ورسائل كتبها، ومن بينها رسالة إلى سانتا". استولى عليّ الحزن مجدّداً، فأمسكت عن الكلام.

راح بن يحدق إليّ ثم قال: "تذكرت؟ كيف...؟".

"إنني أدون الأشياء التي تحدث معي منذ أسابيع".

قال: "أين؟"، وبدأ يرفع صوته وكأنه غاضب بالرغم من أنني لم أدرك السبب الذي قد يدفعه للغضب. ثم قال: "أين تكتبين هذه الأشياء؟ إنني لا أفهم ما تقصدينه يا كريسي. أين تدونين الأحداث؟".

"إنني أحتفظ بسجل مذكرات".

"سجل مذكرات؟"، قال كلامه بطريقة توحي بأن ذلك تافه جداً وكأنني أستخدمه لأدون لوائح التسوق وأسجل أرقام الهواتف.

قلت: "إنه دفتر يوميات".

أحنى ظهره إلى الأمام وكأنه على وشك أن ينهض عن كرسيه، وقال: "مذكرات؟ يوميات؟ كم مضى على هذا؟".

"لا أعرف بالتحديد. لقد مضى عليه حوالي بضعة أسابيع".

أمسك عن الكلام للحظة ثم قال: "أتسمحين لي برؤيته؟"، فلم أردّ. فقد شعرت بأنني غاضبة ومستاءة، لذا قررت ألا أريه إياه.

فقلت: "كلا، ليس بعد".

بدا بن غاضباً وقال: "أين هو؟ أريني إياه".

"إنه خاص بي يا بن".

فكر الكلمة بانفعال قائلاً: "خاص؟ ماذا تعنين بقولك هذا؟".

"أعني أنه شخصي. ولا أشعر بالراحة لأن أدعك تراه".

فقال: "لماذا؟ هل كتبت شيئاً عني؟".

"بالطبع كتبت".

"ماذا كتبت؟ ماذا قلت عني؟".

كيف أجيب عن هذا السؤال؟ فكرت في شتى الوسائل التي خدعته بها، وفي الأشياء التي قلتها للدكتور ناش، والأفكار التي راودتني بشأنه، والأساليب التي شعرت بسببها بعدم الثقة بزوجي، والأشياء التي ظننت أنه قادر على ارتكابها. وفكرت في الأكاذيب التي تفوهت بها في الأيام التي قابلت فيها الدكتور ناش وكلير ولم أخبره شيئاً.

"الكثير من الأمور يا بن. كتبت الكثير من الأمور".

"ولكن لماذا؟ لماذا كنت تدونين هذه الأحداث".

لم أصدق أنه يطرح عليّ هذا السؤال فقلت: "لأنني أريد أن أستوعب ما يجري من حولي، وأن أجد تفسيراً منطقياً لحياتي، وأن أتمكن من إيجاد حلقة وصل بين يوم وآخر كبقية الناس".

"ولكن لماذا؟ هل أنت تعيسة؟ ألم تعودي تحبينني؟ ألا تريدين البقاء معي هنا؟".

أربكني سؤاله. لماذا قد يشعر بأن رغبتي في إضفاء معنى ومغزى على حياتي الممزقة أنني أريد أن أغيرها بطريقة ما؟

قلت: "لا أعرف. ما هي السعادة؟ إنني أشعر بالسعادة عندما أستيقظ صباحاً، ولكنني لا أشعر بها عندما أنظر في المرآة وأكتشف أنني أكبر سناً مما أتوقع بعشرين سنة، وأن لدي شعراً أبيض وتجاعيد حول عيني. إنني لا أشعر بالسعادة عندما أدرك أن كل تلك السنوات التي مضت ضاعت مني بلا رجعة وسلبت من بين يدي، ولهذا، فأنا أظن أنني تعيسة معظم الوقت، ولكنها ليست غلطتك أنت. إنني سعيدة معك وأحبك وأحتاج إليك إلى جانبي".

اقترب بن مني وجلس إلى جانبي وقال لي بصوت ناعم: "إنني آسف، ولكنني أكره أن أفكر في كل شيء تدمّر في حياتنا فقط بسبب حادث السيارة الذي تعرضت له".

شعرت بالغضب يستولي عليّ مجدّداً، ولكنني تمكنت من إخماده. إذ لم يكن لدي الحق بأن أغضب منه لأنه لم يكن يعرف ما عرفته وما لم أعرفه.

قلت: "إنني أعرف ما حدث يا بن. إنني أدرك أن ما حدث ليس حادث سيارة وأنني تعرضت لهجوم".

مرت لحظة سكون تام لم يحرك بها ساكناً. ونظر إلي بعينين واسعتين خاليتين من التعبير. فظننت لبرهة أنه لم يسمعني، ولكنه قال: "أي هجوم؟".

رفعت صوتي في وجهه قائلة: "كفّ عن هذا يا بن!"، لم أستطع أن أمنع نفسي، إذ إنني وجدته لا يزال، بعد أن بحث له بموضوع السجل، مصراً على مواصلة الكذب عليّ حتى بعد أن اتضح له أنني أعرف الحقيقة. تابعت قائلة: "كفّ عن الكذب عليّ! إنه ليس حادث سيارة. إنني أعرف ما حصل معي. وليس هناك مغزى من محاولتك التظاهر بأن هناك شيئاً آخر حدث. إن الإنكار لا يوصلنا إلى أي حل لهذه المشكلة. عليك الكفّ عن التفوه بالأكاذيب!".

نهض على قدميه، وفجأة بدا لي ضخماً وهو واقف فوقي يحجب عني الرؤية.

وقال: "مَن أخبرك؟ مَن؟ أهي تلك الحقيرة كلير؟ هل أقحمت أنفها في شؤوننا وراحت تطلق الأكاذيب عني؟ هل أخذت تتدخل في أمور لا تعنيها؟".

فبدأت أقول: "بن..."، ولكنه قاطعني.

"لطالما كانت تكرهني وتحقد عليّ. إنها على استعداد لأن تفعل أي شيء لتسمم تفكيرك ضدي. أي شيء! إنها تكذب يا عزيزتي. إنها كاذبة. يجب أن تصدقيني أنا".

قلت: "ليست كلير التي أخبرتني". أطرقت ببصري إذ إنني عجزت عن النظر إلى عينيه. وتابعت قائلة: "إن شخصاً آخر هو من فعل هذا".

"من؟"، فلم أقل شيئاً. فصاح في وجهي قائلاً: "من أخبرك؟".

همست قائلة: "إنني أقابل طبيباً وأتحدث إليه. فأخبرني الحقيقة بنفسه".

التزم بن الصمت للحظة. ثم جلس بجانبي ساكناً تماماً باستثناء إبهام يده اليمنى التي أخذ يرسم بها حلقات حول إبهام يده اليسرى. استطعت أن أشعر بحرارة جسده وأسمع صوت أنفاسه البطيء عندما راح يسحب نفساً تلو آخر ويكتمه للحظة ثم يطلق زفيراً. وعندما تحدث، بدا صوته منخفضاً جداً لدرجة أنني استطعت بصعوبة أن أستوعب الكلمات.

"ماذا تعنين بقولك إنك تقابلين طبيباً؟".

فلم أجد لي سبيلاً سوى أن أخبره الحقيقة كاملة.

"اسمه الدكتور ناش. اتصل بي على ما يبدو قبل بضعة أسابيع". وبينما أنا أقول هذا شعرت بأنني لا أتحدث عن قصتي الشخصية بل عن قصة شخص آخر.

"ماذا قال؟".

فكرت للحظة. ترى هل سجلت شيئاً حول محادثتنا الأولى؟

قلت: "لست أدري. لا أعتقد أنني سجّلت ما قاله".

"إذاً، كنت تتحدثين إلى الدكتور ناش؟ هل هو من شجعك على كتابة ما يحدث معك؟".

"نعم".

"لماذا؟".

"أريد أن أتحسن يا بن".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"وهل ينجح العلاج؟ ما الذي تقومان به؟ هل يعطيك أدوية؟".

قلت: "كلا، أجرينا بعض الفحوصات والتمارين، كما أجريت تصويراً...".

توقفت إبهاماه عن الدوران، والتفت ليواجهني.

قال بصوت أعلى قليلاً: "تصويراً؟".

"نعم، أجريت تصويراً بالرنين المغناطيسي. فقد قال لي إن هذا قد يساعدني. لم يكن هذا النوع من التصوير متوفراً حين مرضت أول الأمر...".

"أين؟ أين خضعت لهذا التصوير؟ وهذه الفحوصات؟ أين أجريت هذه الاختبارات؟ أخبريني!".

بدأت أشعر بالارتباك، فقلت: "في عيادته في لندن. وأجرينا التصوير هناك، ولكنني لا أتذكر أين بالتحديد".

"كيف تمكنت من الوصول إلى هناك؟ كيف تستطيع امرأة مثلك أن تذهب إلى عيادة طبيب؟ كيف؟"، أصبح صوته الآن مرتفعاً وملحاً.

حاولت أن أتكلم بهدوء لأعيد المحادثة إلى استقرارها وأساسها الثابت. فقلت: "لقد اعتاد الدكتور ناش أن يأتي ليقلني من هنا بسيارته".

بدت خيبة الأمل واضحة على وجهه. وبعد لحظة، حل محلها غضب عارم. لم أستطع أن أتوقع ما أراد أن يفعله، ولكنني لم أكن أريد للمحادثة أن تتجه في هذا الاتجاه أو أنوي لها أن تتخذ منحى صعباً.

توجب عليّ أن أجرب تفسير الأمور له. فبدأت قائلة: "بن...".

ولكن ما حدث تالياً كان شيئاً غير متوقع. فقد بدأت أنة منخفضة تتصاعد من حنجرته في مكان عميق. وأخذت تعلو بسرعة إلى أن أصبح عاجزاً عن كبحها بعد الآن. فانطلقت على هيئة صرخة مريعة كصوت احتكاك الأظفار بالزجاج.

قلت: "بن! ما الأمر يا بن؟"، التفت نحوي مترنحاً وأدار وجهه بعيداً عني. تملكني قلق من أن يصاب بنوبة ما، فنهضت ومددت له يدي ليتمسك بها وقلت: "بن!"، ولكنه تجاهلني. وبدلاً من ذلك، حاول تثبيت نفسه بيديه. وعندما التفت إلي، كان وجهه أحمر كالدم وعيناه مفتوحتين على وسعهما. استطعت أن أرى أن اللعاب بدا متجمعاً عند زاويتي فمه. فشعرت للحظة أنه يضع قناعاً مخيفاً بعيداً كل البعد عن الملامح المسالمة التي اعتادت أن تعلو وجهه.

قال وهو يتقدم نحوي بسرعة: "أيتها السافلة الغبية التافهة!"، فأجفلت. اقترب مني حتى أصبح وجهه يبعد بوصات قليلة عن وجهي. وقال: "منذ متى يحدث هذا؟".

"إنني يا بن..." .

"أخبريني! أخبريني أيتها التافهة؟ منذ متى؟" .

فقلت: "لا شيء يحدث!" . استبد بي الخوف وتصاعد وتفاقم في داخلي أكثر ثم غاص عميقاً في أعماقي. قلت مجدداً: "لا شيء!" . استطعت أن أشم أنفاسه محملة برائحة اللحم والبصل الممتزجة بغضبه العميق العارم.

"إنك على علاقة غرامية بذلك الرجل. لا تكذبي عليّ" .

شعرت بركلة ساقي تضغط على طرف الأريكة، فحاولت أن أتحرك على طولها لأبتعد عنه، ولكنه قبض على كتفي وهزني بقوة قائلاً: "إنك هكذا دائماً امرأة حقيرة كاذبة! لا أعرف ما الذي جعلني أظن أنك ستتصرفين بشكل مختلف معي. إذاً، ما الذي فعلته معه؟ هل تسللت من البيت في أثناء وجودي في العمل؟ أم أنك أحضرته إلى هنا؟ أم أنكما التقيتما في سيارته المركونة في المرج؟

شعرت بقبضة يده القوية على كتفي، وبأصابعه وأظفاره تنغرز في جلدي من خلال قطن بلوزتي.

أردت أن أوقفه من نوبة الغضب التي أحكمت قبضتها عليه، فصحت قائلة: "بن! إنك تؤلمني! كفَّ عن هذا!" .

توقف عن هزي وارتخت قبضة يده قليلاً. لم أستطع أن أستوعب ما يجري وما أودى بنا إلى هذه المرحلة. وعجزت عن التخيل أن الرجل الذي يقبض على كتفي وملامح وجهه تتأجج بالغضب والكراهية هو الرجل نفسه الذي كتب الرسالة التي أعطتني إياها كلير. كيف يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة من عدم الثقة؟ ما هو مقدار عدم التواصل الذي أوصلنا من تلك الحالة إلى هذه؟

قلت: "إنني لست على علاقة به. إنه يساعدني لأتحسن وأعيش حياة طبيعية هنا معك أنت؟ ألا تريد هذا يا بن؟" .

بدأ بصره يتنقل بسرعة في أرجاء المكان، فقلت: "بن؟ تحدث إليّ" . لكنه تسمر في مكانه. قلت: "ألا تريدني أن أتحسن؟ أليس هذا ما أردته وتأملت حدوثه

طوال حياتك؟". بدأ يهز رأسه ببطء من جانب إلى آخر، فقلت: "إنني أعرف أنك تريد هذا، وأنك أردته طوال الوقت". بدأت أبكي دموعاً حارة تنهمر على وجهي وأتحدث بصوت متقطع بسبب النحيب. كان لا يزال يمسك بي، ولكن بلطف الآن. فوضعت يديّ على يديه وقلت: "لقد قابلت كلير. فأعطتني رسالتك. لقد قرأتها يا بن. نعم، قرأتها أخيراً بعد كل تلك السنوات".

هناك بقعة على الصفحة امتزج فيها الحبر بالماء على شكل نجمة، فأدركت أنه لا بد من أنني كنت أبكي وأنا أكتب هذا الكلام. واصلت القراءة.

لا أعرف ما الذي توقعته أن يحدث. إذ ربما توقعت أن يرتمي بن بين ذراعي ويذرف دموع السعادة، وأن نقف هناك متعانقين بصمت إلى أن نسترخي ونلتمس طريق العودة إلى حالتنا الطبيعية مجدداً. وعندئذ سنجلس ونناقش الأمور بهدوء وربما سأصعد إلى الطابق العلوي وأحضر الرسالة التي أعطتني إياها كلير ونقرأها معاً، وهكذا، سنبدأ بإعادة بناء حياتنا معاً لبنة لبنة على أساس الصدق والصراحة والثقة المتبادلة.

بدلاً من ذلك، سادت لحظة من السكون التام لم يعد يبدو شيء فيها أنه يتحرك. وساد الهدوء. لم يعد هناك صوت تنفس ولا صوت سيارات من الشارع. لم أعد أسمع حتى صوت تكتكة الساعة، وشعرت أن الحياة أصبحت معلقة في الهواء وكأنها تحوم بين الحقيقة والخيال.

وفجأة، انتهت الحالة؛ فقد ابتعد بن عني. ظننت للحظة أنه سيعانقني، ولكن، عندما نظرت بطرف عيني أدركت ما سيجري؛ بعد لحظة، ارتطم رأسي من أحد جانبيه وشعرت بألم فظيع في فكي. وسقطت من على الأريكة، واصطدم رأسي بشيء قاس وحاد، فصحت بصوت عال. ولا أتذكر ما الكلمة التي قلتها. فلا بد من أنها: بن أو النجدة، ولكن أحداً لم يهب لنجدتي. وبدلاً من ذلك، أصابتني ضربة أخرى ثم أخرى، فأغمضت عيني بانتظار الضربة التالية، ولكن لم يحدث شيء. ولم أسمع أي صوت باستثناء وقع خطواته على الأرض مبتعداً وصوت إغلاق الباب بقوة.

فتحت عيني وأخذت أتنفس بسرعة وغضب. بدت السجادة ممتدة بعيدة عني بشكل عمودي. ورأيت طبقاً مكسوراً بجانب رأسي ومرقاً يسبح على الأرض والسجادة تمتصه. وكانت هناك بضع حبات من البازيلاء على الأرض وقطعة نصف مأكولة من اللحم. انفتح الباب الأمامي ثم انغلق بعنف. وسمعت صوت وقع خطوات في المدخل، فعرفت أن بن غادر المنزل.

أطلقت نفساً عميقاً، وأغمضت عيني. وفكرت في أنه يجب عليّ ألاّ أنام أبداً.

فتحت عيني مجدّداً، ورأيت الظلام مخيماً من حولي وشممت رائحة لحم. فابتلعت ريقي وشعرت بطعم الدم.

تساءلت في نفسي عما فعلته أو اقترفته يداي لألقى هذه المعاملة الوحشية.

صعدت إلى الطابق العلوي وعثرت على سجلي. أخذ الدم يتقاطر على السجادة من شفتي المشقوقة. لست أدري ما جرى، ولا أعرف أين ذهب زوجي الآن، أو إن كان سيعود إلى البيت، أو إن كنت أريده أن يعود فعلاً.

ولكنني بحاجة إليه. فأنا لا أستطيع العيش من دونه.

إنني خائفة. أريد أن أرى كلير.

ثمة فجوة هنا؛ فتوقّفت عن القراءة ومددت يدي إلى جبيني حتّى شعرت بشيء طريّ؛ هناك كدمة رأيتها صباح اليوم فغطيتها بمسحوق التجميل. لقد ضربني بن فعلاً. نظرت إلى تاريخ اليوم. لا بد من أن هذا حدث قبل أسبوع من الآن، وهكذا، فقد أمضيت أسبوعاً كاملاً وأنا أظن أن كل شيء على ما يرام.

وقفت على قدمي لأنظر في المرآة؛ إن الكدمة موجودة على جبيني فعلاً، كدمة زرقاء باهتة. إنها الدليل على أن ما كتبته صحيح. رحت أتساءل عن الأكاذيب التي كذبتها على نفسي لأفسر إصابتي بها أو الأكاذيب التي كذبها عليّ هو.

فجأة سمعت صوته على الدرج. وربما أدركت للمرة الأولى تمام الإدراك أنني هنا مع بن، الرجل الذي ضربني. ثمّ سمعت صوت مفتاح يدور في القفل.

شعرت بنفسي أنقسم إلى شطرين، أحدهما يريدني أن أهرب وآخذ الصفحات غير المقروءة وأغادر، والشطر الباقي مني كان لا بد له أن يعرف ما جرى. ولكن، دفعت بالصفحات تحت الوسادة واستلقيت على السرير. وبينما خطا إلى داخل الغرفة، أغمضت عيني.

قال بلطف: "هل أنت بخير يا عزيزتي؟ هل أنت مستيقظة؟".

فتحت عينيّ، فرأيته واقفاً عند المدخل ممسكاً بزجاجة شراب. قال: "استطعت أن أحضر زجاجة واحدة من الشراب. أهذا مناسب؟".

فأومأت برأسي بصمت. وضع الزجاجة على طاولة الزينة وطبع قبلة على خدي. ثمّ همس في أذني قائلاً: "أعتقد أنني سآخذ حماماً".

عندما أغلق بن الباب، واصلت القراءة، إذ ليس لدي متسع من الوقت. من المؤكد أنه لن يستغرق أكثر من خمس دقائق، لذا، عليّ أن أقرأ بأقصى سرعة ممكنة. جال بصري على الصفحات من دون حتى أن أميز كل الكلمات، ولكنني كنت أراها بوضوح وأستوعبها بكل جوارحي.

حدث هذا قبل ساعات. جلست عند مدخل منزلنا المظلم وهناك قصاصة ورق في يدي وهاتف في الأخرى. طلبت الرقم، ولكنني لم أسمع رداً، بل مجرد رنين متواصل. لقد حدث هذا معي من قبل. إن كل الأحداث تتكرر مرة أخرى، ولكن كلير ليست موجودة لتساعدني.

ما الذي أريده؟ أهو الهرب ما أرجوه وأتمناه؟ أن أهرب من بن؟

كلا، فأنا لا أزال أريد أن أجلس إلى جانبه وأتحدث إليه. أريد أن أفهمه وأن أجعله يفهمني. لا بد من أن هذا ممكن، أليس كذلك؟

إذاً، لماذا أتصل بكلير؟ ألأنها الشخص الوحيد القادر على مساعدتي ومساعدتنا معاً؟

ولكن، ربما تكون هي أيضاً عاجزة عن مساعدتي.

عثرت على الرقم الذي أعطاني إياه الدكتور ناش. كان قد طلب مني ألا أتصل به في البيت، بل على رقم العيادة فقط.

إن الوقت متأخر الآن، لذا، لن يكون في العمل. لا بد من أنه مع حولي يفعلان ما يفعله أي شخصين عاديين طبيعيين في أمسياتهما، وهذا ما ليست لدي أيّ فكرة عنه.

طلبت الرقم. لكن، لم أسمع الرنين، بل سمعت صوتاً مسجلاً يقول لي إن هناك خطأً بالاتصال وينصحني بأن أتأكد من صحة الرقم وأعاود المحاولة لاحقاً، ولكن، عندما فعلت ذلك، تكررت الرسالة نفسها. وهكذا، فلم يعد لدي سوى رقم العيادة.

جلست هناك لبعض الوقت وأنا أشعر بأنني عاجزة ولا حيلة لي. أخذت أنظر إلى الباب الأمامي وأنا آمل أن يظهر ظلّ بن من خلال الزجاج المحجر وهو يدخل مفتاحه في القفل وأخشى حدوث ذلك في آن معاً.

وفي نهاية المطاف، لم أعد أطيق الانتظار. فصعدت إلى الطابق العلوي وبدلت ملابسي ثم جلست على السرير وكتبت ما حدث. لا يزال المنزل فارغاً. في غضون لحظة واحدة، سأغلق هذا السجلّ وأضعه تحت وسادتي ثم أعتِم الغرفة وأنام.

وعندئذ سأنسى كل شيء ولن يتبقى لي سوى هذا السجل.

نظرتُ إلى الصفحة التالية برعب خوفاً من أن أجدها فارغة، ولكنها ليست كذلك.

بدأت الصفحة كالتالي: يوم الاثنين 26 تشرين الثاني. اليوم هو الاثنين. لقد ضربني يوم الجمعة، أي قبل يومين. لم أكتب شيئاً عما حدث. فلا بد من أنني كنت طوال هذا الوقت أعتقد أن كل شيء على ما يرام.

ولكن، ما الذي جعلني أعرف ما حدث؟ إن وجهي متورم ويؤلمني. من المؤكد أنني أدركت أن هناك خطأً ما.

اليوم قال لي إنني وقعت عن الدرج. إن هذه أكبر كذبة مكشوفة عرفتها على الإطلاق، ولكنني صدقته. لِمَ لا أصدقه؟ فقد توجب عليه مسبقاً أن يشرح لي من أنا، ومن هو، وكيف استيقظت في بيت غريب ورأيت نفسي أكبر بعقود مما أظن

أنه ينبغي لي أن أكون، إذاً، فلماذا أشكك في السبب الذي قدمه لي لتورم عيني والكدمة التي تغطيها والجرح الذي أصاب شفتي؟

إضافة إلى ذلك، لربما أردت أن أصدقه لأنني لم أكن أريد أن أعترف بشيء لست مستعدة لرؤيته، ولهذا، فقد واصلت يومي بشكل طبيعي. وقبلت زوجي قبل أن يغادر إلى العمل ونظفت طاولة الطعام وذهبت للاستحمام.

بعد ذلك أتيت إلى هنا وعثرت على هذا السجل وعرفت الحقيقة من قراءة صفحاته.

هناك فجوة؛ فأنا لم أذكر شيئاً عن الدكتور ناش على ما أعتقد. ترى هل تخلى عني؟ هل عثرت على السجل من دون مساعدته؟

أم إنني توقفت عن إخفائه؟ واصلت القراءة.

لاحقاً، اتصلت بكلير، ولكنني لم أتلقَّ أي رد أيضاً، ولهذا جلست في غرفة المعيشة وأنا عاجزة عن الاسترخاء. أخذت بعض المجلات ثم أعدتها. شغّلت التلفزيون وأمضيت نصف ساعة وأنا أحدق إلى الشاشة من دون أن ألاحظ ما يُعرَض عليها. نظرت إلى سجلي غير قادرة على التركيز والكتابة. حاولت الاتصال بها مجدداً ولعدّة مرات، لكن، في كل مرة كنت أسمع الرسالة نفسها التي تطلب مني أن أترك رقمي. ولم يحدث أن أجابت إلا بعد وقت الغداء.

قالت كلير: "كيف حالك، يا كريسي؟". كنت أسمع صوت توبي وهو يلعب.

قلت: "إنني بخير". بالرغم من أنني لم أشعر بأنني كذلك.

قالت: "كنت سأتصل بك. إنني في حال مزرية. وما زلنا يوم الاثنين!".

يوم الاثنين؛ إن الأيام لا تعني لي شيئاً، لأن كل يوم منها يحلّ ثم يذوب في عالم النسيان من دون أن يكون هناك ما يميزه عن اليوم الذي سبقه.

قلت: "ما الأخبار؟".

قالت: "آه! لا شيء. إن الأمر يتعلق بزوجة روجر. فهي تعرضنا لمشاكل جمة. أمضينا اليوم بطوله في مكتب المحامي كما تعرفين".

ولكنني بالطبع لم أكن أعرف شيئاً، فقلت: "يجب أن أقابلك. أيمكنك أن تأتي إلى هنا؟".

بدت مندهشة وقالت: "هل أحضر إلى بيتك؟".

فقلت: "نعم، من فضلك. يجب أن أتحدث إليك".

"هل كل شيء على ما يرام يا كريسي؟ هل قرأت الرسالة؟".

أخذت نفساً عميقاً وانخفض صوتي حتى أصبح أقرب من الهمس. وقلت: "لقد ضربني بن". فسمعتها تأخذ نفساً وكأنها تشهق من فرط الدهشة.

"ماذا؟".

"فعل ذلك في إحدى الليالي. هناك كدمة على جبيني. قال لي إنني تعثرت ووقعت، ولكنني كتبت في سجلي أنه ضربني".

"من المستحيل أن يضربك بن يا كريسي، أبداً. إن الضرب ليس من شيمه على الإطلاق".

بدأت الشكوك تخامرني. أمن المعقول أن أكون قد اخترعتُ كل هذا؟

فقلت: "ولكنني كتبت ما حصل في سجلّ مذكراتي".

التزمت كلير الصمت للحظة ثم قالت: "ولكن، لماذا تظنين أنه قد يضربك؟".

وضعت يدي على وجهي وشعرت بالجلد المتورم حول عيني واكتسحتني موجة من الغضب. فقد بدا من الواضح أنها لم تصدقني.

أعدت التفكير في ما كتبته وقلت: "لقد قلت له إنني أحتفظ بسجلّ مذكرات. وذكرت له إنني أقابلك وأقابل الدكتور ناش. وأخبرته أنني أعرف عن آدم. وطلبت منه أن يكفّ عن التظاهر بأنه غير موجود. وقلت له أيضاً إنك أعطيتني الرسالة التي كتبها فقرأتها. وعندئذٍ ضربني".

"هل ضربك هكذا ببساطة؟".

فكرت في كل الكلمات التي وجهها إلي وكل الأمور التي اتهمني بها وقلت: "لقد ثارت ثائرته. ونعتني بالحقيرة". شعرت بالغضب يملأ صدري وقلت: "اتهمني بأنني على علاقة بالدكتور ناش، فقلت إنني لست كذلك. وعندئذٍ...".

"ماذا؟".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

"عندئذٍ ضربني".

ساد الصمت ثم قالت: "هل ضربك من قبل على الإطلاق؟".

توقفت عن الكلام قليلاً إذ لم يكن هناك ما يمكّنني من معرفة ما حدث في الماضي. ربما فعل ذلك، ولكن بدا من الواضح أن كلير وجدت صعوبة في تخيله قادراً على معاملتي بعنف، ولكنني ظننت أنه من المحتمل تماماً أن تكون علاقتنا علاقة قائمة على العنف. لمعت في ذهني صورتي أنا وكلير ونحن نمشي في مسيرة ونحمل لافتتين مصنوعتين منزلياً كُتب عليهما: حقوق المرأة. لا للعنف المنزلي. وتذكرت كيف كنت، بالرغم من إشفاقي الدائم على النساء اللواتي يعشن مع أزواج يضربونهن فيبقين معهم بالرغم من كل شيء، ومع أنني أشفق عليهن، فأنا أنظر إليهن بدونية، إذ إنني لم أستوعب ببساطة سبب عدم هجرهن أزواجهن. ولطالما اعتبرتهن ضعيفات وغبيات.

أمن المعقول أن أكون قد وقعت في الفخ نفسه الذي وقعن فيه؟

قلت: "لا أعرف".

التزمت كلير الصمت للحظات ثم قالت: "من الصعب أن أتخيل بن يؤذي أحداً، ولكنني أظن أيضاً أن هذا ليس مستحيلاً. يا للهول! لقد اعتاد أن يجعلني حتى أنا أشعر بالذنب! هل تتذكرين؟".

فقلت: "كلا! لا أتذكر شيئاً".

قالت: "تباً! إنني آسفة. من الصعب تخيّله يتعامل بعنف مع أحد. إنه الشخص نفسه الذي أقنعني بأن السمكة لها الحق في الحياة كأي حيوان يسير على قوائمه. إنه يعجز حتى عن قتل نملة!".

أخذ الهواء يحرّك ستائر الغرفة، وسمعت صوت قطار من بعيد، وصراخاً من الرصيف، وصوت شخص في الشارع يقول: "تباً"، وصوت تحطيم زجاج. لم أكن أشعر برغبة في مواصلة القراءة، ولكنني كنت أدرك أنه عليّ مواصلة ذلك.

شعرت بالبرودة تسري في جسدي، وقلت: "هل بن نباتي؟".

قالت كلير وهي تضحك: "نباتي! لا تقولي لي إنك لا تعرفين هذا؟".

فكرت في الليلة التي ضربني فيها. وكنت قد كتبت عنها قائلة: هناك قطعة من اللحم ويضع حبات من البازيلاء تطفو في المرق.

قلت: "لا أتذكر هذا". نهضت وتوجهت إلى النافذة، فوجدت الطريق هادئاً والأشجار في الحديقة تتحرك بلطف مع النسيم. قلت: "لا أعتقد ذلك، إذ إن بن يأكل اللحم. إنه ليس نباتياً، ليس حالياً على أي حال، ولكن، ربما يكون قد تغير".

سمعت صوت كلير تأخذ نفساً عميقاً، وقد ساد الصمت للحظة.

قلت: "كلير"، فلم تقل شيئاً. فكررت قائلة: "كلير؟ أما زلت على الخط؟".

تحدثت قائلة وهي تبدو غاضبة الآن: "حسناً، سأتصل به. أريد أن أحل هذه المسألة. أين هو؟".

شعرت بموجة من الذعر إذ لم أكن أريد منها أن تتحدث إليه. وفي الوقت نفسه، تمنيت لو تفعل ذلك.

قلت: "إنه في المدرسة على ما أعتقد. فقد قال إنه لن يعود حتى الساعة الخامسة".

قالت: "المدرسة؟ هل تقصدين الجامعة؟ هل يلقي محاضرات هناك الآن؟".

تحرك خوف غريب في داخلي.

فقلت: "كلا! إنه يعمل في مدرسة قريبة من هنا. لا أتذكر اسمها".

"ماذا يعمل هناك؟".

"معلماً. إنه رئيس قسم الكيمياء على ما أعتقد". شعرت بالذنب لأنني لم أكن أعرف عمل زوجي الذي يكسب منه رزقه، أو لم أكن أستطيع أن أتذكر كيف يكسب المال ليعيلنا في هذا المنزل. فقلت: "لا أتذكر".

نظرتُ أمامي ولمحت صورة وجهي المتورم منعكسة على زجاج النافذة أمامي. فتلاشى شعوري بالذنب.

قالت كلير: "معلم؟ في أيّ مدرسة؟".

قلت: "لست أدري. لا أظن أنه أخبرني باسمها".

"ماذا؟ ألم يخبرك قط؟".

قلت: "لم يخبرني صباح اليوم، وهذا بالنسبة إلي يعني أنه لم يخبرني قط".

تنهدت وقالت: "إنني آسفة يا كريسي. لا أقصد أن أزعجك. إن الأمر وحسب... حسناً..". شعرت أنها غيرت رأيها وراجعت نفسها قبل أن تكمل جملتها، ثم قالت: "أيمكنك أن تبحثي عن اسم المدرسة؟".

فكرت في المكتب في الطابق العلوي وقلت: "أظن ذلك".

"أود أن أتصل بين وأتحدث إليه. وأريد أن أحرص على أن يعود إلى البيت عندما أحضر لزيارتكما عصر اليوم. لا أريد أن آتي بلا فائدة".

لاحظت الأسلوب المرح الذي حاولت أن تمزجه في صوتها، ولكنني لم ألفت انتباهها إلى ذلك. وشعرت بأنني متوترة وعاجزة عن فهم الأفضل وما ينبغي لي أن أفعله، ولهذا قررت أن أستسلم لصديقتي قائلة: "هل أعاود الاتصال بك؟". ولكنها قالت لي إنها ستنتظر.

وضعت الهاتف بعناية وصعدت إلى الطابق العلوي، فوجدت المكتب مرتباً وعليه أكوام من الورق مرتبة بأناقة على الطاولة. لم أستغرق وقتاً طويلاً حتى عثرت على ورقة ذات ترويسة باسم المدرسة، وهي عبارة عن محضر جلسة اجتماع لأولياء الأمور تم عقده مسبقاً.

عندما عدت إلى الطابق السفلي، قلت لكلير: "إنها مدرسة سانت آن. أتريدين رقم الهاتف؟".

قالت: "سأعثر عليه بنفسي. سأتصل بك لاحقاً. موافقة؟".

أصابني الذعر مجدداً وقلت: "ماذا ستقولين له؟".

قالت: "سأحل المسألة برمتها. ثقي بي يا كريسي. يجب أن نجد تفسيراً لما يجري. اتفقنا؟".

قلت: "حسناً". وأنهيت المكالمة. لم أكن أعرف ما سيحدث بعد ذلك، وشعرت أن أعصابي مشدودة ومتوترة. سيطر الخوف عليّ فجأة. ماذا إن كان حدسي الأولي صحيحاً؟ ماذا إن كانت كلير ما زالت على علاقة ببين؟ لا بد من أنها أرادت أن تتصل به لتحذره.

تذكرت أنني قرأت في سجلي ما قاله لي الدكتور ناش عن أعراض جنون الارتياب التي أظهرتها في الماضي. فقد أخذت أدّعي أن الأطباء يتآمرون ضدي. وقال الدكتور ويلسون إنني أبديت نزعة لتخيّل واختراع الأحداث.

ماذا إن كان كل ذلك يحدث مجدّداً؟ ماذا إن كنت أخترع كل هـذا؟ قـد يكون كل شيء في سجلي مجرد خيالات ومحض جنون.

فكرت في ما قاله لي الدكتور ناش في الجناح، وما ذكره بن في رسالته. فقد ذكرا أنني كنت ميالة إلى العنف. بدأت أشك في أنني أنا من افتعلت الشجار الذي وقع بيننا أمس، وأنني أنا من هاجمت بن فضربني بـدوره. عندئـذٍ، صـعدت إلى الطابق العلوي وأخذت قلماً وعملت على صياغة كل ما جرى على شكل أحداث قصة خيالية.

ماذا إن كان كل ما كتبته في هذا السجل يعني أن حالتي تسوء مجدّداً؟ وأنـه قريباً سيحين الوقت للعودة إلى دار رعاية ووربنغ؟

تسمرت في مكاني وشعرت فجأة بأنني على قناعة بأن هذا هو السـبب الـذي جعل الدكتور ناش يريد اصطحابـي إلى هناك. لا بد من أنه أرادني أن أستعد للعودة. لم يعد يسعني أن أفعل الآن سوى أن أنتظر معاودة اتصال كلير بـي.

هناك فجوة أخرى. أهذا ما يحدث يا ترى؟ هل سيحاول أن يعيـدني إلى دار الرعاية؟ نظرت إلى باب الحمام، وقررت بيني وبين نفسي ألا أسمح له بإعادتي. ومع ذلك، فكيف يسعني أن أمنعه؟

هناك صفحة أخيرة في السجل كتبت في وقت لاحق من اليوم نفسـه: يـوم الاثنين 26 تشرين الثاني، ولكنني أضفت إليها الوقت: الساعة 6:55 مساءً.

اتصلت بـي كلير بعد أقل من نصف ساعة. أصبح تفكيري الآن متذبـذباً ويتأرجح من شيء إلى آخر ثم يعود ثانية. تارة أعرف ما أريد أن أقوم بـه وتـارة أخرى لا أعرف ما أريد أن أقوم به. قد يكون ربما من الأدق أن أقول إنه لم يكـن متذبذباً وإنما راح يقفز بين فكرتين ثم يدور باهتياج حول فكرة ثالثـة. فتـرتعش أوصالي عندما أدرك الحقيقة: إنني في خطر.

إنني في خطر. ومع ذلك، فكل ما يمكنني فعله هو أن أمسـك هـذا القلـم وأكتب عن الخطر المحدق بـي وأحتفظ به وأثبته على صفحات السجل لأطـول وقت ممكن.

لقد عدت إلى بداية السجل وأنا أنوي أن أكتب جملة: "إياك والوثوق بـــبن" لكي أراها عندما أستيقظ صباحاً حتى لو لم أرَ شيئاً آخر، ولكنني أكتشــف أنـــني سبق وفعلت ذلك. إن هذه الكلمات موجودة مسبقاً على الصفحة الأولى.
لا أتذكر أنني كتبتها، ولكنني لا أتذكر شيئاً آخر.

هناك فجوة أخرى. ثم تتوالى الأحداث.

بدت كلير مترددة عبر الهاتف وتحدثت بحذر وكأنها تدور حول مخلوق نـــائم تفضل ألا توقظه من سباته. فأصغيت إليها متوقعة أسوأ الاحتمالات، ولكن مـــن دون أن أعرف أي صيغة ستتخذها كلامها.

قالت كلير: "أصغي إلي يا كريستين". أخافتني نبرة صوتها فجلست.

"ماذا؟".

"عليّ أن أخبرك شيئاً عن اتصالي ببن صباح اليوم في المدرسة".

ابتلعت ريقي بصعوبة، وراودني شعور غامر بأنني أخوض رحلة خارجة عـــن السيطرة، وأن هناك تياراً قوياً يجرفني إلى المجهول.

"ماذا قال؟".

"لم أتحدث إليه. فقد أردت وحسب أن أتأكد من أنه يعمل هناك".

فقلت: "لماذا؟ ألا تثقين به؟".

"لقد كذب عليك بشأن أمور أخرى".

توجب عليّ أن أتفق معها، ولكنني قلت: "لماذا قد يكذب بشأن شيء كهذا؟ لماذا قد يقول لي إنه يعمل في مكان ما إن لم يكن يعمل فيه؟ لماذا تفقدت مكـــان عمله؟".

"لقد فوجئت من كلامك عن عمله في مدرسة، إذ إنك تدركين أنه تخـــرّج من الجامعة ليصبح مهندساً معمارياً"، ولكنني لم أكن أعرف ذلك بالطبع. مـــن أين لي أن أعرف؟ لم أقل شيئاً. فتابعت كلير قائلة: "في المرّة الأخيرة التي تحدثت إليه فيها، قال إنه ينوي إنشاء شركته الخاصة. فظننت أنه من الغرابة أن يعمل في مدرسة".

"ماذا حدث؟ ماذا قالوا لك؟".

"قالوا إنهم لا يستطيعون إزعاجه بسبب انشغاله في أحد الصفوف". فتنفست الصعداء، إذ إنه لم يكذب عليّ حيال هذا على الأقل.

قلت: "لا بد من أنه غيّر رأيه بشأن مهنته". سمعت نفسي أقول هذا الكلام من دون حتى أن أصدق نفسي وقلت: "سنسأله عندما يعود إلى البيت".

صمتت كلير للحظة أخرى ثم قالت: "كريسي؟ لقد قلت لهم إنني أريد أن أرسل إليه بعض الوثائق، وطلبت منهم عنوانه الرسمي".

قلت: "وماذا حدث؟".

"إنه ليس رئيس قسم الكيمياء أو العلوم أو أي شيء آخر. فقد قالوا لي إنه موظف في المختبر".

شعرت بأوصالي ترتعش، وربما فغرت فمي دهشة، لا أتذكر فعلاً. إنها مجرد كذبة أخرى من بين أكاذيبه كلها.

قلت: "هل أنت متأكدة من هذا؟". لم تردّ عليّ، لذلك قلت: "ولكن لماذا؟ لماذا قد يكذب عليّ بشأن هذا أيضاً؟". تسارعت الأفكار في ذهني لأجد سبباً لتصرفه هذا. ترى أمن المعقول أن يشعر بالإحراج من عمله؟ أو القلق من رأيي حياله عندما أعرف أنه انتقل من كونه مهندساً معمارياً ناجحاً إلى مجرد موظف في مختبر مدرسة محلية؟ هل يظن أنني إنسانة ضحلة التفكير إلى هذا الحد لأن أقيس نسبة حبي لزوجي بناء على المهنة التي يكسب منها رزقه؟

وفجأة أصبح كل شيء منطقياً.

قلت: "يا الله! إنها غلطتي أنا".

قالت: "كلا! إنها ليست غلطتك أنت".

قلت: "إنها كذلك. لا بد من أنه يعاني ضغوطات جراء العناية بي والتعامل مع مرضي يوماً بعد يوم. إنه يعاني أزمة مالية. لا بد من أنه هو نفسه لا يعرف الصواب من الخطأ". وأجهشت بالبكاء. تمنيت لو أن كلير تقف إلى جانبي وألا نكمل هذه المحادثة حتى تأتي إلي. قلت: "لا بد من أن وضعه لا يطاق، إذ يجب عليه أن يعاني كل هذا الحزن لوحده كل يوم".

ساد الصمت ثم قالت كلير: "حزن؟ أي حزن؟".

ظننت أنها ساذجة ومتبلدة الشعور وأنها ربما نسيت خسارتي المتجددة كل يوم. وقلت: "آدم". وشعرت بالألم لمجرد ذكر اسمه.

"ماذا عن آدم؟".

اتضحت الصورة لي فجأة وانتابتني فكرة غريبة، فقلت في نفسي: يا الله! إنها لا تعرف شيئاً عن موته. لم يخبرها بن، فحطمني إدراكي لتلك الحقيقة. إذ سيتوجب عليّ أن أمر بكل تلك المعاناة مجدداً وأنا أخبرها عن ابني الميت وأخفف عنها عندما تعرف الحقيقة بينما أتوق أنا طوال الوقت إلى مَن يخفف عني.

أخذت نفساً عميقاً وقلت: "إنه ميت".

قالت كلير متفاجئة: "ميت؟ متى؟ وكيف؟".

قلت: "لا أعرف متى حدث هذا بالتحديد. أظن أن بن قال لي إن ذلك حدث السنة الماضية. فقد لقي حتفه في الحرب".

"الحرب؟ أي حرب؟".

"أفغانستان؟".

قالت: "كريسي، ماذا كان يفعل في أفغانستان؟". وبدا صوتها غريباً وموحياً بالسرور تقريباً.

قلت: "لقد التحق بالجيش". ولكن بينما أنا أتحدث إليها، بدأت أشك في ما أقوله، وشعرت بأنني ربما بدأت أخيراً أواجه حقيقة عرفتها طوال الوقت من دون أن أعرف أبداً أنني فهمتها. سمعت كلير تشهق وكأنها سمعت شيئاً مسلياً. فقلت لها: "كلير؟ ما الأمر؟ ما الخطب؟".

قالت: "كريسي! عزيزتي كريسي! إن آدم ليس في الجيش. لم يذهب إلى أفغانستان قط. إنني عرابته. أتتذكرين هذا؟ إنني أتحدث إليه طوال الوقت". استغرقت دقيقة لأستوعب سبب استخدامها الزمن الحاضر. وبينما أنا أفكر وأقلب الاحتمالات، ذكرت لي السبب بنفسها.

قالت: "لقد تحدثت إليه الأسبوع الماضي". وكادت أن تضحك وهي تقول: "إن آدم حي يرزق".

توقفت عن القراءة، وساد الصمت في الغرفة، فلم أعد أسمع شيئاً أو أشعر بشيء. وأحسست فجأة بالخفة والخواء وكأنني سأسقط في هاوية أو أطفو في الهواء. هل أجرؤ على تصديق هذا؟ هل أريد ذلك؟ استندت إلى طاولة الزينة عندما أدركت بشكل ضبابي أنني لم أعد أسمع صوت الماء يصدر من الحمام.

لا أتذكر بالتحديد ما جرى في تلك اللحظة. لقد حدث ذلك فقط عصر اليوم، ولكن الوقت فقد تسلسله بالنسبة إليّ، ولم أعد أقوى على التفكير سوى على هيئة لقطات سريعة ولحظات خاطفة، ولكن كل واحدة منها أصبحت غير مرتبطة بغيرها وكأنها حبات عقد متناثرة. إنها ذاكرة مشتتة وعشوائية.

لا بد من أنني تعثرت وتمسكت بالكرسي لأثبت نفسي. شعرت بأن الأرض تصعد نحوي وأن الجدران تكاد تنطبق عليّ. فصحت بدهشة قائلة: "إنه حي!"، وفي لحظة أخرى قلت ببساطة: "كلا". وأحسست بقلبي يسقط من علو شاهق. وظننت أنه من الممكن لكلير أن تكذب عليّ. فتوجب عليّ أن أتأكد من صدق روايتها.

"هل هو حي حقاً؟".

قالت كلير: "نعم، فقد تحدثت إليه الأسبوع الماضي".

فقلت: "ولكن لدي صحيفة، أي مقالة منها، ذُكر فيها أنه قتل".

قالت: "لا يمكن أن تكون صحيحة. لا يمكن ذلك. إنه على قيد الحياة".

أردت أن أتكلّم، ولكن الأفكار كلها راحت تتزاحم في بالي دفعة واحدة. واحتشدت المشاعر في قلبي. تذكرت أنني شعرت بالسعادة. فقد غمرت البهجة أحاسيسي لمعرفة أن آدم حي، ولكنها امتزجت أيضاً بشعور المرارة ولسعة الخوف والألم. لماذا قد يكذب بن عليّ بشأن هذا الأمر؟ هل تعمد أن يتسبب لي بالألم؟ فكرت في كدماتي واللكمات القوية التي سددها إلي حتى الحق هذه الكدمات بوجهي. إن عنفه ربما ليس جسدياً فحسب، إذ ربما يكون في بعض الأيام قد استمتع بإخباري أن ابني ميت كي يرى الألم يعتصرني. أمن المعقول فعلاً أن يكون في الأيام الأخرى التي تذكرت فيها حملي وإنجابي لطفلي قد قال لي ببساطة إن آدم ترك البلدة وسافر، أو إنه يعيش في الطرف الآخر من البلدة؟ هل اختار مصير ابننا فعلاً بناء على نزوة انتابته؟

إن كان ذلك صحيحاً، فلماذا لم أدوّن الحقائق البديلة الأخرى التي لقنني إياها؟

دخلت أفكار كثيرة عقلي وغمرته صور لآدم كما تخيلته الآن وقصاصات من مشاهد تخيلت أنني فوقها، ولكنني لم أتشبث بها. راحت كل فكرة تنتقل عبر ذهني ثم تتلاشى في الهواء. وكان الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير فيه هو أنه حي. إن ابني حي أستطيع أن أراه وألمسه وأقابله.

قلت: "أين هو؟ أين هو؟ أريد أن أراه". بدأت أتحرك مجدّداً وأقف بالرغم من أنني لم أعد أعرف أين أفضل أن أجلس.

تحدثت كلير بسرعة قائلة: "هدئي من روعك، يا كريسي".

"ولكن...".

قاطعتني قائلة: "كريسي!". اتخذ صوتها نبرة جديدة استطعت أن أميزها بسهولة؛ إنها نبرة الخوف. قالت: "إنني قادمة إليك. ابقي مكانك".

قلت: "كلا، كلير! قولي لي أين هو!".

"إنني قلقة عليك كثيراً يا كريسي، من فضلك...".

"ولكن...".

رفعت صوتها قائلة: "اهدئي يا كريسي!". ثم اخترقت فكرة واحدة تفكيري المرتبك الضبابي: إنني شديدة الحماسة والانفعال، فأخذت نفساً عميقاً وحاولت أن أهدأ.

لا بد من أن كلير شعرت بأنني عدت إلى هدوئي، ولهذا، هدأ صوتها بدورها أيضاً. وبدأت تتحدث.

لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا جالسة هناك أصغي إلى صديقتي المفضلة تقص عليّ الحقيقة. قالت لي إن آدم يعيش في بريمنغهام وقالت: "أظن أنه يعيش مع فتاة اسمها هيلين". وأخبرتني أنه ليس على اتفاق مع والده. وقالت: "إنهما لا يتقابلان أبداً. ومن النادر أن يتحدثا معاً". وعندما سألتها عن السبب، قالت لي إنها ليست متأكدة منه تماماً، وقالت: "لم يكن آدم مراهقاً سهلاً تماماً دائماً، فقد انخرط مع مجموعة من الفتية الفاسدين لبعض الوقت. وأخذ يسرف في الشراب ويتعاطى المخدرات. إنك على دراية بذلك النوع من الأشياء. أظن أن بن وجد صعوبة في

www.mlazna.com-RAYAHEEN

التحكم به بمفرده، ولكنَّ هناك أسباباً أخرى بكل تأكيد، إذ ثمة أشياء لم يخبرني آدم بها. أظن أنهما تشاجرا بسبب قراره بتركك. وأظن أيضاً أن بن رفض أن يخبره بمكان وجودك".

لم أصدق أن زوجي قادر على فعل هذا وقلت: "هل اعتقد بن أنه لا ينبغي لآدم أن يراني؟".

"لقد قال إن اللقاء ليس فكرة حسنة لكل منكما".

فقلت: "متى؟ متى قال هذا؟".

"قبل بضع سنوات".

حاولت أن أحسب المدة الزمنية، ولكنني لم أستطع ذلك. بدا لي تصرفه مجحفاً جداً. وأدركت أن بن كان يحكم سيطرته، من دون حتى أن يود فعل ذلك بالضرورة، على كل جانب من جوانب حياتي.

قلت: "ولكنك كنت تعرفين مكاني وتستطيعين أن تطلعيه عليه حتى لو آثر بن ألا يخبره به. وكان في وسع آدم أن يأتي ليزورني. إذاً، لماذا لم يأتِ لزيارتي؟".

سمعت صوتها تتنهد وتقول: "إن المسألة معقدة".

"أخبريني يا كلير. أخبريني كل شيء!".

"لقد ظل غاضباً لوقت طويل؛ غاضباً جداً، ونشأت جدالات مريعة بينه وبين بن. اعتاد أن يزورك في دار الرعاية بين الحين والآخر، ولكن ذلك أزعجه كثيراً. وبعد ذلك، انتقلت للعيش مع بن".

"وماذا حدث؟".

" لم يخبره بن بأمر انتقالك إلى البيت. ففعلت ذلك أنا بنفسي. تحدثت إليه وقلت: أليس هذا رائعاً؟ ولكن لم تكن لديه فكرة عما حدث. فثارت ثائرته من الغضب...".

"هل ألقى اللوم عليّ؟".

"كلا، بل على بن. أعطيته رقم بن، فحاول أن يتصل به، ولكن بن لم يردّ حتى على اتصالاته. ورفضت إدارة دار الرعاية أن تعطيه عنوانك. إذ لم يكن يسمح لهم بذلك، على حد قولهم، ولكنهم أعطوه عنوان بريده الإلكتروني...".

لم تكن لدي فكرة عما تعنيه بالبريد الإلكتروني فقلت: "ما هو ذلك؟".

"نعم، إنه بريد أشبه بالبريد العادي، ولكن على الكمبيوتر. على أي حـال، أرسلت إليه رسالة".

"أنا فعلت ذلك؟ متى؟".

"آه! لا أتذكّر بالتحديد، فعلت ذلك قبل سنة أو نحو ذلك أو أكثر".

بدأت أشعر بالذعر. إذ إنني لا أرى ما يجعلني أشعر بأن أيًا من هذه الأحداث حقيقي أو مرتبط بحياتي.

"ماذا ذكرت في الرسالة؟".

سكتت قليلاً ثم قالت: "قال آدم إنك قلت له إنك لا تريدين أن تريـه، وإن بن سيغضب لرؤيته، وإنه عليك أن تتحدثي إليه أولاً، ولكنكما أخذتما تتبـادلان الأخبار عن حياة كل منكما".

لم يكن ذلك يبدو ممكناً. كيف يمكن أن يكون على اتصال بـــي وأنــا لا أعرف حتى إنه في حيز الوجود؟

خطرت فكرة مظلمة ببالي: لا بد من أن بن اكتشف أمر الرسائل، فوضع لها حدًا بأن ادعى أن آدم مات.

قلت: "أريد أن أراه. يجب أن أراه. هل تظنين أنه من الممكن ترتيب هذا؟".

"لا أرى سبباً يمنع ذلك، ولكن، علينا أن نتحدث إلى بن أولاً".

بالطبع. ولكن ماذا سيقول يا ترى؟ إنه يظن أنني لا أزال أصدق أكاذيبه.

قلت: "سيصل إلى هنا قريباً. هل ستأتين الآن؟ هل ستساعدينني علـى حـل هذه المشكلة؟".

قالت: "بكل تأكيد. لا أعرف ما الذي يجري، ولكننا ســنتحدث إلى بـن. أعدك بذلك. سأحضر على الفور".

"الآن، حالاً؟".

"نعم. إنني قلقة يا كريسي. هناك شيء مريب".

أزعجتني نبرة صوتها، ولكنني في الوقت نفسه شعرت بالراحة والبهجة لفكرة أنني قريباً سأقابل ابني. وفجأة شعرت برغبة ملحة لرؤيته على الفور. وتذكرت أننا بالكاد نملك أي صور، وأن الصور التي لدينا مخفية في الطابق العلوي.

فجأة، لمعت في ذهني فكرة فسألت كلير: "هل شب حريق في بيتنا يا كلير؟".

بدت مرتبكة وقالت: "حريق؟".

"نعم، ليست لدينا أيّ صور لآدم أو زفافنا أيضاً. لا شيء. فقد قال بن إن حريقاً شب في بيتنا".

فقالت: "حريق؟ أي حريق؟".

"قال بن إن حريقاً شبّ في بيتنا القديم، ففقدنا الكثير من الأشياء".

"متى؟".

"لا أعرف. قبل سنوات".

"أليست لديك أي صور لآدم؟".

شعرت بأنني بدأت أصاب بالانزعاج، ولكنني قلت: "لدينا بعض الصور، ولكن، ليس الكثير منها. إذ ليست هناك صور له وهو مراهق، ولا صور لزفافنا، وشهر عسلنا، وعطلات الميلاد التي أمضيناها معاً. لا يوجد أي شيء من هذا القبيل".

قالت بصوت هادئ وموزون: "كريسي". ولكنني ظننت أنني استشعرت فيه شيئاً غريباً ونبرة جديدة مشبعة بالخوف. ثم قالت: "صفي لي بن".

"ماذا؟".

"صفيه لي. كيف يبدو؟".

قلت: "ماذا عن الحريق؟ أخبريني عنه".

فقالت: "لم يشبّ أي حريق".

قلت: "ولكنني كتبت هنا أنني تذكرته. فقد تذكرت أنني وضعت مقلاة على الموقد وذهبت لأرد على الهاتف...".

قالت: "لا بد من أنك تخيلت ذلك. فقد قال الأطباء إنه من المحتمل أن تراودك الكثير من التخيّلات غير الصحيحة، كما ذكروا أنه من الصعب التمييز بين الذكرى الحقيقية ومحض الخيال".

"ولكن...".

شعرت بقلقها ينتقل إليّ حين قالت: "لم يشبّ أي حريق يا كريسي. فقد كان بن ليخبرني به. الآن، صفي لي بن. كيف يبدو شكله؟ هل هو طويل القامة؟".

"ليس كثيراً".

"شعره أسود؟".

أصبح ذهني خالياً من الأفكار تماماً. فقد رأيته اليوم صباحاً، ولكن صورته تلاشت من ذهني وكأنه لم يعد موجوداً سوى كفكرة مجردة.

"نعم، كلا، لست أدري. إن شعره يميل إلى البياض. ولديه كرش بارزة على ما أعتقد، ولكن... ربما لا". وقفت على قدمي وقلت: "يجب أن أرى صورته لأتأكد".

صعدت إلى الطابق العلوي وكانت الصور لا تزال مكانها حول المرآة. فوجدت صوراً لي أنا وزوجي ونحن نبتسم بسعادة معاً.

قلت: "إن شعره يبدو مائلاً إلى اللون البني". سمعت صوت سيارة تقف أمام البيت.

"هل أنت متأكدة؟".

فقلت: "نعم". توقف هدير المحرك وسمعت صوت إغلاق الباب. وصوت صفارة عالية. فأخفضت صوتي وقلت: "أعتقد أن بن عاد إلى البيت".

قالت كلير: "تباً! أسرعي. هل له ندبة؟".

فقلت: "ندبة؟ أين؟".

"على وجهه يا كريسي، على إحدى وجنتيه. فقد تعرض لحادث في أثناء ممارسة رياضة التزلج على الماء".

تفحصت الصور. وفي نهاية المطاف، اخترت واحدة لي ولزوجي ونحن جالسان إلى طاولة الفطور مرتدين رداءين منزليين. كان بن في هذه الصورة مبتسماً بسعادة ولكن باستثناء لحيته الخشنة غير الحليقة، فقد بدا خداه خاليين من العيوب، فداهمني الرعب.

سمعت الباب الأمامي ينفتح وصوتاً ينادي: "عزيزتي كريستين! لقد عدت إلى البيت".

قلت: "كلا، ليست له ندبة".

سمعتها تطلق صوتاً بين الشهقة والصيحة ثم قالت: "الرجل الذي تعيشين معه... لا أعرف من هو، ولكنه ليس بن".

شعرت بعقلي يدور والرعب يكتسحني. وسمعت صوت الماء في المرحاض، ولكنني لم أستطع فعل شيء سوى مواصلة القراءة.

لا أعرف ما الذي جرى بعد ذلك. وعجزت عن ترتيب الأحداث في ذهني. بدأت كلير تتحدث بصوت أشبه بالصراخ وتقول تباً مراراً وتكراراً، ولكنني عجزت عن التركيز على أي شيء مما قالته. وأخذ عقلي يدور من الرعب. سمعت صوت الباب الأمامي ينغلق وصوت قفل الباب وهو ينفتح. ماذا يمكنني أن أفعل؟ صحت للرجل الذي كنت أحسبه زوجي قائلة: "إنني في الحمام". بدا صوتي متصدعاً ويائساً عندما قلت: "سأنزل في غضون دقيقة".

قالت كلير: "سآتي إليك. يجب أن أخرجك من هناك".

صاح الرجل الذي اكتشفت أنه ليس بن: "هل كل شيء على ما يرام يا عزيزتي؟"، فقلت له إنني بخير. وسمعت صوت وقع خطواته على الدرج. وأدركت أنني لم أقفل باب الحمام، فاخفضت صوتي.

قلت: "كلا، إنه هنا. تعالي غداً في أثناء تواجده في العمل. سأحزم أغراضي وأتصل بك".

فقالت: "تباً! حسناً، ولكن، دوني كل شيء في سجلك. اكتبيه حالما تتمكنين من ذلك. لا تنسي".

قلت: "لن أنسى. ساعديني".

قالت: "ثقي بي. لن أخذلك".

أنهيت المكالمة في اللحظة التي فتح فيها بن باب الحمام.

* * *

انتهى كل شيء هنا. قلّبتُ بقية الصفحات بانفعال، ولكن لا يوجد أي شيء آخر. إنها فارغة عدا من الهوامش والأسطر الزرقاء الباهتة التي تنتظر بقية قصتي، ولكن ما من مزيد. إذ إن كلير لم تأتِ إلي.

أدركت كل ما حدث بلمحة واحدة. واستوعبت سبب انزعاجي من رؤية اللوح الذي وضعه بن في المطبخ وكتب عليه بخط يده، إذ إن الخط أنيق جداً ومكتوب بالأحرف الكبيرة، وهذا ما جعله يبدو مختلفاً جداً عن خط اليد في

الرسالة التي أعطتني إياها كلير. لا بد من أنني أدركت في قرارة نفسي أنها ليست مكتوبة بيد الشخص نفسه.

نظرت إلى بن، أو إلى الرجل الذي يدعي أنه بن، ورأيته خارج الحمام. وجدته واقفاً أمامي مرتدياً ملابسه نفسها وهو ينظر إلي. لا أعرف كم مضى عليه من الوقت وهو يراقبني أقرأ، ولكن عينيه لم تكن تحملان أي تعبير ولا توحيان بأي شيء أكثر من مجرد خواء فارغ وكأنه لا يهتم بما يراه ولا يكترث به.

فغرت فمي وأسقطت الأوراق أرضاً، فتناثرت في أنحاء الغرفة.

قلت: "أنت! من أنت؟". لم يجبني، بل وقف يحدّق إلى الأوراق أمامي. قلت: "أجبني". اكتسب صوتي نبرة ذات سلطة، ولكنها سلطة لا أشعر بها. أخذ عقلي يدور وأنا أحاول أن أكتشف هويته. أهو شخص من دار الرعاية؟ مريض ما؟ لم يبدُ أي شيء منطقياً. شعرت بتحرك الخوف في أعماقي بينما بدأت فكرة أخرى تتشكل في ذهني ثم تختفي.

أخيراً، نظر إلي وقال: "أنا بن". وتحدث ببطء وكأنه يحاول أن يجعلني أستوعب ما هو واضح. ثم قال: "أنا زوجك بن".

تراجعت إلى الوراء على الأرض مبتعدة عنه. لا يمكن لهذا أن يحدث. إنه ليس صواباً. حاولت أن أعمل عقلي لأتذكر ما قرأته وما بتُّ أعرفه.

قلت: "كلا". ثم كررت بصوت أعلى: "كلا".

تقدم مني قائلاً: "إنني زوجك يا كريسي. لا بد من أنك تعرفين أنني كذلك".

هيمن الرعب عليّ وأحكم قبضته وتركني معلقة للحظة ثم صدمني الفزع بقوة شديدة عجزت عن تحملها. وعاودتني كلمات كلير عندما قالت: *إنه ليس بن*. يحدث شيء غريب، إذ إنني كنت أدرك أنني لا أتذكر قراءتي لتلك الكلمات بل أتذكر الوقت الذي قالتها لي فيه، وأتذكر تلك الحادثة نفسها. استطعت أن أتذكر نبرة الخوف في صوتها والطريقة التي صاحت بها لتخبرني الحقيقة التي توصلت إليها وعندما كررت قولها إنه ليس بن للمرة الثانية.

إنني أتذكر.

قلت: "إنك لست بن. لست زوجي. فقد قالت لي كلير هذا! من أنت؟".

"ومع ذلك، فأنت تتذكرين الصور يا كريستين، أليس كذلك؟ إنها الصور التي تحيط بمرآة الحمام. انظري إليها! لقد أحضرتها معي لتريها".

تقدم خطوة نحوي ثم مد يده إلى حقيبته التي لا تزال على السرير وقال: "انظري!". أخرج بعض الصور المجعدة، لكنني لم آخذها منه. قال ثانية: "انظري!". وعندما هززت رأسي أخذ أول صورة وقربها مني وهو ينظر إليها بشكل خاطف.

قال: "هذه صورة تظهرنا معاً". ظهرنا في الصورة جالسين في قارب من نوع ما في أحد الأنهار أو القنوات. كانت تلوح من خلفنا المياه الضحلة الداكنة وخلفها قصب غير واضح. بدونا شابين، وبشرتانا مشدودتين، ولا تجاعيد حول عيوننا التي بدت متألقة من فرط السعادة. قال بن: "ألا ترين؟ انظري! هذه صورتنا معاً. أنت وأنا. التقطت قبل سنوات عدة. لقد أمضينا سنوات طويلة معاً يا كريسي. إنها عمر بأكمله".

ركزت على الصورة، و لم يسعني أن أفعل شيئاً آخر. راودتني صور عنا نحن الاثنين في عصر يوم مشمس نستأجر قارباً في مكان ما، ولكنني لا أتذكر أين حدث ذلك.

قرّب مني صورة أخرى بدونا فيها أكبر سناً بكثير من الصورة السابقة. فلا بد من أنها صورة حديثة. كنا نقف خارج إحدى دور العبادة، وبدا الطقس غائماً. كان بن مرتدياً بذلة رسمية ويصافح رجلاً آخر يلبس بذلة أيضاً، بينما اعتمرت أنا قبعة بدا عليّ أنني كنت أعاني صعوبة في تثبيتها على رأسي لأنني كنت أمسكها بيدي خوفاً من أن تعصف بها الرياح. و لم أكن أنظر إلى الكاميرا.

قال: "لقد التقطت هذه الصورة قبل أسبوع عندما دعانا بعض الأصدقاء لحضور حفل زفاف ابنتهم. ألا تتذكرين؟".

قلت: "كلا، لا أتذكر شيئاً".

قال وهو يدير الصورة لينظر إليها: "كان يوماً رائعاً".

قاطعته قائلة: "أرني صورة لآدم! هيا! أرني وحسب صورة واحدة له". أخرج صورة لآدم مع هيلين. إنها الصورة نفسها التي رأيتها مسبقاً، فتأجّج غضبي وقلت: "أرني وحسب صورة واحدة يظهر فيها آدم معك أنت. صورة واحدة. من المؤكد أن لديك صورة تجمع بينكما إن كنت والده فعلاً".

التزم بن الصمت، وأخذ يبحث بين الصور التي بين يديه قليلاً. ظننت لوهلة أنه سيخرج صورة تظهره مع آدم، ولكنه لم يفعل ذلك. تدلت يداه على جانبيه وقال: "ليست في حوزتي أي صورة. لا بد من أنها في البيت".

قلت: "إنك لست والده، أليس كذلك؟ أي والد لا يحمل صوراً لابنه مهما ساءت العلاقة بينهما؟". نظر إلي بعينين نصف مطبقتين وكأنه غاضب، ولكنني لم أستطع كبح نفسي فقلت: "أي نوع من الآباء يقول لزوجته إن ابنهما ميت في حين أنه لا يزال حياً يرزق؟ هيا اعترف! أنت لست والد آدم، ولكن بن هو والده". وبينما تفوّهتُ بهذا الاسم، راودتني صورة رجل أسود الشعر، يضع نظارة ذات إطار داكن. إنه بن. ذكرت اسمه ثانية وكأنني أريد أن أرسخ الصورة في ذهني؛ صورة بن.

أحدث ذكر اسم بن تأثيراً في الرجل الماثل أمامي، إذ تغيّرت ملامح وجهه. ونظر إلى الأرض وبدا حزيناً جداً. ثم أخذ يتمتم شيئاً، ولكن بصوت منخفض جداً لدرجة أنني لم أسمعه. وعندما طلبت منه أن يكرر كلامه قال: "إنك لست بحاجة إلى آدم".

قلت: "ماذا؟". عندئذ تحدث بلهجة أكثر صرامة وهو ينظر إلى عيني بشكل مباشر: "إنك لست بحاجة إلى آدم. فأنت تحظين بي الآن. نحن معاً. لست بحاجة إلى آدم. ولست بحاجة إلى بن".

عندما تفوه بتلك الكلمات، شعرت بكل قوتي تخذلني وتتلاشى دفعة واحدة. وفي الوقت نفسه، بدا عليه أنه يستعيد قوته من جديد.

ابتسم وقال ببهجة: "لا تستائي. ما المهم في الأمر؟ إنني أحبك، وهذا كل ما يهم بالتأكيد. أنا أحبك وأنت تحبينني".

جلس القرفصاء ومدّ كلتا يديه نحوي وهو يتبسم ويومئ برأسه بسرعة وكأنني حيوان بري يحاول أن يلاطفه ويخرجه من الوجار الذي يختبئ فيه.

قال: "هيا، تعالي إلي".

ابتعدت عنه أكثر وأنا أزحف على مؤخرتي. ارتطمت بشيء صلب وشعرت بالمشعاع الدافئ الدبق يلامس ظهري، فأدركت أنني أصبحت تحت النافذة في آخر الغرفة. تقدم الرجل مني ببطء.

سألته مجدداً: "من أنت؟". وحاولت أن أبقي صوتي هادئاً ومتزناً وأنا أسأله: "ماذا تريد مني؟".

توقف الرجل عن التقدم وجلس القرفصاء أمامي. وإن مد يديه نحوي، لامستا قدمي وركبتي. ولو اقترب مني قيد أنملة، لتمكنت من ركلـه إن اضـطررت إلى ذلك. وبالرغم من ذلك، لم أكن متأكدة من أنني أستطيع الوصول إليه وأنا في هذه الوضعية. كما أنني حافية القدمين.

قال: "ما الذي أريده؟ لا أريد شيئاً. أريد فقط أن نعيش سعيدين معـاً يـا كريسي، كما كنا في الماضي. أتتذكرين؟".

إنها الكلمة نفسها التي تثير استيائي، الذكرى. ظننت لوهلـة أنـه يحـاول السخرية مني.

قلت وأنا أكاد أفقد أعصابـي: "لا أعرف من أنت. كيف يسعني أن أتذكر شيئاً؟ لم أقابلك في حياتي قط".

تلاشت الابتسامة عن شفتيه، ورأيت ملامح وجهه تنقبض من شـدة الألم. مرّت لحظة عابرة بدا فيها أن توازن القوة بدأ يتحول منه إلي للحظة واحدة ويجعلها متعادلة بيننا.

استرخت ملامحه وقال: "أعرف أنك تحبينني. فقد قرأت هذا في سجلّك. لقد ذكرت فيه أنك تحبينني. إنني أعرف أنك تريدين لنا أن نبقى معاً. لِمَ لا تستطيعين أن تتذكري هذا؟".

فقلت: "سجلّي؟ منذ متى وأنت تقرأ سجلي؟".

لم يبدُ عليه أنه سمعني، وأخذ يرفع صوته وكأنه يعبر عن انتصاره قائلاً: "قولي إنك لا تحبينني". ولكنني التزمت الصمت. فقال: "أترين؟ لا تستطيعين قولها، أليس كذلك؟ لأنك تحبينني فعلاً. إنك لا تتذكرين حبك لي، ولكنك تحبـيـنـني. لطالمـا أحببتني يا كريسي، دائماً".

تراجع إلى الخلف، فأصبحنا جالسين على الأرض قبالة بعضنا وقال: "أتذكر الوقت الذي التقينا فيه". رحت أفكر في ما قاله لي عن القهوة المسكوبة في مكتبـة الجامعة وأتساءل عما ينوي قوله. هل ينوي أن يكرر القصة نفسها؟ هل قصها عليّ مرات عدة لدرجة أنه بات الآن يحسبها واقعية؟ تابع كلامه وهو يتأملني: "عـنـدما

www.mlazna.com-RAYAHEEN

رأيتك للمرة الأولى، كنت منهمكة بكتابة شيء ما. اعتدتِ أن تذهبي إلى المقهى نفسه كل يوم وتجلسي بجانب النافذة نفسها على المقعد نفسه. في بعض الأحيان، كنت تحضرين معك طفلاً، ولكن ليس دائماً. كنت تجلسين وهناك دفتر مفتوح أمامك إما تكتبين فيه أو تنظرين وحسب من النافذة. لطالما وجدتك في غاية الجمال. اعتدت أن أمر بجانبك كل يوم وأنا في طريقي لركوب الحافلة. وأصبحت أتوق إلى رحلة عودتي إلى البيت لكي ألقي نظرة عليك وأحاول تخمين نوعية الملابس التي ترتدينها، أو إذا كان شعرك مربوطاً أو مفروداً، وإذا كنت تتناولين وجبة خفيفة أو قطعة حلوى أو شطيرة. في بعض الأحيان، كنت أراك تضعين قطعة حلوى أمامك، وفي أحيان أخرى طبقاً من الفتات أو حتى لا شيء على الإطلاق، بل مجرد فنجان من القهوة". أخذ يضحك وهو يهز رأسه بحزن، وتذكرت ما قالته لي كلير عن المقهى، فأدركت أنه يقول الحقيقة فعلاً. ثم أكمل قصته قائلاً: "اعتدت أن أمر بك في الوقت نفسه يوميًّا. ومهما حاولت جاهداً، فلم أستطع أن أكتشف الوقت الذي تقررين فيه تناول وجبتك الخفيفة. وفي البداية، ظننت أن هذا يعتمد على أيام الأسبوع، ولكن، لم يكن يبدو على ذلك أنه يتبع أي نمط ثابت، لذا، ظننت أن هذا له علاقة بتاريخ اليوم، ولكن، هذا لم ينجح أيضاً. بدأت أتساءل عن الوقت الذي كنت تطلبين فيه عادة وجبتك. وظننت أن هذا ربما مرتبط بالوقت الذي تصلين فيه إلى المقهى، ولهذا بدأت أغادر العمل في وقت أبكر وأحث الخطى كي أتمكن من رؤيتك فور وصولك. وذات يوم لم أجدك هناك. فانتظرت حتى رأيتك قادمة من آخر الشارع تدفعين عربة خفيفة. وعندما وصلت إلى باب المقهى، بدا عليك أنك تواجهين صعوبة في فتح الباب. وشعرت بأنك عاجزة وعالقة، ولهذا قمت من دون تفكير وأتيت إلى الشارع وفتحت لك الباب. فابتسمت وقلت: *شكراً جزيلاً لك*. بدوت رائعة الجمال يا كريسي. فتمنيت من كل قلبي أن تكوني لي. لم أكن أريد أن أجعلك تظنين أنني عبرت الشارع خصيصاً لأساعدك. فدخلت إلى المقهى ووقفت خلفك في الصف، ورحت تتحدثين إلي بينما نحن ننتظر وقلت لي: *إن المكان مزدحم اليوم، أليس كذلك؟* فقلت: *نعم*. بالرغم من أنه لم يكن مزدحماً كثيراً بالنسبة إلى ذلك الوقت من اليوم، ولكنني أردت أن أجد سبيلاً لتجاذب أطراف الحديث معك. طلبت

فنجاناً من القهوة وقطعة حلوى كما طلبت أنت. وتساءلت للحظة إن كان ينبغي لي أن أطلب منك أن تسمحي لي بالجلوس معك، ولكن بحلول الوقت الذي أحضرت فيه قهوتي، رأيتك تتحدثين إلى شخص آخر. إنه من الأشخاص الذين يعملون في المقهى على ما أعتقد. فجلست وحدي في الزاوية.

بعد ذلك، أصبحت معتاداً على الذهاب إلى المقهى كل يوم تقريباً، إذ إنه من السهولة بمكان أن يعتاد المرء القيام بشيء ما إن قام به للمرة الأولى. اعتدت في بعض الأحيان أن أنتظرك لتأتي أو أحرص على أن تصلي إلى هناك قبل أن أدخل إلى المقهى، ولكنني في بعض الأحيان كنت أدخل سواء أكنت في الداخل أم لا، فلاحظت وجودي. إنني متأكد من أنك لاحظتني. فبدأت تلقين التحية عليّ أو تعلقين على حالة الطقس. وذات مرة، تأخرت في الوصول. وعندما وصلت، قلت لي وأنا أمر بجانبك حاملاً قهوتي وقطعة الحلوى: *إنك متأخر اليوم!* وعندما لاحظت عدم بقاء طاولات شاغرة، قلت لي: *لِمَ لا تجلس هنا؟* وأشرت إلى الكرسي المقابل لكرسيك على الطاولة نفسها. لم يكن الطفل معك ذلك اليوم، فقلت: *هل أنت متأكدة من أنك لا تمانعين؟ لا أريد أن أزعجك؟* وعندئذ، انتابني شعور سيئ لأنني قلت هذا، وخشيت أن تقولي إنه سيزعجك فعلاً بعد التفكير مرة أخرى، ولكنك قلت: *كلا! لن تزعجني على الإطلاق! سأتوخى الصراحة معك وأقول إن العمل لا يجري على خير ما يرام، لهذا يسرني أن أحصل على شيء يشتت تفكيري!* وهكذا، أدركت أنك تودين أن أتحدث إليك بدلاً من أن أجلس وأشرب قهوتي وآكل قطعة الحلوى بصمت. هل تتذكرين؟".

أخذت أهز رأسي، ولكنني قررت أن أدعه يكمل قصته، إذ إنني أود أن أكتشف كل ما يريد قوله وكل الأسرار التي يخفيها.

قلت: "أخبرني المزيد".

تابع الرجل قصته: "وهكذا، جلست إلى جانبك. وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث. قلت لي إنك كاتبة وإنك نشرت كتاباً وتجدين صعوبة في تأليف الآخر. فسألتك عن نوعية الأدب الذي تكتبينه، فقلت لي إنه أدب روائي. ثم أضفت قائلة: *هكذا يفترض*. وفجأة بدوت حزينة جداً، ولهذا، عرضت عليك أن أقدم لك فنجان قهوة آخر. فقلت إن هذا سيكون لطيفاً، ولكنك لا تملكين المزيد من المال

لتشتري لي واحداً وقلتِ: *إنني لا أحضر محفظتي معي عندما آتي إلى هنا بل أحمل ما يكفي من المال فقط لأشتري كوب قهوة ووجبة خفيفة. وهكذا، لا أصبح عرضة للإفراط في الطعام!* فوجدت في كلامك شيئاً من الغرابة. إذ لم يبدُ عليك أنك بحاجة إلى القلق حيال ما تأكلينه. ولطالما بدوت نحيلة جداً، ولكنني سررت كثيراً على أي حال، فقد كان ذلك يعني أنك مسرورة بالحديث إليّ، وأنك ستصبحين مدينة لي بكوب من القهوة، وأننا سنلتقي مجدّداً. فقلت إنني لست مهتماً باستعادة مالي أو الحصول على كوب قهوة مقابله. وأحضرت لك القهوة. وبعد ذلك، بدأنا نلتقي بشكل منتظم".

حينها، بدأت أدرك حقيقة ما جرى بالرغم من انعدام ذاكرتي، إذ إنني أعرف حق المعرفة كيف تسير تلك الأمور، فهي تبدأ باللقاء العابر وتبادل المشروبات والرغبة في الحديث والبوح بالأسرار لغريب لا يمكنه أن يحكم عليّ ولا أن يتحيز ضدي لأنه لا يستطيع ذلك حقاً. وهكذا، تطور الوضع بشكل تدريجي من مجرد قبول وارتياح إلى الثقة التامة التي أدت بدورها... إلى ماذا؟

إن هذا واضح بالطبع. فقد رأيت صوراً التقطت لنا قبل سنوات عدة، ولكنني رأيت صوراً حديثة أيضاً. بدونا في كلتا الحالتين سعيدين معاً. لا بد من أنني في وقت ما بدأت أتأمّل باب المقهى بقلق وأنا أحاول أن أكتب، وأفكر بعناية أكبر حيال الملابس التي سأرتديها عندما أتوجه إلى المقهى، أو ما إذا كنت أريد أن أضيف رشة عطر على ملابسي. وبعد ذلك، لا بد من أن أحدنا اقترح ذات يوم على الآخر أن نذهب في نزهة أو إلى مشرب أو ربما لمشاهدة فيلم. وهكذا، تطورت علاقتنا من مجرد صداقة عادية إلى شيء آخر ينطوي على خطر كبير.

أغمضت عيني وبدأت أتخيّل. وبينما أنا أفعل ذلك، بدأت بالتذكر فعلاً. رأيت نفسي بصحبته ونحن في غرفة لوحدنا بينما هو يلاطفني وأنا أقول له: "مايك! كفّ عن هذا يا مايك! يجب أن أغادر الآن. سيعود بن بعد قليل إلى البيت. عليّ أن أقل آدم من مدرسته. كفّ عن هذا!". ولكنه لم يكن يصغي إلي. وبدلاً من ذلك، أخذ يقترب مني بوجهه ذي الشارب، فننسى كلانا كل شيء عن زوجي وعن طفلي وعن العالم بأسره.

فتحت عيني، ووجدت نفسي في غرفة الفندق والرجل نفسه لا يزال جالساً أمامي على الأرض.

قلت: "مايك. اسمك مايك".

قال بسرور: "إنك تتذكرين!". تبدّلت ملامحه كاشفة عن تعبير بين الابتسامة والتكشيرة، ثم قال: "إنك تتذكرينني يا كريسي!".

بدأت نار الكراهية تغلي في أعماقي. ترى هل يظن أن هذه لعبة سخيفة؟

قلت: "إنني أتذكر اسمك ليس إلا. ولا أتذكر أي شيء آخر عنك".

"ألا تتذكرين كم كنا عاشقين؟".

"كلا، لا أظن أنني أحببتك على الإطلاق أو أنني كنت لأتذكر المزيد".

تعمّدت التفوه بهذا الكلام لأجرح شعوره، ولكنّ ردّ فعله فاجأني عندما قال: "إنك لا تتذكرين بن أيضاً. هل تتذكرينه؟ لا يمكن أن تكوني قد أحببته، والأمر نفسه ينطبق على آدم".

قلت: "إنك مختل عقلياً. كيف تجرؤ على هذا؟ بالطبع أحببته! إنه ابني!".

"إنه ابنك حقاً، ولكنك لن تميزي شكله إن مر أمامك الآن، أليس كذلك؟ أتعتبرين هذا حباً؟ وأين هو الآن؟ وأين بن؟ لقد تخليا عنك يا كريستين، كلاهما. إنني الشخص الوحيد الذي لم يكفّ عن حبك لحظة واحدة حتى بعد أن تركتني".

الآن أخذت تظهر الحقيقة واضحة أمام عيني. من أين له أن يعرف بشأن هذه الغرفة والكثير عن ماضي حياتي؟

قلت: "يا الله! لقد كنت أنت من فعلها! أنت الفاعل!".

"ماذا فعلت أنا يا عزيزتي كريسي؟ ماذا فعلت؟".

"لا تدعُني عزيزتي أيها المختل المنحرف! لقد كنت أنت من فعل هذا بي! أنت من هاجمني!".

عندئذ، اقترب مني وأحاطني بذراعيه وكأنه أراد أن يعانقني ويربت على شعري وهو يتمتم: "لا تقولي هذا يا عزيزتي كريسي. لا تقولي هذا. لا تفكري في الأمر. فهذا لن يجلب لك سوى الانـزعاج والاستياء".

حاولت أن أدفعه عني، ولكنه قوي. وأخذ يضغط عليّ بقوة.

قلت: "دعني وشأني. من فضلك، دعني وشأني". لكن كلماتي ضاعت بين طيات قميصه.

قال وهو يهزّني وكأنه يهدهد طفلاً: "يا حبيبتي، يا عزيزتي، ما كان ينبغي لك قط أن تتركيني. ألا تدركين ذلك؟ ما كان أي مما حدث لك ليحدث لو أنك لم ترحلي وتهجريني".

وعادت الذكرى إلي مجدّداً.

رأيت نفسي وإياه جالسين في سيارة ليلاً وأنا أبكي بينما هو يحدق من النافذة بصمت مطبق. قلت له: "قل شيئاً. قل لي أي شيء يا مايك؟".

قال: "إنك لا تعنين ما تقولينه. هذا غير ممكن".

"إنني آسفة. فأنا أحب بن. نعم، نحن نواجه بعض المشاكل، ولكنني أحبه. إنه الرجل الذي من المقدر لي أن أعيش معه. أنا آسفة".

أدركت أنني كنت أحاول تبسيط الأمور له لكي يتفهم الوضع، ولكنني توصلت إلى الإدراك على مدى الأشهر القليلة الماضية التي أمضيتها مع مايك أن هذا هو الحل الأنسب. إن الأشياء المعقدة تربكه وتشوش تفكيره. وإضافة إلى ذلك، فأنا لا أريد أن أتوه في التفاصيل التي لا معنى لها.

"إن السبب هو حضوري إلى بيتك، أليس كذلك؟ إنني آسف يا كريسي. لن أفعل هذا مجدداً. أعدك بذلك. فقد أردت وحسب أن أراك وأن أشرح الوضع لزوجك...".

قاطعته قائلة: "بن. يمكنك أن تذكر اسمه. إن اسمه بن".

قال: "بن". وكأنه كان يحاول أن يجرب الكلمة للمرة الأولى ويجدها غير مستحبة. ثم قال: "أردت أن أشرح له الوضع وأخبره الحقيقة".

"عن أيّ حقيقة تتكلم؟".

"حقيقة أنك لا تحبينه، بل تحبينني أنا، وتريدين أن تكوني معي أنا. هذا كل ما أردت أن أقوله".

تنهدت بحزن وقلت: "ألا تفهم ما يجري؟ حتى لو كان هذا صحيحاً، وهو ليس كذلك، فليس من حقك أنت أن تقول أي شيء له. أنا صاحبة العلاقة. أما أنت، فليس لك الحق في المجيء إلى بيتي كما يحلو لك".

بينما كنت أتكلم، رحت أفكر كيف حالفني الحظ في التملص منه في ذلـك اليوم. فقد كان بن في الحمام وآدم يلعب في غرفة الطعام. وهكذا، فقد تمكنت من إقناع مايك أنه ينبغي له العودة إلى البيت قبل أن ينتبه أي منـهما إلى حضـوره. وكانت تلك الليلة هي الوقت الذي قررت فيه أخيراً أن أضع حداً لهذه العلاقة.

قلت له: "يجب أن أرحل الآن". وفتحت باب السيارة وخرجـت منـها إلى الرصيف قائلة: "إنني آسفة".

وعندما مدّ رأسه لينظر إلي من النافذة، لاحظت أنه لا يزال جذاباً. وأدركت أنه لولا الضرر الذي ألحقته به طفولته البائسة، لربما بات زواجي واقعاً في مشـكلة حقيقية. قال: "هل سأراك مجدداً؟".

أجبته قائلة: "كلا، إنني آسفة".

لقد ظننت وقتئذٍ أنني وضعت حداً لهذا الأمر. ومع ذلك، فها نحن هنـا الآن بعد كل تلك السنوات. وها هو يضمني مجدّداً. وأدركت أخيراً أنني مهما كنـت خائفة منه، فهذا غير كافٍ أبداً، لذا، بدأت بالصراخ.

قال: "اهدئي يا عزيزتي". ووضع يده على فمي، ولكنني أخـذت أصـرخ بصوت أعلى. قال: "اهدئي! سيسمعك أحدهم". ارتدّ رأسي إلى الـوراء ضـارباً المشعاع من خلفي. قال: "كريستين!". أظن أنه بدأ يضربني أو يهـزني، وأصـابني الفزع. قال: "توقفي! كفي عن هذا!"، فاصطدم رأسي بالمعدن الدافئ مرة ثانية ما دفعني إلى الصمت، ولكنني بدأت بالنحيب.

قلت له متوسلة: "دعني وشأني من فضلك". أرخى قبضته قليلاً بالرغم من أن ذلك ليس كافياً لأحرر نفسي منه. قلت: "لماذا عدت إلي؟ ألم يكفك مـا فعلتـه بـي؟".

تنهد بحرارة قائلاً: "لقد توجب عليّ ذلك. إذ عندما اكتشفت أن ذلك الوغد هجرك، لم أقوَ على تركك هناك وحدك. لقد أدركت أنك تريـدين أن تكـوني معي، وأعلم أن هذا أفضل شيء لنا. من كان سيعتني بك لو لم أفعل أنا ذلك؟".

قلت: "كيف سمحوا لي بالذهاب معك؟ إن هذا ليس منطقيـاً. مـا كـانوا ليسمحوا لي بالخروج مع غريب!".

التزم الصمت، ورحت أتساءل عن كمّ الأكاذيب التي قدمها لهم ليسمحوا له بأخذي، ثم تذكّرت ما قرأته عمّا ذكره لي الدكتور ناش عن المرأة من دار الرعاية. فقد قال: *لقد سرت كثيراً لأنها اكتشفت أنك عدت للعيش مع بن.*

"يا الله! منذ متى وأنت تنتحل شخصية بن؟".

بدا متفاجئاً وقال: "أنتحل شخصيته؟".

قلت: "نعم، إنك تتظاهر بأنك زوجي بن".

بدأ مرتبكاً، وتساءلت إن كان قد نسي أنه ليس بن. وتغيّرت ملامح وجهه وبدا مستاءً.

"هل تظنين أنني أردت القيام بهذا؟ لقد اضطررت إلى القيام بهذا، فقد كان هذا السبيل الوحيد الذي أتاح لي إخراجك من هناك".

ارتخت ذراعاه قليلاً. يحدث شيء غريب، إذ توقّف عقلي عن الدوران. وبالرغم من أنني ما زلت مرعوبة، فإن شعوراً غريباً من الهدوء التام تخللني وكأنني في قرارة نفسي أدركت أن الفزع لن ينقذني من هذه الورطة. وتبادرت إلى ذهني فكرة من العدم. نعم، سأنتصر عليه وأهرب منه. يجب عليّ ذلك.

قلت: "مابك؟ إنني أتفهمك حقاً. لا بد من أن ذلك كان صعباً".

نظر إلي وقال: "أحقاً؟".

"نعم، بالطبع. إنني أتفهم موقفك. وأنا ممتنة جداً لأنك أتيت من أجلي ومنحتني بيتاً آوي إليه واعتنيت بي".

"أحقاً؟".

"نعم، بالطبع. أين كنت سأذهب لو لم تأتِ لتأخذني؟ لم أكن لأتحمل ذلك الوضع المؤسف". شعرت به يهدأ ويصبح أرق. وخفّ ضغطه على ذراعيّ وكتفي وأصبح مصحوباً بإحساس رقيق، ولكن، من المؤكّد، إنني كنت أجد التربيت أكثر بغضاً. ومع ذلك، فإنني أدركت أن هذا ما سيودي على الأرجح إلى هروبي، إذ إن الهرب هو كل ما كان يسعني التفكير فيه. يجب أن أهرب. مرت بي لحظة من الصفاء الذهني التام وكأنني أدركت كل شيء فجأة. كم كنت غبية عندما جلست هناك طوال الوقت على الأرض في أثناء وجوده في الحمام لأقرأ ما سرقه من سجلي! لقد كان من السهولة بمكان أن آخذ الأوراق معي ببساطة وأغادر،

ولكنني تذكرت أنني لم أكوّن فكرة فعلية عن مدى الخطر الحقيقي المحدق بـــي حتّى وصلت إلى آخر صفحة من السجل. تردد الصوت نفسه في أعماقي: *سأهرب من هنا. لدي ابني لا أتذكر أنني التقيته من قبل، ولكنني سأهرب.* رفعت رأســـي لأواجهه وبدأت بالتربيت على يده التي وضعها على كتفي.

"ما رأيك أن تتركني الآن قليلاً، وعندئذٍ يمكننا أن نفكر في ما ينبغـــي لنـــا فعله؟".

بدا مستغرقاً في التفكير للحظة، ثم قال: "وماذا عن كلير؟ إنها تعـــرف أنـــني لست بن. أنت من أخبرتها بذلك".

قلت له بيأس: "إنها لن تتذكر ذلك". عندما قلت هذا، ضحك بصوت مخنوق وأجوف.

"لا تعامليني على أنني غبـــي. لطالما اعتبرتني غبياً، ولكنني لســـت كـــذلك، أؤكد لك هذا. فأنا أدرك ما يجري تماماً. لقد أخبرتها الحقيقة ودمرت كل شيء!".

قلت بسرعة: "كلا، لم أفعل ذلك. يمكنني أن أتصل بها وأقـــول لهـــا إنـــني أخطأت ونسيت هويتك. يمكنني أن أقول لها إنني ظننتك لست بن، ولكنني كنـــت مخطئة".

كدت أعتقد أنه يظن ذلك ممكناً، ولكنه عندئذٍ قال: "إنها لن تصدقك أبداً".

قلت: "ستصدقني". بالرغم من أنني كنت أدرك أنها لن تفعـــل ذلـــك، بـــل ستدرك أنني أتوسل إليها طلباً للمساعدة. ثم قلت: "أعدك بذلك".

تنهّد ثمّ قال: "لماذا ذهبت واتصلت بها؟". تجهّم وجهه من فـــرط الغضـــب وبدأت يداه بالشد على كتفي بقوة. ثم قال: "لماذا؟ لماذا يا كريسي؟ لقد كنا على ما يرام إلى أن اتصلت بها". وأخذ يهزّني مرة تلو أخرى وراح رأسي يتـــأرجح إلى الأمام والخلف ويصطدم كل مرة بالجدار من خلفي. واصل الصياح قائلاً: "لمـــاذا؟ لماذا؟".

قلت: "إنك تؤلمني يا بن".

وفي تلك اللحظة، سدّد صفعة إلى وجهي، وسمعت صوت يده على خـــدي للحظة قبل أن أشعر بلسعة الألم. ومن قوة الصفعة ارتطم جانب رأسي بالجـــدار، وانفتح فكي السفلي ثم انغلق بقوة وألم.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

قال مايك بغضب: "إياك أن تناديني بذلك الاسم مجدّداً".

قلت بهدوء: "مايك". وكأنني أردت أن أكفر عن خطئي، ولكن بعد فوات الأوان.

تجاهلني وقال: "لقد سئمت من لعب دور بن. يمكنك أن تناديني مايك من الآن فصاعداً. اتفقنا؟ اسمي مايك. لهذا السبب أتينا إلى هنا. لقد أتينا لكي نرمي كل الماضي خلفنا. لقد نلت كفايتي من الكذب وسئمت من التظاهر. عندما نعود غداً إلى البيت، يمكنك أن تناديني مايك". هزني مجدّداً ووجهه على بعد بوصات من وجهي. ثم قال: "اتفقنا؟". شممت رائحة غريبة تنبعث من فمه وكأنه تناول شراباً. قال: "سنكون على ما يرام، أليس كذلك يا كريسي؟ سنواصل حياتنا معاً".

قلت: "نواصل حياتنا؟"، لم يعد بإمكاني الاحتمال، وشعرت برأسي يؤلمني وبشيء يسيل من أنفي. إنها دماء على ما أعتقد بالرغم من أنني لست متأكدة من ذلك. وتلاشى كل الهدوء الذي حاولت أن أتحلى به قبل قليل فأخذت أرفع صوتي وأصرخ قائلة: "أتريدنا أن نعود إلى البيت؟ ونواصل حياتنا؟ هل فقدت عقلك كلياً؟". عندما حرك يده ليضعها على فمي، كان قد أفلت ذراعي، وهكذا، تمكّنت من ضربه على وجهه. وبالرغم من أن الضربة ليست قوية إلا أنها فاجأته. فتراجع إلى الخلف تاركاً يدي الأخرى حرة.

وقفت مترنّحة على قدمي. أخذ يصرخ في وجهي قائلاً: "أيتها الحقيرة!". ولكنني خطوت من فوقه وتوجّهت نحو الباب.

تمكّنت من التقدم ثلاث خطوات قبل أن يقبض على كاحلي وأنهار على الأرض. هناك كرسي صغير موضوع تحت طاولة الزينة، فارتطم رأسي بطرفه عندما سقطت على الأرض كبرج منهار. لحسن حظي أن الكرسي مبطن، ولكنه جعل جسدي يلتوي بارتباك عندما وقعت على الأرض. شعرت بألم فظيع ينطلق من أسفل ظهري حتى عنقي. وخشيت أن أكون قد كسرت أحدهما أو كليهما. أخذت أزحف باتجاه الباب ولكنه كان لا يزال ممسكاً بكاحلي، فأخذ يجرّني نحوه وهو يئن. ثمّ شعرت بوزنه الثقيل فوق جسمي وبشفتيه على بعد بوصات من أذني.

انتحبت قائلة: "مايك... مايك...".

قال بصوت عالٍ: "أيتها الحقيرة الغبية". شعرت بإحدى يديه حول عنقي، أما اليد الأخرى فقبضت على خصلات من شعري. سحب رأسي إلى الوراء وحـرك عنقي بعنف قائلاً: "لماذا عليك أن تفعلي هذا؟".

قلت: "إنني آسفة". شعرت بأنني عاجزة عن الحراك، وبأن إحدى يدي عالقة تحت جسدي والأخرى بين ظهري وساقه.

قال: "أين تظنين أنك ستذهبين؟". كان يزمجر كحيوان مفترس وتتدفق نيران الكراهية من فمه.

كررت قائلةً: "إنني آسفة". إذ إن هذا هو كل ما استطعت التفكير في قولـه. تذكرت الأيام الخوالي التي كانت فيها تلك الكلمات تنجح معي وتكفي لإخراجي من أي مأزق غريب أقحم نفسي فيه.

قال: "توقفي عن الاعتذار". سحب رأسي إلى الوراء ثم ضربه بالأرض حيث شعرت بألم فظيع في جبهتي وأنفي وذقني. سمعت صوت ضـجيج وتحطـم مـثير للاشمئزاز وشممت رائحة السجائر. صحت بأعلى صوتي، ولكن الدم كان قد تجمّع في فمي. صاح مايك قائلاً: "أين تظنين نفسك ذاهبة؟ إنك عـاجزة عـن قيـادة السيارة. ولا تعرفين أحداً. ولا تعرفين حتى من تكونين معظم الوقت. وليس لديك مكان تذهبين إليه على الإطلاق. يا لك من مخلوقة مثيرة للشفقة!".

أجهشت بالبكاء لأنني وجدته محقاً في قوله. فأنا مثيرة للشفقة فعلاً، ولـيس لدي مكان أذهب إليه، أو أي وسيلة تساعدني للوصول إلى هناك حتى لـو كـان هناك مكان فعلاً. لم تأتِ كلير كما اتفقنا، ولم تكن تعرف حتى اللحظة أين أنـا. إنني وحيدة تماماً ومعتمدة كلياً على الرجل الذي اقترف في حقي فعلته الشـنيعة. وغداً صباحاً، إن نجوت من الموت، سأنسى كل ما حدث اليوم.

إن نجوت. تردّدت أصداء تلك الكلمات في رأسي. إن هذه هي المـرة الأولى التي أدرك فيها أنني لا أعرف ما الذي ينوي ذلك الرجل فعله بـي. وأنني قـد لا أخرج من هذه الغرفة على قيد الحياة. أصابني الرعب، ولكنني سمعت ذلك الصوت في داخلي يقول لي مجدّداً: *لن تموتي هنا في هذا المكان، ليس مع ذلك الرجل، وليس الآن. إن أي شيء محتمل باستثناء هذا المصير البشع.*

حرّكت ظهري قليلاً بالرغم من شدة ألمي وتمكّنت من تحرير يدي، فاندفعت إلى الأمام وقبضت على قائمة الكرسي. لا أعرف لماذا فعلت ذلك أو ماذا كنت أنوي أن أفعله. أردت فقط أن أفعل شيئاً ما وليس هناك شيء آخر أفعله. أمسك بقائمة الكرسي وشعرت به ثقيلاً جداً، إذ كانت وضعية جسمي غير مناسبة لأشعر بالراحة وأنا أرفعه، ولكنني، مع إصراري، تمكّنت من رفعه وتوجيهه إلى حيث حسبت رأس مهاجمي موجوداً. وعندما سمعت صوت شهقة تأكدت من أنني أصبت الهدف، وأرخى مايك قبضته عن ذراعي.

نظرت خلفي فرأيته يتراجع إلى الوراء ويده على جبينه. وقد بدأ الدم يتقاطر من بين أصابعه. فنظر إلي بدهشة غير مستوعب ما يجري.

رحت أفكر في طريقة أخرى أضربه بها ثانية، إما بالكرسي، أو بيديّ المجردتين، أو بأي شيء. ينبغي لي أن أحرص على أن أبقيه عاجزاً قدر الإمكان لأتمكن من الإفلات والنزول إلى الطابق السفلي، أو الوصول إلى أبعد ما يمكن من الغرفة لأفتح الباب وأصرخ طلباً للنجدة.

ولكنني لم أفعل ذلك: حاولت النهوض على قدمي. وبعد وقت طويل، وقفت ونظرت إليه وهو ممدد على الأرض بجانبي. رحت أفكر في أنه سيفوز مهما فعلت، وسينتصر عليّ دائماً. التفتّ وبدأت بالتحرك نحو الباب.

أطلق نفسه باتجاهي وهو يُصدِر صيحة مخيفة، فارتطم كل جسده بجسدي فاصطدمنا بطاولة الزينة ودُفِعنا نحو الباب. قال: "كريسي! لا تتركيني!". مددت يدي محاولة فتح الباب. لو استطعت فقط أن أفتحه، فمن المؤكد أن أحدهم كان ليسمعني ويهب لنجدتي.

تشبث بخصري، ودُفِعنا إلى الأمام معاً وكأننا وحش مخيف ذو رأسين وأنا أجره خلفي. قال وهو ينتحب: "إنني أحبك يا كريسي!". فحفّزني تصرفه هذا، بالإضافة إلى سخافة كلماته، على الاستمرار بالمقاومة. وكدت أصل إلى الباب.

وفجأة تذكّرتُ ما حدث تلك الليلة قبل كل تلك السنوات. رأيتُ نفسي في هذه الغرفة نفسها واقفة في البقعة نفسها وأنا أمد يدي باتجاه الباب ذاته. شعرت بالسعادة، ولكنها سعادة سخيفة زائفة. انعكس وهج الشموع البرتقالي الناعم على الجدران. عندما وصلت إلى الغرفة، رأيت تلك الشموع تملأها، وكان جوّ الغرفة

مشبعاً بعطر الزهور الحلو الجميل الذي كان ينبعث من الباقة الموضوعة على السرير. وقد كُتِب على البطاقة المثبتة عليها: "سأصعد إلى الطابق العلوي حوالى الساعة السابعة يا حبيبتي". وبالرغم من أنني تساءلت لوهلة عن الذي كان بن يفعله في الطابق السفلي، فقد شعرت بالسعادة لأن أحظى بتلك الدقائق القليلة قبل وصوله. فقد منحتني تلك الدقائق فرصة لاستجماع أفكاري والتأمل في الوقت الذي كدت فيه أن أخسره والراحة التي شعرت بها بعد إنهاء علاقتي بمايك وحسن حظي لأنني وبن تمكنا أخيراً من حل خلافاتنا واتخاذ مسار آخر في علاقتنا. كيف فكرت ولو للحظة واحدة في أنني أردت البقاء مع مايك؟ لم يكن مايك قط ليفعل ما فعله بن، أو يرتب لليلة مفاجئة بعيداً عن البيت في فندق على شاطئ البحر ويرسل إليّ باقة من الزهور ورسالة رومانسية ليعبر لي فيها عن مدى حبه لي بالرغم من مشكلاتنا الراهنة، وأن حبه لي لن يتغير أبداً، ويقول إنه رتب لإحضار جليسة أطفال من أجل تلك الليلة. وهكذا، فكل ما كان عليّ فعله هو الحضور إلى الفندق لأسجل اسمي وأنضم إليه بعد أن ينهي العمل الذي يجب عليه إنجازه لتلك الليلة. كان مايك شخصاً أنانيًّا لدرجة تمنعه من فعل ذلك، وهذا ما أدركته في وقت لاحق؛ إذ إن العلاقات بالنسبة إليه قائمة دائماً على اختبار مشاعر الآخر وأحاسيسه، وعواطفه محسوبة بدقة. وهناك توازن لديه بالنسبة إلى كل شيء، فهو لا يمنح أبداً أكثر مما يأخذ.

أمسكت مقبض الباب بيدي وضغطت إلى الأسفل وأنا على وشك أن أقول: حبيبي*!*، ولكن تلك الكلمة ظلت عالقة في حنجرتي، إذ إن الرجل الذي مثل أمامي لم يكن بن، بل مايك. دفعني ودخل إلى الغرفة. وبينما رحتُ أسأله ما الذي يفعله هنا وأي حق يخوله للدخول إلى هذه الغرفة، وما يظن أنه سيحققه بفعله هذا، قلتُ في سرّي: *أيها الحقير الشرير! كيف تجرؤ على أن تكتب إليّ رسالة تعدني فيها بعطلة أسبوعية رومانسية بعيداً عن البيت وتوقعها على أنها من زوجي. ألم يعد لديك أي كبرياء أو عزة نفس؟*

فسألته: "لماذا؟ هل تظن أنك بهذا تستطيع أن تفوز بحبي من جديد؟". إن الفكرة بحدّ ذاتها سخيفة، ولكنني أدركت من النظرة التي في عينيه أن هذا هو ما يظنه فعلاً. فالزهور، وزجاجة الشراب التي يحملها بيده، وكل تصرفاته توحي بجو

الرومانسية والشاعرية. قلت: "يا الله! إنك تعتقد فعلاً أنك تستطيع إغـوائي هنـا هكذا ببساطة بمجرد إعطائي بعض الزهور وزجاجة من الشـراب؟ أتظـن أنـني سأرتمي بين ذراعيك وأسمح لكل شيء بيننا بالعودة إلى سابق عهده؟ لقد فقـدت صوابك يا مايك. لا بدّ من أنك جننت فعلاً. يجب أن أرحل. أريد أن أعـود إلى زوجي وابني".

لم أُرد تذكّر المزيد من أحداث تلك الأمسية، ولكنني ظننت أن هذا هو مـا حدث عندما ضربني في بادئ الأمر. لم أُرد معرفة ما حدث بعد ذلـك ومـا أدى بـي إلى الدخول إلى المستشفى. والآن ها أنا هنا مجدّداً في هذه الغرفة. لقد دارت بنا الأيام دورة كاملة بالرغم من أن الأيام التي بين ذلك الوقت والوقـت الحاضـر سُلِبت مني وكأنني لم أغادر هذه الغرفة أبداً.

لم أستطع الوصول إلى الباب، لذا قلت: "دعني أذهب!". وعنـدما حـاول الوقوف بدأت بالصراخ: "النجدة! النجدة!".

قال: "اهدئي!". وعندما لم أستجب له قال: "اخرسي!".

صحتُ بصوت أعلى. أدار جسمي حتى أصبحنا وجهاً لوجه، وأخذ يدفعني إلى الخلف. سقطت على الأرض وشعرت بأن السقف ووجهـه يقعـان فـوقي وكأنهما ستار ينسدل. ارتطم رأسي بشيء قاسٍ وصلب، فأدركت أنه دفعني داخل الحمام. أدرت رأسي ورأيت أرضية الحمام المرصوفة بالسيراميك ممتـدة أمـامي، ورأيت أسفل المرحاض وحافة حوض الاستحمام. هناك لوح صابون على الأرض بدا دبقاً ومهروساً. قلت: "مايك! لا تفعل..."، ولكنه جلس القرفصاء فوقي ويداه تحيطان بعنقي.

قال مرة تلو أخرى: "اخرسي". بالرغم من أنني لم أكن أقول أي شيء حينها بل كنت أجهش بالبكاء. حاولت أن آخذ نفساً وأنا أشعر بعينيّ وفمي رطبة مـن الدماء والدموع.

فتحت فمي لاهثة وقلت: "مايك..."، ولكنني شعرت أنني عـاجزة عـن التنفس، إذ كانت يداه تضغطان على عنقي حتى كادتا تخمدان أنفاسي. تدفقت الذكرى عائدة إليّ، وشعرت أن سنوات من الذكريات المنسية بدأت بالعودة إليّ وأخذت تزدحم في ذهني في وقت واحد متنافسة للفت انتبـاهي. اسـتطعت أن

أتذكره يُغرق رأسي في الماء. وتذكرت أنني استيقظت وأنا مستلقية على سرير أبيض مرتدية رداء المستشفى ووجدت بن جالساً بجانبي. نعم، إنه بن الحقيقي الذي تزوجته. وتذكرت شرطية تسألني أسئلة أعجز عن الإجابة عنها. وتذكرت رجلاً مرتدياً بيجامة زرقاء شاحبة كان يجلس على طرف سريري ويضحك معي وهو يقول لي إنني أحييه كل يوم وكأنني لم أره من قبل. وتذكرت صبياً صغيراً أشقر الشعر ذا سنّ مفقودة كان يناديني قائلاً: *أمي*. توالت الصور الواحدة تلو الأخرى. وتدفّقت أمام عينيّ بسرعة البرق. إن تأثيرها عنيف وجامح. فحاولت أن أهز رأسي لأصفي ذهني، ولكن مايك كان يحكم قبضته حول عنقي. رأيت رأسه فوق رأسي، وكانت عيناه مفتوحتين على وسعهما بضراوة وهو يعصر عنقي. تذكّرت أن هذا هو ما حدث بالتحديد في هذه الغرفة قبل سنوات. فأغمضت عينيّ وسمعته يقول: "كيف تجرؤين؟"، فلم أعرف أياً منهما يتكلم: أهو مايك الذي هو معي الآن، أم ذلك الذي حاول خنقي في الماضي، والذي لم يعد له وجود الآن إلا في ذاكرتي؟ كرّر سؤاله: "كيف تجرؤين؟ كيف تجرؤين على أخذ طفلي؟".

وفي هذه اللحظة فقط، تذكرت أنني في الوقت الذي هاجمني فيه مايك قبل كل تلك السنوات كنت أحمل طفلاً، ولكنّ كلينا لم ننجُ من ذلك الحادث.

* * *

لا بد من أنني فقدت الوعي. إذ عندما عدتُ إلى وعيي، وجدت نفسي جالسة على كرسي. عاجزة عن تحريك يدي وأشعر بطعم شيء كالفرو في فمي. فتحت عينيّ، ورأيت أن الغرفة مظلمة لا ينيرها سوى ضوء القمر الذي كان يتسرب من خلال الستائر المفتوحة التي تعكس أضواء الشوارع الخافتة الصفراء. رأيت مايك جالساً قبالتي على طرف السرير وهو يحمل شيئاً بيده.

حاولت أن أتكلم، ولكنني عجزت عن ذلك، وأدركت أن هناك شيئاً مقحماً داخل فمي: جورباً، أو ربما كان شيئاً آخر على ما أظن. كما أدركت أن معصميّ مربوطان معاً وكذلك كاحليّ.

هذا هو ما أراده طوال الوقت على ما أعتقد، أي أن يجبرني على الصمت والسكون. حاولت جاهدة لأحرر نفسي، ولاحظ أنني استيقظت. نظر إلي بينما

كان وجهه يظهر مزيجاً من الألم والحزن وأخذ يحدق إلى عيني. ولم يستملكني أي شعور تجاهه سوى الكره.

قال: "هل استيقظت يا كريسي؟". تساءلت إن كان ينوي أن يقول شيئاً أو إذا كان قادراً فعلاً على قول أي شيء آخر. وفي نهاية المطاف، تابع قائلاً: "إنني آسف. ليس هذا ما كنت أنوي حدوثه. لقد فكرت في أن نأتي إلى هنا ليساعدك هذا على تذكر شيء ما. وعندئذ، كنت سأتحدث إليك وأشرح لك ما حدث هنا قبل كل تلك السنوات. لم أخطط لحدوث هذا يا كريسي. إنني أفقد صوابي وحسب أحياناً. ما بيدي حيلة. لم أكن أريد أن أؤذيك أبداً، ولكنني أفسدت كل شيء".

طأطأ رأسه وتساءلت إن كان يبكي، أو إذا كان ينوي أن يتابع كلامه إذا كان قادراً على ذلك فعلاً. هناك أمور كثيرة تمنيت أن أعرفها. شعرتُ بنفسي مرهقة وخائرة القوى؛ لقد فات الأوان على إصلاح أي شيء. وشعرت بأنني أستطيع أن أغمض عيني وأنسى كل شيء وأمحو كل ما حدث من ذاكرتي.

لا أريد أن أنام الليلة. وإن اضطررت إلى ذلك، فلا أريد أن أستيقظ غداً.

في هذه اللحظة، قال مايك: "حدث ذلك عندما أخبرتني أنك تحملين طفلاً". أخذ يتحدث بنعومة وهو لا يزال مطأطأ الرأس، وشعرت أنه يجب عليّ أن أرهف سمعي كثيراً لأتبين ما سيقوله. تابع قائلاً: "لم أستطع عندئذ أن أتكيف مع الخبر. إذ إنني لم أظن قط أنني سأنجب طفلاً أبداً. فقد قالوا جميعاً..."، أمسك عن الكلام وكأنه غيّر رأيه وقرّر أن هناك بعض الأشياء من الأفضل ألا يقولها لي. قال: "لقد قلت أنت إنه قد لا يكون طفلي، ولكنني أيقنت أنه كذلك. ولم أستطع أن أستوعب فكرة هجرك إياي وأخذك لطفلي معك فلا أراه أبداً. لم أستطع أن أتحمل ذلك يا كريسي".

لم أعرف ما الذي أراده مني: أهو الغفران؟ كيف أمكنه أن يتوقع هذا. لقد قتلني في تلك الليلة بالتحديد كما لو أنه قطع عنقي.

نظر إليّ متابعاً حديثه: "أتظنين أنني لست نادماً؟ إنني نادم على ما ارتكبته بحقك. فأنا أراك كل يوم مرتبكة وتائهة وتعيسة. وأستلقي أحياناً إلى جانبك في السرير وأسمعك وأنت تستيقظين صباحاً. وعندما تنظرين إلي، أدرك أنك لا

تعرفينني وأستطيع أن أشعر بخيبة الأمل والخزي اللذين بملآنك، وهذا يؤلمني جداً. يؤلمني أن أعرف أنك لن تبقي معي أبداً لو أنك تملكين حرية الاختيار. وعندما تنهضين من السرير وتذهبين إلى الحمام، أعرف أنك في غضون دقائق ستعودين إلي وأنت حائرة وتعيسة ومتألمة. إنني أفكر أحياناً إن كان من الأرحم لو أنك متِّ في تلك الليلة. لا بد من أن الموت أرحم لكلينا". نظر من النافذة وهو صامت، ثم قال: "إنني مستعد للانضمام إليك يا كريسي. إن كان ذلك ما تريدينه". أشاح بوجهه عنّي ثمّ قال: "سيكون هذا سهلاً جداً. يمكنك أن تذهبي أولاً وأنا أعدك بأن أتبعك. أعدك بذلك. يمكنك أن تثقي بي، أليس كذلك؟".

نظر إليّ نظرة ترقّب وقال: "هل تودين فعل ذلك؟ لن تتألمي. أعدك بذلك".

هززتُ رأسي محاولة الكلام، لكنني فشلت في ذلك، وشعرت بعينيّ تحترقان وأنني بالكاد قادرة على التنفس.

بدا خائب الأمل وقال: "كلا؟ أظن أن أيّ حياة، مهما كان شكلها، أفضل من لا شيء. جيد جداً. إنك محقة على الأرجح". وهنا، بدأت أجهش بالبكاء. هزّ رأسه وقال: "سيكون كل شيء على ما يرام يا كريسي. لا تقلقي. إن هذا السجلّ هو أصل المشكلة". أمسك سجلي بيده وأضاف: "لقد عشنا حياة سعيدة قبل أن تبدأي بالكتابة في هذا السجل، أو أننا نلنا ما يكفي من السعادة على أيّ حال. لقد كانت تلك السعادة كافية لنا، أليس كذلك؟ ينبغي لنا وحسب أن نتخلص من هذا السجل. وعندئذ يمكننا أن نستأنف حياتنا كما كانت". نهض من مكانه وأخذ صندوقاً معدنيًّا من أمام طاولة الزينة ونزع البطانة الفارغة ورماها قائلاً: "سيكون هذا سهلاً". وضع الصندوق على الأرض بين ساقيه ورمى سجلي داخله، ثم جمع الصفحات الأخيرة التي لا تزال مبعثرة على الأرض ووضعها داخله أيضاً. أخذ علبة ثقاب من جيبه وأشعل عوداً، ثم أخذ صفحة واحدة من الصندوق.

نظرت إليه برعب وحاولت أن أصرخ قائلةً: "كلا!"، ولكن، لم يخرج من فمي سوى تأوه مكبوت. أضرم النار في الصفحة من دون أن ينظر إلي وألقاها داخل الصندوق.

قلت مجدداً: "كلا!"، ولكنها هذه المرة لم تتعدَّ صيحة صامتة داخل رأسي. راقبت تاريخي وهو يبدأ بالتحول إلى رماد وذكرياتي وهي تتلاشى في الهواء. إنني لا شيء من دون ذلك السجل، لا شيء. لقد انتصر مايك عليَّ أخيراً.

لم أخطط أن أفعل ما فعلته بعد ذلك، إذ إنه صدر عني بشكل عفوي وتلقائي لم أستطع أن أتجنبه. دفعت بجسدي نحو الصندوق؛ لم أستطع أن أخفف من وطأة سقوطي وأنا مقيّدة اليدين. ارتبكت حين سمعت صوت شيء ينكسر بينما أخذ جسدي يتلوى على الأرض. وشعرت بألم رهيب في ذراعي لدرجة ظننت معها أنني سأفقد وعيي. لقد سقط الصندوق على الأرض، وتبعثرت الأوراق المحترقة في الأنحاء.

صاح مايك بأعلى صوته وانهار على ركبتيه، وبدأ بضرب الأرض بيديه محاولاً أن يطفئ ألسنة اللهب. رأيت قطعة ورق محترقة تطير إلى تحت السرير من دون أن يلاحظها مايك، وبدأت ألسنة اللهب تحرق طرف ملاءة السرير، ولكنني لم أستطع الوصول إليها ولا الصياح، لذا تمدّدت بسكون وشاهدت ملاءة السرير وهي تشتعل ناراً، وقد بدأ الدخان يتصاعد منها. أغمضت عينيَّ وفكرت في أن الغرفة ستحترق وأنني ومايك سنحترق داخلها، وهكذا فلن يعرف أحد أبداً ما حدث هنا في هذه الغرفة كما لم يعرف أحد ما حدث فيها قبل كل تلك السنوات. وسيتحول تاريخي إلى مجرد رماد مبعثر ولغز خفي محير يحاول الناس اكتشاف حله من دون أن يتوصلوا إليه أبداً.

أصبحت الآن عاجزة عن التنفس وبدأت بالسعال بشدة. قاومت شعوري بالرغبة في التقيؤ بسبب الجورب المدسوس داخل فمي، وشعرت بالاختناق، رحت أفكر في ابني. لن أراه أبداً، ولكنني الآن على الأقل سأموت وأنا أعرف أن لي ابناً وأنه سعيد وعلى قيد الحياة. وشعرت بأنني مسرورة لذلك وراضية به. فكرت في بن، الرجل الذي تزوجته ثم نسيت أمره؛ أردت أن أراه وأن أقول له إنني أتذكره أخيراً. إنني أتذكر أنني قابلته في حفلة كلير على سطح المنزل وأنه طلب يدي للزواج على قمة تلٍّ مطلٍّ على المدينة، وأننا تزوجنا في دار عبادة في مانشستر تحت المطر المنهمر.

نعم، تذكرت أنني أحبه، وأدركت أنني أحبه وسأحبه دوماً.

ساد الظلام من حولي، وشعرت بالدخان يكتم أنفاسي، واستطعت سماع حسيس النيران وشعرت بحرارتها على شفتي وعيني.

لطالما عرفت أن حياتي لن تنتهي نهاية سعيدة أبداً، ولكنني راضية بنهايتي.

نعم، إنني راضية بها.

* * *

سمعت صوت ضجيج، وصوت هدير محركات السيارات المتواصل الذي لا يعلو ولا يخفّ، بل ظل متواصلاً على وتيرة واحدة. أدركت أنني مستلقية وشعرت بشيء داخل فمي. تذكرت الجورب الذي أقحمه مايك داخله، ومع ذلك، كنت أشعر بأنني قادرة على التنفس بحرية. تملكني رعب شديد وخشيت أن أفتح عيني لأنني لم أكن أعرف ما الذي ينتظرني.

ولكن، عليّ ذلك، إذ لم يكن أمامي خيار سوى أن أواجه ما حل بي وما هو مصيري.

أخذ ضوء ساطع جداً يبهر عيني، وميّزت شريطاً مضيئاً على السقف المنخفض وأنبوبين معدنيين موازيين له. رأيت جدران المكان متقاربة وذات لمعة معدنية. وتبيّنت شكل بعض الأدراج والرفوف التي رأيت عليها قوارير وعلباً وآلات ذات أضواء تومض. كل شيء في ذلك المكان كان يتحرك ببطء وينبض، بما في ذلك السرير الذي أستلقي عليه كما أدركت في نهاية المطاف.

ظهر وجه رجل أمامي فجأة فوق رأسي. كان يرتدي قميصاً أخضر اللون، ولكنني لم أستطع تمييزه.

قال: "إنها مستيقظة". وفجأة، ظهرت وجوه أخرى أخذت أتفحصها بسرعة؛ لم أرَ وجه مايك بينها، لذا استرخيت قليلاً.

قالت واحدة من بين الجمع: "كريستين. هذه أنا". إنه صوت امرأة، ولكنني أميزه. قالت: "كريسي. إننا في المستشفى. لقد كُسر عظم الترقوة، ولكنك على ما يرام. كل شيء سينتهي على خير".

نظرت إلى المرأة التي كانت تتحدث إلي ووجدتها تبتسم وتمسك بيدي. إنها كلير نفسها التي رأيتها قبل أيام وليست كلير الشابة التي أتوقع عادة أن أراها بعد

www.mlazna.com-RAYAHEEN

استيقاظي. وعندما رأيت قرطيها، لاحظت أنهما القرطان نفسهما اللذان كانت تضعهما في اليوم الذي قابلتها فيه.

قلت: "كلير؟".

قاطعتني قائلةً: "لا تتكلمي. حاولي وحسب أن تسترخي". أمسكت بيدي وضغطت عليها قليلاً ثم اقتربت مني وربّتت على شعري، ثم همست شيئاً في أذني، ولكنني لم أسمعه جيداً. يبدو أنها كانت تقول: *آسفة*.

قلت لها: "إنني أتذكر".

ابتسمت كلير وتراجعت إلى الوراء، فظهر مكانها شاب ذو وجه نحيل ويضع نظارة طبية ذات إطار سميك. ظننت لوهلة أنه بن، ولكنني أدركت أن بن يجب أن يكون في مثل سني الآن.

قال الشاب: "أمي؟ أمي؟".

عندها، غمرني الشعور بالراحة والاطمئنان، إذ إنه يبدو بالتحديد كما بدا في تلك الصورة مع هيلين. وأدركت الآن أنني أتذكره أيضاً.

قلت: "آدم؟"، ولكنني لم أستطع أن أضيف شيئاً، إذ شعرت بالكلمات تغص في حنجرتي وهو يعانقني.

قال: "أبي قادم يا أمي. سيصل إلى هنا على الفور".

شددت ابني إلى صدري واستنشقت عبيره. أخيراً، لقد غمرتني السعادة.

* * *

لم أعد أطيق الانتظار، فقد حان الوقت أخيراً، ويجب أن أنام. لدي غرفة خاصة بي وليست هناك حاجة إلى مراعاة الروتين الصارم للمستشفى، فأنا خائرة القوى. بدأت عيناي تغمضان وحدهما؛ لقد حان وقت النوم.

جلس زوجي، الرجل الذي تزوجته فعلاً، بجانبي على أحد الكراسي. وبالرغم من أنه كان يشخر بلطف، إلا أن رأسه كان منحنياً إلى الأمام في وضعية غريبة وهو لا يزال يمسك بيدي. استطعت أن أميز شكل نظارته والندبة التي على طول خده. لقد غادر ابني لتوه ليتصل بصديقته. أما صديقتي المفضلة فهي واقفة في الخارج تدخن سيجارة. أخيراً، وجدت نفسي محاطة بأحبائي وأصدقائي.

في وقت مبكر، تحدثت إلى الدكتور ناش، وأخبرني أنني غادرت دار الرعاية قبل عامين، وذلك بعد وقت قصير على بدء مايك بزيارتي هناك مدعياً أنـه بـن. فعملت على إخراج نفسي بنفسي من هناك ووقعت كـل الأوراق المطلوبة. وهكذا، فقد غادرت بإرادتي من دون أن يتسنى لهم منعي من الخروج حتى لو اعتقدوا بوجود سبب يدفعهم لذلك. لست أدري ما الذي قاله ليقنعني بالقيام بذلك ولا أريد أن أعرف. عندما غادرت دار الرعاية، أخذت معي الصور القليلة والممتلكات الشخصية التي كنت لا أزال أمتلكها.

قلت: "لهذا السبب كان ذلك الرجل يمتلكها. إنما الصور التي أخفاها عني، ولهذا السبب توجب عليه أن يخترع قصة الحريق ليبرر قلّتها، أليس كذلك؟".

قال: "نعم". بدا الطبيب متعباً والشعور بالذنب بادٍ عليه. فتساءلت إن كان يلوم نفسه على ما حدث، ولكنني تمنيت ألا يتملكه ذلك الشعور. فقد قدم لي مساعدات جليلة جداً، وأنقذ حياتي. ولا أعرف لولاه ما الذي كان ليحدث لي.

لم أرِد أن أفكر في ما كان من المحتمل أن يحدث.

قلت: "كيف عثرتم عليّ؟". فشرح لي أن القلق والاضطراب تملكا كلير بعد أن تحدثت إليها، وانتظرتني لأتصل بها في اليوم التالي. قال: "لا بد من أن ذلك الرجل المدعو مايك قام بنزع الصفحات الأخيرة من سجلك تلك الليلة، ولهذا السبب، وجدت السجل، عندما أعطيتني إياه، ينتهي بإعلانك حبك للرجل الذي ظننت خطأً أنه زوجك. وعندما لم تتصلي بكلير، حاولت هي أن تتصل بك، ولكن لم يكن لديها سوى رقم الهاتف الذي أعطيتها إياه. كان مايك قد أخذ ذلك الهاتف أيضاً. من الوارد تماماً أن نفترض أنه ظل يقرأ سجلك لبعض الوقت. وكانت دار الرعاية تملك رقماً واحداً يظنون أنه رقم بن، ولكنه في الواقع كان رقم مايك. وهكذا، فقد وصلت كلير إلى طريق مسدود".

فكّرت في ذلك الرجل وهو يكتشف أمر سجلي ويقرأه كل يوم. ترى لماذا لم يتخلص منه؟

لأنني كتبت فيه أنني أحبه، ولأن هذا هو ما أراد مني أن أواصل تصديقه.

"ألم تتصل كلير بالشرطة؟".

أومأ الطبيب برأسه وقال: "بلى، ولكنهم لم يأخذوا الأمور على محمل الجد إلا بعد مضي بضعة أيام. وفي تلك الأثناء، اتصلت بدار الرعاية. وبالرغم من أنهم لم يقبلوا إعطاءها عنوان منزلك، فقد استجابوا في نهاية المطاف وأعطوا آدم رقمي، فتمكّن من الاتصال بي عصر اليوم".

"عصر اليوم؟".

"نعم، أقنعتني كلير بأن هناك خطأ. وعندما وجدت أن آدم لا يزال حياً، أكد هذا شكوكي. فأتينا لنراك في البيت، ولكننا اكتشفنا بحلول ذلك الوقت أنك غادرت إلى برايتون".

"وكيف عثرتم عليّ هناك؟".

قال: "لقد حالفنا الحظ".

أرخيت نفسي على سريري، إذ كنت أشعر بالتعب والإرهاق، وأردت من كل قلبي أن أنام، ولكنني خشيت أن أفعل ذلك لئلا أنسى كل شيء عندما أستيقظ.

قلت: "ولكنك قلت لي إن آدم ميت. وقلت لي بنفسك إنه قتل في الحرب عندما التقينا في موقف السيارات. لقد رويت لي القصة نفسها التي رواها لي ذلك الرجل".

ابتسم الطبيب بحزن قائلاً: "لأن هذا ما قلته لي أنت". فقلت له إنني لم أفهم قصده. لذا، شرح لي قائلاً: "في أحد الأيام، وبعد بضعة أسابيع على لقائنا، قلت لي إن آدم ميت. ومن الواضح أن مايك قد قال لك ذلك وأنك صدقته. فتقبلت أنا بدوري الحقيقة منك. إذ لم يكن لدي سبب يدفعني لعدم تصديقها. وفي وقت لاحق، كررت القصة لك. وعندما سألتني في موقف السيارات، قلت لك الحقيقة كما صدقتها".

أوشكت على الاعتراض على كلامه، ولكنه بدا لي منطقياً. فلا بد من أنني لم أكن أكتب سجلي عندما التقيت بالدكتور ناش في بادئ الأمر.

قلت: "ولكنني تذكرت جنازته وتابوته".

ابتسم بحزن قائلاً: "لا بد من أنها تخيلات...".

قلت: "ولكنني رأيت صوراً. فقد أراني ذلك الرجل صور زفافنا. وعثرت على صورة لشاهدة القبر. وكان مكتوباً عليها اسم آدم...".

فقال: "لا بد من أنه قام بفبركة تلك الصور".

"فبركتها؟".

"نعم، على الكمبيوتر. فقد أصبح من السهولة تركيب صور في هذه الأيـام. ولا بد من أنه توقع ألا تشكي في الحقيقة التي قالها لك. فترك هذه الصور في المكان الذي يعرف أنك ستجدينها فيه".

فكرت في الأوقات التي كتبت فيها أن مايك كان يعمل في مكتبه ليلاً. ترى هل اعتاد أن يفعل ذلك في تلك الأوقات؟ أو أنه كان يرسل رسائل إلى ابني يقول له فيها إنني لا أشعر أنني على استعداد لرؤيته؟ يا للخداع الذي مارسه عليّ!

قال الدكتور ناش: "هل أنت بخير".

فابتسمت وقلت: "نعم، أظن ذلك". نظرت إليه وأدركت أنني أسـتطيع أن أتصوره ببذلة مختلفة وشعر مقصوص قصة أقصر بكثير.

قلت: "إنني أستطيع تذكر الأشياء".

قال من دون أن يتغير تعبير وجهه: "أي أشياء؟".

فقلت: "لقد تعرفت إليك عندما استيقظت، وإلى بن أيضاً، وإلى آدم وكلير. إنني أستطيع أن أتذكر أنني قابلتها ذات يوم، وأننا ذهبنـا إلى مقهـى في قصـر أليكساندرا وأننا احتسينا القهوة هناك. وأتذكر أيضاً أن لها ابناً اسمه توبـي".

ابتسم، لكنّ ابتسامته كانت تبدو حزينة، لذا تابعت قائلةً: " إنـني أتـذكر القرطين اللذين كانت تضعهما. إنهما القرطان نفسهما اللذان تضعهما الآن. وقـد سألتها عن ذلك فقالت لي إنني محقة. وأتذكر أن توبـي كـان يرتـدي قميصـاً أزرق، وجورباً رُسِمَت عليه شخصيات كرتونية. وأتذكر أنه كان مستاء لأنـه أراد أن يشتري عصير العنب الأسود ولم يكن لديهم في المقهى سوى عصير البرتقال أو التفاح. ألا ترى؟ إنني أتذكرها فعلاً".

بدا مسروراً. ومع ذلك، شعرت بأنه لا يزال يشعر بالفضول.

"لقد ذكر الدكتور باكستون أنه لم يجد أي سبب عضوي يفسر حالة فقدان الذاكرة التي تعانينها، وأنه من المرجح أن يكون ناجماً فقط عن الأذية العاطفية لمـا وقع لك، بالإضافة إلى الضرر الجسدي الذي لحق بك. واعتقد أنه من الممكـن أن تؤدي صدمة أخرى إلى حدوث انعكاس في حالتك إلى درجة ما على الأقل".

www.mlazna.com-RAYAHEEN

فابتهجت لسماع ما قاله وقلت: "إذاً، هل من الممكن أن أشفى؟".

عندئذٍ، رمقني بنظرة تأمل، وانتابني شعور بأنه يحاول أن يوازن ما يريد قوله ومقدار الحقيقة الذي أقوى على احتماله.

قال: "عليّ القول إن هذا غير وارد الحدوث. نعم، لقد أحرزت درجة من التحسن على مدى الأسابيع القليلة الماضية، ولكن ليس هناك رجوع كامل للذاكرة". سكت لبرهة ثم قال: "ولكن، هذا غير مستحيل".

شعرت بسعادة غامرة وقلت: "ألا يعني تذكري لأمور حدثت قبل بضعة أسابيع أن هذا ممكن الحدوث؟ هل أستطيع أن أشكل ذكريات جديدة الآن وأحتفظ بها؟".

تحدث بتردد قائلاً: "قد يؤدي هذا إلى تلك النتيجة، ولكنني، يا كريستين، أريدك ألا تنسي أن التأثير قد يكون مؤقتاً. وهكذا، فلن نعرف ما سيحدث بشكل مؤكد حتى الغد".

"عندما أستيقظ؟".

"نعم، من المحتمل تماماً أن تختفي كل الذكريات التي شكلتها اليوم خلال نومك. وقد تمحى كل الذكريات الجديدة وكذلك القديمة".

"وقد تبقى على حالها تماماً عندما أستيقظ صباحاً؟".

فقال: "نعم، هذا ممكن".

تنهدت، إذ إن فكرة استيقاظي في اليوم التالي وأنا ناسية آدم وبن بدت قاسية جداً لأن أفكر فيها. وشعرت بأنني سأغدو أشبه بالميت بين الأحياء.

قال الطبيب: "ولكنك ستكونين على ما يرام، إذ إن بن سيعتني بك جيداً مهما حدث. إنه يتحدث منذ الآن عن إمكانية عودتك إلى البيت. ولا يطيق آدم الانتظار ليعرفك إلى صديقته".

أوشكت أن أتكلم، ولكنه قاطعني قائلاً: "احتفظي بسجلّ مذكراتك، يا كريستين. ألا يزال في حوزتك؟"، فهززت برأسي وقلت: "لقد أحرقه مايك. هذا هو سبب الحريق".

بدا الدكتور ناش محبطاً قليلاً ثم قال: "هذا مؤسف، ولكنه لا يهم حقاً يا كريستين. ستكونين على ما يرام. ويمكنك أن تبدأي بكتابة سجلّ مذكرات

آخر. لقد عاد إليك أحبابك وأصدقاؤك أخيراً. ولن يفارقوك بعد الآن أبداً".

"ولكنني أريد أن أعود أنا إليهم أيضاً. إنني أريد أن أعود كما كنت".

تحدثنا لبعض الوقت، ولكنه غادر ليتركني مع أفراد عائلتي. إنني أدرك الآن أنه كان يحاول فقط أن يجعلني أتوقع النتيجة الأسوأ وأهيئ نفسي لإمكانية أن أستيقظ صباح اليوم التالي من دون أن تبقى لدي أي فكرة عن هويتي أو هوية الرجل الجالس بجانبي أو الرجل الآخر الذي يدّعي أنه ابني، ولكن يجب عليّ أن أثق بأنه مخطئ في اعتقاده وأن ذاكرتي قد عادت لي أخيراً. يجب أن أثق بذلك.

نظرت إلى زوجي وتأمّلت وجهه في ضوء الغرفة الخافت. تذكّرت لقاءنا في تلك الليلة في الحفلة عندما كنت أشاهد الألعاب النارية مع كلير على سطح البيت. وتذكّرت أنه طلب يدي للزواج خلال عطلة أمضيناها في فيرونا بإيطاليا. كدت أشعر بالبهجة العارمة التي غمرتني وأنا أقول له إنني موافقة. كما تذكرت أيضاً زفافنا وزواجنا وحياتنا معاً، وابتسمت سعادة.

همست له قائلة: "أحبك". ثم أغمضت عيني واستغرقت في النوم.